

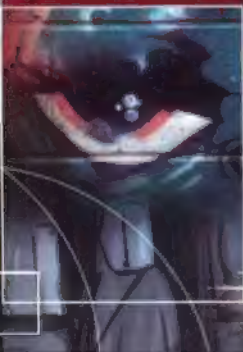
العلاج النفسي

وتعديل السلوك الإنساني
بطريقة الأضداد

دراسة تربوية تحليلية في ضوء
سيكولوجية الأخلاق ونسق القيم الإسلامية

يوسف مدين

دار الفيلسوف





المكتبة الإسلامية
www.islam-library.blogspot.com



مكتبة نرجس PDF
www.najis-library.blogspot.com

العلاج النفسي وتعديل السلوك الإنساني بطريقة الأضداد

دراسة تربوية تحليلية في ضوء سيكولوجية الأخلاق
ونسق القيم الإسلامية

تأليف

الأستاذ يوسف مدن

دار الفقه الإسلامي

للطباعة والنشر والتوزيع

مَجْمُوعَةُ الرَّفْقَةِ الْمُحَقَّقَةِ
الطبعة الأولى
١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

دار الرفقة للدراسات والبحوث والتوزيع



هاتف: ٠١ / ٥٥٠١٨٧ - ٠٢ / ٨١٦٢٢٩ - فاكس: ٥٥١٦٩٩ - ص.ب: ٢٥ / ٢٨٦ - بخاري - بيروت - لبنان
E-Mail: daralrafi@daralrafi.com - URL: <http://www.daralrafi.com>

الإهداء

إلى كل من بذل جهده المخلص
- وما يزال - لإصلاح الإنسان خاصة الآباء والمعلمين
وأطباء النفوس وعلماء الأخلاق..
أعدي هذا الجهد

مقدمة الكتاب

يعتبر عقد الثمانينات فترة نشطة في حياتي الثقافية وبالذات في مجال إعداد البحوث وتأليف الكتب، فقد من الله سبحانه وتعالى عليّ بنعمة النشاط المشحون بهيج الحماس، فساعدني ذلك على إنجاز بعض الأبحاث والكتب والفراغ من إعدادها في تلك الفترة، إذ كتبت خلال التسع سنوات من العقد السابق للذكر أربعة كتب في موضوعات متعددة ذات طبيعة تربوية وتخصصية.

وبقيت هذه الأبحاث الثقافية والتربوية مخطوطة ومسطوطة ومخبوءة في خزانتنا حتى تم نشر أول كتاب ظهر في سوق المعرفة في منتصف التسعينات، إذ تم نشر كتاب «التربية الجنسية للأطفال والبالغين» في نوفمبر من عام ١٩٩٥ كأول نتاج ثقافي من هذه المجموعة.

ومع بداية عام ١٩٩٨ اتجهت جهودي مرة أخرى إلى عملية ترميم الكتاب الثاني من هذه المجموعة، حيث بذلت جهداً مضاعفاً لمدة عام واحد لإعادة قراءة كتاب «سيكولوجية الانتظار» وتنقيحه ومحاولة صياغة بعض أفكاره وتركيباته اللفظية في ضوء المستجدات والمتغيرات الإنسانية التي شاء الله لذاكرتنا أن نحفظ ببعضها.

فقد تم بحث موضوع «قضية الانتظار» ودراسنها في سنة ١٩٨٩ م،

واضطرت إلى القيام بعملية ترميم جديدة لكتاب «سيكولوجية الانتظار» شعرت أنها عملية اجتهد عقلي مضمّنة، وقد أوضحت تلك المعاناة في مقدمة الكتاب المذكور الذي نشر في شهر فبراير سنة ٢٠٠٢م.

أما التوأم الثالث للكتابين السابقين فعنوانه «المعالجة النفسية بطريقة الأضداد»^(١) وهو عبارة عن دراسة تحليلية لسيكولوجية القيم والأخلاق الإسلامية وتأثيرها في علاج السلوك الإنساني وتعديله بما يتفق مع المعايير القيمة والعبادية التي تضمنتها النظرية العلاجية الإسلامية.

ويحاول هذا الكتاب أن يعرض للمقارن الكرم نموذجاً من نماذج المذهب العلاجي الديني الذي قدمته النصوص الإسلامية قرآنية ونبوية لحل إشكالية الذنوب وأمراض السلوك الإنساني، فالكتاب يتناول موضوع المعالجة النفسية للسلوك المرضي عند الإنسان بطريقة الأضداد^(٢) باعتبارها من أوسع طرائق العلاج النفسي الديني عند المسلمين وأكثرها تأثيراً في حياتهم الأخلاقية والمعرفية، وأعظمها فعالية في عمليات إعادة النفوس وهندستها وبنائها من جديد.

إن النفس الإنسانية تتعرض خلال تجربتها في الحياة إلى أشكال مختلفة من الذنوب والمعاصي وانحرافات التفكير وأمراض السلوك، وتتفاوت هذه الأشكال من البساطة إلى التعقيد، وقد تؤدي هذه الانحرافات بالشأكل إلى إحاقه نمو الفات البشرية بمقدار قوة أو ضعف هذه الانحرافات.

(١) أما الكتاب الرابع الذي كتبه في فترة الثمانينات فهو كتاب طرقة الفات في الطريقة الإسلامية، وما يزال هذا البحث - حتى الآن - منظرطاً لم ير النور بعد، وهو لهذا يحتاج إلى صياغة جديدة أو - على أقل تقدير - إناء ترميمي جديد أكثر تنظيماً حتى يكون ملائماً للتعديلات الحديثة.

(٢) تعني بهذه الطريقة كما سيأتي لاحقاً معالجة الفرد لسلوكه الخاطي أو المرضي بسلوك سوي يتأمله سواء من علاج ذاتي يقوم به الفرد بنفسه أو من طريق سلطة من الآخرين كالطبيب النفسي أو المرشد الاجتماعي أو النفساني عالٍ منه في «معا أخلاق».

إذا كانت العلوم الإنسانية الحديثة لا سيما علم النفس المرضي والبيادي قد اهتمت بحل هذه الإشكالية البيولوجية والأخلاقية والحضارية في حياة الإنسان، فإنّ الأديان السماوية الكبرى قد صممت برامجها التربوية والتعليمية على أساس محو هذه الإعاقات المختلفة وإزالتها من أجل توجيه أفضل لقدرات الإنسان ودفعه دائماً في اتجاه التقدم، إذ لم ينزل الله تعالى أديانه للبشرية إلا من أجل تحقيق سعادتها وتحريرها من عوامل الإعاقة النفسية والاجتماعية والفكرية، وذلك بتدريبه على مهارات القيم وأنماط الفضيلة وتزويده بمعاييرها الإنسانية.

إن الأديان السماوية - وبخاصة الإسلام الذي ارتضاه الله تعالى ديناً خاتماً للإنسانية - تحركت منذ لحظة التبليغ الأولى في اتجاهات ثلاثة . . . وقائية، وإنمائية، وعلاجية، وقد طبعت هذه الاتجاهات نظريته في التعلم والشريعة والعلاج السلوكي.



وكانت دواعي تأليف هذا الكتاب وبحث موضوعاته لأسباب خمسة رئيسية هي:

أولاً: وضوح طريقة الأعداد في العلاج السلوكي الإنساني في مئات النصوص الشريعية الإسلامية سواء كانت وقائية أو علاجية، وهذا النوع والإثراء في وفرة النصوص، وفي خصوصيتها وحيوية مضامينها المعرفية بغري الباحث بدراستها وتحليلها لاستخراج نسق معرفي منظم في هذا الموضوع الهام الذي تحتاجه البشرية لا سيما جماعات المؤمنين في هذا العصر القلق الذي يشهد موجة اضطرابات نفسية وإشكاليات سلوكية مرضية متعددة.

ثانياً: تحسّن بعض تلاميذي من الشباب بعض الإشكاليات السلوكية

المحيطة بهم، وما اعتري نفوسهم من متاعب ناتجة عن هذه الإشكالات المتراكمة، فطالبي هؤلاء الشباب يدراسة هذا الموضوع وشرحه في حلقات متتابعة، والاستفادة من قيمته التربوية في تعميق اتجاهاتهم الإيمانية وتغيير وجهات نظرهم السلبية التي لا تتفق مع المعايير السوية التي تؤمن بها النظرية التربوية والعلاجية لدى المشرع الإسلامي.

ومع أن هذا الطلب قد أثقلني في بادئ الأمر بسبب ضيق الوقت وتزاحم المسؤوليات، إلا أن حيوية الشباب والحاحهم وشوقهم إلى تعديل سلوكهم بما يتفق وقيم الإسلام ونسقه المعرفي قد دفعني إلى المشاركة في البحث والمتابعة والإعداد حتى تمكنت بعون الله تعالى في تلك الفترة من وضع خطوط أولية لهذه الدراسة، ثم توسعت تفصيلاتها خلال عملية صياغتها على مراحل تدريجية، ثم أصبحت أكثر نضجاً عندما قمت بعملية ترميم نهائية لها في سنوات متأخرة من القرن الأخير (سنوات ٩٨ حتى ٢٠٠٠ م).

لثالثاً: والسبب الثالث الذي جعلني أسرع في إنجاز دراسة هذه الطريقة الواضحة في المذهب العلاجي الإسلامي للنفس هو ما تعرفت عليه من نظرية (الكف النقيض) للمالم جوزيف وولبي، والثناء الخيوط العامة لهذه النظرية مع طريقة العلاج النفسي الإسلامي القائمة على محو وإزالة «السمات» السلبية في الشخصية بـ«السمات» الإيجابية، والتي نسميها في بحثنا هذا بطريقة الأضداد.

وحاولت منذ تلك اللحظة صياغة نسق معرفي مترابط لهذه النظرية مع تمييز يفرسه تميز الإسلام في كل نظراته الوقائية والعلاجية والإنمائية للشخصية والمجتمع الإنسانيين، فطريقة المعالجة النفسية بالأضداد تجدد

اليوم نفسها باجتهادات إنسانية ومنها على سبيل المثال نظرية الكفف بالنقيض لجوزيف وولبي أحد علماء المدرسة السلوكية، لكن هذا التجدد لا يلغي أبداً أسبقية الإسلام في كشفه العلمي، ولا يمحي تميزه في الطرح والمعالجة الإسلامية والتأثير الفعال.

فالتميز في النسق المعرفي لهذه النظرية المنهجية الإسلامية مبني من تميز الإسلام نفسه باعتباره ديناً لم يكن من صنع الإنسان، وإنما هو حلٌ إلهي لإشكاليات الإنسان ومشكلاته البسيطة والكؤود، وهناك فرق بين قدرات «المبدع» الخالق وبين إمكانيات «المبدع» المخلوق، فالإبداع الإنساني يشتم فعلياً، لكن بفعل خلقه الله تعالى دال على إبداه غير النهائي، وبإمكانيات أخرى من صنع الله سبحانه.

بيد أن محاولة الإنسان تقليد «الإبداع» الإلهي لا خير عليها خاصة وأنها تستهدف تعزيز «النسق المعرفي» لإحدى طرائق الإسلام العلاجية... وهذا ما نسعى إليه في بحثنا هذا.

هذه المحاولة مجرد اجتهاد عقلي لفهم طريقة الأعداد العلاجية والتعرف على معالمها، وبناتها، وأساليبها، وقدرتها في تغيير اتجاهات الأفراد والجماعات واستبدالها باتجاهات ومبادئ جديدة مقابلة لها، وتتفق مع النظرة العبادية التي يشنها المشرع الإسلامي، ولهذا لا نلزم هذه المحاولة الإسلام في شيء، بقدر ما نلزم كاتب هذا البحث.

رابعاً: ورابع سبب هو أن غالبية المعالجين المسلمين المحدثين - باستثناء عدد محدود - أهملوا تماماً الاستفادة من النصوص الإسلامية في عمليات المعالجة وإعادة للتربية، والإرشاد وتقويم الذات، ولم يظهروا تحمساً لاستخدام المذهب الديني في حل إشكاليات الإنسان.

بل إن بعضهم كما يقول الدكتور يحيى الرخاوي قد «قوم هذه البرعة»^(١) وسخر منها»

بيما أظهر علماء أوروبيون رغبة حلّية وعالية في توظيف القيم الدينية والأخلاق في العلاج النفسي لأنّ العلم في جوهره محايد يريد الحقيقة أنى تكون

ولم يظهر توجه بين المعالجين المسلمين نحو استعمال القيم والمبادئ الروحية في الأديان السماوية الكبرى إلا مؤخراً لا سيما بعد ظهور بوادر حركة انجاء ديني في العرب معه نحو المذهب العلاجي الديني كظاهرة فرانكل - سبريل بيرت - غوستاف يونغ وغيرهم .

يقول الدكتور الرخاوي

«حين قُدمت البحوث الخاصّة بمستويات التكامل النفسي من منظور إسلامي وأعطيت من خلاله أنّ ثمة طرقاً أخرى للتفكير، وأنّ لدينا وإيماننا . وهو ما استوحيناه من إسلامي . يتيحان لنا أن نرى تكامل الإنسان النفسي على مستويات متصاعدة وليس على مستوى سلوكي واحد،

(١) أثناء دراستي بالجامعة عام (١٩٩٢م) كان أحد أساتذتي من الأخوة المسيحيين يقوم بتدريس علم الصحة النفسية، عرضت عليه كتاباً بحث عن مفهوم الدين في تحقيق الصحة النفسية للفرد، بتدريس سورة، وأحد ينتمي إلى الدين يهدم بالعديد الشخصية الروحية للأفراد، ولأنه لا علاقة له بالصحة النفسية كعلم، ولهذا لا يجب هذا الموضوع أبداً لأنه لا صلة له بالبحث العلمي

واعتبرت ذلك الموضوع، ثم عرفت بعد زمن قصير أن أساتذتي كان مسيحياً، لكن لم يكن دين الرجل هو مذهب الانتماء، فالصليبيون يؤمنون بقيمة البهيمية للأديان في حيلة البهيمية . والواقع أن الأسناد الفاضل انطلق من نظرية العقلية لا وجهة نظر دينية وعلمية، فبعض علماء العرب الذين نادوا بتفعيل الأديان في عمليات العلاج النفسي هم أيضاً مسيحيون وعلمانيون في فن واحد، ولكن الغاية أن هؤلاء العلماء عاشوا تحت العلاج النفسي ومشكلاته من واقع عمليات ميدانية مباشرة، ولذا ذكر بروح متحررة من قسمة البهيمية والإحسان بحالة الصبر أمام الأمر عجز المذهب العلاجي الغربية عن حل قدر كبير من المشكلات النفسية للفرد، فذهبوا لإشراك الدين والقيم الأخلاقية في علاج الأزمة الروحية والدينية الأخلاقية والفكرية في المجتمع الغربي

وعدا يتطلب الرؤية والملاحظة والبحث بأكثر من منهج قبل وبعد الأساليب
لشأنه في عالمهم يبعد عالم الغرب والآخرين - حين قدمت هذه الورقة
استجاب بها الضيوف الأجانب (أي العربيين) باستطلاع وأمانة أكثر مما
رحب بها الرملاء الأقرب من أهل لعني وديني، فقد تصوّر كثير منا أنها
ورقة نسجي إلى ما يسمى «الطب النفسي الإسلامي» وما شابه، مع أنها
كانت ورقة تعمل كيف يسمح لنا فيها وتتيح لنا لغتنا أن نتناول المسائل
المعرفية من مطلق آخر، ليس بديلاً بالضرورة، بل قد يكون مكملاً
ومناسِباً، ليس لنا فحسب، وإنما لهم أيضاً»^(١)

أما الآن، وبعد أكثر من عشر سنوات على الصياغة الأولى لهذا
البحث فقد ظهرت محاولات عديدة عن العلاج النفسي الإسلامي، نأمل
أن تتوحد هذه المحاولات وتقوى وتحرر وتثبت أصالتها العلمية، وفدورها
على صياغة نسق معرفي للنظرية العلاجية الإسلامية

والواقع أن حركة العلاج النفسي التي نادت بضرورة تفعيل الدين
والقيم الروحية والأخلاقية والتي أسست المذهب الديني والأخلاقي في
الغرب لم تدعو إلى نبي هذا الاتجاه من أجل التنكر للإنجازات التقدمية
التي حققتها حركة العلاج النفسي الحديث، ولكنها أرادت لفت النظر إلى
إهمال متعمد من رجال البيئة العلمية في أوروبا للدين والقيم والروحانيات
خاصة بعد شاقص معدلات الشفاء بين المرضى أنفسهم الذين تعرضوا
لأساليب علاجية مستحقة.

ويبدو أن صوت علماء هذه الحركة أصبح الآن قوياً لسيب

(١) مجلة العربي، العدد ٤٠٢، ص ١٧٨

أ - أن الإنسان الأوروبي عانى بقوة من أزمة أخلاقية وقيمية لم يستطع العلاج النفسي «كعلم وقس» تقديم حلول فعالة لها في بعض الأحيان، وقد أتى صوت هؤلاء العلماء المعالجين للتأثرين على علمانية منظره حامدة صدى لصرحه صمير غيب عن عمد ولزمن طويل دور الدين في بناءه وتشكيله، فتعاقم الوضع الأخلاقي والإنساني، فتحس الجميع المعاناة

ب - أن مذاهب العلاج النفسي المتنوعة في العرب قد عجزت في أحيان كثيرة عن حل إشكاليات نفسية متعددة واجهها الإنسان في المجتمع العربي، ولا يمكن بالتأكيد قبول موقف يوحّد الباب أمام الفهم والفهم الروحية والأخلاقية لتساند هذه المذاهب في أداء وظائفها الإنسانية.



ومن المؤسف أنه قد لاحظت أثناء دراستي لمذاهب العلاج النفسي واتجاهاته في السبعينات إهمالاً شبه كامل للاتجاه الديني بالرغم من أن أشكالاً مختلفة من هذه المذاهب والاتجاهات تلثقي في قليل أو كثير مع الأفكار الإسلامية، فالإسلام كاتجاه ديني متأصل في التجربة الإنسانية لعدة تاريخية طويلة يتطلب مثلاً بتعلم السلوك الإيجابي ومحو السلوك المعاكس عن طريق اللعب، والتعلم، والمبادأة والمعالجة بالأضداد، والتدريب على التعلم بالممارسة، والعلاج باللعب والمقيم الإنسانية ودمج الأفراد في بنات نفسية إيمانية، ودعو حياً إلى علاج فردي للسلوك وحيثاً إلى علاج جماعي

وعكس ذلك الصوص الترموية والمعرفية الإسلامية تطوي على أفكار مشتركة مع بعض مذاهب العلاج النفسي الغربية الحديثة، وتختلف معها في أفكار أخرى

نكن لم نحاول للمدارس العلاجية خاصة في عالمنا العربي الإسلامي

حتى مجرد تسجيل اعتراف بالاتجاه العلاجي الديني، فأهملت أسوة بالعرب
التحديث عنه نهائياً، فجميع هذه المذاهب ذات برعة علمانية، وبرى أن
إفحام الدين في أبحاثها يفقد طبيعتها العلمية.

ولم يظهر إشارات لهذا الاتجاه حتى في أبحاث المتدينين إلا بعد أن
قوبل المدعوة في العرب إلى تفعيل الأدهان في علاج الأمراض النفسية،
فكان العلمانيون والمتدينون في بلادنا يعانون من نفس المرض، فالعلمانيون
من المسلمين - وتقليداً للعرب في موقفه العدائي - يهملون الدين والاستفادة
من قيمه، والمتدينون منهم لم يتجروأوا على الاهتمام بالدين وتوطيد في
ميدان العلاج النفسي إلا بعد عودة بعض العربيين إليه.

فالعلمانيون كرهوا الدين تقليداً للموقف العربي، والمتدينون وأدوا
شجاعتهم، وانتظروا دعوة جريئة من علماء العرب لتفعيل القيم الأخلاقية
والدينية ودمجها في ميدان المعالجة النفسية ليتأسوا بها في الدفاع عن هذه
القيم.

ففي كلا الحالتين قلد المسلمون - تحت ضغط حالة الصعر والضعف
النفسي والتخلف الثقافي لديهم - موقف علماء الغرب في عدوة بعضهم
للدين، وفي عودة بعضهم الآخر لقيمة الروحية، وأخلاقيات، وسحترة
المعرفي بعد تجارب فشل مريرة مع مرضاهم.

كتب أنيس مثل هذا الضعف في شجاعه المتعيس وإرادتهم لعممية
مدد لضعفات، وباستثناء فله منهم لم أجد كاتباً يحاول ناصيل نظرة
إسلامية في العلاج النفسي بالرغم من حصوية الفكر الديني الإسلامي بالقيم
البلية، واحتراته لثروة هائلة من المادئ والمعاني الإنسانية.

وبعد أن قويت شوكة الاتجاه الشعبي بالإسلام والإيمان به في العالم

الإسلامي، وأصبح الحديث علماً عما أسموه بالصحة الإسلامية، شط بعض المذيبين المهتمين بالعلاج النفسي في إعتاد مقالات وبحوث وكتابات علمية تدعو صراحة إلى استعمار القيم والمبادئ الدينية، والمعاني الأخلاقية والإنسانية لحفل إشكاليات السلوك الإنساني وعلاج أمراضه.

حامساً كما أن العلاج النفسي كان موضع حماية الإسلام كتشريع، واهتمام المختصين المسلمين «كعلماء علاج» من مختلف الاتجاهات في المجتمع المسلم آنذاك، وقد سبب هذا الاهتمام حركة جدلية في تاريخ حركة العلاج والطب النفسي^(١) عند المسلمين.

فكما يشتمل العلاج النفسي المعاصر أطباء نفسانيون من مختلف الاتجاهات في المجتمع المسلم، فإن علماء المسلمين شاركوا أيضاً في العناية بالطب النفسي بالرغم من تنوع اتجاهاتهم، لذلك تجد في علاج بعضهم لمس اهتماماً بالنفس الديني، بينما يقل الاهتمام به عند الآخرين، بل قد تجد عند بعضهم من يحاول عزل الطب النفسي عن التأثير الديني الإسلامي، ولعل هذا التسرع في توجه المسلمين آنذاك نحو الطب النفسي في مسارات متعددة يعود إلى واقع التعددية التي شاعت في مجتمع المسلمين، وهي تعددية أكد المشرع الشرعي الإسلامي على حتميتها وضرورتها.

وإذا كان ذلك قد حدث من قبل في مجتمع أقل ديناميّة فإن وسائل الاتصال والتعبئة المعاصرة، وتعجز للمعرفة الإنسانية في مختلف مجالات

(١) سمي هذا العلم عند علماء المسلمين قبل في سينا وابن سكرية وأبو بكر محمد بن زكريا الرازي بالباطنة (سورة بها) (الطب الفروسي - الطب النفسي - طب النفس - توجيه الأخلاق - تركه النفس) وفي مقابل ذلك استخدموا لغة أخرى للدلالة على الصحة النفسية مثل «إصلاح أخلاق النفس» - «معالجة النفس» - «رعاية النفس» - «رعاية النفس على النفس».

أدوية قد جعلت حركة الطب النفسي في المجتمع الإنساني المعاصر أكثر تنوعاً، وظهرت مذاهب واتجاهات علاجية جديدة، أو على الأقل لبس « طب لقديم بمالب جديدة، وهذا مما أسهم في تنوع فنون لمعالجة لنعسه وتنوع فدراتها على مواجهة الأمراض النفسية



لهذه الأسباب نتبع الموضوع من مصادره ومابعه على أن نساعدني في التعرف على معالم طريقة الأصداد التي نحن نعدد دراستها، وقد وجدت - بالإضافة إلى العدد الهائل من النصوص التربوية الإسلامية - أن بعض المحللين السلوكيين وعلماء الدين والصوفية والزهاد الروحانيين وعلماء الأخلاق قد أشاروا إلى علاج الأمراض النفسية بطريقة الأصداد أمثال الخرافي وأبو بكر محمد بن زكريا الرازي وابن مسكويه وابن حزم والعلامة محمد بن مهدي نرقى وآخرون من علمائنا الأبرار.



ومن « كتابنا » منذ لحظة البدء بتدوين خطوطه الأولى حتى الانتهاء من عملية ترميمه بثلاث مراحل:

١ - مرحلة البحث التمهيدى: وقد استمرت حوالى ثلاث سنوات متقطعة، حيث كنت أبحث جزءاً من الموضوع الأساسى للبحث، ثم أصرف النظر عنه لفترة معينة، وأعود إليه كلما وجدت فرصة حتى بلغت به مستوى متقدماً في منتصف عام ١٩٨٩ م.

٢ - مرحلة الحفظ: لقد حفظنا هذا المجهود في حزائنا « شخصية مر لحظة الانتهاء من كتابته في منتصف عام ٨٩ م حتى عام ٩٨ م، ثم أدخل عليه تعبيراً مناسباً في الأفكار والصناعة اللفظية، والتبويب المهجى، بيد أن هذه التعديلات لم تعبر من جوهره كثيراً.

٣ - مرحلة الصياغة النهائية: وفي هذه المرحلة عكف من جديد على دراسة نسخة البحث المعهولة التي أصغت عليها شيئاً غير قليل من الأفكار، وفي خطة البحث أو في مصادره، وذلك لبناء نسق معرفي أكثر ترابطاً في الأعوام من (٢٠٠١ حتى مطلع عام ٢٠٠٢م)، وقد ملعت به مستوى أشعر به بالرضا.



لقد تناولت في هذا الكتاب الذي بين يديك - عزيزي القارئ - مسهب المعالجة النفسية الإسلامية بطريقة الأصداد في نسعة فصول، حيث ناقشنا في الفصل الأول الحاجة إلى صياغة نظرية إسلامية في العلوم الإنسانية، وكذلك عالجت في حوار مبسط العلاقة بين القيم الأخلاقية الإسلامية وعملية العلاج النفسي، كما عالجت في الفصل الثاني مفهوم المعالجة بالأصداد وأهدافها، وخصائصها، والأسس المرجعية التي ترتكز عليها سواء كانت فكرية أو روحية.

وفي الفصل الثالث بحثنا عدداً من مسوغات العمل بطريقة المعالجة بالأصداد مثل قابلية النفس الإنسانية للتغيير ودعوة المشرع التربوي الإسلامي للعص بهذا المسهب المواقفي، وكذلك واقع انحرافات الكبار وصورة إعادة تربيتهم، وتأثير ذلك على نمو تشكيل الشخصية المسلمة للأطفال والباشئة الممنس، وأيضاً حاجة الإنسان المؤمن له في بناء شخصيته. وتجدد هذه الطريف في الفكر السيكولوجي المعاصر.

ونظرفنا أيضاً في الفصل الرابع من دراستنا لأنماط المعالجة بالأصداد من حيث طبيعتها ومستواها وحطواتها ومراحلها، وحددنا في الفصل لحامس عشر شروط تقتضيها عملية المعالجة النفسية بطريقة الأصداد

أما في الفصل السادس فوجدنا أنفسنا أمام معوقات العلاج النفسي التي تمّ تضييقها في محاشا إلى معوقات ذاتية تعود إلى طبيعة الفرد، ومعوقات خارجية تستمد قوتها من ضغوط المجتمع المحيط بالفرد، وعالجنا في الفصل السابع دور منهج الأصداد في حلّ قضية الصراع النفسي من خلال عشر سمات متعاقبة اخترناها كنماذج من فائتي الأصداد التي سسر عليها - خلال البحث - فيما بعد.

ونعرفنا في الفصل الثامن على مفهوم العادة ومصادرها وأهميتها ومراحل نشأتها، وقدرتها في التحكم بسلوك الإنسان، وموقف المشرع التربوي الإسلامي من قواعد إزالة عادات السلوك المحاطة، وأيضاً أسس تكوين عادات سلوكية حسنة يهتلى في التشريع الإسلامي.

وانتهينا في الفصل التاسع إلى الإشارة لأنواع العلاج النفسي، وتحديد بعض سمات الأساسية التي ينبغي توفرها في شخصية المدمج النفسي المسلم سواء كانت سمات إيمانية أو اعتقادية أو سمات عقلية وإدراكية أو سمات وجدانية أو اجتماعية.

وشكراً لكل من قفم مساعدة صادقة لإسهار هذا المشروع الثقافي خدمة للراغبين في تعبير أنفسهم بما يرضيه تعالى

وختاماً نسال سبحانه أن يجعل هذا الجهد مامعاً لكل إنسان ينتمي تحرير ذاته بصدق وإخلاص من أنقال عبودية الشهوة بأصفاة
«الأحراب»

الهم تقبل منا هذا العمل إنك سميع مجيب

٨ يناير ٢٠١٣م

ملكة البحرين/يوسف مدن

مفاتيح السيطرة على الذات

سواء في حركتها الوفائية أو في عملياتها العلاجية تكمن في آيات قرآنية ثلاث هي:

١ - ﴿إِنَّكَ لَآتَىٰ بِقَوْمٍ مَا يَخْتَرُونَ﴾ (١).

وتدب هذه الآية على رغبة الفرد الداخلية في التعبير بإرادة ذنية

٢ - ﴿إِنَّ هَٰذَا الْفِتْيَانُ يَتْلُو بِحَقِّ آيَاتِهِ﴾ (٢).

وتعني هذه الآية حاجة الإنسان لدليل إرشادي سليم ومسجع عمل موافق لسلوكه.

٣ - ﴿وَالَّذِينَ هَمَزُوا فِيهَا نُفُوسَهُمْ سُبْحَانَ﴾ (٣).

وتؤكد هذه الآية على أمرين هما:

أ - أن يكون دور الفرد إيجابياً في معاملة نفسه

ب - وحتمية حصوله على نتيجة إيجابية موفقة من الله على جهده النفسي.

(١) سورة الرعد، ١٦

(٢) سورة الإسراء، ٩

(٣) سورة النمل، ٦٩

مدخل لفهم منهج
المعالجة النفسية بالأضداد

يصعب أن يحدد تاريخ بدء حركة العلاج النفسي في حياة الإنسان، لكن يمكن القول بأن هذه الحركة ارتبطت كجهد معرفي بتاريخ الإنسان نفسه وبآلامه وآماله، فقد ظهرت منذ البدايات الأولى لهذا التاريخ الطويل بعض الحالات المرضية في النفس الإنسانية^(١).

وظن مسار هذه الحالات يأخذ بمرور الزمن اتجاهات تصاعدياً كما وكيفاً، فقد تزيد عدد المصابين بالأمراض والاضطرابات النفسية، وتزود على امتداد هذا التاريخ حالاتها الحفيفة والمعتدلة حتى بلغت في هذا العصر وضماً جعل منها مشكلة إنسانية كبرى تشغل بال العلماء والمفكرين والفلاسفة، وأصبحت موضوعاً لعدد من العلوم والتخصصات والفلسفات، بل إن بعض هذه الفلسفات - كالفلسفة الوجودية - طالبت بتحويل الفلسفة اهتماماتهم من دراسة الوجود الطبيعي إلى دراسة الوجود الإنساني، وركزت

(١) كحادثة القتل الأولى التي حدثت في تاريخ البشرية بين أفراد أسرة آدم عليه السلام، وما برح منها من مواهب سوية ٧ سوية المعتدلة الضرر بالعلاقات بين أفراد هذه الأسرة كالنار والسموم والعدوانية التي مجتهدت في نقل هذه الآخرين للأخرى حيث تمكن ظليل تحت تأثير حالة اتصال شديدة من صده أحبه هابل جسداً ونزاعاً بين حامليه وعطوة بلا من لهو تجويز - فالقتل وعدم نجويزه أو دمه يشكلان صطير من السلوك المرضي، ولذا الذي تأله القطرة البشرية السوية ولا تفر - الأدب والشريعة السماء وكذلك يجد فيه مقابل ذلك ظهور حالة التعم كالحس لطري وطبيعي وسوي بعد أن يست الله تعالى غراماً بوزن بالتراب سوية الأخ القليل، فلاحية أحده - ظليل تلك السلوك القطري من ظلمة ظليل الإدراك، مشر بالحق والتقدم على ما حل

على قضايا إنسانية أساسية وهامة مثل قصة الحرية والمشكلات التي تهدد وجوده كالمعز والمجاعة والآونة والمعز وغيرها

وما لا شك فيه أن الإنسان بكل جهله منذ بدء تاريخ المرض النفسي في البحث عن تفسيرات وطرائق علاجه، لكن هذه التفسيرات كانت - كما تبدو - أضعف وأقل سرعة من حركة نمو وانتشار الأمراض ذاتها، وقد أدى ذلك إلى تأخر واضح في حركة العلاج النفسي، رغم الفقرات السريعة التي تعدنها عادة الأديان والدعوات السماوية والحركات الإصلاحية الإنسانية بين حين وآخر.

وساعد في تأخر اجتهدات الإنسان لمعالجة أمراضه النفسية التي نعتريه تعقد طبيعته وتخلعه العلمي، فليس من السهل على المرء اقتحام سراديب النفس العظيمة ومعرفة أسرارها خاصة وأن وسائل الكشف عن دخیلة الذات كانت آنذاك محدودة ومتخلفة وبعيدة عن فهم مبادئ السماء وتعاليمها الإرشادية سواء كانت المروحية منها أو الأخلاقية أو المعرفية.

وعلى ضوء هذه المعوقات ما ثرأل موسسا - رغم المحاولات الجادة التي بذلها الإنسان - غالباً مجهولاً يحتاج إلى جهد علمي رهيب يفتح مغلفه يكشف مسمر عن هولمه وأسراره.

إن حركة العلاج النفسي للمشكلات الإنسانية قد تطورت - بالتأكيد - على مدار التاريخ بخطوات متعثره بدءاً من عصور متقدمه من التاريخ الإنساني، وأصبح بخطوات أكثر تقدماً في القرن العشرين، إلا أن ظامره المرض النفسي قد اتسعت - هي الأخرى - تدريجياً في حياتنا الإنسانية، ولعب دورها في هذا العصر كماً وكيفاً، حتى عدّه بعض العلماء ومشتعل بالعلوم الإنسانية أسوأ قرن في التاريخ وأكثرها صعوبة، إذ

امتدت الأمراض النفسية بأشكالها المختلفة إلى أجزاء مستوره ومحبة من حياته السلوكية، فطغت النفس المعاصرة بصفتها وطابعها المرعي

والكثير من أمراضنا السلوكية اليوم من أصعب ما عاب الإنسان، السيكلوجية، وكأن القرن العشرين الذي تجاوزناه قد جمع بين حبه مختلف الأمراض التي عرفها الإنسان من قبل واستودع كل الحالات المرضية المشاركة عبر تاريخ طويل، وأضاف إليها حالات جديدة، متفاوتة في درجات الشدة والتعقيد، وقد شكل ذلك تحدياً للعلم والعناء خاصة في مجالات الطب والطب النفسي والخدمات الإرشادية، إذ استوجب ظهور اكتم الكبير من الأمراض المعينة والمشكلات السلوكية والاجتماعية والفكرية اجتهداً ونشاطاً علمياً متنوعاً ومتألفاً لمواجهة والتغلب عليها.

لقد أطلق بعض الباحثين على العصر الذي نعيشه الآن «عصر الفلق»، وأصبحت حضارة الإنسان المعاصرة رغم تقدمها التقني مصدر قلق يهدد الذات الإنسانية بالدمار، وشمرها بالأسى والضيق، وترتب عن ذلك نشوء وظهور فلسفات التشاؤم في الغرب كالفلسفة الوجودية المتطرفة بزعامة جان بول سارتر وزوجته سيمون دي بوفوار، حيث نظرت هذه الفلسفة إلى لوجود الإنساني كله كمأساة جاثمة على الإنسان تهدده بالدمار والضيق في كل لحظة، إذ تحاصر الإنسان المحروب والأمراض والأوبئة والمشكلات الاجتماعية والظلم والاستغلال والفقر النفسي بمختلف أشكاله

ومبقياً فإن الإنسان لن يكون قادراً على بلوغ غايته في عبادة نفسه إذا ظل يعتمد فقط على اجتهداته الذاتية الحاطة حيناً، والمعاصرة حيناً آخر، وبمضى قدره فشلاً مستمراً في تحقيق الشفاء النفسي لمرصاء طالما ظل بعد عن فهم السماء وتعاليمها لتكوينه الآدمية، وقد أكدت بحرية العلاج

النفسى الوصفي لدى الغربيس هذه الحصة المرأة واعرفوا سحطا إهمالهم
المعتمد لتقيم اللدية والمعادى الروحية والأحلاقية

لهذا ظهرت في المجتمع الغربي موارد حركة جديدة وموارد نمو اتجاه
مذهب جديد في العلاج النفسى يعتمد القيم والمعادى والتعاليم الدينية أو
يقر بأهميتها العلاجية على الأقل، ومن هنا تبرز أهمية الأحد بنظام
المعالجة النفسية التي يؤكد عليها المشرع التربوي الإسلامى. وقد أثبت
التاريخ أن الإنسان ظل يخط في تجاربه العلاجية السيكولوجية حبط عشواء
دون الحصول على فائدة تناسب ما يثله من جهد ومحاولات.

بينما استطاع مهج المعالجة السلوكية الإسلامى أن يحقق في تجربة
قصيرة ومتميزة ما عجزت عنه تجارب البشرية خلال عمرها المديد، وما
يراد النسق القيمي والمعرفى في الإسلام قادراً على إمداد الشخصية
الإنسانية بعناصر القوة لمواجهة الإحاطات المستمرة والمتركمة من جهة،
وتعديل سلوك من جهة أخرى حتى وإن أصبحت الحياة أكثر تعقيداً.

الجانب الوقائى والجانب العلاجي:

وترتبط فعالية مهج المعالجة النفسية بطريقة الأصداد في الإسلام
بكفاءة نظامه التربوي، كله الذي اشتمل على جانبين:

- ١ - يقوم أحدهما على وضع برنامج وقائى يحمي النفس - وهي ما
نزاه على فطرتها - من تأثير الانحرافات المختلفة على امتداد العمر كله،
والتربية الوقائية التي ينشدها الإسلام تشهد النفس عند مرحلة ما قبل
الميلاد، ويظل على هذه العناية خلال مراحل دورة النمو النفسى التي يمر
بها الفرد في حياته، فتسمى التربية الوقائية في النظام التربوي الإسلامى كافة
مراحلها الشخصية وطاقتها الفطرية الكامنة، وتحقق بصحتها - ما أمكن إلى

ذلك سبيلا - في إطار برنامج تربية إسلامي متكامل يوازن بين كافة جوانبها

٢ - أما الجانب الآخر من برنامج التربية فذو طابع علاجي يتوجه إلى ترميم البناء النفسي والعقلي والأخلاقي والاجتماعي ترميماً عبادياً سوياً، وعادة صياعته - حريئاً أو كلياً - يعد أن أصاب هذا البناء قليل أو كثير من ركائم الاحترافات المختلفة التي قد نمتد كما قلنا من قبل إلى جوانب مستورة من كيان الذات.

فهذا الجانب الهام له دور علاجي فاعل وحيدوي حين يصاب ببناء لذات بشيء من الخلخل وحين تحقق المؤسسات التربوية في عملية البناء والتنمية «وقائية» إذ يتجه الجانب العلاجي إلى تعديل السلوك أو إزالة عادة خاطئة أو المساعدة على تبصير المريض بمشكلاته وإرشاده إلى طرق لتعصب عليها وتقليل ما أمكن من حالات الاضطراب السلوكي.

ورغم أن كلا الجانبين يكمل أحدهما الآخر إلا أن جهد المربي المسلم يبدأ - أولاً - باستعمال التربية الوقائية، ولا يحاول أن يبدأ خطوة أخرى قبل أن يمتد هذا النمط من التربية، لكن بسبب الظروف التاريخية التي لارمت بذه الدعوة، اضطر متفوض النهج التربوي الإسلامي إلى اعتماد برنامج العلاجي لفترة مؤقتة اقتضتها حركة التغيير الأولى في عصر الرسالة.

ومعد أن أحدث الإسلام ثورته الكبرى في النفوس وعيّر محتوها اندحلي، وتمكن من تنوير البناء الخارجي للمجتمعات التي دحلها فاتحاً، وررت عن ذلك تعاقد الطريقتين العلاجية والوقائية، فأحدهما تعكس من تعبير اتجاهات وأفكار الأفراد ونسق الكيان النفسي والذهني لدوائهم، والآخر ركّز على بناء المقومات الإيمانية للذات المسلمة المعقدة

ومع أن النمط العلاجي آنذاك كان الخطوة الأولى في بناء الشخصية لمومة، غير أن برنامجه فيما بعد نجح في تكوين جيل مسرور، إرسل لأحد نابيائه الوفائي يمثل النمط الترموي الأول الذي يعتمده الإسلام في إعداد المجتمع وصوغ النفوس.

ولا يعني ذلك أنه لم تكن هناك حاجة لمنهج المعالجة على المستوى النفسي ومستويات أخرى، فالتحرفات الأفراد في البيئات الإسلامية كانت تظهر بين فترة وأخرى على مستويات متفاوتة، وكان من الطبيعي أن يلجأ المربي المسلم إلى إخضاع هؤلاء الأفراد للبرامج العلاجية بإحدى يدي، وهذا بالتأكيد لا يدل على فشل الجانب الوقائي في تعامله مع هؤلاء المرضى، لأن مصدر الإخفاق ليس الأساس النظري والتطبيقي للإسلام، وإنما قد يعود إلى قصور في فهم المربين المسلمين، أو ازدياد نفوس المنحرفين عن سبيل الحق واتباع أهوائهم الدنيئة في أعماق ذواتهم.

ولتجربة الإسلامية الغنية والحية التي طغت في حياة الإنسان المسلم أغرت الباحثين بدراساتها، وأفاضوا في البحث عن مكوناتها، حتى أشرى هؤلاء الباحثون مكتسباتهم العلمية الإسلامية بالأبحاث القيمة لرصد عناصر القوة والضعف.

غير أن اهتمامات المفكر المسلم المعاصر بالمنهج العلاجي أقل بكثير من اهتماماته بالمنهج الوقائي لأن البناء في حياة أفراد تخلقهم نفوسهم من التراكمات الاجتماعية أفضل من البناء في نفوس تحتاج إلى التنظيم ونكسر معتق، لهذا نرى أن سهولة البحث في التربية الوقائية كان مسألاً كافيًا لهذه الاهتمامات.

بعمد الأخلاق والسلوك الإسلاميون قد تناولوا منذ القرون الأولى

فعالة مسيح الترمية الإسلامي بعجائبيه، وظل الاهتمام بهما متلاحماً لا يتركان، وسبق كل منهما ظلاً للآخر وإن تطلت طبيعة البحث لتكوين على أحدهما، بالرغم من أننا لم نستطع إغفال الترمية الوفاية، فربية اندات الإنسانية - في الموقف العلاجي - تحتاج إلى خطوات ثلاث رئيسية هي التحلية ثم التحلية والتجلية.

* تحلية النفس من الأخطاء والتراكمات والأوصار

* تحلية النفس بالفضائل السليمة بعد إخلائها من الرذائل

* ترك النفس تتجلى في آفاق التفكير الإبداعي وتكشف عن قدراتها المتكدسة في داخلها.

وإذا كان الأقدمون من المفكرين المسلمين قد اهتموا - بالغ عايتهم - بمنهج لثرية الإسلامي وقاية وعلاجاً، فإن للمحدثين عنهم لبسوا أقل منهم كمادة حتى يعرفهم إدراك أهمية منهج المعالجة خاصة بعد أن تفاقم الذنوب والاضطرابات السلوكية في حياة الناس وأصبح تأثيرها السلبى أقوى في نفوسهم، ويبدو أن البعض من علمائنا اعتبر الحانب الرقائى أنسب الطرق إلى المعالجة والثرية وتشكيل السلوك الحسن.

كما أن العملية العلاجية تعد في نظر البعض مهم مجرد ترسيمات لا تسمى ولا تخفى من جوع، فالسفير الجنوري أيسر على العربي المسلم من هذه لترسيمات، وهذا في واقع الأمر خلط وقعوا فيه، فالمعالجة تطلب حياً تعسر جديراً يقتلع من الذات أفكارها الحاططة وعاداتها المدمومة، وقد بطلت التعبير حياً آخر ترميماً عادياً لهذا الحلل أو ذاك لا يغال الجدور ولا يعتد للأصول.

وعلى كل حال لا يمنع هذا الخلط من القول بأن نظام الوفاية والعلاج

وبلارمهما في التربية والتعليم يزداد أهميته في الظروف الإنسانية احصاه،
 فيعكر أن يبدأ المربي المسلم باستخدام البناء الوقائي للذات التي لم تعرف
 انحرافاً خطيراً، فيصوغها يرفق ودون استعجال، ويمكن للسلط العلاجي أن
 يستعمل في تصحيح ما أصاب الذات من خلل سواء كان في القصد والنية
 أو في الأفكار أو المشاعر أو الممارسة السلوكية

إن البرنامج العلاجي للمعالج المسلم يمكن أن يؤدي في آن واحد
 وظيفتين مزدوجتين، إحداهما وقائية تروى الباب أمام الانحرافات الجديدة
 عن التسلسل إلى عمق النفس والدخول إلى سراديبها المظلمة، ونجعل الذات
 الإنسانية تقاوم كل ورم نفسي وأخلاقي ومعرفي يحاول التغاد إليها من
 جديد، يحقق هذا البرنامج - إيقافاً جزئياً على الأقل - لعناصر الفساد من
 الدخول إلى الذات.

ولوظيفة الثانية للذات هي مضاعفة الجهد لتلين قابلية الجهاز العصبي
 ليمده مرة أخرى للتلقني والأخذ والمطاء، وحين ينجح المعالج النفسي
 المسلم بتنشيط هذه القابلية يباشر بعملية الترميم الجزئي أو الإعادة لتربية
 الشاملة لبناء الذات

ويحتشد السهح التربوي الإسلامي طرائق وأساليب متنوعة ذات فاعلية
 إيجابية في بناء النفس ومدلولاتها، ولعل أبرز هذه الطرق ما يمكن تسميته
 بمهيج الأصداد في الممارسة النفسية.

وقد لاحظنا خلال مطالعاتنا لمصادر الفكر التربوي الإسلامي خاصة
 القرآن والسنة وكتب علم الأخلاق والتربية والسلوك تأكيداً على دور وأهمية
 هذا المهج في العلاج النفسي وسجسد التربية وإعادة العزم للذات المسلمة

وقد بحث الباحث نفسه أمام مدرسة فكرية ومربوية قائمة بذاتها، ندعو إلى تغيير سمات النفس المضمومة وروايتها بسمات وفضائل وقيم محمودة راجعية

ورغم أن طرق معالجة النفس وسناتها متنوعة وفق وجهة النظر الإسلامية كالذكر والعبادة والتوبة والصبر، وممارسة التأمل العقلية والاعتكاف والحلوة مع الذات والتفكير الذاتي والحوار مع الآخرين ومجالسة العلماء ومصاحبهم وغيرها، إلا أن هذه الوسائل تصب جميعها في اتجاه مسهي وأحد يمكن أن تشكل القاعدة الأساس لطريقة العلاج النفسي بالأضداد

وبالتالي فإن طريقة الأضداد هي حقيقتها منهج تنظيمي اشتمل على المفاهيم المعرفية والأساليب الوقائية والعلاجية، واشتمل على اختلافات محددة مناسبة لروح التشريع التربوي الإسلامي وأدبه.

إذ أصبحت التربية العلاجية بهذه الطريقة تمثل اتجاهاً واسعاً في الفكر المعرفي والتربوي للإسلام وفي تجربته الروحية والجهادية على امتداد تاريخ طويل عاشه المسلمون في أدوار مختلفة من حياتهم

فكتب التربية التي كتبها العلماء المسلمون أو كتب علم الأخلاق أو التصوف أو السلوك والتربية الروحية لا تخلو من أثر لهذه الطريقة ومن خطوطها العامة والتفصيلية، وبالإضافة إلى ذلك عرفت عن بعض هؤلاء العلماء ممارستهم للعلاجية أمثال الكندي والرئيس ابن سينا وأبو بكر الرزي وغيرهم من أطباء النفس المسلمين.

الحاجة إلى نظرية إسلامية في العلوم الإنسانية:

مسد وصفت الحروب الصليبية أورارها اتجه العرب - بشقيه المسيحي

والعلماني - إلى تحقيق سيطرته على العالم الآخر بأساليب أخرى عمل عليها حين كد مرحوا مقدراته العسكرية ويمتلك القوة وتفكيره الأحمق الغاشم على مشروعة العرو، واتسجماً مع تكوينه النفسي التاريخي القائم على الاعتراض بروح انموه ومطلق التكبر والطغيان باعتراف وشهادة علماء نفس عررس، محدود ظاهراً الاستكبار موجودة في أعماق الشخصية الاجتماعية السياسية للعربيين، وهي إحدى مكوناتها الأساسية على امتداد تاريخ طويل

يقول المحلل النفسي أريك فروم وهو يقسم المثل الأعلى للشخصية الأوروبية إلى بطل وثي وبطل مسيحي (يمثل مثلاً أعلى للإيمان الديني):

«البطل الوثني كما يتجسد في أبطال الإغريق والجرمان، كنت فدية م يصور إليه النوع الأخير من الأبطال هو أن يفترو، وينتصر، أن يدمر ويهيب ويسرق، كان تحقيق الحياة عندهم هو الفرور والتكبر والأبهة والسلطة، والشهرة والتفوق في القدرة على القتل وسبك الدماء، وقد شبه القديس أروسطيوس التاريخ الروماني بتاريخ عصابة من اللصوص، كنت قيمة البطل الوثني - كما يقول فروم - هي براعته في الاستيلاء على السلطة والتشبث بها، وهو يموت سعيداً في ساحة القتال لحظة الموت»^(١)

وبعد أن يشخص فروم حاصية السلوك الاستكباري عند العربيين في تلك الفترة يكاد يعممها على التاريخ الأوروبي كله، يعود مرة أخرى فيقول

«لرأساً أمعن النظر في أنفسنا، في سلوكه أغلبية الناس، وفي قاداتنا السياسيين»^(٢) لرأيتنا يفتين أن البطل الوثني هو النموذج الذي معسر أن له

(١) أريك فروم، الإنسان بين الجهر والمظهر، ص ١٥٦.

(٢) يصعد أريك فروم من كلمة (قومه) هنا يعني منه من الأوروبيين الآخرين، وكذلك الأمريكين السالين.

فيهم ، فالتاريخ الأوروبي - الأمريكي الشمالي ، على الرغم من اعتناق

=الذين هم من أصل أوروبي، وقد حمل هؤلاء الأمريكيون موروثهم النسي والعملي من بلادهم لأصوب أوروبا إلى مستعمراتهم الجديدة. أمريكا الشمالية خاصة في الولايات المتحدة الأمريكية وكندا، عظم الأمريكيون مرتبطة بتاريخ أسلافهم ويتبرون أفكارهم وطرائفهم عن أنفسهم والأخرين، ويكرهون كثيراً من سلوكياتهم لا سيما شعورهم الاستثنائي على الأمم بدمهم إلى ذلك تأثير موروثهم النفسي وثقافتهم الطلي

وفي أعقاب أزمة صليبيات واشنطن ونيويورك في يوم ١١، ٩، ٢٠٠١ م تحرك هذا الموروث النفسي الممتد في أعناق الشعب الأوروبية خاصة الأمريكية الشمالية بقوة انتفاضة شديدة، فتحدث الرئيس الأمريكي جورج بوش الابن عن حربه المقدسة ضد الإسلام والمسلمين وأطلق عليها المصطلح التاريخية (الحرب الصليبية) وهي لفظة ميتة أصبحت في تاريخ الصراع بين أصحاب الأبدان السوداء ولذلل على حركة غير خلاصه عاجلة تعمل بين طياتها شغلت انتفاضة عاتقة في حبه

وبالتأكيد لا غبار على الرئيس جورج بوش الابن أن يجعل - كأي إنسان - لحدث طلي مأساوي وقع في بلاده ويشهد حياة الأبرياء، ولكنه من جهة أخرى عبر عن عودة الموروث النفسي والظلي المرتبط بصحة دينه عاصفة أو غير قصد، مما يدل على أن هذه المتاعف الانفعالية السلبية ما تزال حية أو قادرة على العودة والانتعاش في الفاعلة الأوروبية والأمريكية الشمالية رغم عامل البعد التاريخي وانغماس المجتمع الأمريكي الشمالي والغربي في حياة المثلث التي لا يحيطها أمر المثلث القديم

وقد حاذر الرئيس الأمريكي أن يتبارك الأمر ويدثر ما لطبقنا حاله الانفعالية من روايب راقدة ولعلهم في قاع النفس فرغم أن ما قاله مجرد حبر، وظام برودة سرمد، ومعالجة للمركز الإسلامي الأمريكي لكثيراً عن خلجاته، وتعبيراً عن اعتقاد غير سائس عما يمر منه - ودعا إلى التسير بين الإسلام والمسيحيين بين الإبراهيميين، ولكن بعد أن حرك الموروث النفسي والظلي وعمل سحره في النفوس لأن لتذكر روابطه بحرب صليبية قديمة - بقصد أو بدون قصد - تشيط موروث نسي تاريخي قادر من جديد على تفعيل المواجهة الدينية بين الغرب والحضارة الإسلامية في مجتمع علماني لا يغير النسي اهتماماً، ورغم ذلك الاعتدال مدعيت رولاند ورواكشت فلاشهور الجسيمي الأوروبي في هذا الاتجاه، وظهرت سلوكيات عنصرية لم يستطع الاعتدال لو قيادة المركز الإسلامي الأمريكي في الكره والمصطفة ضد العرب والمسلمين حتى لو كانوا مواطنين أمريكيين، فالكلمة كما قلنا حركت الموروث ولعلنا فعلها في النورس، ولا يخلو بالتأكيد مناوئحه كثير من الأوروبيين كممارسيهم المرفقة لستل منه الانجاء

كما أن رئيس دولة إيطاليا غير هو الأسفر عن الموروث النفسي الأوروبي الجسمي، مدد صريح بأن عن العرب أن يت في حبه، واعتبر المصولة الأوروبية والأمريكية أكثر رقاً وعدماً من الإسلام والمصارة لإسلامة فكشف بذلك عن جهله بالآلام والمصارة العربية الإسلامية، فالمرمضان وغيرهما أنة أخرى ظهرت عن ألسن الأوروبيين والأمريكيين الشماليين وأتلافهم تجعل كلام لوك مراء، صادق وشاهد على لرباط المبرزين - قوديين وأمريكيين - مع بعضهم في وسعة فكرية وموروث نسي وعلمي

د ح

وهو ما حمل لوك فروم يعتبرهم كلفة تسمية وعلميا وسلوكياً واحدة بشكل الموروث التاريخي للشخصية الأوروبية التي ما تزال ملوثة هذا الموروث وتجره على الشعوب وألم الأرض وتظهر ساء الاستعلاء والكره على الآخرين باعتزاف فروم حبه

المسيحية ليس إلا تاريخ العزو والأبهاء والتكبر والجشع، وأعظم قسا هو أن يكون أقوى من الآخرين، وأن نمزوهم ونقهرهم ونستعلمهم، وهذه القيم تتطابق مع المثل الأعلى للرجولة، فليس رجلاً إلا من كان قادراً على القتل والفهر، وفي شخص غير قادر على استخدام العنف، إنما هو شخص ضعيف، أي ليس رجلاً.

لسب بحاجة إلى إثبات أن تاريخ أوروبا هو تاريخ للمرد والاستغلال والبقوة والإسراع والفهر، لا تكاد توجد فترة أو مرحلة من التاريخ الأوروبي إلا كانت هذه سماتها، لا يستثنى من ذلك طبقة أو جنس، لا توجد جريمة إلا أوثقت بما في ذلك عمليات الإبادة الجماعية لشعوب بأسرها، مثل ما حدث لليهود الأحمر حتى الحروب الصليبية التي جعلت من الدين ستاراً لهم لم تكن استثناء^(١)

وهذا ما يؤيده الواقع التاريخي للاستكبار الغربي، ورغبته في التسلط، وشهوته في العزو والانتصار! فهذا المرض النفسي كما يقول فروم 'جزء أساسي من مكونات الشخصية الاجتماعية'^(٢) للمستكبر الغربي، وتشهد وقائع التاريخ المعاصر على ذلك والتي تجسدت في حركات الاستعمار والسيطرة العربية على الأمم الأخرى^(٣)

ومع ذلك انحصرت ظروف التبرير إضافة أساليب في الصراع والسيطرة على العالم الإسلامي، بهذا الغرب - بعد أن هزمه المسلمون عسكرياً عدة مرات - في الاتجاه إلى أسلوب 'حرب الكلمة' وحاول منذ ذلك التاريخ استطره على العالم كله خاصة عالمنا الإسلامي - بالأسلوب معاً القوة وحرب الكلمة.

(١) المصدر السابق، ص ١٤١

(٢) المصدر السابق، ص ١٤٢

(٣) يوسف مدني، سيكولوجية الانتقام، ص ١٨٨

لعد فشل العرب في تعبير الحريطة المعاندلة للمالم عن طريق حملاته لتصبيبه ذاب القطار العسكري، وحاول مره أخرى في العصر الحديث عن طريق الحملات الاستعمارية التي كانت إحدى نتائج حركة لكشوف الحمرابه الأوروبية، ولكن ذلك لم يحكه من سط مطرته الثقافية على السحو لمطلوب لأن ذلك كان يثير سحداً للمسلمين فقاوموا حركته العسكرية.

ولهذا اضطر إلى اتباع سياسة طويلة المدى تقوم على استخدام العلم وحرب الكلمة الموجبه مع الأمم الأخرى وبالذات مع المسلمين ليتم حضاعها تحت نفوذه، وتحقيق ما يسميه علماء الاجتماع المعاصرين بظاهرة «الاشتر الثقافي» الموجبه والمقصود لخدمة العرب والحصارة العربية، وقد بدأ الأسلوب أكثر وصوحاً في الهجرات السياحية والتجارية للغربيين الموجبه لهذا الغرض، وفي حركات التبشير التي رافقت حركات الاستعمار الغربي للعالم في العصر الحديث والمعاصره، وكذلك تجلّى في دراسات الاستشراق لثقافات الشعوب لا سيما ثقافة المجتمعات الإسلامية، وكذلك في إحياء نزعات شعبية قديمة وميتة كالفرعونية.

ريدعو العرب والأمريكان الآن إلى عولمة مهيمة ومتشوعة الأبعاد، وذلك لجعل أبواب المجتمعات البشرية كلها مشرعة لثقافة المنصر حصاري، وحرية فتح أسواقه الاقتصادية في العالم للشركات العربية لاحتكارية، والسيطرة على قنوات وأدوات التوجيه الإعلامي مستعلاً إمكانيه المتعوقه نتيجة ثورة الاتصالات والثورة المعلوماتية

ولما كانت الحرب العسكرية مكشوفة النتائج للأمم، وهي في الوقت نفسه تحمل الغرب مكروهاً لدولانيتها على الشعوب، اتجه العرب إلى

الاستعداد من أدوات وقوات غير ماثورة، ويصعب الانسداد إليها لدى كثير من الناس. وأحياناً تكون محبة لهم ومرغوبة بلا وعي منهم بمقاصدها غير المعلنة، فاستخدم مظلة العلم لتقريب للعالم وتهديد الحصان الحصارية لهويته شعوب العالم، فحاول تحقيق أهدافه الثقافية والاقتصادية والسياسية والغلبة من خلال نتائج العلوم الطبيعية والإنسانية وجعل هذه الأهداف متصلة بمجال العلم، لذلك حاول صياغة المعرفة لدى الشعوب والأمم وفق وجهة نظر غربية، وسخر قدراته في العلوم الإنسانية والاجتماعية، ونشط العربيون - علانية وحمية - في استغلال ما توصلت إليه هذه العلوم من نتائج في السيطرة وتدمير الهوية الثقافية والخصوصية الحصارية للأمم الأخرى.

وأثبتت الأحداث أن الجهد الموجه لتوسيع «عمليات الانتشار الثقافي» قد أفرز بالفعل نتائج ثقافية ونفسية وأخلاقية تحقق مصالح الغرب كما حدث حين فرص ثقافته على الشعوب المعلومة في آسيا وأفريقيا، وحين أفرزت هذه العمليات من نتائج ثقافية استهدفت الهوية الوطنية لهذه الشعوب كظاهرة التماثل الثقافي، إذ اندمجت ثقافات أصلية لعدد من الأمم مع ثقافته أو على الأقل استقرت للثقافة الغربية هي حياة الكثير من شعوب الأرض، وبقيت كثقافة فرعية مؤثرة تماماً كالثقافة الأصلية.

واستعداد العربيون من عنصر على درجة كبيرة من الأهمية هو بحاجتهم الباهر في تطبيق المنهج التجريبي على دراسة الظواهر الطبيعية، حيث حقق هذا المسحوق تقدماً مقنياً كبيراً أثبت قدرة العقل للعربي على الإبداع والاسكار، وشعرت أمم العالم المعلومة والمسلمين منهم بالتأكد بالصحة والحصارة والشعور بالنقص إزاء التفوق الغربي، إذ اعتقد كثير من شعبي هذه الأمم أن التفوق التقني للعرب يعني تفوقه الشامل على كافة حضارات التاريخ لشري في كافة مجالات المعرفة، ثم ما لبث هؤلاء المتفوقون أن

جعلوا من أنفسهم أدوات مرويح لشقاقة المتعصر علمياً وحضارياً، وقام بعضهم بدور المساعد على سريه هذا الإحساس المرضي إلى عمة الناس في مجتمعاتهم، وهو وياه يكومس التخلف لهذه الأمم ويعدي عقل لإسب (الأيض) ويعينه بمشاعر الفوقية والأبوة الحصارية

واسرع العرب بأماله المتنوعة إلى إذكاء مشاعره الأبوة، الفوقية، فوسع من مساحة التناقض الحضاري بينه وبين أسم الأرض وشعوبها بدلاً من تضيقها، فكل يوم يمر بضيق العرب إتحاراً وإبداعاً جديداً في عالم التقنية، وبذلك على تعوقه التقني والحضاري دون أن يهذل جهداً مناسباً لمساعدة الأمم الأخرى المتعلقة للحروج من النفق المظلم. . نفق التحدي الحضاري . بل كرس هذا التخلف بدرجات أشد وأكثر صعوبة

واسنمر المريوي في نصيحهم مشاعر الاستكبار بشعوب مفتت في سيكولوجية الإنسان الأبيض، وكان من الطبيعي أن تصاب شخصية الإنسان في دول العالم الثالث بالتوتر والإحباط والشعور بالنقص والاسحاق والإحساس بالضعف .

وإذا كان التحريب العقائدي المتعمد أحياناً في مجال المثلوم الطيمية أمراً ممكناً بفكر محدود كتزوير مفهوم القانون الفيريائي الفائل بأن ' المادة لا نفى ولا تسحدث من عدم' فإنه أمر ممكن إلى أبعد الحدود في مجال الدراسات الإنسانية حتى يعكس القول بأن الإنسان لم يعرف في تاريخه الطويل والبعكوب في كثير من مراحل تشويهاً لأتمته كما عرفه على يد بعض المشتغلين بالعلوم الإنسانية في العرب أمثال فرويد، وأمل دور كايم، وكارل ماركس وغيرهم .

بل ممكن القول أيضاً إن هذا التشويه قد أصبح عائقاً نواحه عمدة

تربية الإنسان تربية صحيحة حتى بمقاييس الأمم الأخرى وصوابها الثقافية ومعاييرها المجتمعية، وأدى ذلك إلى حركة ثورية قام بها - فيما بعد - علماء علم النفس الإنساني كما سترى عزيزي القارئ

إن نتائج البحث التجريبي على الظواهر الطبيعية أكثر حاداً من مثيلاتها في البحث التجريبي للظواهر السلوكية، فالنتائج العلمية عن ظاهرة طبيعية معينة كالتمدد الحراري مثلاً بعيدة كل البعد عن نوازعها الشخصية وخارجة عن دوائها، وهي على هذا الأساس لا تؤثر بصورة حاسمة على مشاعرنا الشخصية، فيمكن القبول بها بلا حساسية عفرطة أخلاقياً أو عقائدياً أو وجدانياً، فالمسلم والكافر معاً لا يعترضان على قبول نظرية التمدد الحراري أو المعادن

لكن الأمر يختلف كثيراً في مجال الدراسة الاجتماعية والفنسية والاقتصادية، فلا ينعتق علماء النفس الوضعي أنفسهم على نظرية واحدة لتفسير ظاهرة ما كظاهرة الدافعية عند الكائن الحي، بل تتعدد النظريات في هذا الموضوع إلى درجة كبيرة، وهذا بالتأكيد يقلل من القيمة العلمية لتفسير سلوك ويضعف من موضوعيتها.

ونقول مرة أخرى إن الغرب أدرك أهمية سيطرته على هذه العلوم الإنسانية ليفرض هيمنته على ذهنه الإنسان في العالم بتكاليف غير باهظة أو بتكاليف «من» مما يدفعها في حملاته العسكرية، وأكثر ضماناً لسيطرته، وأنبت الأحداث أن هذه العلوم أعطته قدراً واسعاً لتغيير المفاهيم الخاصة بالشعوب الأخرى

وهكذا اتخذ علماء الغرب - وبخاصة علماء اليهود - من الدراسات الإنسانية أداة يشرعون بها لتزييف شخصية الإنسان وكناته وصوغها بالشكل

لذي يجعله مسخراً لحكمة الإنسان الغربي ومنصاعاً لإرادته، ولو أن بعض علماء أوروبا أحلصوا النوليا لكان الإنسان اليوم في وضع روحي ومعرفي رحلاني أفضل.

وبحمد الله مرة أخرى أن بعض علماء أوروبا نفسها أحسوا بهذا التحلل، فظهرت مدرسة علم النفس الإنساني بزعماء أبراهام ماسلو^١، لحل هذه المشكلة والنظر للإنسان بنظرة أكثر تقدمية تحاول أن تفهمه ككيان متكامل وغير مجزأ.

وطبعاً لا سكر ما أصابته التجربة العلمية الأوروبية في محاولتها التعرف على كيان الإنسان، فقد قدمت نظريات كثيرة - بعضها يحسن وبعضها الآخر يصيب - لتفسير السلوك مثل نظريات فرويد والتعلم والتعليم، والشخصية والعروق الفردية، والانفعالات، والإحساس، والإدراك الحسي، والدكاء وغيرها.

غير أن بعض هذه النظريات لم تحل أبداً من أخطاء كبيرة يعتقد بأن بعضها كان على قصد وتعمد، فأدت هذه الأخطاء إلى تروير حسي - باسم البحث العلمي - لحقيقة الإنسان والنيل من كرامته على مدار تاريخه البعيد، إذ كانت بعض النظريات والتفسيرات المشاية والمقاصرة تستند من أساطير النروا، ولتلمود والتراث الصهيوني اليهودي كما أوضحت دراسة الباحث المصري د. صبري جرجس، وكما ورد في تعبيرات فرويد أيضاً في بعض كتبه.

ونقد سرى هذا التفسير الأسطوري المعادي لكرامته الإنسانية بحجة

١٠٠ انظر العمل الخامس وهوارة (الإنسان والمجتمع) من كتاب (العلم في منظوره الجديد)، تأليف روبرت أندرس، وجورج ستيفن. مجلة عالم المعرفة الكويتية، العدد (١٧٤)

خدمة لإنسان، وفي وسط بيئة تحط من شأن الأديان والقيم والجوانب الأخلاقية والجمالية، وتشجع هذه البيئة على إضفاء الرعة العلمية على هذه التفسيرات الأسطورية.

رئيد، يعتقد أن بعض هذه التفسيرات تأثرت بها نظريات ومناهج العلاج النفسي كمنهجية التحليل النفسي الفرويدية. وإن كانت هناك بعض الأسس المشتركة التي نلتقي فيها هذه النظريات مع مبادئ النظرية الفرويدية والمعرفية الإسلامية في مجال المعالجة النفسية وتحويلها عنها في أسس أخرى

إن بعض النظريات الغربية ليست بريئة بلا شك، لذلك اعترف علماء أوروبيون منحصصون مثل ألكسيس كارليل فرونييه ريس ورجال المدرسة الإنسانية في علم النفس بخطأ بعض ما آمنت به هذه النظريات في فهم الطبيعة البشرية

يقول العالم الفرنسي ألكسيس كارليل «إن الحضارة المعاصرة في موقف صعب لأنها لا تلتزم، لقد أنشئت دون أية معرفة بطبيعتنا الحقيقية، إنها تولدت من حيالات الاكتشافات العلمية وشهوات الناس وأوهامهم، ونظرياتهم ورجائهم»^(١).

وسوف نشير بإيجاز لبعض الأخطاء التي ارتكبها مدرسة التحليل النفسي الفرويدية لتكون لنا شاهداً على قصور النظرة الغربية في فهم النفس حتى أن علماء نفس غربيين من مدارس أخرى هاجموا بشدة هذه المدرسة وحطوا أفكارها وألوهها كفى «الموت» على حد تعبير أحد علماء المدرسة السلوكية الأمريكان

(١) ألكسيس كارليل، الإنسان ذلك المجهول ص ٢٧

إن نظرية التحليل النفسي أكدت في حطوطها العامة - على مادة الإنسان وحيواته، ومطلت إلى طبيعته من خلال الدوافع فقط وأهملت قوة بصوره، وكأن القوة الأخيرة ليست من صميم العفوية، كما حدثت رأيها بصورته في العواطف خمسة هي - الكبت، الجنس، اللاشعور، العفوية، الأحلام. واعتبرت هذه المفاهيم وحدها مفتاح فهم الشخصية.

ومما انصف به التفسير الغربي ومنه - رأي فرويد - هو اعتماد الجزئية في تفسير الطوك، حيث رذ علماء النفس الغربيين سلوك الإنسان إلى طاقة معينة أو إلى دافع معين، ثم أهملوا مع الأسف الاعتراف بوجود دوافع أخرى، بل تجاهل بعضهم للصوابط واعتبرها شذوذاً.

فسيهودي فرويد صيغ كل سلوك إنساني بعصفة جسمية، وتهافت رأي هذا الرجل حين نحى به تفكيره محي متطرفاً فرغم أن الرغبة العسية المحرمة والمكبوتة لاشعورياً مؤولة من مشوه مشاعر التدين ونمو القيم والمشاعيا التي اعتبرها عصابة بشرياً جماعياً، فجميع هذه المشاعر تمت في فترة زمنية مبكرة من تاريخها البشري تحت ضغط الميل اللاشعوري الجسي عند الإنسان

لفرد ص سيجمند فرويد كلماته المشعومة بالمفاهيم والتعصب ضد الأدباء اسمارية^(١) وهو يحاول البحث عن جذور وهوامل نكويها النفسي

(١) استقى فرويد الشعب اليهودي من تعصبه قال في أحد مؤلفاته: «لقد أتت إلى ما تقدم بعد أن تركت أن مرس أصبح على الشعب اليهودي طابع الذي ميره إلى الأبد عن التفرغ الأخرى، فقد وجهه ثقته مداعبه في ذاته، إذ أكد له أنه الشعب المختار وأعلن أنه مارك، ولقرنه سطنت الحروب الأخرى ومجانيها» كتاب موسى والتوراة ص ١٤٧.

والناس في هذه الكلمات المتعجزة التي هي خطاب فرويد عنه لا كلمات سيدنا موسى عليه السلام، يرى أن فرويد قد صيغ نظره للشعب اليهودي بنقرة اليهود إلى أنفسهم، فهم الذين يظنون إلى أنفسهم كتب مختارة وقام بقل موسى عليه السلام شيئاً في قعر اليهود عن الشنوب الأخرى، بل إن موسى

في عنق التاريخ الإنشائي مستعياً من منهج التحليل النفسي الذي ارتبط به كمنهج استخدمه في الكشف عن الحيراث اللاشعورية المكونة في أعناق البشر الإنسانية

ولغراً بعض عباراته المأخوذة من كتبه، يقول فرويد
«إن المذاهب الدينية جميعها أوهام لا سبيل إلى إقامه أسرها
عليها»^(١).

«والحال أن أدبيات البشرية - دون أن يستحي ديماً - يمكن أن تعتبر
هذه بيانات جماعية، وأما الحاجات الدينية فإن ارتباطها بحالة طفلية من التبعية
المطلقة»^(٢).

«وبهذا الثمن يملح الدين بالياسه أتباعه بالقوة ثوب طعنة نفسية . أي
بقاء الطفولة بعد سى البلوغ . . . ويرجعهم جميعاً في هذيان جماعي»^(٣).

«أن ما أزال على يقين بأن الظاهرات الدينية تماثل الأهراس العصبية
الفردية»^(٤)، وهذه المظاهرات كما يقول فرويد «فإن طابع تسلطي»^(٥).

«ملاحظ في خاتمة المطاف وجود توافق يصدد نقطة واحدة بين مشكلة
العصاب المرضي ومشكلة التوحيد اليهودي»^(٦) . . ثم عصابة السلوك الديني
بدي الشعب اليهودي على كل الأديان والمثنيين من الأمم والشعوب .

«بعد ذلك على من حلقه تربيته على يد اليهود، وركزت شريعته على تعميم أنماط السلوك
المرضي لدى بني إسرائيل كما هي مرصه من قرون التي عاينها الأوس وادعى كعبه الأكبر، ومن
الاحتمال يمكن قول الاختراع الفرويدي على سيدنا موسى بتجديته للتشور بالعروق وانعكس لدى اليهود

(١) فرويد، صغليل ومعه، ص ٤٤.

(٢) فرويد، مقال في الحضارة، ص ١٧ - ص ٢٠.

(٣) فرويد، مقال في الحضارة، ص ٢٤ - ٢٥.

(٤) فرويد، موسى والتوحيد، ص ٨٢.

(٥) فرويد، موسى والتوحيد، ص ٨٢.

(٦) فرويد، موسى والتوحيد، ص ٩٦.

«وهكذا يمكن القول بأن الذين حو عصاب البشرية التسلطي العام، بأنه يشق مثله مثل عصاب الطفل عن عقدة أوديب»^(١) إشارة إلى أثر نكت المحسي في تكوين الدين في حياة البشرية، ثم يتوقع «عروف اساس عن الدس عبر سيرورة النمو المحسومة التي لا راد لها»^(٢)

ثم يصف الدين والمذاهب الدينية وصفاً ظاهراً بلا تمييز بينها فيقول

إيها . أي المذاهب الدينية على الإطلاق «بعيدة الاحتمال وصعبة التصديق للعامة، ومتنافسة أشد التناقض مع كل ما تعلمناه بنوع المشقة عن واقع العالم والكون إلى درجة ستطرح منها أن شبهها - مع أخذنا بعين الاعتبار كما هو واجب العرفي السيكولوجية - بالأفكار الهاذية، ومعظمها يصعب الحكم على قيمتها الفعلية»^(٣)

ومع أن فرويد يعترف - مرغماً - بأهمية دور الدين في ضبط الغرائز الاجتماعية على حد تعبيره، إلا أنه يفرز بأن الدين والإيمان بالله قد انتهى لدى جموع الأدميين^(٤) حاصة في أوساط «الطبقات العليا»^(٥) منهم

لذا حاول الإنسان في تاريخه القديم - من وجهة نظر فرويد - أن يتخذ من عبادة التوحيد مظهراً للتدين والعبادة يكفّر به عن دغائيه الجنسية المحرمة المكسوة التي سيطرت على أفراد الأسرة البشرية الأولى، حيث كان لدى أباء أسرة آدم - كأول عائلة بشرية - ميل لاشعوري نحو أمهم وأسمائها عفة أريب، لكنهم وجدوا أناهم عائقاً يمنع تحقيق إشباع رغبتهم الجنسية

(١) فرويد، مستقبل وهم، ص ٦٠

(٢) فرويد، مستقبل وهم، ص ٦٠

(٣) فرويد، مستقبل وهم، ص ١٢

(٤) فرويد، مستقبل وهم، ص ٥٤

نحو الأم ويحول دون نكسة هذه الحاجة، فتأمروا على قتل أبيهم كي يستحدوا على أمهم جسيماً، وبعد انتهائهم من جريمته القتل لأبيهم، احتلوا حول الشخص الذي يحق له الاستئثار بالإشباع الجنسي مع الأم

وترتب عن ذلك الخلاف أن شعر الجميع بالدم والأسف لما صدر عنهم من فعل، وأرادوا جميعاً التكفير عن ذلك الخطأ التاريخي، فلم يجدوا سوى أن يجعلوا من أبيهم رمزاً أخلاقياً تطور فيما بعد إلى عبادة الأب، لم تطورت مظاهرها تاريخياً في أشكال متعددة من العبادة والتدين، وأخيراً برزت بالتدريج في طور عبادة التوحيد لله تعالى التي أكدت عليها الأديان السماوية.

يقول فرويد بلا أدلة ولا برهان قاطع عن علاقة الأبناء مع أبيهم في أول أسرة إنسانية وجدت في التاريخ الإنساني «فقد تضاعف الأبناء المتمردون واتحدوا ضد أبيهم وقهروه وغلبوه على أمره ثم انترسوه سوية»^(١).

وهكذا أصبح التدين^(٢) وعبادة التوحيد والمثل العليا وكل القيم الإنسانية العظيمة كالدم والذكر والحق والصدق وعبرها ثمرة عملية كتبت أئمة بلنزع النجاسة المحرمة التي تمت في حياة الأسرة البشرية الأولى.

وهذا خلاف ما تؤكد عليه إشارات دينية إسلامية من أن سب جريمة القتل الأولى هو حب الرناسة^(٣) وطلبها وما صاحبها من شعور أحد

(١) فرويد، كتاب موسى والوحيد، ص ١٨٠، وكذلك، ص ١١٣.

(٢) يؤكد الدين الإسلامي في صروح الترتيب والنية على أصالة الإحسان الديني وقوة المحبة والجرهية في صبح الحضارات البشرية على امتداد تاريخ الإنسانية الطويل، وقد أثارت هذه من آرائه ويؤبه إلى هذه الأصالة وتعاليمها في توجيه سلوك الإنسان الفردي والجماعي معاً، لهذا قيامه بتحدث عن الدين كعلمه الله في علمه، وأحاديث ترى أن كل مولود يولد على الفطرة فابواه يهودانه أو ينصره أو يمجسه.

(٣) علي، محمد قري، القتل بين الورقة والنية، ج ١ ص ٢٤٤.

لأحوسن بالغيره والحمد والرعية في الانتقام، وليس الرعيات بحسبة
لمكنونة كما يزعم فرويد بدون دليل علمي قاطع.

وكما حصر فرويد تفسير السلوك الإنساني في دائره واحده هي
لجس، فإن نلامذه - أمثال أدلر ويونج - حصروا السلوك في نطاق دمع
جرني آخر كالشعور بالنقص والرغبة في إثبات الذات، فليمده (أدلر) اعتبر
الشعور بالنقص دائماً رئيساً ومحركاً لنشاطنا النفسي وبسوءه الأساسي الذي
تنفرع عنه أمماط السلوك ومظاهرها

وكذلك فعل يونج حينما رذ أصل السلوك إلى منبع واحد هو رعية
العرد في السيطرة وتأكيد الذات، وذهب آخرون مثل كارن هورسي إلى
التأكيد على دافع العدوان، وآمن بريث رابع بأن «حب الذات» هو اندافع
الرئيسي، وركز آخرون على دوافع كالطعام والشراب باعتبارها منبعاً لسلوك
الإنساني، وهكذا نظر علماء النفس التحليلي إلى الإنسان باعتباره كياناً مادياً
وممزقاً.

وهناك خطأ آخر وقعت فيه نظرية التحليل النفسي عندما تمعد فرويد
في عدد من أمحائه إهمال قوة الضوابط النفسية واعتبارها شذوذاً أخلاقياً
يفرض على الإنسان من خارج كيانه كما لاحظنا ذلك في موقفه من تفسير
شاة الشدين والفقيم والمثل العليا، وأماحت هذه النظرة للشهوة أن تطبق
عندها دون قيد، ورغم أن الحياة النفسية الإنسانية قائمة على مبدأ الإحاطات
المنعرة، فمن مشكلات هذه الحياة أن لا توفر للفرد إشباعاً مطلقاً (غير
معد) حتى في اللحظة التي تنزع فيها نفسه إلى تحقيق الإشباع الطلق الذي
لا يلعب إلى الضوابط الموضوعية الشرعة. تلتزم بحكمة العقل ولدين

إن هذا الرأي المتصور أخطأ عن عمد أو بغير عمد في فهم طبيعتنا
اشترية، على الإنسان في مجموعه كلة من الغرائز والدوافع اسبولوجية
المحصنة كما اعتقد فرويد وجورجيو، فحقائق الحياة أقوى وأثبت من رأيه،
فلا يمكن التعامل مع الإنسان من خلال قواه الدافعة محسنة، بل هو كما
تؤكد تجربة الحياة على امتدادها الواسع كيان متوازن يجمع بين قوسي
الدوافع والضوابط، فهما قوتان أصيلتان في النفس البشرية، وتسيران معاً -
حياً إلى جنب - في تنظيم عملية حركة الذات.

لكن المحلل النفسي الفرويدي انطلاقاً من منهجه التجريبي في فهم
النفس الإنسانية أصّر على الاعتراف بالدافعية كقوة عظمى، لكنه أنكر بشكل
غريب وجود قوى ضابطة أصيلة في فطرتنا، كذلك نفهم بكبح النفس
وتحميمها من النشاط الرائد للدوافع. . لقد أنكر وجود القيم والمثل العليا
والشروع الجمالية التي تصفها الأديان على روح الإنسان فأفقدوا بهذا
إنكار روح الإنسان وروح التحليل النفسي معاً

وحين اضطر المحلل النفسي الفرويدي إلى الاعتراف بقوة الضوابط
كان عثرانه بها أسوأ من إنكاره، إذ ردّ نشأة هذه القوة إلى نزعات غرائزية
مكونة كما فعل في تفسيره لنشأة الدين والقيم والمثل الأخلاقية العليا،
وكذلك ردّ نشأة ومعو الحضارة الإنسانية إلى الدافع الجنسي، بل اعتبر
لدين والقيم الأخلاقية جميعاً عصباً طفولياً يحسب الامتلاحة الكاملة لقوانين
المعصية التي رزقنا الله تعالى بها، لذلك طالبنا بالتحلص من هذا العصب

إن التفسير السابق يفسر شؤّه الوجه الحقيقي الباصح للإنسان، بيد أن
مدرسة علم النفس الأمريكي أبراهام ماسلو انتقدت رؤية فرويد ونظريته،
وحاولت النظر إلى الإنسان مرؤية أكثر موضوعية وواقعية فسلطت الضوء

على معنى الجوانب المعنوية من الشخصية، وسأله في هذا القدر عنه،
فمن مشغول عن مدرسة التحليل النفسي نفسها.

يقول المعالج النفسي السويسري أريك فروم

«أصبح علم النفس يقتصر إلى موضوعه الرئيسي وهو الروح، وكان
معباً بالميكانيزمات وتكرينات ودود الأفعال والعرائز دون أن يمس بالظواهر
الأساسية المميزة أشد التمييز بالإنسان. كالحب، والعقل، والضمور،
والقيم»^(١).

أما أبراهام ماسلو صاحب مدرسة القيم الإنسانية فقد قدم تصنيفاً
جديداً للدوافع الإنسانية يشمل بالإضافة للدوافع المادية «الدوافع الروحية
كالعدل والخير والجمال والنظام والاتحاد، ويرى ماسلو أن حاجات الإنسان
الروحية حاجات فطرية يتوقف على إشباعها تكامل نمو شخصية الفرد
ونضوجه»^(٢).

لقد اعترف النص السابق بالدوافع المعنوية التي وضعها الانجاء
العرويدي، ولقد أدت قيمة هذا الاعتراف بإرجاع «ماسلو» هذه الدوافع
والحاجات هي وجودها إلى المطردة، كما أنه ربط إشباع هذا النوع من
الدوافع وبين نمو الشخصية ونضوجها وتكاملها، فتخلص تماماً من النظرة
العرويدية التي ترى الإنسان كياناً مادياً وممزقاً.

ورنكب فرويد خطأ آخر حينما زعم أن المعالم الرئيسية للمكونة
للشخصية الإنسانية تثبت في الطفولة وتحدد في السواب الأولى من أعمارنا
وتظل فيما بعد فترة الطفولة ممطاً تربوياً وذهناً عاماً يسود الشخصية حتى

(١) أريك فروم، صبح، الدين والتحليل النفسي، ص ١١

(٢) عثمان مجدي، محمد / كتاب الفهم وعلم النفس، ص ٢٨

المراحل التالية من عملية النمو ويرافق الذات خلال دورة العمر كله، بل إن هذا النمط التربوي الذي تم تكوينه في سن الطفولة يبقى دائماً، وبسبب تغييره بعد محاور طفولتنا مهما بذلنا من جهد تغري، ويظل نمط الشخصية خلال فترة طفولتها قدرها الذي لا فكاك منه، ولا يمكن تعبيره أبداً وكأنه قدر محتوم لا مفر منه

يقول فرويد بنصب شديد وأعمى «ليس يتنا من لا يعلم أن وقائع السجلات الخمس الأولى من الحياة تُمارس على وجودها تأثيراً حاسماً لا يستطيع أي شيء أن يعطل معوله فيما بعده»^(١)

وبمثل هذا الخطأ مظهراً آخر لوجهة النظر المغالطة بالاحتمية النفسية التي آمن بها لفرويديون، وقد حاول فرويد وصحبه من خلال هذه أسطورة أن يوهن في النفوس قابليتها للتعبير الجذري الشامل، حيث أكدوا أننا لا نستطيع كبشر التحلص تماماً من أثر العادات، والأفكار، والمعالم التي اكتسبناها في سن الطفولة، فهي تمتد إلى كل مرحلة من العمر، نشأ أم أبناً، وتؤثر في حركة الشخصية مدى الحياة طالما أنها عاجزة عن تعديل ما ترغب في تعديله من تجربة الطفولة مهما بدلت الشخصية من جهد مناسب لتعلم جديد يميل أو يصمم أثر الرواس التي نعلمهاها في السنوات الخمس أو الست الأولى من العمر، والتي يعتبرها فرويد المرحلة السمانية الحاسمة المحددة للمعالم الأساسية للشخصية الإنسانية

إن سيجمند فرويد يطرح - هنا - مفهوماً تشاؤمياً يدعو الإنسان إلى مقاومة كل الدعوات الإلهية والإنسانية التي تحث الناس على تجاوز ميثاق الماضي واستبداله بما هو أفضل، فهذا التعبير الفصالح سرع من انعكاس

البشرية دعنها الصادقة في التوبة والتغيير وتعديل السلوك، وبعمل أعمالها الدخول إلى حياة البراءة والتوبة النصوح التي تمثل رحمة الحبيب مستدرة في الطبيعة الإنسانية، ومذلك ساهم فرويد وزيانينه معهداً في عراق الشربة في ظلمة الحتمة النفسية ومتاعها.

وخلالاً لتفسيرات فرويد المتعصبة يقدم المنهج التربوي الإسلامي للإنسابة رؤية إيجابية تعتمد المعالجة الشاملة لأوضاع الذات في ماضيه، وتركز على إنسانية الإنسان لا على الجانب الشهواني منه فحسب، فالنصوص الإسلامية ترى الشخصية وحدة متكاملة تتوازن فيها قوتها البدنية والصبغة، وتتألف فيها بواضع الروح والجسد والعقل، وتنظم في اتجاه واحد يؤدي إلى بناء شخصية متكاملة.

وهذا المنهج المنفرد - لمصدره الرباني - لا يركز على مرحلة من العمر دون أخرى كما تفعل بعض مدارس علم النفس أمثال مدرسة التحليل النفسي، بل يوزع جهده وأحكامه وانتماءاته بالتساوي والدقة تنظيم الذات البشرية في كافة أدوارها السمانية بلا مبالغة أو انحياز لمرحلة دون أخرى، وهو أي الإسلام. لا يرى ابتداءً في صغارتها المكتسبة في طفولتها قيداً يمسها من تغيير ما مأفقا، بل إنه يرى إمكانية تغيير نمط الشخصية في مرحلة لاحقة للطفولة خاصة في سن الشباب والرشد، ولا بكر الإسلام أثر الرواسب السائكة في النفس وقوة حركتها خلال فترة التعبير

يبد أن مطالب المشزع التربوي الإسلامي بتعبير ما بالنفس واصحة، ونعمي أن يسمى المسلم معالجا ومريضا - للبحث عما في النفس من رواسد الخير لتبثيتها وإيمانها، والبحث عما في النفس من رواسد الشر ولصعق لاستئصالها وتبديلها بفضائل وفيه يرتضيها الإسلام للإنسان

لذلك يؤكد المذهب الرمزي الإسلامي بأن الشخصية قادرة على أن
سجدت في كل مراحل العمر كلما تمكن المربي المسلم من توفير الشروط
المناسبة اللازمة للتحرمة التفسيرية عملاً بقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُعْزَمُ مَا
يَقُولُ حَتَّى يَنْتَهِي مَا يَأْمُرُ﴾^(١)

لقد سلب الفكر العرويدي حرية الذات وإرادتها في التحجير، وجعل
مها كلاً حوياً تستدل الضهوة، وتسرع منه الشعور بالمرّة والكرامة، أما
مذهب الله تعالى فلا يقبل للمؤمن أن يكون عبداً دليلاً يلهث وراء الإشباع
الرائد عن الحاجة على نحو يلزم فيه حرية الإرادة ويقتل همته رحيبته، بل
يبحث على نموذ نفسه على إشباع مقيد ومنظم يساعد على إنجاز مهمته
العبادية عملاً بقوله تعالى:

﴿وَمَا خَلَقْتُ الذَّلَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(٢)

وانسجاماً مع النص القرآني الكريم

﴿زَيْنَ الْإِنْسِ سُبُّ الشُّمُونِ بِنِ الْإِنْسِ وَالْإِنْسِ وَالْقَنَاطِرِ الْمُفْتَطَرِّ بِنِ
الْأَمْسِ وَالْإِنْسِ وَالْعَبَلِ الْفُتُورِ وَالْأَشْفِ وَالْعَرْشِ ذِكْرُ مَنَافِعِ الْحَبَرِ الْأَدْنَى
وَأَقْبَى هَدْمُ شَرِّ الْمَلَأِ﴾^(٣)

وتوارث النصوص الشرعية التي تشحن المؤمن بالمرّة والفكرة على
مواجهة مشاعر الدونية وضعف الإرادة، تقول هذه النصوص

﴿إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَجَلَّ فَوْصَ الْمُؤْمِنِ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا أَنْ يَدُلَّ عَلَيْهِ﴾^(٤)

(١) سورة الرعد ١١

(٢) سورة الدارجات، ٦٥

(٣) سورة آل عمران، ١١

(٤) مبرهن بالحكمة، ج ١ ص ١٤٦

«ما أفصح المؤمن أن تكون له رغبة مثله»^(١)

«من ترك الشهوات كان حراً»^(٢).

«إذا كثرت المقفلة قلت الشهوة»^(٣).

وإذا كان مسيح التحليل النفسي يرى في الإشباع العاجل - لشهواننا - ضرورة أساسية نضمن للمرء توافقاً نفسياً، وأنه يرى تأجيل هذا الإشباع لأي سبب هو حرمان للمرء من متع الحياة وملذاتها، وهو كبت قاتل بحيث في النفس حبوتها وحسوبيتها، وأن المسح الرباني يضع نصوراً بعيداً كل البعد عن نظرة فرويد، حيث ينظم إشباع حاجتنا بمفاهيمه العبادية وينظرونه الخاصة، فهو يمتد من البداية بالشهوات كجبره أساسي من صميم فطرتنا كما أوضحت الآية السابقة الذكر

ويرى أن الشهوات «متاع» مباح للإنسان يجب إشباعه في اللحظة المناسبة وبمقدار الحاجة، ويؤكد في الوقت نفسه على ضرورة نصريف طاقاتنا المعطية في مجالها الطبيعي وبأساليب السوية، ذلك المجال الذي يتيح للنفس أن يسير في الاتجاه الصحيح، ثم يضع المشرع التريوي الإسلامي بعد ذلك الخطوات العلمية والعملية اللازمة لإشباع كل شهوة على حدة. وتحقيق التوازن الداخلي في حركة الذات بين متطلبات الذات ومتطلبات الواقع ومتطلبات المشرع.

ومع ذلك كله فإن المشرع التريوي الإسلامي لم يؤدأ استجابة لسمعة عاجله إلا إذا كان الموقف النفسي للمرء يقتضي الإشباع العاجل

(١) تفسر المغزل، ص ٣٦٤.

(٢) المصدر السابق، ص ٦٥ / ٧١.

(٣) موج البلاغة، ج ٤، ص ٥١.

مبحاظ على ماء الذائب، بل إنه دعا بوضوح إلى تأجيل الإشباع صالماً أن الفرد المسلم - خاصة في الظروف الحرجة - لا يستطيع الحصول على الإشباع السوي من وجهة النظر الشرعية، فدعا على ميل المثال إلى تأجيل الإنسان إشباع حاجة الفرد إلى الجنس. أي تأجيل الزواج باعتباره الاستجابة الجنسية المقبولة شرعاً لمدة ماضية تكون فيها الظروف أفضل، وهكذا بالنسبة لتأجيل شهوة الأكل والشراب وغيرها.

يقول الحديث الشريف

«طوبى لمن ترك شهوة حاضرة لموعود لم يره»^(١).

وفي حديث سوي أمر النبي صلى الله عليه وآله وصحبه بقسط الإشباع وترك المنعة العاجلة. ويقول النص النبوي:

«من أكل ما يشتهي، ولبس ما يشتهي، وركب ما يشتهي، لم ينظر الله إليه حتى يمزق أو يتركه»^(٢).

ويقول الإمام علي بن الحسين (دين المبادئ) عليه السلام:

«من كرمته عليه نفسه هانت عليه الدنيا»^(٣).

هذه بعض حبوب نظرية التحليل النفسي وأخطائها التي عصب بها انتقد من كل حذب وصوب، ولكن بعد أن دمت سمها الرعاف في العقل السري، مدفعا النص القريون خاصة أطباء المعالجة يحاولون اليوم انتزاع نظريات أخرى تتعادي أخطاء فرويد.

(١) بحب العيون ص ٤١.

(٢) المصدر السابق، ص ٣٣.

(٣) التكملة السنية، ص ٢٠٠.

وقد نصاربه الاتجاهات العلاجية التي تبسها هذه النظريات، رغم أن بعض هذه النظريات دفعت بحركة العلاج النفسي إلى وضع أقصر، وقدمت أفكاراً علاجية جديدة بالتقدير كما نجد ذلك في العلاج السلوكي، والعلاج النفسي الواقعي وغيرها من النظريات العلاجية القائمة على التوجيه والإرشاد والاستصاري للقاء على وعي الإنسان للمشكلة السلوكية ومواجهتها.

نظرة علاجية واقعية:

سوف نشير بإيجاز إلى بعض المبادئ النفسية العلاجية التي تبسها نهج العلاج النفسي الواقعي بزعماء عالم النفس الأمريكي (وليام جلاسر)، وهي مبادئ سيكولوجية وتربوية قريبة إلى حد ما من مبادئ المعالجة النفسية الإسلامية للمرض النفسي وتعديل السلوك بما يتفق مع أهداف ومحتوى نظرية العبادة الإسلامية.

لقد أشار وليام جلاسر إلى مبادئ تربوية وسيكولوجية إيجابية فعالة يلتقي في خطوطها العامة مع أسس النظرية التربوية الإسلامية كمبدأ تحمل المسؤولية، والتأكيد على قيمة الفرد، والتركيز على أهمية المستفي من حياة الإنسان، والانصراف تماماً عن البحث في ماضي الفرد المريض إذا كان سيئاً لا جذرى منه، واحترام خصوصياته الشخصية، وعدم اهتمامه بفكرة اللاشعور المادي الذي تحدث عنه الفرويديون، وضرورة دمج الفرد في بيئة صالحة تساعد على تحقيق التوافق والرضا.

وفي هذا الشأن يقول الأستاذ طه صديقي

«وإني لأعتقد أن العلاج النفسي الواقعي - الذي يمارسه جلاسر - يلتقي في ركائزه مع أسس إسلامية من حيث عدم تكامل هذا العلاج، وعدم اهتمامه باللاشعور المادي، ومن حيث انصرافه عن البحث في ماضي

المريض، ذلك أن المريض يرتبط بخصوصيات الشخص، وتلك بها كل الحُرمة والصون في فِكر الإسلام، وهو ما يلتزم به بديهياً مع سليم العطر، سواء كان المريض مسلماً أو غير مسلم، فليس من الحكمة أن يسعدى المعالِج النفسي - تحت أي عذر - دوره الذي حدّدته نظرية العلاج الواقعي، وبمباراة واضحة وإن الذي يحاك في النفس من أحاديث، وما يرد على القلب من سيئ الأحاسيس يجب ألا تكون محل جهر، ولا موضع مناقشة^(١)

وأكد العلاج النفسي الواقعي على نقاط أخرى أساسية لها دور كبير في المعالجة، مثل ذاتية العلاج، وتوفر المعالج وصرورة توطيد العلاقة بين المعالج والمريض.

يقول الأستاذ طه صديقي مرّة أخرى.

وفي هذا المقام يرى من الأهمية مكان مناقشة العلاقة بين المعالج والمريض من وجهة نظر العلاج الواقعي، ثم نعرضها على وجهة النظر الإسلامية، فالعلاقة التي يتطلبها العلاج الواقعي بين المعالج والمريض إنما تأتي على النحو المطلوب إذا كان الأشخاص من نفس الجنس (ذكور مثلاً)، وقد تنعكس النتائج إلى النقيض إذا كان المريض من جنس ذكر مثلاً والمعالِج من جنس آخر (أنثى)، وهذا يتفق تماماً مع الفكر الإسلامي

ولبيان الأمر بجلاء أكثر، فإننا نعلم أن العلاقة التي يتطلبها العلاج الواقعي بين المعالج والمريض لا مدّ أن تكون علاقة حميمة، وحشد ذاته يتحتم أن يكون المعالج من نفس جنس المريض بالنسبة للمسلمين نظراً إلى قيم العفاف الكامل التي يعرضها الإسلام عليهم، وفي ضوء ما علمناه من

(١) منه السلم المعاصر، العدد (٢٩) من ١٤-١٥ هـ ١٩٨٢ م. مقال الأستاذ طه صديقي ص ٧٩

طبيعة العلاقة بين المريض والمعالج نفسي. فهو يكون في مسير معالج غير مسلم القيام بعلاج مريض مسلم؟

وإذا لم يتوفر المعالج المسلم من يمكنه تحمل تحدي هذا المريض مناكله مع معالج غير مسلم؟ هل توجد مشكلة مع معالج يجه صعوبة باللغة في فهم إشارات إسلامي. وقد يحصل وجهة غير متجانس تماماً مع عقيدة الوحدة الإسلامية؟ وإذا برأعت، هل هذا يحتاج مشورة لاكتساب معه كسليم^(١) ؟.

إن المعالج النفسي الواعي يؤكد على ضرورة أن يكون المعالج راغباً في من جس واحد كفي نتج عملية المعالجة النفسية. وهذه الفكرة لا يزيد لها فقط المعالج النفسي الواعي. بل يمتد مع وجهة نظر المشرع التربوي الإسلامي. لأن قضيته الأخلاقية والعضوية يرغب في انتقاء المعالج والمريض إلى جس واحد. ومن ثم تهيئة مروج المعالجة والتمكث فيهما.

وهذا أمر ضروري لضمان انتقاء في المعالجة النفسية ونحو نتائجها، فهناك - كما يعلم القارئ - أسرار خفية تعبر طبيعة الأثر النفسي من معالجة معالجه لتؤكد معالجه من الرجاء. كما أنه لا يمكن أن يعالج بأسراره الشخصية ولا يغد في معالجة معالجه هذا في حد ذاته. إذ كانت الأسرار ذات صلة بالعدية والمخاوف ذات الصلة لاجتماعية حديثة كضعف الجنسي.

وإن كان ثقافة العلاج النفسي لا تقضي به وجه حلل تحت من

معنى المبادئ الأخلاقية في المعالجة النفسية، ويتفق مع الإسلام في عرس
 هم الفصل، وإحياء الشعور بالمسؤولية وتأكيد قيمة الذات الإنسانية، رغم
 أن الهدف العام للمعالجة النفسية في الإسلام ليس محصوراً في السعي وراء
 تحقيق توافق نفسي أو صحة نفسية فحسب، بل هو سعي إلى هدف أهد
 وأكثر أهمية هو رضا الله تعالى وطاقته وعيادته، وهو هدف يصر إلى الإنسان
 المؤمن تحقيق شروط الصحة النفسية وأهدافها العبادية.

إذا كان العلاج النفسي الواقعي - باعتباره جزءاً من المدرسة السلوكية
 - يرد على أخطاء طريقة العلاج النفسي العرويدي فإنه من الأولى أن يصوغ
 المفكر المسلم نظرية متميزة في العلاج النفسي تتسجم مع العلاج القرآني
 وانبوي واجتهادات أئمة الإسلام وعلمائه.

الفصل الرابع الذي منيت به مناهج العلاج النفسي الغربية وتضارب
 صاربه في نظرتنا (سبب معقول وصوغ أساسي) لصياغة نظرية إسلامية في
 معالجة النفس ومدادها عيوبها الأخلاقية والوجدانية والسلوكية

ولا يجب أن تكون نظرية العلاج النفسي الواقعي أو غيرها، رغم
 النقدها بعض الأسس الإسلامية العامة والتفصيلية بدلاً عن النظرية
 الإسلامية، ويمكن للمعالج المسلم أن يستثمر كذلك تجارب الآخرين
 ويوظفها في تحرير النظرية العلاجية الإسلامية واستخدامها في ميدان العلاج
 وتعديل السلوك الإنساني.

ويعتمد شخصياً - أن الدعوة لصياغة نظرية إسلامية في العلاج
 النفسي تسهم بقدر كبير في فك قبضة العرب عن الذهنية للمسلمة وتحريرها
 وتخلصها من هيمنة بعض أفكاره العاسدة التي تمحو تميز الذات المسلمة

صحيحاً للسلوك الإنساني وبيئاته، فينبغي تعزيزها وأخذها والاستفادة منها
لأنا مطالبون بأخذ الحكمة أنى شأنا

ويلاحظ كذلك أنه حتى النظريات والأفكار العربية التي تلغى مع
بعض معتقداتنا لا تجعل الذات المسلمة معيرة عن غيرها، لأن هالك نساء
أخرى لا تؤكد عليها هذه النظريات، ولأن هذه الأسس المشتركة لا تعالج
تماماً بروح إسلامية خالصة، ولا تعتمد الوسائل التي يفرضها المشرع
لتربوي الإسلامي، فمثلاً يمكن الأحاد بعكسة العلاج النفسي الواقعي
بضرورة انتماء المصالح والمريض لجنس واحد نوعياً للعلاقة بينهما أولاً،
وتسهيلاً لحركة العلاج.

لكن المصالح النفسي الواقعي قد يقترح لمرصاء علاجاً يرفضه الإسلام
كتشجيع المريض على غيبة الآخرين خلال فترة المعالجة بفرض أحداث
نحس في حالة المريض، ومع أن الغيبة كسلوك مرضي يكرس العدوانية
ويقتضي العلاقات الإنسانية إلا أن المصالح يمكنه - إذا اقتضى الأمر - أن
يستأذن الشخص الذي تم اغتيابه ويأخذ منه حصصاً شرعية، فإن أود بذلك
حفظ أسرار، وفي الوقت نفسه يحمي مريضه على تجنب هادة الاعتباب
للآخرين، ويسمى إلى إصلاح العلاقة بين مريضه والفرد الآخر الذي تم
اغتيابه في الجلسة العلاجية، وإزالة الشحنات الوجدانية المتأزمة المحتزنة
في نفسه المريض.

إن بعض نظريات العلوم الإنسانية تحاول أن تربى الإنسان على أن
يكون شخصاً بعيداً عن منهج السماء وتسمى - بقصد ويعبر قصد - إلى تسمية
مشاعر الحسرة والمفلة والذوبان في بوتقة الثقافة العربية، ومن المؤكد أن
إنساناً التي توصلت إليها بعض هذه النظريات ليس بالأؤكد حفائز

موصومة بسحيل علنا ردها، فهي في واقع الأمر مجموعة مصورات استقت عن مفاهيم العرب عن الله والكون والإنسان، وهي مفاهيم ناجمة عن تجارب الصراع عبر السوي من الكيكة والعلماء خلال فترة النهضة العلمية. وما المشاكل التي تخلق إنسان اليوم سوى ثمرة ذلك الصراع وصدء وسرب المفاهيم العربية إلى أذهان الشعوب، وهذا يعني أن مجرد الموجهة لهذه الإنكار ليس كافياً لتحرير الإنسان من تأثيرها السلبى

لذلك يجب أن يطرح الإسلام نظريته في العلاج النفسي كجزء من برنامجه العام عن الإنسان والحياة والخلق، وأن تصاع نظرنه المحكمة في كافة المجالات ومعالجة المشكلات المتنوعة من جديد وفقاً لتصوره العقائدى المستمد، ولا يكفى أن نعتقد مفاهيم الغرب وتصوراته في العلاج النفسى، رضع العلامات حول سلبياته دون إعداد لمهيج إسلامى واقعى يتمهد بصياغة للذات المسلمة المعاصرة مرة أخرى بمعايير الشرعية، ولا يقصد بالتأكيد حذف التجارب الإيجابية والناجحة والواقعية المضينة لتي يفجرها العقل الإنسانى في الغرب والشرق، فهذه التجارب كما قلنا مراراً رصبد طبيب يعزز النظرة الإسلامية العلاجية ويخدم الإنسان ويحرره من أزمته أو يحفف منها على الأقل.

وبحمد الله عز وجل على ما أسبق وأنتم، فظاهرة الصحة الإسلامية أحدة في النمو والامتداد والاتساع في البيئات العربية والإسلامية، وتطل برأسها حياة بعد جس حتى في المجتمعات الغربية معوها. وليس من لمسانعة في شيء أن نعول إن هذا التحول النفسى والعمائدى قد أدى إلى انحصار معدل رصد الإحباط الموجود في نفسية الإنسان المسلم تجاه التنوع العربى، إذ يدأب بين فتات المجتمع المسلم موارد الانحاء إلى

المشكلات الشربة حمل بعض العلماء الأوروبيين على البحث عن مهج آخر يعالج حالات القصور ويعمادى الأخطاء التي ارتكبتها النظريات العربية، من أسمهم بعضهم أمثال جارودي ومحمد أسد.

وكان بعض المثقفين المسلمين المعاصرين إلى سولات قليلة جلب - وما يزال بعضهم حتى الآن - يعانون من عقدة وأزمة الهرطقة سسمية والحضارية، فجاءت هذه الصحوة المباركة لتلقت الأنظار إلى ضرورة بدن الجهد المخلص لإعادة كتابة وجهة النظر الإسلامية في كافة مجالات العلوم الإنسانية، وكانت علوم النفس والاجتماع والاقتصاد أوفر هذه العلوم حظاً، حيث نمكت بعض الدراسات والأبحاث من الفياض بواجب أداء المسؤولية العسمية وتأسيس وجهة نظر المشرع الإسلامي في هذه العلوم، وما يزال نبات مشرماً لدراسات أكثر بضجاً سواء في هذه العلوم أو في غيرها.

ومما لا شك فيه أن بعض هذه الدراسات مجرد محاولات أولية لم تنخلص بعد من نموذ وبسطرة المعرفة العربية في الإنسانيات، لكنها على الأقل كانت أكثر ثمرناً من بعض الدراسات القائمة على تقليد أعس النهزمي للمهيج الغربي التي كتبها عرب ومسلمون، كما أن جهوداً أصيلة مغلصة اقترنت كثيراً من معالم النظرية الإسلامية، فأغلب هذه المحاولات - رغم تعاون الجهد - تهدف إلى تعريف الآخرين بالخطوط العامة والتنمصيلية للنظرية الإسلامية في التربية وعلم النفس والاجتماع الشري والتنظيم الإداري والسياسي والقانوني وغيرها.

لقد كانت النظرية التربوية الإسلامية مدعوة في مصادرها الأساسية الأصلية (القرآن والسنة)، لكن ظروف التخلف الحضاري ومشكلاته وأوصاره وضعت العلم في المواجهة والتحدى الصعب، وذلك نحاربه بعد

طول معاناة على أن إصلاح المجتمع المسلم يجب أن يتم بنسب الإسلام ذاته
ومعاصرة الأصولية التي تضمن استجابه لمتطلبات الواقع ومتغيرات الزمان

وسأحد مثلاً على ذلك يؤكد المسنق التاريخي للإسلام في مجال
الأفكار الصحيحة، حيث توصل عالم الاجتماع البريطاني (كولس ولسن) إلى
فكرة قرآنية تمثل قانوناً أو سنة تاريخية واجتماعية، وذلك عندما ربط بين
تغيير الأحوال المادية للإنسان وبين مسألة التعبير الداخلي لعدوات البشرية
واستبدال محتواها النفسي والذهني.

وطر العربيون وروائيهم أن هذا العالم أصاب شيئاً جديداً لثروات
البشرية، رغم أن هذا المبدأ الذي دعا إليه (ولس) ليس كشافاً جديداً تعرفه
ابشرية لأول مرة في تاريخها، فقد عرفه العربي المسلم وبعض علماء
الاجتماع المسلمين قبل قرون أمثال ابن مسكويه، ونجح هؤلاء العلماء
بمهادرة في تحديد قيمة العلمية عندما كان الوجدان الإسلامي نوباً.

والتاريخ يشهد على نجاح المسلمين في تغيير أوضاع شعوب بأكملها
وإصلاح أحوالها لفترة مؤقتة، بل إن حركة النبي محمد (عليه وآله صلوات
الله وسلامه) في تغيير مبس المجتنب القلي بالحريرة العربية دليل على
استيعاب المسلمين ونطبقهم لهذا القانون، وبالطبع لا نقصد من ذلك
النهرين من جهد (ولس) وعلمه، بيد أن إقرار الحقيقة وتسجيلها لأصحابها
حق لهم أمناً وأمانة علمية لا يمكن تجاهلها.

سألاية القرآنية الغائلة: ﴿لَيْسَ كَلِمَةٌ تَكُنْ لَا يَمُوتُ مَا يَقْوَرُ حَتَّىٰ تُبْعَثَ مَا
بَأْتِيَهُمْ﴾^(١) تمثل قاعده اجتماعية أساسية في تعبير المجتمعات وتحولها

على قاعدة التمييز الداخلي لمحتوى الذات البشرية، وهذا ما دعا بعض علماء الاجتماع المسلمين في قرون سابقة كاس مسكويه إلى القول بأن صلاح المجتمع يبدأ أولاً بعملية إصلاح العوس، فالعوس هي اسيدار الأول التي يمكن منه المصلحون الاجتماعيون من تكوين وسج المجتمعات الصالحة المؤمنة، وإذا بدأت عملية تغيير ما بأنفس الأفراد وتعديل المحتوى الداخلي للذات الإنسانية تغير - تبعاً لذلك - البناء العرقي للمجتمع كما حدث في الجزيرة العربية والمجتمعات المحيطة بها

وقد تصدى ابن مسكويه لمناقشة مسألة إصلاح النفوس وأثرها في تعديل السلوك والمجتمعات الإنسانية في كتابه (تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق)، وذلك حين جعل ابن مسكويه من هذه المسألة هرضه الأساسي من تأليف كتابه المذكور في الصمحات الأولى، فقال رحمه الله تعالى: «غرضنا في هذا الكتاب أن نحصل لأنفسنا خلقاً تصدر به عما الأفعال كلها جميلة، ونكون مع ذلك سهلة علينا لا كلفة فيها ولا مشقة، ويكون ذلك بصناعة وعلى ترتيب تعليمي»

ثم أجاب على ذلك بعدد من التساؤلات فقال: «والطريق في ذلك أن نعرف أولاً موصفاً ما هي؟ وأي شيء هي؟ ولأي شيء؟ أعني كمالها وكمالها، وما نواها وملكاها التي إذا استعملناها على ما ينبغي بدنا بها هذه الرتبة العلية.

وما لأشياء العالقة لنا عنها؟ وما الذي نركبها فعلح، وما الذي مدسها فخب؟ فإنه عز من قائل يقول: ﴿وَقَرْنَ وَمَا سَوَّاهَا ۚ﴾ (٢) ﴿فَأَقْصَىٰ كُورَهَا ۖ وَتَقْوَاهَا ۚ﴾ (٣) ﴿فَدَلَّحَ مَن رَّكَّبَهَا ۚ﴾ (٤) ﴿وَقَدْ سَابَ مَن تَسَنَّا ۚ﴾ (٥) ﴿١﴾

(١) ابن مسكويه، كتاب تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، ص ٢٧- ٢٨. والآيات ٧- ١٠ من سورة النور

ثم تناول في كتابه مبادئ صيانة الذنوب ووقايتها، وكذلك أساليب علاجها في ضوء مبادئ فيمي فعال يركز على نظريته الوسط في الأخلاق لسفل انذات من ضد سلسي (عصاب) إلى ضد إيجابي وسوي أي من رديلة إلى فضيلة تصادها

إن الدعوة إلى ضرورة إصلاح المجتمع من خلال تغيير النفس ليس بشكراً جديداً تعلمناه من الفكر الاجتماعي عند ولس، بل هي قاعدة الإسلام في بناء المجتمعات وصنع النفوس، عبر أن ما أصاب المسلمين من بعد عن الله سبحانه ومن تخلف في المعرفة الاجتماعية (القرآنية)، حجب الوعي بهذا اللقانون عن الأذهان، وظلت مدفونة إلى حين مناداة (كولس ولس) بها في السنوات الأخيرة، فحبه الغريبيون إضافة جديدة للمفكر الاجتماعي، لكننا كمسلمين نعتبره إحياء لسدأ إسلامي أهملناه بسبب قصور نهمننا للإسلام، ومع ذلك مقرر لهذا المفكر جهده في لفت النظر لهذه القاعدة الإسلامية المعطلة^(١).

وعلى كل حال فإن ظروف مجتمعا المسلم المعاصرة تعتبر داعماً لتجديد المبادئ الإسلامية واعتمادها في صياغة نظرية العلاج النفسي، وقد أصبح هذا المصطلح - بحاجة في عصر تلقى تزايدت فيه الأمراض النفسية - ضرورة شرعية ومسؤولية علمية ضخمة على عاتق المسلمين المثقفين اعممين في حقل التربية والمعالجة النفسية.

(١) كتب بعض العلماء والمفكرين المسلمين المعاصرة أبحاثاً ودورات متعددة بحث موضوع النفس البشرية والفكر الاجتماعي والذات قاعة تغيير المجتمع وإصلاحه بناء على قاعدة غير المحوري الفاعل في هذا الإسفة، ومن هذه الدورالاف ما كتبه الأستاذ سعيد جودت في كتابه (حسن بيرو ما مأصهم)، وكذلك كتاب (النفس البشرية في القرآن الكريم) للشهيد السعيد العلامة السيد محمد باقر الصدر ومن الكتب المعروفة لدى القراء بالتصير الموضوعي للفرقاء، وأيضاً ما كتبه الشيخ الركناني في كتابه (النفس البشرية في القرآن الكريم).

القيم الإسلامية وعملية العلاج النفسي:

أكدنا في قبل على مسألتين:

١ - أن هناك اتجاهًا جديدًا يعمو في الغرب، ويحاول تفعيل القيم الدينية والروحية والأخلاقية واستثمارها كطاقة متوجهة في معالجة المشكلات السلوكية وفي عمليات العلاج النفسي وتعديل السلوك، وقد ترعى هذا الاتجاه بومع وفكتور استايكل وإبراهيم ماسلو أحد مؤسسي مدرسة علم النفس الإنساني وغيرهما.

٢ - أن الإسلام في تجربته الإنسانية المتأصلة في أحماق دانا الحضارية قدم نفسه القيمي والمعرفي ليعتد الإنسان برعاية وقائية وعلاجية وإيمانية.

لذلك أصبح من الصعب على الباحثين التربويين المسلمين، وكذلك علماء العلاج النفسي المسلمين في عصرنا إقصاء القيم والفضائل الروحية والأخلاقية في أية محاولة لبناء أو صياغة النظرية العلاجية الإسلامية لعلاج السلوك وتعديله، لأن لهذه القيم أهمية تربية قصوى، لهذه القيم بمختلف أشكالها وأنواعها تمثل دعامة رئيسية في هذه النظرية

وقد لا يبلغ إذا اعتبرنا «القيم» الممود الفقري للنظرية الإسلامية في مجال تشكيل السلوك الإنساني وتكوينه، وهي جوهر الذات الإنسانية وروح المنهج لتربوي الإسلامي، لهذا آثرنا أن نتناول في عجاله العلاقة بين القيم وعملية المعالجة البكولوجية بطريقه الأضداد، ونوضح أهميتها التربوية في تعديل السلوك غير المرغوب فيه، ونأصيل سلوك إيجابي سوي مرغوب فيه يسهم مع المعنى العبادي لهذه القيم

يقول أحد الباحثين المسلمين المشغولين في جعل علم النفس

أن حظيت المباحثات الأخلاقية بمناقشات تفصيلية ودرجات متباينة للتأكد في حمس من محالات البحث المعكري الإسلامي، وهي دراسة تعاليم الإسلام كما وردت في القرآن والحديث، وعلم العقيدة، وعلم الكلام، وفلسفة والتصوف.

كما أن الأشكال المتنوعة التي تتميز بها طبيعة هذه الفروع وأهدافها قد تركت بصماتها على الاتجاه الذي يمكن أن تسير فيه مناقشة موضوع الأخلاق ومجالها داخل فروع المعرفة هذه وعلاقة هذا الاتجاه ونلك الأهداف بالموضوعات الأخرى مثل علم النفس والميتافيزيقا والمنطق، ولم يحظ هذا الارتباط بالدراسة الدقيقة التي يستلزمها حتى الآن^(١).

لقد ركزت المجالات السابقة بدرجات متفاوتة على موضوع «القيم» و«الأخلاق»، وظل هذا التركيز يطاول الزمان ويتجدد حتى الآن؛ بيد أن بعض العلماء المسلمين المعاصرين حاولوا في الآونة الأخيرة توسعة نطاق «المجالات» المعرفية التي لها علاقة بالقيم والأخلاق، وتوظيف القيم الإسلامية في مجالات أخرى كعلوم السياسة والاقتصاد والتربية والتعليم، وميدان الدراسات الميكولوجية موجه عام، والملاحح النفسي وأساليب الإرشاد خاصة، وذلك لإبراز فعاليات جديدة للقيم والأخلاقيات في مجالات معرفية أخرى يستوعبها المشرع الإسلامي بصورة التربوية، وبما صدرتها ميدان الدراسات العلاجية النفسية.

ومما لا شك فيه أن «القيم» الأخلاقية والدينية والجمالية والإدراكية تمر دعامة أساسية في نسيج النظام المعرفي الإسلامي، ولا يستطع

(١) بحث الأستاذ محمد أبو القاسم المنتور بسجله السلام المعاصر، المجلد (٢٤) وعنوانه (علم النفس والأخلاق في الفكر الإسلامي)، ص ٩٤.

المهتمون بدراسة هذا النظام إغفال «السؤال العيبي» المتنوع الذي عرّضت
 مصوص المشرع التربوي المسلم لصياغة شخصية الإنسان وتكوين بانه،
 لذلك أصبح محال القيم في دائرة اهتمامات المشرع الإسلامي مد السحطة
 لتي مرل فيها أول معنى ديني يتحدث عن قيمة التعلم.

وأوحى هذا الاهتمام - كما يبدو - لبعض الباحثين والعرب المسلمين
 المعاصرين بدراسة سيكولوجية «القيم» الإنسانية وفعاليتها وعلاقتها بخصايها
 الثرية والفروجه والإرشاد والعلاج النفسي في الوقت الحاضر، وذلك لإثبات
 أنه يمكن دراسة علاقة القيم ببعض المتغيرات كالتعليم، والثقافة، والدفاع
 عن الأنا، والمسلطة، ويمكن تجسيد الأهمية التطبيقية للقيم الإسلامية من
 خلال هذه الدراسات.

وبالنسبة إلى تمتد هذا المجهود مع المبتدرون الثقافي الصخم الذي تركه
 ابعماء المسلمون على امتداد أربعة عشر قرناً متتابعاً من الزمان، ويتداخل
 مع إنتاجهم الفكري خلال التاريخ المذكور، فيفوق هذا الاتجاه نحو تأصيل
 «موضوع القيم» وضخ الدماء الجديدة فيها وتوظيفها في مجالات معرفية
 يحتاجها المجتمع المؤس في عصر «قلق»

صحيح أنه ما يزال هذا الاتجاه الجديد في بداياته الاجتهادية، وهو
 أشبه بطرف لم يقف بعد على قدميه، لكن التراكمات المعرفية المتوقعة
 حاضراً ومستعلاً سوف تتيح له النمو الطبيعي المأمول والمعروف نشأت،
 بحيث تنوع في النهاية دائرة الاهتمام بموضوع القيم واستخدامها في
 مجالات ودوائر المعرفة الإسلامية الشاملة.

إن هذه الدراسة التي بين يديك تحاول أن تستفيد من هذا المعهود
 المعرفي ومن بعض الدراسات السيكولوجية التي احتتم بموضوع القيم

الإنسانية بوجه عام وبالقسم الإسلامية خاصة، لكنها تحاول ما أمكنها الاعتماد على الصوص التربوية الإسلامية لإدراك الوظيفة التربوية للنفس وأهميتها في مجال العلاج النفسي وتعديل السلوك بالمعاني والممارسات المعيارية. لأن «القيم» والأخلاقيات مكانة كبيرة ورئيسية في محتوى النص التربوي الإسلامي ولم يعد مقبولاً استمرار العقلة لدى المنقذين وإصالحهم لخدمات التربية التي تقدمها القيم الإسلامية خاصة بعد ظهور بوادر اتجاه علاجي جديد في المجتمع الغربي وفي أوساطه المعرفية يعتمد انقوة الروحية للدين وقيمه الأخلاقية في تهذيب السلوك وتعديله ومساعدة الأفراد على حل مشكلاتهم النفسية والاجتماعية.

لقد سما هذا الاتجاه الجديد في أعقاب أزمة «أخلاقية» عميقة، إذ تخلى كثير من الناس عن القيم، وعزلوا أنفسهم عزلاً حاداً أحياناً عن عناصر الخبر المستوحاة من القيم الإنسانية السليمة والأصيلية، ولعل من النتائج الإيجابية لهذه الأزمة الأخلاقية التي نعيشها المجتمعات المعاصرة ظهور هذا التوجه الجديد لدى بعض علماء النفس والمعالجين النفسانيين وعلماء الاجتماع نحو القيم، إذ دفعتهم الفوضى الأخلاقية والأزمة الروحية إلى الدعوة إلى الإيمان بدور الدين وتفعيل قيمه الروحية والمعرفية والإدراكية والأخلاقية، وحملهم هذا التوجه إلى المطالبة بالاستفادة من القيم في معالجة اضطرابات السلوك ونزع فتيل «الصحة» الكأداء التي تكوي الكبد النفسي الإنساني في هذا الزمان الصعب.

وإذا كان المعالجون التربويون يحسون بحدوى المعالجة التربوية للنفس، فإن علماء الأخلاق والعلاج النفسي والسلوكي المسلمين المحدثين أولى إيماناً بدور «القيم» في تقدم حركة التوجيه والإرشاد والعلاج النفسي خاصة في مجتمع يعدر «قليلاً أو كثيراً» هذه النعم ويحترمها، لأنه ما يزال المجتمع

للمسلم المعاصر يشعر حتى هذه اللحظة بدواء وحرارة القيم وسحق
سالحاحه إليها بالرغم مما أصابها من انهوار، فما يزال الإنسان المسلم
مستعداً للمحاورة مع أي اتجاه قيمى لتحقيق سعادته، والسعادة بوارده
الداخلي المفقود في بعض جوانب الحياة

ولا يستطيع الباحث الراصد لسيكولوجية الإنسان المسلم في عصرنا
أن يتنكر لهذا الاستعداد الداخلي للتجاوب مع المخزون القيمي والأخلاقي
الذي نمتلكه الأمة رغم أن بعض المسلمين شاركوا في بروز مظاهر هذه
المسحة التي تعصف بمظومة القيم الإنسانية، وأصبحوا جزءاً من الناس
الذين تمردوا عليها، لكن مع ذلك نستطيع القول بأن المخزون القيمي
والأخلاقي في فكر الأمة وتراثها العفائي والسياسي يؤثر بدرجات متفاوتة
في سيكولوجية غالبية المسلمين

٢. حركة العلاج النفسي الإسلامي في عصرنا تتأثر بالقيم الإسلامية
التي أقرها المشرع الشرعي الإسلامي في مصوغه الشرعية والأخلاقية
والاجتماعية والسياسية، ولعل هذا أحد أسباب اهتمامنا بالقيم في هذا
البحث، فالقيم الإنسانية بمختلف أشكالها وأنماطها تستخدم لإشباع حاجات
يفتقر إليها الكائن الأدبي، وهي أحد مصادر الإلزام الأخلاقي - داخلياً
وخارجياً - في حياته، حيث يتحدث الإنسان عن الحق والغير والرهف
وعمره من القيم، وبالتالي لها شأن في الحكم على الأشياء وتفوسها،
خاصه وأن التصريح الدينية التي أوضحت هذه القيم مستمدة من خطاب الله
مر وحل

وهي لذلك تعتبر الفيصل في الحكم على الحلال والحرام، والمباح
والمكروه، والحسن والقبح، وتحديد ما هو عاصي وما هو سوي، وبالتالي

مساعدة على تفريم الأشياء بحسب نتائجها في الدنيا أو من حيث م يعطيه الإنسان من حسن الأفعال أو قبحها.

إدراك هي المعيار الموضوعي للعامل بين أصداد السلوك، وهي أداة للمعالج النفسي المسلم في الانتقاء والتعبير بين الأفعال والسمات المتقابلة. إن القيم محدداً بعبادة لتوجيه سلوك الأفراد، وانتقاء دواعي لسلوك المرعوب فيه، والمفضل بين عدة توجهات أو بين مطلبين متضادين يتناول أحدهما الآخر كما أوضحت قائمتنا الأصداد التي تشير إليها في نضاعيف هذه الدراسة لاحقاً.

كما أن القيم وسجايا الأخلاق الإسلامية قد أثرت لمعالجة البيكولوجية في المفاهيم المعرفية، والأساليب، وتحديد السمات، وتصنيف السلوك بين سوي وعصابي، وبالتالي فإن حركة العلاج النفسي القائمة على روح «القيم» العبادية هي في الواقع حركة عبية بالمفاهيم والأساليب التربوية الوقائية والعلاجية والسماتية كما سيرى القارئ الكريم إن شاء الله في هذه الدراسة.

وتشهد القراءة الثابتة للمصومس التربوية الإسلامية بأن القيم الإسلامية طوت في داخلها أساليب علاجية متنوعة، فهي المستوى المعرفي والتربوي الداخلي بهذه القيم ترى مرور أساليب علاجية كالعلاج السلوكي الذي يتوجه إلى حل مباشر واقعي للمشكلة دون التفتيش عن أسبابها، ودون الحاجة إلى البحث في ماضي الشخص، جاء في النصوص التربوية الإسلامية

«إذا كنت أمراً فقم فيه، فإن شدة توقيه أعظم من الوقوع فيه»^(١) أو

«ما تحرف منه»

وفي نص آخر: «إن لم تكن حليماً . فتخلم»^(١)

وكذلك نجد في المضمون المعكري للقيم الإسلامية إشارات واضحة صـح لاستخدامها في عمليات العلاج الإرشادي القائم على «الأم» وصـرها الراشد للمشكلات، ونجد أيضاً أنماطاً علاجية أخرى كالعلاج «بالحب» والمشاركة الوجدانية، ومواقف اللعب، والعلاج بالعبادات الروحية، والعلاج بالدعاء، ونلاحظ في باطن النصوص التي نعرض عن هذه «القيم» خطوطاً عامة واضحة.

وبنفسه كذلك أن القيم التي جاءت في قوائم تصنيف السلوك والسمات المتقابلة هي قوائم مترابطة يتفرع بعضها عن الآخر أو تتقابل فيما بينها في ترتيب متصل، ويتأمل هذه القوائم نرى أن هذه الحياة الإنسانية تستمد حركتها واتجاهها من قوة هذه القيم ومضمونها الإنساني، وتشارك كذلك في تحديد الأهداف النبيلة للتربية العبادية بشقيها الوفاي والعلاجي، ولذلك نحاول الشخصية المسلمة السوية أن تـجاهد وتكـافح من أجل تحقيق الأهداف العبادية العليا، ومن الصعب أن نجح الذات المسلمة في تحقيق هذا الإنجاز إذا صـرت عن تأصيل «القيم» في عمقها الداخلي

ولما كان منهج المـعالـجة الـسـيـكـولـوجـية بالأفـهم - وهو موضوع دراستنا - يعتمد على نصوص إسلامية تنضـي تأهيلاً للقيم، فإن وظيفة هذا المنهج المساهمة في تحقيق الأهداف العبادية المأمولة من خلال استثمار «القيم» بطريقة سوية وصحيحة واستخدامها في عملية الإرشاد ومساعدة الفرد المسلم على تعيم نفسه وتحليل شخصيته واستبصار مشكلته والتعرف على مبرره واستعداداته واتجاهاته ومشكلاته ونواحي القصور في ذاته

وهذه العملية الإرشادية والعلاجية التي يقوم بها منهج العلاج النفسي بالأضداد يمكن أفراد المجتمع المؤمن من

١ - السيطرة على الدوافع والانعكالات وتنظيم إشباع الحاجات عند الأفراد.

٢ - حل مشكلة الصراع النفسي وإقامة توازن داخلي بين قوى الذات

٣ - محور تدريجي لعادات السلوك الحاطي وتكوين عادات حسنة متفقة مع المعايير المعادية المأمولة

٤ - تنشيط وعي «الذات» بنصها وتزويد علاقاتها مع الذات الأخرى.

٥ - اكتشاف مبادئ عامة موجهة للسلوك وقوانين حاكمة تنظم عليه حركة الكائن آدمي، وذلك ما تستلطفه منظومة «القيم» وإعادة بناء الشخصية بطريقة المعالجة المنسية بالأضداد القائمة على تعبير ضد (رديلة) في سلوك الذات ضد آخر . أي (مضيلة) من حسن الرذيلة ونفاسها سواء بمعدونة «معالج» نفسي أو دون حاجة إليه.

٦ - التعرف على أساليب تربية الذات المسلمة وتوجيه قواها.

إن منهج المعالجة بالأضداد الذي يركز على فعالية القيم يهتم بالخصائص والدوافع الإنسانية، والعادات، والسمات، والعقائد، والاتجاهات، والأساليب المستخدمة في تعديل السلوك، ودور الإرادة لاسية وحريتها، ولهذا فإن لهذا المنهج صلة بالقيم التي هي في لوع أشبه مقر، وأحكام مهمتها توجيه الفعل في مسارات الخير وتحفيز الذات، حيث تحكم بمقتضى هذه القيم وما اشتملت عليه من أحكام على اهتمامات منهج الأضداد وأساليبه ومحتواه المعرفي.

ومن هنا حرصنا على الاهتمام بحث صلة المصحح بالقيم ودورها في تحقيق حالة معتدلة من المرض والتوافق النفسي، لهذا يصعب الاستعانة عن "القيم" في أية محاولة جادة لبناء نظرية علاجية نفسية مسعدة من أنكار إسلامة تستند ودالة بغضيلة، وسلوكاً حاطكاً سلوك صحيح

وبالرغم من سيادة الطابع الأخلاقي العام للقيم، إلا أن طريقة المعالجة النفسية بالأحداث ليست ذات طابع أخلاقي محض، لأن سبب القيم المتمم من النصوص الإسلامية وقوائم تصنف السلوك بنار بالشمولية والتنوع، فثمة قيم أخرى إدراكية (عقلية) وجذابة وروحية واجتماعية كما نلاحظ ذلك في فائتي الأصداد اللتان سنشير لهما لاحقاً.

وكذلك تؤكد قوائم تصنيف السلوك الأخرى وجود قيم عصابية وسوية ذات طبيعة عقلية واجتماعية ووجدانية كالقيس والتصدق والعلم والرحمة والمعرفة والتفكير والألفة والرأفة والرمق والتودة، والحب والفرح والسشاط وغيرها، فهذه نماذج للقيم السوية التي تضاد قيم عصابية كالحقد والشك والفرقة والسهو والجهل والحس والحرق والتسرع والقسوة والسبب والعدوان والقدولة والمفطمة والحزن والكل وغيرها

لذلك فإن المعالجة النفسية بمطام الأصداد المرتكزة على سبب القيم ليست موجهة نحو تحقيق أهداف أخلاقية محضة كما رأيت، لأن الشرع اقيمي الحصب في النص الترموي الإسلامي يوجّه المعالج لمصلح إلى اسركير في أن واحد على تحقيق قسم أخرى يعبرها العشرع الترموي الإسلامي حواب مهمة في تكوين الشخصية الإنسانية، فلا نعو الشخصية بصره متكامله أو أقرب إلى دائرة التكامل إلا بهذا التنوع القيمي

وطالما أن النص الترموي الإسلامي يغطي السمات والقيم المتنوعة من

سمات إدراكه وقيم روحية أو اجتماعية وانفعالية، فإن مسجع المعالجه النفسية بالأصداق الذي تأخذ منظرة القيم وسبقها المعادي يمتار هو الآخر بالتروخ والشمولية تمثيلاً مع شمولية النمو في الطبيعة البشرية، وبالنسالي لا بد أن يراعي المعالج النفسي المسلم هذه الشمولية ويركر على نميه خاصيه «الكامل» في الشخصية الإنسانية في إطار عبادي وقيمي مؤي من جهة، ويسف من جهة أخرى ما يصادها من القيم الالية التي لا يربدها المسجع التربوي الإسلامي.

الفصل الثاني

منهج المعالجة النفسية بالأضداد
(مفهومه، أهدافه، أسسه)

كنا في التمهيد السابق الذي عرضناه في الفصل الأول قد ناقشنا بإيجاز وجهتي نظر مدرستين من مدارس حركة العلاج النفسي الحديث في المجتمع الغربي، وتمولنا في مقالة على بعض المحطوط العامة لمدرستي (التحليل النفسي الفرويدية) و(العلاج النفسي الواقعي بقيادة وليم جلاسر) كممثل عن المدرسة السلوكية

وكما عرف القارئ الكريم فإن المدرسة الأولى تمثل وجهة نظر مضادة للأديان والقيم والمثل والمبادئ الأخلاقية العليا لدى الإنسان، بينما تمثل المدرسة الثانية موقفاً فكرياً أكثر واقعية وتقدمية، فهي من جهة لم تتعرض للأديان بسوء ولم تتحد منها موقفاً سلبياً مكشوفاً كما فعلت الفرويدية، كما أنه من جهة أخرى تم التفتاء حركة العلاج النفسي الواقعي مع بعض الآراء العلاجية الصحيحة في الفكر التربوي والملاحي الإسلامي

وبعد هذا التمهيد مستوقف الآن عند بعض المفاهيم والنقاط لاكمال البحث والسير به خطوات أكثر عمقاً، كتحديد مفهوم المعالجة لعية بطريقة الأصناف، وتحديد أهدافه، وأسمه المرجعية، والأساليب التربوية المستخدمة لخطواته، ومدى اهتمام علماء الأخلاق والسلوك والروحانيين المسلمين بهذا المنهج الفعال

أولاً: مفهوم المعالجة النفسية بالأصداد:

إن الموضوع الرئيسي لهذا البحث هو الطريقة الإسلامية في معالجة ردائل النفس الإنسانية وسلوكها السليبي المعالف للأحكام الشرعية، وكذلك أمارتها السلوكية المختلفة بما يصاحبها من أنماط السلوك السوي بالمعايير العبادية والعظمية معاً، وسنحاول إن شاء الله تعالى أن نوضح قدر المستطاع المسمى العام لهذه الطريقة العلاجية

يقصد بمسح المعالجة النفسية بالأصداد مجموعة الخطوات والإجراءات العلمية والعملية التي يتبعها المعري والمعالج النفسي المسلم لعلاج مرضاه في ضوء المفاهيم والقيم والأحكام العبادية، وفي ضوء النتائج العلمية التي اتفق فيها علماء العلاج النفسي مع السق المعري الإسلامي، والتي نؤدي في نهاية المطاف إلى تكوين استجابة سوية مضادة لسلوك الحاضن بحيث يحتاج هذا السلوك إلى علاج أو تعديل للسلوك

وترتكز عملية المعالجة النفسية بالأصداد التي يقوم بها المعالج أو المريض نفسه في حالة قيامه بعلاج ذاتي على نظام المواجهة الحديثة أو الوسطية بين الصفات المتضادة (أصداد السلوك)، فيسمى العضائل والقيم العبادية والعبادات الإسلامية السليمة ويمحق الرذائل والقيم لعصابية والعبادات السلبية الخفاضة عن طريق محو تعلم خاطئ سائق وعادة تعلم لاحق يتسم بالإيجابية وتأصيل من جديد للعضائل والقيم والسمات السوية المرغوبة شرعاً وعقلاً

دعس الخيلة تتخلص من مغلها وشحها عن طريق تدريبها العملي المستمر على البدل والإنفاق، وتعالج النفس المفرطة في شهواتها بأساليب لعة والقدرة على ضبط الشهوة والتحكم فيها، وعلاج المعري المسلم

أسرعت الألبانية في سلوك النفس البشرية بما يضادها من صفة الإيثار والكر لنداب ووآد اللذات وتحمية الشعور بالخير .

أما أسس المزهوة المعتدلة المعالية فيحاول منهج المعالجة النفسية بالأصناف إعادة تعليمها بسمات التواضع وتقبل الآخرين والإيمان بوجودهم واحترامهم ومویدهم على الصدق في التعامل معهم، ويسهم المعالج النفسي لمسلم بطريقة الأصناف كل كل في النفس وإدائه بمرید من العمل والحركة والشايط الإيجابي المتج .

ويمكن أن تعاد النفس العضوب مرافق التحلم والصمت وضبط النفس والبطرة عليها من الداخل أثناء لحظات الاستشارة الانفعالية عن طريق التدريب المتواصل حتى يتحول الحلم بالتدرج إلى صفة أصيلة لا تنبع عن الذات أو الشخصية، ويتحول الخوف إلى أمان وطمأنينة، وانكراه إلى حب، والكذب إلى أمانة

وهكذا يتحول سلوك الفرد المسلم بحسبه الخاص أو بممونة معالج نفسي مسهم رشيد إلى السلوك المقوم المرغوب فيه، ويصحح كل خطأ في التفكير أو الوجدان والمشاير بما يضاده حتى تصل النفس إلى درجة مقبولة من الاستقامة والسواء والاعتدال في التفكير والممارسة، وذلك عن طريق علاج كل رذيلة بفضيلة من جسدتها .

وقد أشار الدكتور مصطفى محمود إلى مفهوم هذا المنهج في مقدمة كتاب «بحر علم نفس إسلامي» لمؤلفه د حسن الشرقاوي فقال في معرض حديثه عن مراحل تعديل السلوك وفق وجهة نظر الدين الإسلامي «والمرحلة الثالثة هي مجاهدة النفس المريضة بأضدادها وذلك برياضة النفس الشحيحة على الإنفاق، وإكراه النفس الشهوانية على التمعق، ودفع النفس

أما الطريق الآخر فهو تعريف الأشياء بالنظر إليها من الداخل من خلال وصف سماتها الأساسية، فحتى لا نكتفي بأن نصف الرجل بأن ليس طعلاً كما في المدخل الأول، بل علينا أن نصف ما يتعدى بسوك الرحمن من صروح انفعالي وقلوة على استخدام اللغة، والاستقلال والقدرة على البسط الحركي والمشئي... إلى غير ذلك، وفي هذه الحالة يجب التعرف على السلوك الناذ من خلال وصف أنواع معينة من السلوك تكون عالية لباس مستعدة للموافقة على أنها سلوك مضطرب أو شاذ^(١)

ومن المؤكد أن البرنامج العلاجي لهذا المنهج يوظف جميع الأنشطة العديدة لتحقيق مستوى مقبول من التوافق النفسي الاجتماعي للفرد، وسوف نتعرف في مواضع أخرى من البحث أو الدراسة على كيفية توظيف هذه الأنشطة في عملية تغيير السلوك وتعدله كالدهاء والحوار الثنائي والجماعي والتفاعل مع الجماعات الإنسانية المختلفة وأشكال العبادات الروحية اليومية وغيرها.

ثانياً: أهداف نظام المعالجة بالأعداد:

لا تختلف أهداف المعالجة النفسية بهذا المنهج عن مقاصد انظرية الإسلامية كلها، فالمعالجة النفسية وتعديل السلوك ومحو العادات الخاطئة حرة في الإسلام كنشرع متكامل، وبذلك فإن المعاليج المسلم لا يسمي إلى سرع هذب ترمب محسبه كاستعادة التوازن النفسي المفقود، وليس فقط يس تحقيق مستويات معقولة من التضج والتوافق النفسي والجمعي، بالرغم أن هذا الهدف الحيوي المهم هو قمة ما يستعيه المعاليج النفسي الوصفي من برنامج العلاجي.

إن المريض المسلم والمعالج المسلم لا يستهدفان من جهدهما أبدأ انوفوف عند حد تحقيق التوافق والرضا النفسي بالمعنى الديني، بل يطلق كل منهما إلى قمة الأهداف والغايات، وهو تيل الرضا الإلهي ورضا الله سبحانه وتعالى، وتحقيق التوافق السوي للذات هو خاتماً مقطه لسدبة في برنامج العلاج النفسي الوصفي، فلا يطلب المعالج أو المريض سوى «سعي إلى التخلص من عادات السلوك السيئة أو التخلص على المشكلات الكأداء التي تواجهه، ثم متابعة حياته التوافقية الجديدة بعد فترة العلاج، ولا يهيه أبدأ وضا الله إلا إذا كان مسلماً

ويشاعم هذا الهدف مع الاتجاه العقائدي لمساهم العلاج النفسي الأرضي التي تقوم على رعة علمانية بعيدة كل البعد عن تعليلهم لسماء وتوجيهاتها الروحية والمعرفية والأخلاقية، فهذا الاتجاه يرى أن ربط أي سلوك بالله عز وجل بعد عنصرأ خطيراً يفسد جو البحث العلمي للدراسة أو المعالجة

ولحسن الحظ فإن حدة العلمانية المتطرفة بدأت تضعف في مجدل المعرفة السيكولوجية والعلاج النفسي بعد ظهور حركة العلاج الديني في العرب، إذ أخذت هذه الحركة عند الغربيين أنفسهم نتجه في السموات لأخيرة من القرن العشرين إلى امتشاد قيم التدين في حل أزمات الشخصية الإنسانية ومعالجة أمراضها المتنوعة.

فأشار فكتور استايكل مراتكل وفروم وغيرهما إلى ضرورة اعتماد لمعهم الدينية والأخلاقية في ميدان العلاج النفسي، أو الاستعاده مها في ترحه الجهد في هذا الميدان

أما نظام المعالجة الإسلامي فيتجاوز الأهداف القريبة، ويشدد على أن

السواقف معه الذي تحصل عليه الذات من خلال عمليات العلاج إنما هو وسيلة لعناية أبعد هي كما قلنا رضا الله تعالى، ومن هنا فإن المعالج والمريض معاً أو كليهما لا يشعران بالراحة النفسية إذا لم يحققا ذلك العاية، وهذا أمر ممكن لأن النوايا قد تتداخل فيحط أجر العمل، فمثلاً قد يقصد المعالج كسب الشهرة أو الحصول على مبلغ معين من المال أو التحرك في إطار هدف دنيوي معين يكون بعيداً - كل البعد - عن رضا الله عز وجل، فيستحق إحباط أجره.

وما قلناه عن أهمية توجيه عنصر القصد في عمل المعالج يمكن قوله أيضاً في سعي المريض لمداواة نفسه بالرغم من مرارة المرض الذي يجثم على نفسه؛ فإذا كان المريض الذي اعتقد الثقة في نفسه أو يريد المعالج تدريبه على التواضع لمحو إحساسه المرضي بالتكبر أو تدريبه على البدن والإنفاق مثلاً لأنه يعاني من بخل شديد، فإن العلاج النفسي الأرضي قد يساعده على الوصول إلى متعاه أو طلبه، لكن المريض المسلم لا يريد أن يجعل من ذاته محوراً لأفعاله، إنه لا يريد - مثلاً - أن يتعلم عادة الإنفاق بقصد تخليص نفسه من صفة عادة البخل فحسب أو كسب شهرة بين الناس أو تحقيق الرضا الاجتماعي وينتهي الأمر، وإنما يستهدف بإخلاص القيام بفعل عبادي حتى وهو في مرحلة العلاج، ويرمو إلى تحقيق ربح الله تعالى

كما أن المعالج النفسي المسلم ساعده على تكوين اتجاه إيجابي من عملية التخلص من عادة البخل أو غيرها يربط عملية العلاج نفسها بالمعنى إلى ارضاء الإلهي، ولذلك لا يلتفتان فقط إلى الساتج والمعطيات لمعالجة في الدنيا

إن منهج المعالجة النفسية الإسلامية يمسك بحيط التوازن في الذات - سوية أو مريضة - فلا محنة على عمل شيء رياء، ولا يطلب منه أن يدعه حياة، عملاً بالحديث الشريف.

«لا تعمل شيئاً من الخير رياء، ولا تدعه حياة»^(١)

وحلاصة الأمر أن الهدف القريب المباشر لدى المريض واسماعيل هو تحقيق «شعاع» النفسي للعرد، وهو هدف ديري يقره المشرع لتربوي الإسلامي بكل تأكيد، ولكن ليس معرولاً عن الهدف العيادي الكبير وهو رضا الله سبحانه . أي رغبة العرد المسلم في تحقيق الرضا الإلهي عنه .

ويمكن صياغة الهدفين السابقين كما يلي .

١ - يتم تحقيق الهدف الأول الكبير والأساسي من خلال علاقة راسبة ار عمودية يتم فيها تنمية الصلة الروحية بالله وإقامة صلح عبادي خال من المشاوب والرياء كما جاء في المنصوص للتربوية الإسلامية، بيد أن تحقيق الهدف الثاني مرتبط بالهدف الأول، فإذا نجح الفرد المسلم في تعديل سلوكه أو إصلاح علاقائه مع الله عز وجل تمكن من إصلاح حاله مع نفسه من جهة، وإصلاح حاله أيضاً مع الجماعة التي يعيش معها.

يقول الإمام علي عليه السلام: «من أصلح ما بينه وبين الله أصلح الله ما بينه وبين الناس، ومن أصلح أمر آخرته أصلح الله له أمر دنياه، ومن كان له من نفسه واعظ كان عليه من الله حافظ»^(٢)

ويقول في نص آخر: «من أصلح سريرته أصلح الله علاقته، ومن

(١) صحاح القول، ص ٤٧.

(٢) نهج البلاغة، ج ٤، ص ٢٠.

عمل لديه كعاد أمر فتيانه، ومن أحسن فيما سنه وبين الله كعاد الله م بيته
وبين الناس»^(١)

وهذا نص آخر يدعو إلى الطاعة لخالق الله تعالى واستئذان مكاتب
الذات وتطويرها في خدمة الله عز وجل ولتقرأ النص العبادي التالي

«إذا قربت فأقر على طاعة الله، وإذا ضعفت فاصم عن معصية
الله»^(٢)

٢ - يتم تحقيق الهدف الثاني في البرنامج العلاجي العبادي الإسلامي
من خلال علاقة أفقية يتم فيها تحقيق قدر معقول من التوافق النفسي للفرد
مع ذاته وقدر سوي من التكيف الاجتماعي مع الجماعة المحيطة به والتي
يتعامل معها، وهذا الهدف هو شاهد إثبات على نجاح الفرد المسلم في
تحقيق الهدف الأول المتقدم الذكر.

ثالثاً: الأسس المرجعية لنظام المعالجة النفسية بالأضداد:

قدم الإسلام نظرة متكاملة عن شخصية الإنسان، وارتكزت هذه النظرة
على المفاهيم المعرفية على المستوى النظري والمعملي، كما قدم الإسلام
نظريته في العلاج النفسي التي استندت على تلك المفاهيم كمرجعية معرفية
وتطبيقية

وفي ضوء هذه المفاهيم نشق الأسس المرجعية لنظريته «مشتق
انتموي الإسلامي في العلاج النفسي الموجه بالمعايير العبادية، إذ تقوم
ديناميات العلاج النفسي على الأسس المرجعة التالية:

(١) المصدر السابق، ص ٩٩

(٢) المصدر السابق، ص ٩٢

١ - الإيمان الروحي بالله:

يحدد الأساس السابق الإطار المرجعي لديناميات العلاج النعمي، ويحدد له موقعه وحركته في الدسا لجعل الحياة في نظر الإنسان دت معى. فهذا الكائن لا يكمل وجوده إلا بالإيمان الديني، ومتى فقد إيمانه بالله تعالى صل صلاً مبنياً، وقال الله تعالى في القرآن المجيد ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ وَصَايَ فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً﴾^(١)

كما حدد الإيمان الديني بالله سبحانه وتعالى الوظيفة العبادية للإنسان يوضح تم لا ليس فيه، وذلك في الآية القرآنية الكريمة: ﴿وَمَا خَلَقْتُ لِبُحْرٍ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(٢)

٢ - قيمة الإنسان وتقديره كمستحلف في الأرض:

ينظر الإسلام للإنسان على أنه كائن عاقل ومريد متميز يمكنه التمييز بين الخير والشر، بين الحق والباطل، وقادر على السيطرة على ذاته وجهادها وتزكيتها في ضوء التوجيهات المصادية الإسلامية، وإدراك أن غاية وجوده هي عبادة الخالق وعصاة الكون.

كما ينظر الإسلام للإنسان باعتباره كائناً اجتماعياً حراً يعيش في بيئة أخلاقية وثقافية واجتماعية ودينية تؤكد على تسج العلاقات النقية الطيبة وفسها المتعاضدة بين الأفراد، وجعل هذه البيئة وقائية من جهة وعلاجية من جهة أخرى.

٣ - دور الخبرة الإنسانية:

يرتكز الإطار المرجعي للعلاج النعمي على دور العقل في تكوين

١. سورة طه، ١٢٤

٢. سورة القصص، ٥٦

لحجره الإنسانية وبوجيه فعاليتها والإحساس لدى الذات بالوجود كنه إنسانياً ومادياً، وتؤدي هذه الخثرة - خاصة حثرة المعالج في العملية العلاجية - دورٌ كبيرٌ في تعميق الإيمان بالله في ذهنية الإنسان والتسامي بالعلاقات بين أفراد المجموعات الشريفة وتزكية النفس الشريفة من خلال وضع برنامج تعليمي لتوجيه الإنسان في سلوكه وقائماً وعلاجياً.

ونقوم بدسائيات العلاج النفسي لدى المشرع الإسلامي على إطار الطاقة المعرفية والروحية التي يوفرها الإسلام للإنسان، والخبرة الإيمانية المنسقة في منهج متكامل من المبادئ والأصول والأساليب والوسائل وآليات العمل.

وهذا المنهج يمدّ الفرد بطاقة معرفية وروحية تدعم النواحي الإيمانية في شخصية الإنسان، ويمدّها بالقدرة على إحداث تغيير جذري أو جزلي في أنكاره واتجاهاته، وفي وعيه، وموقفه من الذات، والإنسان الآخر، والوجود المادي، ويوفر له هذا التغيير إمكانية تعديل سلوكه مع رب ومع الآخرين ومع ذاته.

٤ - فهم وتقدير واقعي لإمكانات الذات الإنسانية

يقوم الإطار المرجعي لنظام المعالجة النفسية الإسلامي على مبدأ الاعتراف بوجود حاجات لدى الإنسان وحل مشكلاته، وتقدير واقعي لإمكانات الذات البشرية كما هي على طبيعتها.

رابعاً: خصائص العلاج النفسي بالأضداد:

ترتبط خصائص هذا النوع من العلاج بخصائص أساسة في التشريع الإسلامي بأسره، ف نظام المعالجة بالأضداد جزء أساسي من منهج الله الموحى لعباده في أرضه، ويريد المشرع التربوي الإسلامي أن يتصف جميع

انظمه الشرعية في محتلفه جوانها بخصائص معينة تجعله رباباً وعبادياً، وأن تسند هذه الأنظمة معاً في اتجاه واحد لتكوين الدات الإنسانية العديدة لله

وبالتأكيد فإن الخصائص العامة للتشريع الإسلامي تطبق كذلك على نظامه لملاحي للنفس البشرية وتعديل سلوك الإنسان، وهذه الخصائص تجعله متميزاً.

ومن هذه المزايا والخصائص ما يلي

١ - أن نظام المعالجة النفسية بطريقة الأضداد علم إيماني يؤسس في سيكولوجية الأفراد وعقولهم إيماناً صحيحاً بالله وبرسله وملائكته وكتبه السماوية والمرلة، فهذا النظام يستهدف غرس مبادئ الإيمان الديني في عقل الإنسان وقلبه وعواطفه، وتأسيس هذا الأساس العقائدي المرجعي وترسيخه في كيان الذات الإنسانية.

٢ - كما أن هذا النظام العلاجي يقوم على التوازن لا يعلب جانباً على جانب آخر كما يفعل العرب حين يهتم بالمادة وتقديس مبالغ فيه بها، بينما ينكر بشطوط للحواسب الروحانية، ويهمل الاستمادة منها، وبذلك يفرط المعالج النفسي الغربي ببدأ التوازن بين الروحانيات والماديات

وغرض الإسلام في معالجه السلوك بطريقة الأضداد الاهتمام سكوت الدات انشورية مدون استثناء (المادة والروح والعقل) احتراماً منه لمداد النور الذي تنظم عليه حركة الكيان الإنساني، وسوف نجد في ثاب هذه الدراسة عابة المشرع الربوبي الإسلامي بإشباع متعدد للحاحات الإنسانية دون انحياز لبعضها ضد البعض الآخر

٣ - أن تقام المعالجة بنظام أو طريقة الأضداد بأسلوب عقلاي، مهد

النظام لا يركّز إلى الخرافة ولا يسمح بالشعوذة والدجل، وإنما يحاطب عقل الإنسان ويعكّره بالعلم والمعرفة اللّمة معتمداً على الأدلة والإفهام والنصر في مظاهر الوجود ومشاهد الوجود من معجزات الله تعالى في خلقه وآياته في الطبيعة والمجتمع والنفس الإنسانية.

٤ - يمتاز التشريع العلاجي لطريقة الأضداد في سياقاتها الجبدي باسطرة الشمولية التكاملية خلافاً للمظرة الجزئية التي سادت في فكر بعض مدرّسين العلاج النفسي الغربي واتجاهاته خاصة المدرسة الفرويدية.

فالذات الإنسانية ليست في نظر منهج العلاج الإسلامي بالأضداد كياناً مفككاً، بل هي كل موحد يتكوّن من أجزاء مترابطة يؤثّر بعضها في البعض الآخر، وهذه الأجزاء هي:

أ - الجسم.

ب - النفس.

ج - العقل.

كما أن التشريع الإسلامي لا يعتمد في تفسيره للسلوك الإنساني على أساس التأثير البيئي وحده كما يذهب إلى ذلك السلوكيون، ولا على أساس إيمانه الكامل بدور الفطرة وحدها، وإنما يؤكد هذا المنهج على تشكيل السلوك الإنساني على تأثير متبادل بين عوامل الفطرة والبئة (بمختلف مصادرها وأشكالها) والعقائد والأديان المتعددة الرأي والاتجاهات، وهذه العوامل تؤثّر مجتمعة في تكوين السلوك سواء كان خاطئاً أو صحيحاً، سلباً أو مريضاً.

٥ - يعتقد كذلك أن منهج العلاج القائم على تعديل السلوك الإنساني من حد سلبي (أو عادة سيئة مثلاً) إلى حد إيجابي (أي عادة حسنة) هو

نظام سيكولوجي يقوم على القيم والأخلاق في جوهره وفي وجهه وأعداده
وعاياته

يهد المصباح بهم كما سرى لاحقاً - مفرس المسادى والمصائل
السلوكية السليمة في الأفراد والجماعات، وبذلك تتمر طريقة العلاج
النفسي بالأضداد بأنها نظام قيمى وأخلاقى دليل على احترامه للآداب
والأخلاق الإنسانية، واعتزاه بفعالية القيم في توجيه السلوك كما أكدنا ذلك
في الفصل الأول، وكما سيصبح في ثنايا الدراسة لاحقاً

٦ - وأيضاً يتميز العلاج النفسي بطريقة الأضداد بخاصة حيوية ومهمة
مستمدة من نظرية الإسلام الواقعية، وهي أن مسجع المعالجة بالأضداد نظام
مفتوح على الخبرات الإنسانية المتعددة من أجل أن يحصل خبرات المعالج
للمسلم من جهة، ويستثمر - من جهة أخرى - أبهة خبرة ناصحة
وصحيحة في تعديل سلوك الأفراد ومعالجة حالات من الأمراض النفسية.

وبدغم من خصوصية النظرة العلاجية الإسلامية في التعامل الإيجابي مع
الإنسان، لا أن موضوع التشريع التربوي الإسلامي ندعو على نحو واضح
إلى الانفتاح على خبرات الآخرين والإفادة منها في تحقيق الأهداف التربوية
المحددة سواء بالسنة للمعالج أو للمريض معاً.

٧ - مغفل الإنساني طاقة إلهية مدعومة، ويمكن لهذا المغفل - شقائه
العطري - أن يجمع في مولد أفكار وقراء جذبه أو اكتشاف آليات عمل
علاجه معاله كما وأبنا في السواحي المشتركة التي التقى فيها احتشدات
المعاجب النفسي الواقعي (جلال مثلاً) مع بعض أفكار وآراء النظام العلاجي
في التشريع المعرفي الإسلامي

وعد، الامتاع الذي يتيجنه التشريع التربوي والعلاجي الإسلامي بحمد

حالة السروية والأخذ والعطاء مع الحشرات الإنسانية مع المحافظة على الثروات التشريعية العامة للمشرع الإسلامي، فالحكمة ضالة المؤمن كما يقول الحديث الشريف

وقال الإمام علي مبيّناً دور الحوار في معرفة الحقائق: «أصرب بعض الرأي ببعضه يتولد منه الصواب»^(١).

فإذا كان المعالج النفسي المسلم يريد الوصول إلى تعديل سلوك مرضي سلوك إيجابي مضاد فإنه لا يتجمد عند وسيلة أو آلية عمل محددة، بل يبحث كل الوسائل والإمكانات المتاحة لديه، وينجح التشريع التربوي الإسلامي للمعالج الاستعانة بأية خبرة إيجابية يمكن أن تساعد على تحقيق الهدف العلاجي المطلوب.

مثلاً يقول نصر كريم: «ما أهمني ذنب أمهلت بعده حتى أصلي ركعتين»^(٢).

ويقول مني آخر: «ألقى عليك ولادات الهموم بعزائم الصبر وحسن اليقين»^(٣).

فهذان النصان يحددان الصلاة والصبر آليتين علاجيتين للمتعصب على لهماوم التي تعدهم قلب الإنسان، لكن مع ذلك لا يقبل المشرع التربوي الإسلامي الجمود هدهما، ولكنه بكل تأكيد يشجع المعالج والمريض على الاعتدال على وسائل علاجية أخرى تمكّنهما من تعديل السلوك حتى لو كانت هذه الوسائل أو تلك العكسة انطلق من عقل إنسان غير مسلم طالما

(١) مرآة الحكمة ج ٤ ص ٢٩

(٢) نهج البلاغة ج ٤، ص ٧٢

(٣) مرآة الحكمة، ج ٢، ص ٢٩٤، كذلك كتاب غرر الحكم ودرر الكلم، ج ١ ص ١٢٩

أنها تسمح تعديل السلوك دون أن تصطلم بالشواش الإيمانية والأخلاقية والعكرية التي يؤمن بها نظام العلاج النفسي الإسلامي

يمكن أن يقوم المعالج النفسي المسلم بتنظيم جلسة علاجية عن العلاج لذاني استخدمها مثلاً المعالج الأمريكي وليام جلاسر أو معالج آخر، فالص الإسلامي دعا إلى استخدام المحاسبة والمراقبة الذاتية بسلوك لكنه لم يطالب الفرد المسلم - معالجاً ومريضاً - بصيغة محددة ثابتة وجامدة لا تتغير على مدى الأيام والدمور، بل ترك للعقل البشري حرية التفكير وحق البحث عن الصيع المناسبة للعلاج ولحالة المريض النفسي

نقول نصوص القرآن الكريم وآياته المباركة

﴿أُولَئِكَ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (١)

﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِنَّا مُنْتَقِمُونَ﴾ (٢).

ويقول الإمام علي عليه السلام:

«على العاقل أن يحمي على نفسه عيوبه في الدين والرأي والأخلاق والأدب، ليجمع ذلك في صدره أو في كتاب، ويعمل على إزالتها» (٣).

- ويقول الإمام علي عليه السلام: «من حاسب نفسه وقف على عيوبه، وأحاط بعيوبه، غشتال الذنوب وأصلح الميوب» (٤).

وهكذا يجعل التشريع الإسلامي أموانه مشرعة أمام المعالج والمريض وكل الناس على حد سواء للاستفادة من جهود الأخرس، كما

(١) سورة الروم، ٨.

(٢) سورة العنكبوت، ١٠٥.

(٣) مراد الحكم ودرر الكلام، ج ٢ ص ٢٩، وكتاب الفضل بين الورقة والقرية، ج ٢، ص ٢٤.

(٤) المصدر السابق، ص ٢٤.

يسمح لهم بإعطاء الآخرين خبراتهم مع الاحتفاظ بالثوابت الإيجابية (أدوية
والمعالجة) لنظام العلاج النفسي الإسلامي.

خامساً: الأساليب العلاجية المساندة لطريقة الأضداد:

يبدأ الباحث وجهة نظر المشرع التربوي الإسلامي هي شأنا أمراض
المنس ونكوي عادات السلوك الخاطئة من خلال نصوصه الكثيرة المتعددة
والمبنية في مصادر التشريع التربوي الإسلامي

إن أمراض السلوك أو عاداته المعصية (عبر التراخي) تتكون في وجهة
لنظر الدينية الإسلامية من طريقتين

١ - إن الإنسان يخطئ في الالتزام بالضوابط والأحكام العبدية
فيرتكب الفعل المحرم من وجهة النظر الدينية، فيقع بعد ذلك في صرع
نفس بين الفعل المحرم والشعور بالذنب أو الانشياء النفسي الدائم من هذه
الممارسة المحرمة، فيظل المرء في عذاب الضمير

٢ - إن الأفعال المحرمة أو العادات السلوكية المرضية أو الخاطئة
تتكون - كالأفعال العبادية الحسنة - تدريجياً عن طريق تعرض الفرد سواء
كان مسلماً أو غير مسلم لأساليب تربية خاطئة كالتدليل الزائد عن الحد
المعقول أو الحرمان الشديد أو القسوة المرضية أو التمدد في المعاملة
الاجتماعية والتربوية وغيرها.

وهذه الأساليب جميعاً أفعال «خاطئة» من وجهة النظر الدينية، وهي
في برزت مع عوامل وأسباب فعالة تؤدي إلى إحساس الفرد بالإحباط ثم
وقرعه في برائن المرض النفسي، أو على الأقل تدفعه لممارسة عادات
خاطئة في التفكير والممارسة

وهكذا فإن المشرع التربوي الإسلامي يرى المرض النفسي وما يرتب

عنه من عادات سلوكية غير صحيحة مجرد عادات متعلمة تم اكتسابها بأساليب مرضية وغير سوية، ويمكن تعديلها بواسطة اكتساب سوي لعادات سوية وصحيحة، وهذا يلتقي آراء المعالج النعيمي الواقعي تماماً - في هذه المسألة - مع وجهة نظر المشرع الإسلامي.

وعلى ضوء ذلك فإن المشرع التربوي الإسلامي عرض على المرء المسلم والمعالج النعيمي المسلم الاستعانة بأساليب توافقة وتربوية سليمة، وترك لهما حرية استخدام الأساليب المناسبة وقائياً وعلاجياً وإعائياً، وبذلك فإن المرء أو المعالج المسلم أو المرشد النعيمي المسلم لا يمكنهم تربية لأفراد أو تعديل أفكارهم واتجاهاتهم وسلوكهم أو تعلم عادات جديدة من أنماط السلوك المعبدي السوي وفق طريقة الأعداد إلا باستخدام أحد هذه الأساليب أو بعضها أو جميعها مراعيًا ظروف كل حالة مرضية على حدة.

ومن هنا يمكن للمعالج النعيمي المسلم استخدام هذه الأساليب، وبعبارة أخرى بتصحيح الاعتقاد أو تعديل الأفكار لدى مريضه أو تعديل السلوك عند الأفراد الذين يعانون من مشكلات سلوكية ناجمة عن ممارستهم لأفعال محرمة أو عادات خاطئة من وجهة النظر الدينية الإسلامية خاصة وأن طريقة الأعداد كنظام علاجي إسلامي مشبوه هي شابا هذه الأساليب ومتداخلة معها في جوانبها المبررة أو الوجدانية أو الحركية

وبسببنا الآن انتفاء بعض الأساليب التي يحقق بها مسجع العلاج النعيمي بالأعداد أهدافه ونتائج في مناء السلوك المعادي المحسن ويزيله استنوك الحائط؛ المخالف لوجهة نظر المشرع التربوي الإسلامي.

ومن هذه الأساليب على سبيل المثال فقط -

١ - الدعاء

٢ - الترويح واللعب.

٣ - الحوار مختلف أشكاله.

- ٤ - الغد والعد الذاتي (محاسبة الذات) على أعمالها
- ٥ - لمواعظ وإساءة للنصائح (الجانب الإرشادي).
- ٦ - الاستعداد.
- ٧ - الترهيب والترهيب.
- ٨ - التربية بصرب الأمثال.
- ٩ - التعلم بالممارسة والعمل.
- ١٠ - أسلوب المقابلة بين الأشياء.
- ١١ - الصبر.
- ١٢ - العبادات بمختلف أشكالها
- ١٣ - التأمل والتدبر في نتائج السلوك السلبية والإيجابية.
- ١٤ - التكرار.
- ١٥ - استخدام أسلوب استخفاف توجبه الأسطة
- ١٦ - الاندماج في وسط بيئة مؤمنة (تغيير البيئة المعيشية بالعيش مع رفاق من جماعة مؤمنة)
- ١٧ - تغيير البيئة المعيشية عن طريق تصحيح الاعتقاد الفكري (أي تكوين وجهة نظر إيجابية عن الآخرين من داخل النفس) مثلاً يقول الإمام علي عليه السلام: «احصد الشر من صدر غيرك بقلمه من صدرك»^(١)
- ١٨ - اثريية المعبرة والمعطيات التاريخية.
- ١٩ - التمسك بالوراثي للسل
- ٢٠ - هذه الأساليب تتساند جميعاً أو تتعاضد البعض منها في خدمة لأهداف المعادية التي يسعى المصالح النفسي أو العربي المسلم إلى تحقيقها

، الرضوخ إليها، وعلى المعالج أو العربي انتقاء ما يناسب جهده واعياده
إصلاحه والتربوي

وكن كيب يمكن لهذه الأساليب خدمة أهداف سبيع لمعالجة
الأصداد

سأحد من هذه الأساليب العلاجية نماذج ثلاثة لمعرفة كيف نخدم
هذه الأساليب أهداف العلاج النفسي الإسلامي، وتؤدي إلى تكوين
استجابات وعادات سوية ومضادة للسلوك والأفكار والمشاعر المسخرة
الصائفة التي يربد الفرد تغييرها واستبدالها بالسلوك الحسن المتفق مع مبادئ
الطرية العبادة والتربوية الإسلامية

وهذه الأساليب الثلاثة هي:

• أسلوب الدعاء

• أسلوب الحوار

• أسلوب العبادة

أ - الدعاء وفعاليته في مساندة أهداف العلاج النفسي

الدعاء أسلوب روحي قديم عرفته الأديان السماوية وامتازت به عن كل
مفرائع لإساية الوضعية، لكن بعض الاتجاهات العلاجية هي عدم العس
أحد نعمل إليه في المعالجة النفسية، وحل مشكلات الأفراد العنة،
و لاستعانة به في رسم طريقة الشفاء لهم.

إن الدعاء أسلوب فعال للترويح عن النفس، وصيحه بديله عن صيغة
للترويح المحرف، وطريقة لتحليل شخصية الفرد، وتحليل المجمع، كشف

الأمر من المساعدة فيه، ومن ثم الانطلاقة التربوية لإعادة تشكيل شخصية الإنسان في إطار المصهج الرئائي القويم^(١).

مر لأدعية في النص القرآني والأحاديث النبوية ثابت لا جدل فيه، وقد ورد تأكيد على أهميتها وفعاليتها في تحقيق الأهداف المادية للمشرع التربوي الإسلامي. كما أن القرآن والسنة قلعا صياغات من الأدعية المتعددة التي تستهدف المساعدة في تربية الذات المسلمة أو صياغتها من جديد إذا تطلب الأمر ذلك، كما أشاد بالوظيفة التربوية والنفسية والترويحوية بعض لعلماء والباحثين أمثال الطيب والمفكر الفرنسي ألكسيس كارليل^(٢).

ومن الصعب بالتأكيد متابعة الآثار الإيجابية للأدعية الدينية بهذه العجالة، فالأمر يحتاج إلى دراسة مطولة ومستغلة، ولهذا سنشير على عجل إلى عدد من هذه الآثار

١ - إن «الأدعية» تقدم للإنسان مادة تعليمية مصدرها صادق وصحيح تعدد وجهة النظر الإسلامية في قضايا عامة كالألوهية وغيرها من المسائل الاعتقادية الأخرى المنصلة التي تشكل جوهر العقيدة الدينية في قضاياها الكبرى، وهي في الوقت نفسه تقف من الشرك والكفر موقفاً مضاداً من أجل صياغة مرجعية عقائدية سليمة للشخصية المسلمة تنظم عليها في حركة الحياة

٢ - كما للأدعية دوراً فاعلاً في التربية النفسية (وقائعية وعلاجية) على حد سواء، فهي مثلاً تمكن الفرد المسلم من تكوين حالة تعود من عذاب أو فكار أو مواقف معينة تتسم بالطابع المرضي غير السوي كالحل

(١) يوسف مدني، بناء الشخصية في حلق الإمام المهدي، ص ٢٧

(٢) انظر مثلاً كتابه في الدعاء، ص ٢٧، ٢٦

والعصب الرائد والمحد للآخرين والمحدد عليهم، كما أنها ترعب العس من
إعدادات السلوك المعقولة من وجهة نظر المشرع الإسلامي.

وهذه حمية يحتاجها الإنسان المسلم خاصة المعالج النفسي المسلم
الذي يشرف على تطبيق البرنامج العلاجي الإسلامي لمبدل سلوك الأفراد
أو تقديم الخدمة الإرشادية لهم، ولقرأ مقطعاً صغيراً من هذا الدعاء.
«اللهم ارقنا توفيق الطاعة وبعد المعصية وصدق النية وعرفان الحرمة
وأكرمنا بالهدى والاستقامة، وسدد ألتنا بالصواب والحكمة، وأملأ قلوبنا
بالعلم والمعرفة، وطهر بطوبى من الحرام والشبهة، واكفأ أيدينا عن الظلم
والرقة، واغضض أبصارنا عن المعجور والحيانة، واسدد أسماعنا عن اللغو
والغيبة»^(١).

لقد تضمن بض الدعاء السابق حاجات إنسانية متعددة كالحاجة إلى
العبادة والتدين، والحاجات الأخلاقية، والحاجة إلى المعرفة، والحاجة إلى
صبط لإشباع الجنسي وتنظيمه، وهكذا

٣ - كما أن بعض الأدعية تحدد للفرد المسلم طرائق علاجية لمجاهدة
النفس ومقارنتها والتخلص من متاعبها الداخلية، وتبين للفرد أن تحقيق
الرشد في شخصيته ينحصر في طريق مخالفة أهواء النفس المسمرة وعدم
الاستماع لها وعدم تلبية إشباع حاجاتها بطريقة عصبية، وترسنته على
إشباع مظم ومعيد لا يلحق ضرراً بالشخص

٤ - وتجد في الأدعية أثناء ممارستها بإخلاص وعاطفة صادقة عوناً
علاجياً صحيحاً، فالأدعية من الناحية الوجدانية تحقق للفرد تفريغاً للهوم

(١) البرقي، كلمة الإمام المهدي، ص ٢٠٩

ومث الشكوى إلى الله تعالى مستعيناً به طلباً من مساعدته في التخلص من
لمتاعب التي تقلق نفسه، خاصة وأن هذا الاعتراف والتعريض الانفعالي يتم
أمام الله لعارف بما تحويه سمات الباس والمرضى، ويعلم بأسرهم،
والذي يضمن لهم عدم هتك أعراضهم أو أسرارهم الخاصة أمام الآخرين،
كما أن طريقة الاعتراف والتفريغ الانفعالي بأسلوب اللجوء غير مكلفة من
الناحية لمادية

٥ - وفي اللجوء كما يقول أحد علماء النفس المسلمين المعاصرين^(١):
«يقوم الإنسان بمواجهة ربه، ويبحث إليه ما يشكوه وما يعانيه في حياته من
مشكلات ترجعه وتقلقه، ويطلب منه أن يعينه على حل مشكلاته وقضاء
حاجاته، إن مجرد التعبير الإنسان عن مشكلاته التي ترجعه وتقلقه وهو في
هذه الحالة من الاسترخاء والهدوء النفسي، تفقد هذه المشكلات قدرتها
على إثارة لقلق تدريجياً، وتربط ارتباطاً شرطياً من الاسترخاء والهدوء
النفسي، وهي حالة معارضة للقلق».

وفضلاً عن ذلك، فإن مجرد إقصاء الإنسان لمشكلاته وهمومه والتعبير
عنها إلى شخص آخر يسبب له راحة نفسية، ومن المعروف بين الممارسين
النفسانيين أن تذكر المريض لنفسه لمشكلاته وتحدثه عنها يؤدي إلى
تخفيف حدة قلقه، وإذا كانت حالة الإنسان النفسية تتحسن إذا أفضى
الإنسان ومشكلاته لصديق حميم، أو للمعالج النفسي، فما بالك بمقدار
التحسن الذي يمكن أن يطرأ على الإنسان إذا أفضى ومشكلاته إلى الله
سبحانه وعالي، وقام عقب كل صلاة بمواجهة ربه ودعائه والاستعانة به
وطلب العون منه.

أضرب إلى ذلك أن مجرد الدعاء إلى الله تعالى والتصرع إليه يؤدي إلى
تخفيف حدة القلق من ناحية أخرى، وذلك لأن المؤمن يعلم أن الله سبحانه
وسمائي قال في كتابه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ
الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾^(١).

يقول الإمام الحسني عليه السلام:

«يا ابن آدم من مثلك، وقد خلا ربك بينه وبينك، متى شئت أن تدخل
إليه، توفضت وقت بين يديه، ولم يجعل بينك وبينه حجاباً ولا برأياً،
تشكو إليه همومك وفاقته، وتطلب منه حوائجك، وتستغيثه عسى
أمورك»^(٢).

والأهم من ذلك كله أن من يعطى التوبة لا يحرم من المغفرة والقبول
كما نصت على ذلك النصوص الإسلامية الكثيرة، فالفرد المقبل على ربه
يطلب منه العون والحاجة لا يرد طلبه في الحصول على العفو، ولهذا يحس
الإنسان اسماً دائماً بقبول اعتذاره عن ذنوبه وإحاطته من الله سبحانه.

وهناك كلمات جميلة المعنى منقولة عن عمر بن الخطاب، إذ يقول
رضي الله عنه:

«إني والله لا أحشى من عدم الإجابة، ولكن أحشى أن لا أؤذن
بإدعاء، فإن وقتي للدعاء فالإجابة مضمونة»^(٣). يقصد صمان الإجابة
من الله سبحانه إذا وثقه للدعاء.

كذلك نصل الأدعية لإرادة الإنسان وتقويها لمقاومة التمرعات الفاسدة،

(١) سورة البقرة، ١٨٦.

(٢) الشيرازي، كلمة الإمام الحسني، ص ٢٤٦.

(٣) مجلة الثقافة النفسية، بحث د. لينة الرافعي، ص ٧١.

وكما قال الإمام علي عليه السلام: «من احتجحت إليه هنت عليه»^(١) إلا الله عز وجل. لدي يعطي عباده دون من أو يعير أو تحطم للمحتويات، وهذا يعني أن إرادة الإنسان تكون أكثر عوداً في مواجهة الصعاب.

ويمكن أن نعرض نصاً من الصحيفة السجادية «دعاء مكارم الأخلاق» تنص: «دعوى صريحة إلى تطبيق العروة المسلم على نفسه ومع الآخرين بطريقة الأعداد واستخدامها في تربية النفس، وهو يقدم موقفاً تسامحاً بهذا المنهج في التربية الوقائية والعلاجية في آن معاً».

يقول الإمام علي بن الحسين (زين العابدين) عليه السلام في هذا الصدد:

«اللهم صل على محمد وآل محمد، وأبدلي من بعض أهل الشأن لمحبة، ومن حسد أهل البغي المودة، ومن ظنة أهل الصلاح الثقة، ومن عدوة الأذنين اللولاية، ومن عقوق ذوي الأرحام المبررة، ومن خذلان الأقربين البصرة، ومن حب المذنبين تصحيح المنة، ومن رذ الملبسين كرم العشرة، ومن مراوة خوف الظالمين حلاوة الأمانة».

ثم يقول الإمام السجاد بن العباس أيضاً:

«اللهم صل على محمد وآله وسدوني لأن أمارس من غشي بالنصح، وأحري من هجرني بالبر، وأنيب من حرمني بالعدل، وأكافي من قطعني بالصلة، وأحالف من اغتابني إلى حسن الذكر، وأن أشكر الحسن، وأعصي عن السيئة»^(٢).

تلك بعض العنايات النفسية للدعاء

(١) غرر الحكم ودرر الكلم، عبد الواحد الأموي، ج ٢، ص ٢٠٢.

(٢) الصحيفة السجادية، دعاء مكارم الأخلاق، ص ١٠٦.

ب - الحوار وتعديل السلوك.

يعبر الحوار بمختلف أشكاله أحد أساليب التربية الإسلامية و كذاها للمعدي، وقد أمر المشرع الربوي الإسلامي باستخدام هذا الأسلوب في عمليات التعبير والمعالجة وتعديل السلوك وتصحيح الأفكار والمعتقدات والاندجات، وإعادة تربية ما تحتاجه الشخصية من بناء علاقات مينة على أسس إسلامية وعبادية نقية.

بكن ما قيمة هذا الأسلوب في مسانلة منتهج المعالجة بالأصدا في خدمة الأهداف العلاجية التي حددتها التربية العبادية؟ وما دوره في مساعدة المريض وتعديل سلوكه؟

للحوار كما يعلم - القارئ الكريم - فوائد جمة ومتعددة، ولكن ما يميها هو الأفكار التربوية الرئيسية التي تساعد المعالج والمريض على حل المشكلات السلوكية، ولهذا سنناول بإيجاز شديد بعض الأفكار التي تثبت فعالية الحوار كمن وأسلوب في العملية التعبيرية والعلاجية

يسم من طريق الحوار - مثلاً - حوار تشاركي بين المعالج والمريض ينتج عنه المداخلات التالية.

١ - يصحح المعالج بواسطة هذا الأسلوب أفكار المريض واعتقاداتهم ويغير اتجاهات الأفراد سواء كانت عقلية أو نفسية، وهذا من شأنه أن يحسن عمدة العلاج النفسي أو تعديل السلوك ويوفر شرطاً أساسياً لمحوها، لأن هذه الخطوة مهمة لتقبل الأفكار الجديدة والاستعداد لتعديلها بدلاً من الأفكار البالية

٢ - يساعد الحوار بين المعالج والمريض على تحديد مشكلة وتشخيص نوع المرض الذي يعاني منه الفرد وبيان مجموعة المحطرات التي

يمكن اتباعها كسير عملية العلاج النفسي إلى مسهاها المطلوب، ونبي
انكار أو مشاعر أو عادات جليده مصاده للأفكار والعادات مرسية
إحاطة

٣ - كما أن عملية «استخراج ما في النفس» من عموم ومتاعب وصعوط
نتم عن طريق الحوار الفعال الذي يديره المعالج النفسي المسلم بكفاءة
ونجاح واقتدار. فالحوار الناجح الذي يتحس فيه المريض أو المحتاج
لتعديل سلوكه والإحساس بالطمأنينة والشعور بالأسر يؤدي إلى اليق
بالأسرار أمام المعالج ومكاشفته (مصارحته) بما يعانيه، حوار بمستوى عال
من العلاقة الشخصية والمهنية يجعل ثقة المريض في المعالج كبيرة.

٤ - ويلعب الحوار أيضاً دوراً كبيراً في تغيير المشاعر الوجدانية
لسببية والمتطورة والحادة أحياناً، وخاصة إذا امتلك المعالج القدرة لعناية
في إدارة «الحوار» لانتزاع الأفكار العاطفية المترسبة في داخل عقل الإنسان
أو المريض، وتذويبها شيئاً فشيئاً حتى تتحول في نهاية المطاف إلى أفكار
منبوذة ومرفوضة من قبل المريض نفسه، وتؤثر على وجدانه وتقله من حالة
التعصب والجمود والشعور والرغبة في الانطواء والانسحاب إلى حالة
الانفتاح والتقبل والابسط والمشاركة بحيوية في عمليات التفاعل
الاجتماعي مع الآخرين

إن بعض الأشخاص قد يعانون من أمراض نفسية أو يمارسون عادات
سلوكية خاطئة، وقد تكون هذه المشكلات ناشئة عن اعتقادات وهمية لا
أساس لها وعارضة عن الصحة، ولا وجود لها إلا في أذهانهم كمرضى،
ولكن المعالج النفسي يستطيع هدم هذه الأسوار وتحطيمها عبر حوار هادئ
موجه لتحقيق الأهداف العلاجية، ونقل المريض من حاله أسوأ إلى حاله
أفضل وأحسن

ومن صيد هذه الأهمية التربوية والعلاجية لصن «الحولاء» كأسلوب تدريجي فاعل، فإن للشراف الكريم يدعو إلى استخدام الأفراد - معالجين وغير معالجين - للحولاء والحديث الذاتي هي أحسن لناتج شماره الإيجابية المأمولة. فإن عباسي في كتابه المجيد: «أَتَقَعَّ يَأْتِي حَيَّ أَحْسَنُ فَإِذَا أَلَّيْ سَكَ وَبَنَمَ عَدُوَّةَ كَلَمُ رَبِّكَ حَبِيبٌ»^(١)

ويعبر النص القرآني السابق أحاديث عديدة أمثال:
«عائب أحلك بالإحسان، ولردد شره بالإنعام عليه»^(٢)
«أزجر النسيء بثراب المحسن»^(٣)
«من استقبل وجوه الأعداء عرف مواقع الخطأ»^(٤).
«أصرب بعض الرأي ببعضه يتولد منه الصواب»^(٥).

ركان للنبي صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم تجربة فاحصة في تعديل سلوك الأفراد والجماعات وإحلال نظام عمائدي جديد ومضاد للمشرك والكفر والريسة القائمة آنذاك في المجتمع العربي القبلي، إذ تمكن نبي الرحمة من إحداث هذا التعديل النفسي والعقلي في بيئة مجتمع قبلي عارق في الجهل والتحلف بواسطة نصكته من توظيف مستوى عال من الحولاء مع المشركين والكفار لتعير آرائهم ونقلهم إلى خط الإيمان

ج - العبادة وتكوين استجابة سلوكية مضادة (سوية)

هناك ارتباط بين العبادات اليومية بمختلف أشكالها وتكوين

(١) سورة صافات، ٢٤

(٢) بهج البلاغة، ج ٤، ص ٤١.

(٣) المصدر السابق، ص ٤٤

(٤) المصدر السابق، ص ٤٦.

(٥) ميراث الحكمة، ج ٤، ص ٣٦

والاستجابات السليمة المصادرة للسلوك العصامي، ونظراً لتعدد صيغ هذه لعادات فبما يختار الصلاة كنموذج عبادي باعتبارها عمود الدين، وهي للعمود بقوي في حياة المتدينين، فالصلاة كعبادة يومية ممارستها امزموه اسظم هي وسيلة ربوية صحيحة تساعد على تعديل السلوك وإعادة التعلم

وقد شهد بعض علماء النفس الغربيين أنفسهم أمثال المحلل النفسي البريطاني (سيرل بيرت) بقيمتها السيكولوجية وأثارها الروحية، يقول هذا العالم «الصلاة كلمة يستعملها الكتاب الدييون في معنى اصطلاحى واسع، فهي لا تعني مجرد دعاء لفظي، ولا مجرد تعبير عن الحمد والثناء، تشك ليست إلا أمثلة محدودة من الحالة العقلية العامة التي تفسرها كلمة الصلاة، أما الخاصة الحقيقية فهي إحساس بهيج من الإشراف الروحي»^(١).

ثم يقول عن تأثيرها السيكولوجي: «والثمرة الرئيسة للصلاة كما يؤكد المتعبدون أنفسهم ليست هي أن الدعوة الخاصة قد حققت سمعرة، ولكن هي أن المصلي نفسه يحس عراه وقوة معد تجربته، فالصلاة - ولو لم تنج أثراً مادياً - قد تحدث تغييراً روحياً»^(٢).

بعد ذلك يذكر سيرل بيرت قصة «توم» السبع الذي سمي بمفضل الصلاة إلى «توم» المصلي كمنال على أثر الصلاة الروحي، فقال: «هناك في بلدة باسستونك كان يوجد رجل بلغ من استشهاده بالدين وبداءه لسانه أن سمعه له من توم السبع، وقد حدث أن ورد هذه البلدة واعط دسي حديد، فوقع حب لاستطلاع توم إلى أن يدخل الكنيسة، ولم يكن قد دخلها مد سبعة عشر عاماً، اسمع توم للموعظة، وقد جاء في ختامها (لر أن أكثر

(١) سيرل بيرت، علم نفس الديني، ص ٢٤

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٤

انس عصباناً وتمرداً في هذا جثا على ركبته وصلى لربه ليدل الله (وله)
فقال يومئذ:

(إني أكثر الناس عصباناً وتمرداً هنا) وجثا على ركبته وصلى فما دام
حتى كان قد خلق خلقاً جديداً وصار حتى موته يعرف بين الناس باسم «يوم
المصلي»^(١)

وكعادة لا يمكننا بالتأكيد استعراض كل مباح هذه الوسيلة (أي
الصلاة) في التربية العلاجية على ضوء المعايير العبادية الإسلامية، وبالتالي
نضطر إلى التركيز على بعض فعاليتها في تعبير سلوك الذات وتعليمها
سلوكاً جديداً مضاداً للسلوك المنحرف ومتفقاً مع النظرة العبادية الإسلامية.
ومن هذه الفعاليات ما يلي

١ - تعتبر الصلاة وسيلة فعالة وقوية لإذلال «الذات» وتركيعها بين
يدي الله تعالى في الأذكار والأعمال معاً، فالتكبير والتلهيل والحمد والتعبد
والاستعانة بالله والترحيد والمدعاء في الأذكار يدلل «الأنف» ويخصصها لله،
ويشعرها بهذا الدل والحضوع بإيحاءات متعددة^(٢).

إن الأذكار والأعمال معاً التي تتضمنها فريضة الصلاة تساعد الفرد على
تهدئ بل يسهل معه إلى التكبر والإعجاب بالنفس وأعمالها «وتحكم فيه»،
واسيطرة على نوع الفرد إلى الظهور والاستعلاء والاعتداد، وتربية الذات
على الانسداد إلى محورية «الله» تعالى لا إلى محورية «الأنف أو الذات»

٢ - إن وقوف الإنسان في الصلاة أمام الله سبحانه وتعالى في خضوع
ومصرع بمدّة مطاوعة وروحية تبعث فيه الشعور بالصحاء الروحي والاعتماد

(١) المصدر السابق، ص ١٧.

(٢) مجلة رسالة الفرقان، العدد الرابع، مقال الشيخ محمد مهدي الآملي، ص ١٤٣.

القلبي، والأمر النفسي، ففي الصلاة إذا ما أناها الإنسان كما يسعى أن
يزدى، سوجه الإنسان بكل جوانحه وحولمه إلى الله تعالى ويصرف عن
كل مشاغل الدنيا ومشكلاتها، ولا يفكر في شيء إلا في الله سبحانه
وتعالى، وما يردده من آيات القرآن

إن هذا الانصراف التام عن مشكلات الحياة وهمومها، وورقه أمام
ربه في حشر تام من شأنه أن يبعث في الإنسان حالة من الاسترخاء التام
وهذو، استس وراحة العقل، ولهذا الحالة من الاسترخاء العصبي الشائنة
من ضغوط الحياة اليومية تأثيرها في خفض القلق الذي يعاني من بعض
الباس.

يقول الطبيب توماس هاسلوب:

«إن أهم مقومات اليوم التي عرفتها في خلال سبع طويلة قضيتها في
الخيرة والتخريب هو الصلاة، وأنا ألقى هذا القول بوصفي طبيباً، إنها أهم
أداة عرفت حتى الآن لبيت الطمأنينة في النفوس، وبت الهدوء في
الأعصاب»

٣ - إن الاسترخاء - كما يقول الدكتور محمد عثمان مجاني - من
الوسائل التي يستخدمها بعض الممارسين النفسانيين المعذبين في علاج
الأمراض النفسية.

والاسترخاء عادة يمكن أن يتعلمها الإنسان بالتدريب، وتمتد الصلاة
حس مرات في اليوم بأحسن نظام للتدريب على الاسترخاء وتعلمه، وإذا
تعلم الإنسان عادة الاسترخاء، فإنه يستطيع أن يتخلص من التوتر العصبي
الذي ته ضغوط الحياة وهمومها

وقد كان الرسول عليه الصلاة والسلام يقول لئلا رضي الله عنه حينما

بحسب أوقات الصلاة. «أرحنا بالصلاة يا ملائكة»، وفي الحديث «إن رسول الله ﷺ كان إذا خزنه أمر صلى»، وقال عليه الصلاة والسلام أيضاً «جعلت قرعة عبي الصلاة».

وساعد حاله الاسترخاء والهدوء التي تحدثها الصلاة على التحسن أيضاً من القلق الذي يشكو منه المرضى النفسيون، فإن حالة الاسترخاء والهدوء التي تحدثها الصلاة تستمر عادة فترة بعد الانتهاء من الصلاة، وقد يواجه الإنسان وهو في هذه الحالة من الاسترخاء والهدوء النفسي بعض الأمور أو المواقف المثيرة للقلق أو تذكره لها أثناء وجوده هذه الحالة من الاسترخاء والهدوء النفسي عقب المصلوات إما يؤدي إلى «الانطفاء» التدريجي للقلق وإلى ارتباط هذه الأمور أو المواقف المثيرة للقلق بحالة الاسترخاء والهدوء النفسي، وبذلك يتخلص الفرد من القلق الذي كانت تثيره هذه الأمور أو المواقف

إن هذا الأثر المهم للصلاة في علاج القلق يحاثل الأثر الذي يحدثه أسلوب العلاج النفسي الذي يشبه بعض الممارسين النفسانيين السلوكيين المحدثين في علاج القلق، إن هؤلاء الممارسين النقيضين مثل جورهف ولبي يتبعون في علاج القلق أسلوباً يعرف «بالكف» ويطلق عليه «العلاج الاسترخائي» أو «العلاج بالتقليل من الحساسية الانفعالية»

وفي هذا الأسلوب من العلاج يقوم المعالج أولاً بتدريب المريض على الاسترخاء العميق، وفي أثناء وجود المريض في حالة الاسترخاء يطلب منه المعالج أن يتصور شيئاً من الأشياء المثيرة لقلقه، ويتبع المعالج في ذلك نظاماً معيناً يتدرج بالأشياء المثيرة للقلق الحفيف، مدرجاً إلى الأشياء التي تثير قلقه، ثم يطلب المعالج من المريض إبعاد هذا الشيء من ذهنه،

ويطلب منه أن يعود مرة أخرى إلى حالة الاسترخاء، ويعد أن يهدأ المريض ويعود إلى حالة الاسترخاء يطلب منه مرة أخرى تصور هذا الشيء المشير بلطف.

وستنمر العلاج النفسي بهذا الأسلوب حتى يستطيع المريض أن يتصور هذا الشيء مع وجود حالة الاسترخاء بدون أن يشعر بالقلق، ثم ينقل المريض بعد ذلك إلى تصور شيء آخر يثير فيه درجة أشد من القلق، وذلك أثناء وجوده في حالة الاسترخاء.

وهكذا يستمر العلاج حتى يتخلص المريض من قلقه تماماً، إن هذا لأسلوب الذي اتبعه ولبي وغيره من المعالجين النفسيين السلوكيين يعتمد أساساً على مبادئ الاشتراط، وفيه يحاول المعالج أن يربط بين المواقف المشيرة للقلق وبين استجابة معارضة للقلق، وهي الاسترخاء^(١).

٤ - ومن الواضح - كما يقول أستاذنا د. نجاتي - وجه شبه بين أسلوب لعلاج النفسي الذي يتبعه المعالجون النفسيون السلوكيون وبين الأثر الذي تحدثه الصلاة، فإن تكرار اقتران حالة الاسترخاء والهدوء النفسي التي تحدثها الصلاة - والتي نشعر عادة فترة ما بعد الانتهاء من الصلاة - بالمواقف المشيرة لقلقه، إما بمواجهتها فعلياً في الحياة أو تذكرها، بما يؤدي في النهاية إلى تكوين ارتباطات شرطية جديدة بين هذه المواقف وبين استجابة الاسترخاء والهدوء النفسي التي تحدثها الصلاة وهي استجابة معارضة بنفس، وبذلك يخلص الإنسان من القلق، وهذا هو نفس الأسلوب الذي استخدمه المعالجون النفسيون السلوكيون في علاج القلق كما أشرنا إلى ذلك سابقاً^(٢).

(١) د. محمد عثمان نجاتي، الفرق وعلم النفس، ص ٢٥٦ - ٢٥٨.

ويعتصم التخلص من القلق لدى الإنسان المتدين المصلي معرفة بعض الأدعة ما بعد فترة انتهاء الصلاة.

٥ - هذا بالإضافة إلى أن صلاة الجماعة لها أثر علاجي أهم من صلاة الفرد، إذ أن تردد المصلي على المسجد للصلاة الجماعة يتيح له فرصة التعرف على إخوانه المصلين مما يساعده على تفاعله مع الناس وعلى حدوث علاقات اجتماعية سليمة، وعلاقات صداقة ومودة التي من شأنها مساعدته على نمو شخصيته وتكامل جوانبها، إلى جانب هذا يلحظ بالتأكيد أن لصلاة الجمعة دوراً وقائياً ودوراً علاجياً

فالدور الوقائي هو ما يستعمله المصلي بواسطته من معلومات دينية وإرشادات علمية توجه حياته توجهاً سليماً، ومن تأثير الصلاة على النفس أيضاً زيادة الاطمئنان والمركزية والذاكرة وعلى الجسم زيادة جريان الدم فتتفبه رباته زيادة نشاطه وقوته وحتى يتمكن من الانتشار في الأرض والابتغاء من فضل الله تعالى.

أما الدور العلاجي فيرجع إلى التأثير الذي تحدثه الصلوات الحس اليومية وحطب صلاة الجمعة والأعياد ثم إن من مقتنيات الصلاة الوضوء الذي ليس فقط نظهيراً للجسم وإنما هو تطهير للنفس أيضاً فزاد ما أداه كما سمي يشعر المؤمن بالطاقة العلية والنسبة معاً ويشعر أيضاً إنه قد تطهر من دونه

٦ - ومضافاً عن هذا فإن للوضوء تأثيراً فيولوجياً، إذ به يساعد على استرخاء العضلات وتخفيف حدة التوتر البدني والنفسي، ولذلك أوصى

من الشيطان، وإن الشيطان خلق من النار، وإنما تطفأ النار بالماء، فإذا عصب أحدكم فليتبصّأ^(١).

وهكذا نجد أن وسائل التربية العلاجية لمهيج الأضداد العبدية الإسلامي تؤدي إلى تكوين استجابات صحيحة وسوية معارضة للاستجابات السلوكية المرضية المحالفة للمظهر الإسلامية، وقد وجهت الممارس والمريض معاً نحو تحقيق الأهداف العبادية لمنهج الأضداد من البعد الرأسي الذي يمكن الفرد المسلم من الصلح مع الله وتكوين علاقة إيجابية معه، ومن البعد الأفقي الذي يوجه الفرد نحو التكيف النفسي والاجتماعي مع ذاته ومع الجماعة التي يعيش فيها.

وهكذا، التفت وجهة نظر بعض المدارس العلاجية الحديثة مع النظرة لقائمة على تعديل سلوك مرضي بسلوك سوي مضاد.

سادساً: منهج الأضداد في تراث المفكرين المسلمين:

أسهم علماء المسلمين في إيضاح المعالم الأساسية لمنهج لمعالجة انعسية بطريقة الأضداد، وقد اهتم هذا التوجه الأخلاقي خلال المصور السابقة على أبحاث المفكرين والمربين المسلمين، بل إن اجتهادهم ساعدت على تكوين وجهة نظرنا في هذا الموضوع، وفي صياغة حافة نظرية إسلامية في ميدان العلاج النفسي تقوم على سياسة محو لعدم مظهر سائق وتكوين عادات تعلم جديد إيجابي يمحو الردائل ويوصل المفضل والمسمت والإدراكية والمزجانية والروحة والاجتماعية وغيرها.

ب. الإمام الغزالي والفيض المولى الكاشاني وابن مسكويه، وابن قدامة

(١) مجلة الثقافة العربية، العدد (١٦) لجلد الرابع - عدد ثرين الأول / م ١٩٩٣ م، مقال للدكتور أسامة

المفندي، والشيخ التراقي، وجماعه إخوان الصفا وفيلسوف البحرين الكبير في القرن السابع للمهجري الشيخ ميثم البحراني^(١) وغيرهم قد أشدروا إلى هذا المذهب بإيجاز جيباً أو بتفصيل أوسع حيناً آخر، ولم تكن جهودهم العلمية مجرد ثراء نظرية مدفوعة في بطون الكتب والمؤلفات التي تركوها، وحفظت لنا السطوط العريضة لهذا المذهب، بل طبقوا مفاهيم هذا المذهب على حياتهم ونفموا بها أنفسهم والآخرين، فصحوا من خلال عمليات توعية عامة وفردية إلى تغيير أنماط السلوك العاطفي والمذموم كتعبير صفات البخل والغرور والبراء والرياء وحب الدنيا وطول الأمل والحدود غير الطبيعي، والياس، والتمنية والعبية وغيرها من السلوك العصابي، وذلك بما يضافها من انعطاف والقيم السوية التي تقابلها.

وكانت اجتهادات علمائنا في تفصيل أسس هذا المذهب نسلك جيباً طريفاً عاماً كلياً، وحيباً آخر طريفاً جريباً خاصاً، وسوف يأتي على شرح أوسع لهذه المسألة في ثنايا دراستنا.

فهؤلاء العلماء - رحمهم الله تعالى - قد وصموا عبوتهم على خطوط مذهب الأضداد، وشروطه، ومراحلها، ونمقوا في تفاصيل دعائمه الأساسية، رغم أن التفاوت بينهم في فهم كل واحد منهم لهذا المذهب حقيقة واضحة، فالإمام الغزالي والمولي الفيض الكاشاني كانا - مثلاً - أكثر وضوحاً من غيرهم في حدود ما أعلمه في تفصيل هذا المذهب وأكثر عناية من اس مكتوبه عن سبيل المثال لأن الأخير شغل نفسه بدراسة موضوعات أخرى لكه لم يترك الحديث عنه بمقدار ما تتطلبه البحث العابر أحياناً، وتنصل أوسع أحياناً أخرى

(١) انظر كتابه في شرح الملة كلمة لأمر المؤمنين، ص ٩٣.

ومع ذلك لم يكتب أحد هؤلاء العلماء دراسة مستقلة ومفصلة عن هذه الطريقة، وإن تركوا أفكارهم مشرقة - هنا وهناك - في كتبهم، ويمكن للباحث الاستفادة من اجتهاد الجميع، وصياغة وجهة نظره عمدة بعلماء المسلمين في موضوع العلاج النفسي بطريقة الأضداد.

إن معالم هذا المنهج الأصل وتفاصيلاته جلية في مصادر التراث العلمي لأبي حامد العراقي والفيض الكاشاني والشبح الرائي وغيرهم كما قلنا، حيث أثار هؤلاء إلى نظام المعالجة الكلية للأضداد، ثم دعوا إلى ضرورة الالتزام به كمنهج عمل في مداواة بعض الأمراض النفسية التي تعاني منها الذات المسلمة، وعالجوا وفق طريقة الأضداد كثيراً من الحالات المرضية الحفيفة القابلة للتعديل، بل حاول بعضهم كالكندي وابن سينا معالجة حالات معقدة.

بينما أتى ابن مسكويه في بعض أبعاده الاجتماعية والأخلاقية على ذكر هذا المنهج إجمالاً لا تفصيل فيه، فهو على سبيل المثال في كتابه المشهور التهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق وضع إشارة عاجلة أو عابرة عنه، لكنه مع ذلك لم يشغل نفسه بدراسة مفصلة لمعالجه، ولا يعلم مدى اهتمامه بهذا المنهج في كنه الأخلاقية الأخرى التي لم نطلع عليها.

وإحتمالاً فإنه من الطبيعي أن تتفاوت جهودهم العلمية في فهم منهج الأضداد ونسرف عنه ومدى استخدماته، لكن القاسم المشترك بين هؤلاء المربين جميعاً هو البحث عنه كمنهج يصلح لتربية وعلاج الذات المسلمة على ضوء المفاهيم الإسلامية، ويصلح في الوقت نفسه كأسلوب لمعالجات سلوكية وتعديل اتجاهات فكرية وعبية.

ومما لا شك فيه أن فهم هؤلاء المفكرين والعلماء لمعالم هذا المنهج

ماحود منصوص القرآن والسنة وخطاب أئمة أهل البيت وصحابة النبي وعلماء المسلمين بوجه عام، مهما دائماً المصادر الأولى لوعينا بهذا الموضوع أو ذلك عند الإنسان المسلم، فالنصوص القرآنية والسوية الشريفة تشكل دائماً المادة العلمية، وهي التي تصوع لنا المفاهيم النظرية والتطبيقية ليس في موضوعات المعالجة بطريقة الأصداد فحسب، بل في كل موضوعات الحياة الإنسانية بأسرها.

وبالتأكيد فإن هذا الجمع من علمائنا كانوا على صلة قريبة بهذه النصوص النكرية وتأثروا بها إلى حد كبير ذهنياً ووجدانياً وسلوكياً وروحياً، ولهذا نجد في أبحاثهم دائماً دعوة واضحة للأخذ بهذا المسهج لصريح النفس علاجياً وإعادة تربيتها وقائياً، ووعم هذه الصلة المباشرة والقريبة، فإن أحد من هؤلاء الباحثين لم يبرء دراسة أو بحثاً مستقلاً تناول فيه طريقة العلاج بالأصداد.

أما أبحاث العلماء المسلمين المعاصرين^(١) - على ندرتهم - فإنهم لم تعرض لهذا المسهج تفصيلاً، بل ذكرته بعض هذه الدراسات ذكراً عارضاً لا يزود القارئ المسلم بقدر كاف من المعلومات رغم أن محتوى هذا المسهج تأخذ مساحة واسعة من التشريع الإسلامي، لكن تأخر الدراسات العلمية لدى المسلمين عن الدلائل الإسلامية المعاصرة بوجه عام ترك أثره السلبي على تأخر صياغة نظرية علاجية للنفس قائمه على فكرة المعالجة بالأصداد، مع أن العمل المسلم في كل زمان بحاجة لهذه النظرية والإفادة منها في العملية العلاجية والتربوية.

(١) من المثل ما ذكره مصطفى محمود والفكر وحس الشرفاوي قد أشادوا بيجاز إلى مسهج المعالجة النفس بالأصداد في كتابيهما (السرور الفرقة) و(نحو علم من إسلامي).

ويعتقد أن ما كتبه المفكرون المسلمون وما تركوه لنا من تراث علمي كان جهداً خصباً وغنياً يعبر عن قدرة العقل المسلم في عصور سابقة من تاريخنا تمجيد على التآلق في إنتاج فكر حصص وحيوي، وقد أثمر هذا المعكر نماعلاً بين المنهج والذات المسلمة، لكن التأخر في الدراسات الإسلامية عند المسلمين في العترات اللاحقة فصل بين الأجيال المسلمة ومنهج الأضداد، فعقم العقل المسلم في فترة التدهور والتخلف أدى إلى عجزه حتى عن اكتشاف وجود منهج للمعالجة بطريق الصد، فضلاً عن إصابة فكر جديد، فجماعت اهتمامات علمائنا المعاصرين به محدودة وضعيفة وكأنه لا وجود له أو لا رصيد له في المحرور الثقافي للأمة

وهما يمكن لهذا المنهج من مساحة ضيقة هي الدراسات النفسية والاجتماعية عند العلماء والمفكرين المعاصرين، فإن كل محاولة لإبراره لا تستطيع تجاهل رصيده الكبير في النصوص التربوية للمشرع الإسلامي، وفي كتب ومصادر التراث الفكري لعلماء المسلمين

سابعاً: المعالجة بالأضداد بين اللذة والصحة في المفهوم العبادي:

يهدف العلاج النفسي بالأضداد كما ذكرنا إلى استعادة التوازن النفسي والاجتماعي للمفقد لدى الذات المسلمة المعاصرة، وذلك من خلال تنظيم حرائق الإشباع للحاسبات الأساسية وتنشئة القوى الفطرية للذات، بحيث تجد لذت في إشباع شهوة ما كالمعالجة إلى النملك لذة سيكولوجية أو عقلية أو مادية، مما يساعد على تحقيق مبدأ أساسي من مبادئ الصحة النفسية للفرد، وقد حرصت النظريات النفسية الحديثة على التأكيد بأن الإشباع المعتدل تصحبه دناماً لذة سواء ذات طبيعه مادية أو عقلية أو مادية.

لكن بعض علماء الأخلاق المسلمين يرون أن مجرد اللذة وحده لا

يكفي لتحقيق الصحة النفسية والعملية، فليس مسكويه وحل الأخلاق المعروف يؤكد أن هدف المعالجة بطريقة الاضداد ليس فقط من أجل منع البدء أو مجرد إشباع الحاجات فحسب، وإنما شرط أن تكون النتيجة في أية معالجة هو بلوغ الصحة في معناها الشامل، وهذا يعني أن لإشباع في نظره لا بد أن يكون سوية وصحياً بالمعايير المعادية.

وبالتالي اختلف ابن مسكويه عن بعض علماء الأخلاق اليونان القائلين بأن الحصول على اللذة بعد ذاتها هو الهدف المرجو كما يذهب إلى ذلك الفلاسفة الأبيقوريون.

يقول ابن مسكويه رحمه الله تعالى مخاطباً القارئ:

«وقد أعلمناك في ما تقدم، ما الكفاية وما الفصد؟ وإن العرض الصحيح بهما هو مداواة الآلام والتخرد من الوقوع فيها، لا التمتع وطلب اللذة، وإن من عالج الجوع والمطش الدبيب حماً غرضان وألمان حادثان، لا يعني أن يقصد لذة البدن وصحته، وسيلنذ لا محالة فإن من طلب بالعلاج اللذة لا الصحة لم تحصل الصحة، ولم يبق له لذة اللذة»^(١)

إن المعنى الإنساني لا تشيع، وهي في كل مرة نحاول الحصول على مزيد من السعد، ونظل على هذا الحال، فلا تحصل على اللذة ولا على الصحة، لأن عجز الفرد عن ضبط اندفاع الشهوات في داخل نفسه ومي حركة الحياة يسهي به إلى الخروج عن الاعتدال والوسطية، وحينئذ مع شخصيه في حياض الانحرافات الأخلاقية والنفسية والعكسية، وقد تشكل منها تدريجياً ركام ضار يؤدي إلى تلاشي اللذة والصحة معاً من حياة الفرد

(١) كتاب ابن مسكويه، (مذهب الأخلاق وتطوير الأعراف)، ص ١٥٦

ونحنه مروج آخر من علماء الأخلاق إلى التأكيد على القيمة السطرية والعميقة «الفضائل» واكتشافها كهدف للسلوك، فحياة العصفلة هي عادة السلوك الإنساني، وهي يذاتها السعادة الكاملة، ويمثل هذا الاتجاه حكم لوان الشامخ سقراط مؤسس علم الأخلاق.

ولذلك يدعو سقراط للوصول للسعادة إلى سيطرة العقل على الشهوات والتعالي على اللذات والشهوات والرغبات والتدرب عن معرفة جيدة بالخير والشر والتدرب على الفضائل لاكتسابها وممارستها

أما السطرة العلاجية العبادية القائمة على طريقة الأعداد، فلا تتوقف عند حدود اللذة أو الفضيلة أو الصحة، إذ يستهدف منهج لمعالجة أسبكتروجية بالأعداد الجمع بين هذه الأهداف وبين هدف كبير هو لرضا الإلهي، ويتوحي الربط بين الغايات الأخلاقية والعقلية والفنية وبين الغاية العبادية الكبرى.

إذا أردت العصر البشرية الثمود على سلوك السفاهة ومعالجة بخلها بالتمسحي والتدرب عليه، نجد منهج المعالجة النفسية بالأعداد يرفض أن تكون غاية ذلك للحصول على لذة البدل والنسخي والكريم، وإن كانت النفس تشمر تلقائياً بهذه اللذة مجردة أحياناً عن الرباء، وكل ما في الأمر أن لحصر على «اللذة» لذاتها ليس هدفاً مقصوداً في السلوك العبادي، بل إنه حصر الإنسان هدفه في تحقيق اللذة أو الصحة مجردة عن المبدأ العبادي يكون قد حقق توافقاً نفسياً ظاهرياً، لكنه لم يسجم تماماً مع المعنى العمدي للتوافق، لأن الجهد العلاجي كله عزول وما نتج عنه من نتائج إيجابيه عن المهدف العبادي الأساسي وهو رضا الله عز وجل

وإذا أحسنا الدعوة إلى النظر والتأمل والتعكير مثلاً، فإن البيوت

يعتمدون أن التفكير غاية الفيلسوف للوقوف على طائعات الأشياء وحقائقها، وما يصاحب ذلك من لغة عقلية حاصلة، والدعوة إلى ممارسة الفكر لديهم تستهدف راحة العقل ومصنجه، لكن المذهب التربوي والعلاجي في الإسلام لا يرى أن التفكير مجرد غاية في ذاتها أو حركة موجهة وهادفة لتخفيف لذه عقبة، بل هو فريضة دينية لا تستهدف تنمية قدرات العقل وحده أو لعمارة الأرض أو لتحقيق السعادة الكاملة في حياة الإنسان، وإنما ليلوئع هذه الأهداف جميعاً في إطار الهدف العبادي المركزي وهو رضا الله تعالى، أي غاية التفكير إرضاء الله عز وجل وعبادته وطاعته وتقديم الولاء له، وقد ركزت نصوص التشريع الإسلامي - في كل دوائره ومجالاته - على هذا المعنى الخليل.

ثامناً: السمات المتقابلة بين الحدية والوسطية:

تتراوح السمات المتقابلة في نصوص التشريع التربوي الإسلامي بين طائعين هما طابع الحدية وطابع الوسطية، إذ يؤكد قسم من هذه النصوص على المقابل الحدي بين الصمت الذي لا وجود فيه لسمه وسط، بحيث تتواجه على حط المتقابل سمه غير سوية مع سمه سوية، فتكون إحداهما «رديلة» وتكون السمه الأخرى المضادة لها «مضيلة».

سبحا يؤكد قسم آخر من النصوص التربوية الإسلامية على وسطية السمه «السوية» بين سمتين عصائيتين (وديلتس)، وقد اشتهر أرسطو بفيلسوف اليونان الكبير بأنه صاحب تصنيف للعصائل والردائل قائم على معرف «العصيلة» بأنها وسط بين رديتين كلتاها تمثل تطرفاً وساوٍ غير سوي، ويكون هذا الوسط سلوكاً سويةً، لذلك اعتبره أرسطو «سلوكاً فاضلاً»

وقد تأثر علماء السلوك والأخلاق المسلمون أمثال ابن مسكويه^(١) وغيره بهذا التصنيف وما يرال مقبولاً ونغم ما وجه له من نقد، وقد رُكِر بعض العلماء والفلاسفة في تقديم لفلسفة أرسطو على وجود بعض صدق حديه لا قبل الوسطية. ولا يمكن أن تكون بينها وجود حط فاصل حدي، والصدق والأمانة والمعدل كلها ليست وسطاً بين ردئيتين إحداهما بدراط والأخرى تفریط

أما بخصوص المشرع التربوي الإسلامي - قرآنية وغير قرآنية - فقد اتجهت إلى الجمع بين التقابل الحدي والتقابل الوسطي. أي قبول لمصوح الإسلامية بالنوعين معاً مع إضفاء طابع روحي ومعرفي بمرر لنظرة إسلامية، وبذلك تعادى التصنيف الإسلامي ما وجه للتصنيفين من عيب، وسوف نجد بعد قليل أمثلة من هذه المصوح

أولاً: السمات المتقابلة الحدية.

هذا النوع من السمات المتقابلة يخلو من الوسطية كالصدق والكذب، والأمانة والخيانة، والنزاهة والفساد، والعلم والجهل، ومن يتأمن بمصوح بقرآن وآياته الكريمة، وكذلك بعض المصوح الروائية (من السنة) كما وجدنا ذلك في تقابل بعض السمات التي لا وسط لها، يدرك أنه توجد سمات سرية كالصدق مثلاً (وهي فضيلة) وتوجد في الطرف الآخر سمة غير سرية (وهي المكذب). ولا توجد في هذا التقابل صفة وسطية إما سمة لصدق أو سمة الكذب ولا وسط بينهما انسجماً مع منطق قانون ثلاث، مرموع أو الوسط الممتنع المائل إن الشيء، إما أن ينصف بصفة ما أو ينصف بصفة مقيص لها.

(١) انظر المصدر السابق لهما، ص (٤٥ - ٤٩) ومصحف أخرى منه.

(مدد) حسباً تمثل حالات جرع معاناة الشدة عالجها النص القرآني مانصب) نم فال الله تعالى في الآية نفسها ﴿وَيَسِّرِ الْخَيْرَ﴾.

وآيات قرآنية أخرى تتضمن سمات سلوكية متقابلة وتبين معالجته النص انقرآني بلسمات المرصدة سمات سوية مصادرة مثل قوله تعالى

﴿ثُمَّ أَوَّلَىٰ عَلَيْكُمْ تَرَىٰ بِدَوِّ النَّفْسِ أَفْئَةً﴾^(١)

﴿ثُمَّ تَرَىٰ فَجَرًا زَبِيحًا مَكِيدًا﴾^(٢).

﴿وَلَيْسَتُ لَكُمْ مِنْ بَدُوِّ حَرْفِهِمْ أَنْفٌ﴾^(٣).

﴿يَنْشُرُونَ الْأُفْلَ وَلَا تَهْفَ إِلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ﴾^(٤).

﴿إِنَّمَا كُنْتُمْ أَفْئَةً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بَشِيرًا إِنْشَاءً﴾^(٥)

وكذلك نجد هذا النمط من السمات المتقابلة في آيات قرآنية متتامة حيناً، وفي آيات متفرقة أو متشابهة حيناً آخر، فالآيات القرآنية الخامسة حتى العاشرة من سورة الليل مثلاً تتواجه منها أربع سمات على حط التذلل، وكذلك نجد هذا النمط في الآية (٧٥) من سورة المائدة، وفي الآية (٥١) حتى الآية (٥٤) من السورة ذاتها، وكلاهما يتحدث عن معالجة سمة مرضية بسمة سوية عبادية.

وأحياناً تعالج مصوص المشرع الترموي الإسلامي السمات المرصدة بآيات متفرقات، فمعالج التكبر أو للكفر أو الإسراف في لوم الذات أو ارباء

(١) سورة آل عمران: ١٥٤

(٢) سورة المائدة: ٨٩.

(٣) سورة المائدة: ٥٥

(٤) سورة القصص: ٢٦

(٥) سورة آل عمران: ١٠٣

في آيات عديدة متعركة، وعلاجها في آيات أخرى، وقد شملت هذه المعالجة للسلوك المتضاربة الحديثة قضايا إيمانية وأخلاقية واجتماعية وإدراكية وغيرها

ومن هنا نشأت الحاجة إلى دراسة النص القرآني وفق تفسير موضوعي نتم على فهم المصنفين المعرفي للآيات المأثرة على أساس رؤيه موحدة لموضوع معين كما فعل العلامة الشهيد محمد باقر الصدر في كتابه النحو تفسير موضوعي للقرآن الكريم.

ثانياً. السمات المتضاربة الوسطية:

رأى آيات القرآن الكريم أمثلة واضحة على هذا النمط العلاجي، وسنكتفي بعدد من الآيات الكريمة بفرض التمثيل وتقريب المعنى

من آيات القرآن الكريم عن السمات الوسطية - وهي السمات المرغوبة عبادياً - كثيرة ومتنوعة، يقول الله تعالى في بعض النصوص القرآنية .

﴿وَلَا يَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَمْسُكْهُمَا كُلُّ يَدٍ فَتَنفَعَدَ إِلَهُكُمَا﴾^(١)

﴿وَسُكُونًا فَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾^(٢)

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَمْسُكُوا بِدِينِهِمْ فَلَا أَمْرَ لَهُمْ﴾^(٣)

وقال الله تعالى أيضاً .

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ السُّبُلَ وَالَّتِي فِي الْأَرْضِ مَرَّاتٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾

(١) سورة الإسراء، ٢٩

(٢) سورة الأعراف، ٢٦

(٣) سورة العنكبوت، ٢٧

﴿وَأَعِزُّوْا نَفْسَكُمْ وَأَعْتَصِمُوا مِنْ حَتِّهِمْ إِنَّ فَتْكَرَ الْآخِزِينَ لَكِنَّتُ الْكَبِيرِ﴾^(١)

﴿وَلَا تَسْئَلُوا فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْمَتْلَ عُلُوًّا﴾^(٢)

﴿وَلَا تَهْتَفُوا بِسَلْمِكُمْ وَلَا تُقَالُوا بِهَا وَاتَّخِذُوا ذِكْرَ سَيِّلَا﴾^(٣)

في آيات السابعة تقابل بين سمات متعابلة طرفية تمثل كل منها فرداً أو تعريضاً، كلاهما سلوك مرضي عبر مرعوب فيه، لذلك ركزت الآيات على السمة الوسط التي تمثل الفضيلة باعتبارها السمة المرغوبة في التربية لعبادة الإسلام.

إن الآيات القرآنية المذكورة تندد مثلاً بسمتي (البحل والتبذير) معاً في عممية الإنفاق، وتطالب الإنسان المسلم باتفاق معتدل فلا يحل ولا إسراف، فهنا تتوسط فضيلة الكرم بين رذيلتي البخل والتبذير، وتندد آيات أخرى برذيلتي (التكبر وقبول المدلة طوعاً أو كرهاً)، وتطالب القرآن بسمة (التواضع) وهي الفضيلة أو السمة الإسلامية التي تتوسط بين رذيلتين المذكورتين، وتطالب نصوص قرآنية أخرى بالوسطية والاعتدال في أداء الصلاة، لا جهر ولا إخفات.

وهكذا فإن أنماط السمات السلوكية في نظام المعالجة بالأحاديث تنظم إلى على خط تقابل يمثل الوسطية بين سمات السلوك البتة (أو الرذائل بلغة الفلاسفة الأخلاقيين) وبين سمات السلوك الإيجابية أو (الفضائل)، وأما أن تنظم السمات الإنسانية على خط محدد صارم تتباعد فيه السمات المرهوبة البتة عن السمات المسحرفة عبر السوية ناعداً طرفياً وشامعاً لا يقلل أحدهما الآخر.

(١) سورة لقمان، ١٨ - ٢٠

(٢) سورة الإسراء، ٣٧

(٣) سورة الإسراء، ١١٠

الفصل الثالث

مسوغات استخدام منهج المعالجة النفسية بالأضداد

نحاول في هذا الفصل أهم مسوغات الدعوة التي دفعت بعدد من علماء المسلمين المهتمين بعلم الأخلاق والعلاج النفسي إلى استخدام منهج المعالجة السلوكية بالأضداد والعمل به لتعديل سلوك الأفراد، وهي مسوغات - كما سيرى القارئ الكريم - تنطلق من خصائص التكوين النفسي والعقلي الموجوداني للإنسان، ومن رؤية المشرع التربوي الإسلامي لتركيبية الطبيعة الأدمية وفهمه العميق لما تنطوي عليه من خصائص فطرية متفصلة.

فإنه عز وجل حالف هذا التكوين وهو يصير بمكوناته انظرية والمكتسبة، وهو خبير بالوسائل والأساليب والآليات المنهجية المناسبة لهذا التكوين

وهناك ست مسوغات أساسية تقتضي الاستعانة من معالجة هذا المصعق التربوي والمعرفي والسلوكي في إحداث تعديل جذري أو حرجي في سلوك الفرد وإعادة تربيته وبناء شخصيته بمعايير عادية، ويمكننا الآن حصر هذه المسوغات وتحديد دوافع العمل بهذا المصعق بما يلي

١ - التكوين الثنائي للطبيعة الإنسانية (وقابلينها للتعبير العادي انساني)

٢ - دعوة المشرع التربوي الإسلامي للعمل بمنهج المعالجة السلوكية بالأضداد

- ٢ - انحرافات الكبار وتأثيراتها السيئة على الصغار .
- ٤ - حاجة الإنسان المؤمن للعمل بمهج الأصداد لتعديل دائم لسلوكه
- ٥ - قدرة نظام المعالجة النفسية بالأصداد على تحقيق شخصية متزنة ومتكاملة .
- ٦ - ظهور نظرية المعالجة النفسية بالأصداد وتجددها في الفكر المعاصر



أولاً: قابلية النفس البشرية للتغيير العبادي الإيجابي:

حين نوجه إلى أنفسنا بحث عن طبيعتها نجد تركباً ثنائياً لها ، خلافاً لطبيعة البهائم والملائكة ، والتركيب الأدمي يتجاذبه استعداوان أحدهما للحير والآخر للبشر ، كما تحضغ النفس الإنسانية في حركتها لدواعي الشهوة أو تقاد لضوابط العقل المعرفية والأخلاقية ، ودور الإنسان تكوين نظام متوازن يسيطر لعلاقة بين انقوة الجاذبة والقوة الطاردة ، ويحفظ لشخصيته حركتها الطبيعية واستقامتها ، وهذا ما أراده المشرع التربوي الإسلامي من مشروعه الحضاري .

إن نفس الإنسانية تطوي على طبيعة مزدوجة تقبل الخير والشر ، فكلاهما كامن في تركيبها الداخلي ، وإن ظهور أحدهما في سلوك الإنسان أو ضموره يتوقف على توجيه دافع من الأفراد أو تدخل من المحيطين به في البيئة والمحيط الاجتماعي سواء كان هذا التوجه صحيحاً أو خاطئاً

فإذا تركزت جهود وتدريبات المربي على تنمية عنصر الخير والموقف نحو هذا العنصر وبرزه في علاقات السلوك العبادية السوية التي تكون موضع قبول الله سبحانه ، أما إذا أراد المربون - متعمدين أو غير متعمدين - تربية

الشخصية البشرية على أفكار واتجاهات وقيم وعادات خاطئة فإن كوامن انشر ستكون واضحة في حركة الذات الإنسانية، فالمادة طسعة ثبة كما بقرون الأحاديث الشريعة، إذ يؤدي الغريب المواصل إلى تكوّن خاطئ للأفكار والانجاسات والعادات، وتكون من القوة بسبب هذا التدريب أشبه بسدوك نظري يصعب تعديله، بحيث يحتاج إلى جهد صخيم من التوجيه الهادف والفعال لإزالته، وإذا رسخت أفكار معينة واستقرت عادات ما، كسبت قوة الطبع في كيان الذات وأصبحت كأنها جزء أصيل من النطرة.

ولا يعني بالتأكيد استحالة تغيير ما رسخ من أفكار وعادات وإنما يصعب تعديله فقط، وتحتاج إلى جهد كبير وفترة أطول حتى يتم إحداث التعديل في السلوك، وهكذا ستجيب طبيعتنا وتركيبتنا الآدمية لكون من الخير والشر وفق توجيهاتنا - نحن البشر - صحيحة أو خاطئة، ويكون سدوك أفكارنا ومشاعرنا صدى لهذه التوجيهات ومرة انعكس ما ننطوي عليه تركيبنا الإنسانية من ثنائية الخير والشر.

وقد شهدت آيات قرآنية كريمة وأحاديث نبوية شريفة وأقوال وكلمات المعصومين من أئمة أهل البيت عليهم السلام على وجود غالبة ثنائية داخلية للخير والشر في كياننا الإنساني، وتقع المسؤولية الكاملة على الفرد في اختيار أفعاله وأعماله التكلمية، وهي مسؤولية يثرب عنها في نظر المشرع التربوي الإسلامي جزاء إما إثابة أو عقوبة.

ومى ذلك قوله تعالى:

﴿وَيَقَرُّ رَمَّا سَوْهَا ۖ يَالْتَمَهَا ۖ جُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۚ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّهَا ۝١﴾
 وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّهَا ۖ ﴿٢﴾﴾^(١).

﴿وَمَذْمُومَةُ الْجَنَّةِ﴾^(١).. يعني إما مجد وطريق الخير أو مجد

وطريق الشر

﴿إِنَّا حَقَّقْنَاهُ النَّبِيلَ إِنَّا شَاكِرًا وَلَهُمَا كَعُورًا﴾^(٢).

﴿وَأَنَّا مِنْ تَعْمَلٍ بَعِيرٌ ﴿١﴾ وَمَذْمُومَةُ الْجَنَّةِ ﴿٢﴾ مَذْمُومَةُ الْجَنَّةِ ﴿٣﴾ وَأَنَّا مِنْ بَعِيرٍ
وَأَسْمَى ﴿٤﴾ وَكَذَّبَ بِالْحَقِّ ﴿٥﴾ فَتَبَيَّنَ الْبَصِيرُ ﴿٦﴾﴾^(٣).

﴿نَسْرَ يَمْلِكُ مِنْكَالَ دَرَّةَ حَبْرًا يَمْرُؤَ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَمْلِكُ مِنْكَالَ دَرَّةَ
شَرًّا يَمْرُؤَ ﴿٨﴾﴾^(٤)

ويقول الإمام علي عليه السلام:

«إن لله ركب في الملائكة عفاً بلا شهوة، وركب في البهائم شهوة بلا عقل، وركب في بني آدم كليهما، فمن غلب عقله شهوته فهو خير من لملائكة، ومن غلب شهوته عقله فهو شر من البهائم»^(٥)

والفلس البشرية بمقتضى المصومى السابقة مجبولة على طبيعة مردودة تتقابل فيها أفعال الخير مع أفعال الشر، فكما هي قادرة على اختيار أفعال الكذب والبخل والتكبر وكل أنماط السلوك العصابي فهي كذلك مستعدة بممارسة أفعال المصدق والكوم والتواضع وكل فعل خير وسوي

ورغم تميز الطبيعة البشرية بشائبتها المتقابلة، إلا أننا لا نولد أشراراً وماعين مرمضة، بل نولد مرودين (بقابلة وراثية) لفعل هذا السلوك أو ذاك،

(١) سورة البلد، ١٠.

(٢) سورة الاسراء، ٣.

(٣) سورة الليل، ١٠ - ٥.

(٤) سورة الرزاق، ٧.

(٥) المراد بالمرضى، باب ٩، ج ٦، جهاد النفس، وكذلك ميراث الحكمة ج ٩، ص ٣٦٢.

وبترك تحقيق الأفعال في عالم الواقع للتنشئة الاجتماعية ونقلها من قابليتها الوراثية إلى الواقع والتحقق سواء كانت هذه الأفعال خيرة أو شريرة، بيد أن الأفراد يمكنهم الانتقال من سلوك ما إلى سلوك مصاد، ومن هنا يدعونا المشرع التربوي الإسلامي إلى استثمار مرونة قابليتنا الوراثية وإصلاح دوتنا بمعاصر الخير والاستجابة لقوانين تعبير النفس من داخلها.

وإذا كان الناس في كل عصر يمكنهم تربية الحيوان على عادات سلوكية لفترة معينة ثم استبدالها - مرة ثانية - بعادات أخرى فإن الذات البشرية أكثر هذه المحلوقات استعداداً لتقبل الأضداد وتعبير عاداتها حتى تستقر على الوضع المقبول شرعاً واجتماعياً

إن الإنسان يملك القدرة على حمل الحيوان على تغيير صفاته وترويض عاداته السلوكية من التوحش إلى الأنس، والفرس من الجمح إلى الأسفاد، والكلب من المهراسة إلى الشأوب، فكيف يمكن في حق الإنسان^(١)؟

ونجد هذا التعبير السلوكي واضحاً في المواقف والمشاهد الاستعراضية التي يؤديها بعض الحيوانات كالأسود والفردة وغيرهما في أعمال (السيرك)، حيث ندل هذه المشاهد على قدرة الإنسان على تعديل سلوك الحيوان، وهو كثر أقل منه ذكاء وإدراكاً وقابلية للتغيير في السلوك، فإذا كان حال الحيوان هكذا بمحمل بين جنس قابلية تغيير السلوك سلوك مضاد آخر، ونعتمد عادة سلوكه خاطئة بعادة أخرى صحيحة فإن النفس الإنسانية لديها قابلية أكثر ليعول الأضداد مع العارق الكبير بين إمكانات الحيوان وقدرات الإنسان

إن النفس الإنسانية كما ثبت حقيقة أحوالها (حرون) لا تقاد بسهولة لتعبير ما هو مألوف من السلوك خاصة إذا استحكمت فيها «معدات» مدة طويله ورسخت في أعماقها مفعوة، فكل عادة لها سلطان على النفس الإنسانية، ويمكن أن يؤثر طول العدة ورسوخ العادة في عملية التعبير النفسي وتأخر فتره علاج السلوك وتعديله، ويشهد الأخلاقيون بهذه بصعوبة، يقول الشيخ الرافعي رحمه الله عن تحكم السلوك المألوف في النفس «إذ استحكمت فيها الأخلاق تضر قبول أصدادها»^(١١)

ويريد الشيخ الرافعي تنبيه المعالج النفسي المسلم بصعوبة تغيير العادات السنية إلى عادة سليمة معادة أو حتى تغيير السلوك النفس إلى ضده، ومن هنا قيل في الحكمة الشريفة «أصعب السياسات لمن العادات»^(١٢) كما جاء عن الإمام علي عليه السلام

لكن صعوبة التغيير لا يعني أبداً استحالة وعدم إمكانية تحقيقه في الحياة الإنسانية، فالتاريخ مليء بالدعوات الإصلاحية وبخاصة الإيمانية التي تمكنت من إحداث تغيير نفسي على مستوى الأفراد والجماعات وقبول النفس بوجه عام للأفكار والعادات والمظاهر المعاصرة

وعلى كل حال يكلم قبول النفس لأصدادها من السلوك الجديد غير المألوف جهداً صعباً لا ترغب فيه بادئ الأمر لأن طبيعة السمعة الجهادية تقتضي المواجهة المباشرة للثقافة مع العادات المطلوب تغييرها أو تعديلها، لكنها ما تنتزح تبداً في التعود على هذه المواجهة والاستجابة العادية للضغوط، فيكسبها هذا التعود قدرة على التعامل الطبيعي السوي مع

(١١) المصدر السابق، ج ١، ص ٢٨.

(١٢) ميزان الحكمة، ج ٧، ص ١٢٥.

الاستجابات الجديدة المراد اكتسب عليها وتأصيلها في كان الشخصية، ومن هنا تتحول خلايا الجهاز العصبي للإنسان بطريقة تدريجية إلى خلايا مستعدة على الحس وأفعال الطاعات التي تحفظ للذات ثوابها، والدخل، لذلك قال الإمام علي كلمته الدقيقة الحاللة:

«غُيِّرُواِ الْمَادَاتِ فَهَلْ عَلَيْكُمُ الطَّاعَاتُ»^(١)

ثانياً: دعوة المشرع الإسلامي للعمل بمنهج الأضداد:

أشراً إلى أن دعوى المشرع التربوي الإسلامي لمعالجة النفس بطريقة الأضداد يقوم على أساس تفهم التركيبة الثابتة للطبيعة البشرية وتفهم القابلية الداعية (للأضداد) في هذه التركيبة، وهذا أحد أسرار قدرة النص التربوي الإسلامي وفعاليته على علاج الذات الإنسانية بهذا المنهج

ومما لا شك فيه أن نصوص المشرع التربوية تحت الفرد المسلم دائماً على الالتزام بنظام المعالجة السيكلولوجية بالأضداد، وسوف نجد في نضايف دراستنا بوضوحاً للمشرع تأكيداً وأيضاً، وأن هذه النصوص تتناول نظم المعالجة بالضد إجمالاً والإشارة إلى خطوطها العامة، وأحياناً تعطي أفكاراً تفصيلية تناسب كل مرض سلوكي على حدة

وتتضمن هذه النصوص شروط وأسس ومراحل وأنماط وطرق وصيغ ومناهج المعالجة بالأضداد، كما تحتوي على كشف مرئ في قدرة هذا المنهج العلاجي الإسلامي على إحياء قابليتنا وتنشيطها بمعدهم وقيم عادية، وبإملى أن تتمكن هذه الدراسة من تحقيق تفاعل إيجابي مع الذات والمهج

وفد حيد هذا المنهج صفات المعالج النفسي المسلم ومط لملاقه
 به وس موصاه، كما أوضع كذلك ضرورة اسخدام التعلم اللداني كأحد
 الأساليب اللعلاحة لهذا المنهج، وحاول منهج اللعلاج النفسي بصرلفة
 الأصداد بحديد موقف المعالج المسلم إراء الصفات الوراثية التي لم يكن
 للفرد فرصة اختيارها^(١)

إن اهتمامات منهج المعالجة بالأضداد بإعادة صياغة الشخصية الإسلامية
 وتربيتها تتطلب توظيف واستثمار مختلف الوسائل التحيرية الإسلامية لتبسيط
 قابلية لعس وتربيتها من جديد على اكتساب أنماط من السلوك العبادي
 السوي رغم الصعوبات المتوقعة أثناء فترة العلاج، بيد أن العاملين بمنهج
 الأضداد والداعين إلى العمل به يدركون منذ البداية الأثر السلبي للأخلاقي
 لمدومة والذائل في تبصيل العقل المسلم وحجب الرؤية الواضحة عنه في
 معرفة الله سبحانه، وهذا ما أكدّه الشيخ العراقي وابن مسكويه

«لأخلاق المدمومة هي الحجب السامعة عن المعارف الإلهية
 وشفعت القدسية، إذ هي بمنزلة الغطاء للنفوس، مما لم يرتفع عنها لم
 تنفع لها جلبة الأمر انصاحاً، كيم والقلوب كالأوتاي، فإذا كانت مطووعة
 بالهاء لا يدخلها الهواء، فالقلوب المشغولة بعير الله لا تدخلها معرفة الله
 وحبّه وأنسه»^(٢)

(١) نأمل بحث موقف المشرع الشرعي الإسلامي من المسألة الوراثية وتأثيرها على تكوين السلوك الإنساني
 ومعدنه خاص بعد التطورات التي أنجزها علم الهندسة الوراثية، منه إنشأته - من ثناء النصوص
 الإسلام خاصة النصوص الوراثية إلى إمكانية إحداث تحسين وراثي لدى الكائن الأدنى بردي في
 الهاء إلى تطورات إيجابية على النسل وتحيته، وهو أمر يعكس إيجاباً على الشخصية الآساء
 كالسير، على الجينات التي سبب أمراض الشيفوخ أو الأمراض الوراثية أو تغيير الخلايا السرخاب

(٢) جامع السعادات للراقي، ج١ ص ٤٢. وكذلك كتاب تفتيح الأخلاق وظهور الأعمال لاس مسكويه،

وهذا وحده يكفي كمنوع يجعل المعالج النفسي المسلم يبدل قصارى جهده لإحياء هذه القابلية وتنشيط المقابلية واعليها التربوية في عالم الكار أولاً سواء كان هؤلاء المكلفون يعانون من مرض نفسي واحد أو أكثر من مرض، ومن هنا يجب على المعالج المسلم - كمرضى - أنه يبدأ بتحلية بعض مرضاء من الشخبات المرضية سواء كانت معرّبة أو وجدانية، ثم يتبع ذلك بتحلية نفوسهم بالمعضائل وأنماط السلوك السوي الذي يبتغيه المشرع التربوي الإسلامي تمهيداً لمرحلة التحلية أو الإشراف البرحي والعملي، وبالتالي تتجسد حركة العلاج النفسي الإسلامي في عمليات ثلاث هي التحلية فالتحلية ثم التحلية.

ثالثاً: انحرافات الكبار الفكرية والسلوكية وأثرها على الصغار؛

ما علاقة الصغار بموضوع بحثنا؟

يبدو للوهلة الأولى أن وضع هذا السؤال بين صفحات هذا البحث غير طبيعي، وفي غير محله، لأن مهج المعالجة بالأعداد موجه في المقام الأول للكبار وليس للصغار، وفي اعتقادنا أن هذا المهج العلاجي والتربوي قد رُفّر على حلّ مشكلات الإنسان بلا تمييز بين كبار أو صغار، ولكنه اهتم بالكار بوجه خاص بمعالجة مشكلات الكبار أولاً وإيجاد حلول لها لأنها تؤثر بقوة على تربية الصغار واستقامتهم العقائدية والسلوكية

و هذا البحث يحاول أن يعر من المفهوم الخاطئ الذي يحفده حص الناس وهو أن الكبار ليسوا بحاجة إلى رعاية جديدة وإعادة تربية، وأن التربية يجب أن نرعي بتقلها الأكبر على الصغار ونشتهم السليمة، وهذا خلاف ما يريد المشرع التربوي الإسلامي

بهذا توجه مهج الترممة الإسلامي أنظارنا إلى ضرورة تطبيق نظام

التربية الشاملة لمختلف فئات العمر، وفي مختلف دورة النمو النفسي كلها، وبالنسبة إلى أساليبه وطرقه ليست واحدة، إذ يبدأ بالتربية الوقائية للطفل المعص الذي لم يعرف الانحرافات، ويوسع من دائرة العناية به قبل أن يفسد البيئة العسرة بأن صارتها وأدواتها، وإن كان في الوقت نفسه لا يهمل أداً كل حلل مرضي قد ينشأ في شخصية الطفل في وقت مبكر، كما أنه يستعمل مع انكيار مهجته بشقيه الموقائي والعلاجي... أي يهدم ويرمم السلوك جريئاً إذا تطلب الأمر، وقد يسي أو يعيد البناء من جديد حين يستدعي الموقف تغييراً جذرياً

والأطفال هم اليوم صغار قوم يوشك أن يكونوا كبار قوم آخرين^(١) في المستقبل بسبب نموهم الطبيعي المعتاد في حياة الإنسان، يقول الإمام الحسن بن علي عليه السلام: «إنكم اليوم صغار قوم يوشك أن تكونوا كبار قوم آخرين».

لهذا يحاول مهج الله تعالى إحداث تغيير داخلي عميق أو طفيف في نفسيات الكبار وإصلاح دوافعهم من جهة وتهيتهم لأدوار قريبة يؤدونها بالنسبة للصغار من جهة أخرى وحمايتهم من انحرافات البيئة المعادية والأخلاقية والسلوكية، ولئن يقدر للصغار الحصول على شيء من التربية الإسلامية السليمة ما دأب الكبار - آباء ومعلمين وقلة فكر أو توجيه - لم يتلقوا جميعاً أصول التربية المذكورة آنفاً.

ومر المؤكد أن نفوس الصغار سوف تتأثر بأخطاء التربية المعاصرة التي سفوها من أبنائهم ومعلميهم والكتات والصحفيين، وحسنه بحتاح العربي

(١) الطفل بين الزرقة والزينة، ج ١، ص ٢٢٥ خلافاً عن بحث الأستاذ ج ١، ص ١١٠، وأيضاً كتاب كلف الإمام الحسن، ص ٢٨.

المسلم إلى إعادته تربيتهم من جديد كما فعل الإسلام في فترة الرسالة وبعده،
الحلانة الرشدة، وسيكون العلاج بدون شك أكثر صعوبة من عملية تدريب
وفني، فترية الكبار يساعد المربين على تربية الصغار مجهوداً أقل، بهذا فإن
الإمام الصادق «يحفظ الأطفال بحفظ آبائهم»^(١).

وبذلك حذر الرسول - وهو ينظر لمستقبل أبناء المسلمين من خطورة
التربية المصحرة للكبار - بالذات الآباء فقال صلى الله عليه وآله وصحبه
وسلم

«ويل لأولاد آخر الزمان من آبائهم، فقبل يا رسول الله من آبائهم
المشركين؟ فقال لا، من آبائهم المؤمنين لا يعلمونهم شيئاً من العرائض،
وإذا تعلم أولادهم معروهم، ورضوا عنهم معرض يسير من الدنيا، فأما مهم
بريء وهم مي يراه»^(٢)

إن المنهج الإسلامي يحرص في تربية الأطفال على الأبعاد الصالحة
منذ نعومة أظفارهم لأنه أضمن طريق لبناء شخصياتهم . أي البدء بتخليفة
دورهم بالمضائل والقيم المعادية للصالحة كيلا يضطر المربي إلى تخليفة
نموذجهم من الأفكار والمبادئ الحاططة . بيد أن نجاح المربين في إيجاد
وتكوين شخصية سوية وسليمة بالمعايير المعادية يحتاج إلى تربية الكبار أولاً
وتأهيلهم لأداء هذه المسؤولية، فغافد الشيء لا يعطيه كما يقول لستل
المشهور .

وسنناقش أربع مسائل أساسية متصلة مع بعضها وهي على النحو

التالي

(١) جامع السماعات القرآنية - ج ١ ص ٤٣ . وكذلك كتاب نهج الأخلاق وتطهير الأخرى لابن مسعود،
ص ٣٣

(٢) تاريخ المقرئ - ج ١ ص ٤٤٥ نقلاً عن الطفل بين الرقابة والتربية، ج ٢ ص ٢٥٢

تأثير الانحرافات الأخلاقية للمربين على شخصية الطفل

- سهولة قبول الطفل للأخلاق والأفكار والمعادن الجديدة

- أهمية تعبير سلوك الكار وعكس الكار وأثره على تربية الكار في

تربية الصغار .

- مسؤولية المربين تجاه الصغار .



١ - تأثير الانحرافات الأخلاقية للمربين على الطفل .

لا أحد من الناس يجهل التأثيرات السلبية لانحرافات المربين العكسية والأخلاقية على شخصية الطفل خاصة في عصرنا الذي تنوعت فيه وسائل السيطرة ولكن من إعلام ومناهج تعليمية ومؤسسات دينية واجتماعية كليات والمسجد والأندية الأهلية والعامه، هؤلاء يتعاملون مع الطفل يومياً ويؤثرون على تكوين ذاته سلباً وإيجاباً مع فارق في درجة التأثير، فالآباء يثأثرون بالآباء والمعلمين وأئمة دور المادة ويثأثرون بما تقوم به المدرسة ووسائل الإعلام من أدوار ثقافية وتربوية وسلوكية وترفيهية وما تعرضه من أفكار سياسية موجهة، ثم يأتي بعد ذلك ما تقوم به مؤسسات أخرى في المجتمع مساهمة بها في تنشئة الطفل وتطبيع شخصيته

ومن هنا نشين أهمية وخطورة ما يقوم به الكار من أدوار إيجابية أو سلبية، لانحرافات الفكرية والسلوكية والأخلاقية للمربين الكار في أي مرفع تربوي خاصة الأباء والمعلمين تعتبر في نظراً سلباً كادياً لنعمل منهج لمعالجة السيكولوجية بالأضداد، وهو في الوقت نفسه مـ يدعو إلى من دعوة العشرع الإسلامي لاستخدام هذا المنهج لإعادة تربية الكار وفق

على التحرر من الدُوب لِيَتَمَكَّنُوا من استئناف أدوارهم الترموية في بناء المجتمع من جديد.

إن الطفل عادة - يتعلم بالفدوة السيئة كما يتعلم بالفدوة ارحسة، فهو يَعلَم أنماط السلوك العاطفي كالكذب والعدوانية والمفاحرة المتعصبة والتواكل والاعتماد على الغير ومعايرة الآخرين والسحرية بأبداده، وعُفُوق اَبوالدين والسرقة وعادات سلوكية خاطئة أخرى، حيث نشأ هذه العادات السيئة في وسط بيئة فاسدة، ومن المؤكد أن انحرافات الكبار تعوق الصغار من تلقي التربية السليمة التي يشدد عليها المشرع التربوي الإسلامي في تكوين الأفراد والجماعات، وتمنع الكبار أنفسهم من تربية شخصياتهم كما يريد المشرع الإسلامي لا سيما إذا عمل بالمعاصي والدنوب علانية وجهرًا، يقول الإمام الصادق (عليه السلام) «إذا عمل بها - أي عمل المرء المعصية - علانية ولم يغير عليه أصرت بالعام»^(١) لأن ذلك يفتق مع مبدأ 'نُرْ نَقَال' التعميم، حيث يسري أثر التعلم الخاطيء بسرعة في حياة المجتمع.

كما أن المشرع الإسلامي طالب المسلم أن يكون طيباً لنفسه سواء عن طريق تعلم ذاتي أو ملازمة معلم أو معلم محلي مسلم، يقول الإمام الصادق مرة أخرى:

«إِنَّ نَدَ جَعَلْتَ طَيِّبَ نَفْسِكَ، وَبَيْنَ لَكَ الدَّوَاءَ، وَعُرِفَتْ آيَةُ الصَّحَّةِ، وَدُمِعَتْ عَيْنُ الصَّحَّةِ، فَانظُرْ كَيْفَ فَيَاكَ عَلَى نَفْسِكَ»^(٢)

ومن هنا نهى المشرع للتربوي الإسلامي عن كثير من أساليب التربية الخاطئة عند الكبار التي تمثل في واقعا أمراضاً تعيش في بية المجتمع

وسبكونوجيه المري، كالأفراط في المدح والذم دون استحقاق، والقسوة في معاملة الطفل، والتدليل الزائد، والحرمان والتزبد، وقد أشارت اصوص الثربوية للمشرع الإسلامي إلى أثر هذه الأساليب الخاطئة في نشئة صحرة للأبناء

نقول بعض النصوص الإسلامية

«شر الأباء من دعاه البر إلى الإفراط»^(١) أي التدليل الزائد.

«شر الأباء من دعاه التقتصير إلى العقوق»^(٢) أي ظاهرة العقوق للأبوين اللذين يقصوان في أداء حقوق الأبناء

«أكبر المحن الإفراط في المدح والذم»^(٣).

«الإفراط في الملامة يشب بيران اللجاج»^(٤).

«كثرة التفرغ يوغر القلوب ويوحش الأصحاب»^(٥).

«كثرة العتاب يؤذي بالارباب»^(٦)

ويشير دعاء سيدنا نوح عليه السلام إلى أثر انحرافات الكبار على تربية الصغار، يقول القرآن الكريم:

﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا عَلَى الْأَرْضِ إِنَّ الْكَافِرِينَ مُدْبِرُونَ ۚ ﴿٦١﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْنِي فَرْدًا لَا يَذَرْنِي إِلَّا جُنُودًا مَّقْتُلُونَ﴾^(٧)

(١) الطحل من الرولة والثربة ج ٢، ص ١٢٠ خلا عن ترويح البحري، ج ٣، ص ٥٢

(٢) المصدر السابق

(٣) الطحل من الرولة والثربة، ج ١، ص ٦٠-٦٠.

(٤) صحت المفقود، ص ٨٤.

(٥) الطحل من الرولة والثربة ج ١، ص ٧٨

(٦) بيران الحكمة، ج ٧ باب العتاب، وكتب ٢٠٠٠ كلمة، ص ٨٠.

(٧) سورة صرح، ٢٦ - ٢٧

فالآية القرآنية كما يصحح من كلماتها المباركة تعني إمكانية إسفال الصمدات الشخصية البينة للآباء إلى أبنائهم إما عن طريق وراثي أو عن طريق بيئي، فإذا أنقضى الله تعالى هؤلاء الآباء الصالحين تركوا صمدات إبحراماتهم على صحابهم، وانتقلت سماتهم عبر الجينات الوراثية أو حملات الصمدات الوراثية كالمحايلة للمحور أو العنقب أو التبلد الاصمالي لحظة انعقاد الطقة أو وقت الجماع أو من خلال تدخلهم البيئي

ولهذا فهي المشرع في مصوره عن الجماع أثناء وقوع الرلزل والريح السوداء وخسوف القمر وكسوف الشمس وسائر الكوارث الطبيعية التي تحدث حالات من التأزم النفسي^(١)، ولعل سيما موح يقصد إمكانية تكوين استعداد وراثي عن هذا الطريق، وقد يعني أيضاً تأثير البيئة المحيطة بالأبناء خاصة ما تقوم به عمليات التنشئة الاجتماعية.. وهو تأثير ضار كما أوضحته الآية القرآنية:

﴿إِنَّكَ إِن يَذَرْنَهُمْ يُنَلِّئُوا يُنَلِّئُوا وَلَا يَذَرُكَ إِلَّا كَلْبًا كَفَّارًا﴾^(٢).

ولذلك يؤكد الإمام الحسن العسكري عليه السلام على ضرورة أن يكون الوالدان حين لفائهما الجنسي في حالة ارتياح وطمأنينة وسكون نفسي لتأثير هذه الحالة الاصمالية التي يكون عليها الأب والأم لحظة الجماع على التكوين الوراثي والنمسي للأبناء سواء شكوي قابلية وراثية إيجابية أو سلبية وبعكس هذه القابلية على المكونات السلوكية العامة للشخصية

نقول الرواية المسوية للإمام الحسن بن علي العسكري عليه السلام

«إد، أسي أحد أهله.. يقصد للرحل.. بقلب ساكن وعروق هادنة،

(١) اوصى ذلك في كتابه «التربية الجيدة للأطفال والبالغين»، الفصل الثاني

ويذن غير مضطرب، استكتت تلك الطقة في الرحم، فخرج الرخل ث
أبه وأمه^(١)

إن الأباء ينطبعون بالسلوك الاجتماعي العام السائد في البنة خاصة
المتبلية ويشهون بحصال أفراد مجتمهم، فعلى الحدث كما يقون لإمام
علي «كالأرض الخالية، ما ألقى فيها من شيء، فلهته، فبذلك بالأدب قيل
أن يقو قلبك ويشغل بك»^(٢)

لا نتحدث النصوص السابقة عن تأثير انحرافات الكبار بحسب، بل
تدعو بوضوح إلى تغيير الحالة المزاجية والفكرية والأخلاقية اسبئة مدبهم
من خلال عمليات التنصين الوراثي والبيئي، وهي عملية لا مضمح ساجحه
يدون نحسين البئة الروحية والفكرية والأخلاقية والاجتماعية

٢ - سهولة قبول الأطفال للتغيير العبادي الجديد (الأخلاق المضادة)

كما تقبل نسبة الصغار انحرافات الكبار فهي تقبل أيضاً التعديلات
السلوكية الإيجابية التي ينمها الشرع التربوي الإسلامي لأنها من الفطرة،
ولأن قابلية الجهاز العصبي عند هؤلاء الصغار على درجة كبيرة من المرونة
ولديه قدرة على الاستفال والتلقي والأخذ، وما على السربي الدكي سوى
التكبر بي، اكتشاف المحلل والأخطاء السلوكية والمعادن المطلوب نميرها في
شخصية الطفل، ثم للعمل فوراً على إزالتها بسرعة هادئة ومدروسة قبل أن
ينحكم هذا الخطأ أو ذاك في شخصية الطفل وطريقة تفكيره، فيكون
التمديد فيما بعد أكبر صعوبة.

وكذلك يتوقف سهولة تقبل الصغار للأخلاق المصادة المطلوب تغييره

(١) الطنل بين الودقة والتربية، ج ٦، ص ١٥٩.

(٢) هم الملائكة، ج ٤، ص ٤٤٢.

أو تعديلها على قوه أو ضعف تأثير هؤلاء الصغار بالانحرافات البيئية لعدمية والاحتماجه ، فكلما كان تأثير هذه الانحرافات لدى الكبار قوياً وعميقاً وشديداً كان تأثيرها في مصيبة الطفل أشد وأقوى وأصعب في المعالجة النفسية ، لكن مستوى العلاج يكون أقل سهولة حين تكون الانحرافات بسيطة وغير مستحكمة بعد فهي شخصيات الآباء والمربين يوجه عام.

٢. تدريب الطفل على العقائل والسلوك الحسن المقبول اجتماعياً ومبادئ ليس أسراً هيباً سواء تم بطريقة وقائية أو علاجية ، ولكن الأطفال الذين لم يعرفوا انحرافات البيئة هم بكل تأكيد «الأسهل قبولاً» لكن خلق لحلو نفوسهم من الأصداد المانعة من القبول^(١).

وحين يمرض هؤلاء الصغار لقدر بسيط أو طفيف من انحدار أو اسلوب لحاظي فإن المربي أو الصالح النفسي المسلم لن يجدان صعوبة كبيرة لتخليص نفوس هؤلاء الصغار من الأخلاق الفاسدة لأن الجهاز العصبي لديهم ما يزال مرناً ، ولأن البيئة المسخرة لم تحمر قنوت أو أحدهد عميقة في نفوسهم ، كما أن قدرتهم على التلقي والاستقبال أكثر مرنة مما هي عند كبار السن ، لهذا نلاحظ أن الطفولة وس الفتوة هي أكثر سنوات العمر قبولاً للتغيير الداخلي الذي يتمكس في حركة الذات ، وقد شد هؤلاء الفتوة أر الذهوات الإيمانية وناصرها بقوة لأنهم يتأثرون بطبيعة انقلابية جعلتهم يتقبلون العادات الجديدة المتضادة لعاداتهم المألوفة في حياتهم راضي دعا إليها الأنبياء والمصلحون

٣ - أهمية تغيير سلوك وتفكير الكبار وأثره على ثرية الصغار

أراد المشرع الترموي الإسلامي أن يعبر عن النظرة غير الصحيحة

بعض الناس وهي أن الكبار ليسوا بحاجة إلى تربيته جديدة أو إعادة تعمق بطريقته حريته أو بطريقة كليه شاملة وجذرية كما سنأتي الفول لاحقاً، فانسع يرى أنهم تلقوا مد نعمة أظلمهم ما احتاجوه من تربية وأنهم أصبحوا «لأن راشدين تجاوزوا مس التلقي والأحد والاعتماد على غيرهم، وأصبحوا مد تحريرهم في الحياة مصدر عطاء للآخرين، وبسطر هذا المعهم الحاطي على ذهنية كثير من الكبار الذين جهلوا نقل النفس وتغير أحوالها.

إن مهج الله تعالى يأخذ بيد الإنسان مذ اللحظة التي يدخل فيها ديب، القصيرة وعرض عليه تشريعاته ليسترضد بها على امتداد عمره، وطوب الإسلام منه أن يمارس نظام المجاهدة النفسية المسمرة والبحث اندالم عن أفضل أساليب وطرق تحسب وضع الدات على كافة مشرباتها رجوانتها وعاصرها، ويستخدم نظام المجاهدة المذكور على مستويين أحدهما وقائي والآخر علاجي، وذلك ليس لساء الدات محسب وإنما للقيام بمسؤولية التربية والتوجيه للآخرين لا سيما الناشئة على أسس عبادية.

وتتطلب المهمة السابقة إبقاء الدات في مجاهدة مصبة دائمة لتكون فادرة على تقديم نفسها نموذجاً يعلم الناس ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، يقول الإمام الصادق عليه الصلاة والسلام.

«من لم يسلح من هواجسه، ولم يحلص من آفات شهره، ولم يهرم «شيطان»، ولم يدخل في كنف الله وتوحيد، وأمان عصته، لا يصح له الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»^(١).

(١) الطعن بين طرقات التربية، ج ٧، ص ٣١٢.

و هذا مطقي، والفرد الذي يمجز من تربية نفسه ويعمل في رفائتها من
احراجات السنة وأوصارها وأوساحها لا يستطيع أبداً تربية موسى الا حري،
ومن هنا يقول الإمام علي

«ميدانكم الأول أنفسكم، إن قدرتم عليها كنتم على غيرها أفدر، وإن
عجزتم عنها كنتم عن غيرها أعجز».

وقال في من آخر: «وعلى العاقل أن يحصي على نفسه مساوئها في
الدين، والرأي، والأخلاق، والأدب، فيجمع ذلك في صدره أو في كتاب،
ريعمل على إزالتها»^(١)

وعليه أيضاً أن يتقدم في تطوير قدراته وإمكاناته لأن «من تبارى يومه
بهر معبرون ومن كان أمسه خيراً من غده فهو ملعون»^(٢) كما نسب إلى
الإمام الصادق.

ومضمون النص التربوي الإسلامي السابق الذكر يركز على قضيتين
متداخلتين ومتصلتين أولاهما أن الفرد المسلم الذي يجعل يومه . . أمه
وغده . . متساويين فقد ظلم نفسه، والثانية أنه يبال غضب ربه إذا لم يسع
إلى ترقية شخصيته وتطوير قدراته، فجعل أمه أفضل من غده، ولم يدخل
على ذاته نصيباً ملحوظاً.

وبس أمام التربوي المسلم سوى هذا الطريق . طريق تغيير ما بالمعسر
وتخلصها من أفاعها، واستخدام آليات تقويم أعمال الذات ومعرفة ما هو
صحيح وما ليس بصحيح، ويمكن للمهج الأصلاد أن يساعده في هذه
المهمة التربوية، وأن يؤدي دوراً كسراً في علاج أخطاء الذات ورأه

(١) الفصل من المرواة والقرية ج ٢ ص ٢٤٤

(٢) رسالة الأخلاق للشيخ الموسوي الآري ص ٩٦ نقلاً عن كتاب سبقي الأخبار ص ٢٤٢

اعراض المرضية، ليتسنى للمربي المسلم القيام بمهمته في ساء دمه،
(المساهمة الفعالة في تربية أفراد المجتمع خاصة صغاره

٤ - مسؤولية الوالدين

يتضح لنا مما سبق أن للمربين مسؤولية مزدوجة تجاه أنفسهم
وتجاه الآخرين وقد أفضا في الحديث عن مسؤوليتهم في بناء دواتهم
وستابع ذلك في مواطن أخرى من البحث
كما أن هؤلاء المربين خاصة الآباء والمعلمون والعلماء (أصحاب
الكلمة) مسؤولون عن تربية الآخرين من رواتب

الأولى من حيث إن هذه المسؤولية فرض كفاية سقط إذا قام بأدائها
بعض أفراد المجتمع، فإذا أدى بعضهم هذه الأمانة الدينية، وهي مسؤولية
الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سقط عن البعض الآخر مسؤوليته
وإلا لثم الجميع

الثانية من حيث إنها واجب شرعي وفرض عين لا بد للمربي -
كالأب مثلاً - أن يؤديه عملاً بقول الله سبحانه وتعالى
﴿فَرَأَى النَّاسَ رَافِعِينَ يَدَاهُمْ بَيْنَهُمْ وَفَعَلْنَا مَا رَبَّنَا أَوْفَرْنَا﴾^(١).

وبخلاصة الأمر أن مسؤولية المربي المسلم تنحصر في أمرين

١ أن يكون المربي بصيراً وشيخاً بواجباته الممرجة، وأن يكون على
دراية بالإسلام وعلم بأحكامه وأساليبه التربوية مشقياً الوطائي والعلاجي،
وتطويع هذه المعرفة على الفلت، فلا قيمة للعلم والمعرفة إذا كانت للمساهمة
والمعاصرة وكسب الجاه والشهرة ونحصيل المال لأن المعرفة في نظر
المشرع الرمزي الإسلامي فقه العمل وضبط وتوجيه مستير للحياة

٢ - أن يكون العربي المسلم فاضلاً في نفسه يسمو بها دائماً، طيباً لأسقامها كما ذكرنا، ولا كيف يسعى له القيام بدور التوجيه لسعي وهو لم يتمكن بعد من مربة ذاته على المودج العبادي؟ وكيف يمكنه تعيد معارفه النظرية وهو - موضح نقد وعدم رضا - من الأفراد القليلين يسولي الإشراف على تربيتهم؟

وقد وردت نصوص عديدة تبين مسؤولية العربيين والآباء بالخصوص، يقول النسخ السوي الشريف: «حق الولد على والده أن يستنصره أمه، ويستحسن اسمه، ويعلمه كتاب الله ويظهره»^(١)

فالمقطع الأخير من النص (يعلمه كتاب الله ويظهره) يتضمن تلازماً بين «جانبين لسفري والعمل» في عملية التوجيه والتربية، لأن التعهيم للسلوك العبادي ليس مجرد معرفة نظرية وإنما يتضمن مهارات وحركات صحيحة تُنفذ وفق منه وعلم ودراية مستنقة من مصادر التشريع الإسلامي وبموصوفه التربية.

وهناك نصوص أخرى مثل

١ - روى الإمام الصادق عليه السلام عن جده رسول الله صلى الله عليه وآله وأله رصحه وسلم. فرحم الله من أمان ولده على يده؟ قال. قلت [كيف يميحه عن يده؟] قال عليه السلام: يقبل ميسوره، وينجاوز عن معسوره، ولا يرهنه، ولا يحرق يده^(٢).

٢ يقول الإمام علي: «خير ما ورث الآباء الأدب»^(٣)

(١) العنق بين الورقة والقرية، ج ١، ص ١٦٩

(٢) المصدر السابق، ج ٢، ص ٤٢

ويقول الإمام علي من الحسنيين رس العائدين في رسالة لحقو
المنهورة

وأما حتى ولدك فإن معلم أنه منك ومصاف إليك في عاجل الدب
حيره وشره، وأنت مسؤول عما ولته من حسن الأدب، والدلالة على ربه
عز وجل والمعونة على طاعته، فاعمل في أمره عمل من يعنى أنه مذ
على الإحسان إليه، يعاقب على الإساءة إليه^(١).

ويحذ الإمام الصادق ثلاث خصال على الموالد لآبائه كما جاء في
النص التالي: يجب على الموالد ثلاث خصال: اختياره لوالدته، وتحسين
سه، والمبالغة في تأديبه^(٢).

وهكذا أوضحنا المصوص التربوية السابقة دور الآباء في عمليات
التنشئة الاجتماعية وتأديب الإنسان وتهديه على السات والمضائل الأخلاقية
والشمائل الإنسانية منذ نعومة أظفارهم، بيد أن نجاحهم في أداء هذه المهمة
التربوية يتوقف على تمكهم من تربية أنفسهم في ضوء محددات ومعايير
عبادة

وقد أوردنا من قبل مصوصاً من التشريع التربوي الإسلامي تطالب
الآباء والمربين بأداء مسؤولياتهم تجاه أنفسهم من جهة، وتجاه الآخرين
وبخاصة من يكونوا تحت رعايتهم وإشرافهم من جهة أخرى
رابعاً: حاجة المؤمن لمنهج المعالجة بالأصداد:

هاك مربع رابع مدفعا إلى استلزام هذا المنهج وهو حاجة المؤمنين
له كي يتمكنوا من تعديل سلوكهم وسيرة أنفسهم في ضوء المعايير والقيم

(١) مكارم الأخلاق، ص ٢٢٢، ولقاء نص الفصل من ٢٢٨

(٢) نص الفصل، ص ٢٢٢

التربوي (المعرفة والعبادة، خاصة أن الأمراض الروحية والسلوكية تطبع أن نعد ونسئل إلى داخل قلب الإنسان المؤمن في مواقف عديدة كالعملة والتسرع في إصدار الأحكام والانفعال الشديد وسوء التقدير، والإيمان الديني مهما تكن حقوقه قوية وراسخة في نية المؤمن لا يحصم الإنسان دائماً من التزمع في الخطأ أو مقارنه ذنب

إن البعض من المؤمنين قد يتصور بتفكير غير صحيح أن الله عز وجل قد أمر في خطابه التربوي كافة المنحرفين والمعصاة ومركبي الكبائر ومرضى القلوب وحدهم باستخدام منهج المعالجة بالأصداق كطريقة علاجية لتغيير أفكارهم ومشاعرهم الحاطنة، وتعديل سلوكهم غير المتفق مع قيم الشريعة العبادية ونسقتها المعرفي، وأن العمد المؤمن الذي حاط قلبه الإيمان لروحي والديني ليس بحاجة إلى منهج التربية الإسلامي القائم على تغيير رذيلة بمصلحة من جنسها

ربما لا شك فيه أن خطأ هذه النظرة وتصورها واضح في نصرة التشريع التربوي الإسلامي كما يرى فيما بعد، ولا تؤيدها كذلك الممارسات الواقعية الحاطنة التي يرتكها الناس يوماً

فإنه في التشريع الإسلامي والواقع الإنساني يرفضان حصر المرض النفسي في دائرة المنحرفين والمعصاة ومرضى القلوب من غير المؤمنين فقط، وقد أشار المشرع الإسلامي في نصوصه الكثيرة إلى شمول المرض النفسي وانطباعه على سلوك الأفراد والجماعات من المؤمنين أنفسهم، إذ كشفت هذه النصوص طبيعة الضعف الإنساني، وبذلك على أن الضعف يمكن أن يتسلل إلى داخل النفس المؤمنة ويظهر في سلوكها وأفكارها

على كل حصلة مرضية عدا بعض السمات الحدية العاصلة التي تخرج
للمؤمن من دائرة «الإيمان» كالكذب والخيانة

إن الكذب والخيانة - كما جاء في بعض الروايات - يخرجان المؤمن
من دائرة «الإيمان» إذا ما صدوتا عنه معمدًا، فهاتان الصفتان ناصلتان، يقول
بعض كبريائه «يطيع المؤمن على كل حصلة»^(١) للإشارة إلى إمكانية وقوع
لإنسان لمؤمن في حالات ضعف عليه أو حقبة، ولكن الضرر لسبق نفسه
يستثنى من ذلك ممارسة المؤمن عامدًا لسلوك الكذب والخيانة، لذلك قال
لنفس مستدركاً «ولا يطيع.. أي الإنسان المؤمن.. على الكذب، ولا
على الخيانة»^(٢).

وفي نص آخر ورد عن الإمام الصادق جعفر بن محمد عليه السلام وهو
يشدد على صعوبة اجتماع هاتين الصفتين في شخصية المؤمن، فقال
«المؤمن لا يخلق على الكذب، ولا على الخيانة»^(٣).

رعب أيضاً قال: «يجبل المؤمن على كل طبيعة إلا الخيانة
والكذب»^(٤)

وبمعنى ذلك أن النفس المؤمنة أيضاً قد تشكك الطريق وتتمشك الخطى،
وتحاف أن تكتسب عادة الخوف المرضي من البيئة التي تعيش فيها،
كالخوف من الموم، والخوف من الأشياء والسلطة والحيوانات ورجل
العذبة والأماكن المظلمة والخوف الرائد عن الحد على الولد والرق،

(١) صحيف النور، ص ٤٨.

(٢) المصدر السابق، ص ٤٥.

(٣) المصدر السابق، ص ٢٧١.

(٤) ميزان الحكمة، ج ٤، ص ٢٥ خلافاً عن بحار الأنوار، ج ٧٥، كذلك انظر سورة النحل، ١٥.

ويمكن أن يقلل منها صدور بعض الحالات المرضية باستثناء عاداتي الكذب والحانة لئلا تفتلان حيلتين فاصلين دعيين بين الكفر والإيمان

وتؤكد مصوص المشرع المشترة في القرآن والسنة الشونة الشريعة أن حالات الضعف الشري كثيرة حتى إذا كانت للذات مؤمنة بربها وبمسجده في الحياة، ومن الحالات التي يمكن أن تواجه المؤمنين وتكشف عن ضعفهم اكسل واليحل والتراخي وسرعة الغضب وحقاقه والإسراف في لوم الذات ولرعة في الانتقام الشديد والطمع والإعجاب بالذات والفرود عن الجهد ومندومة الأعداء والحن على الآخرين والتثبت المرضي بالأولاد والحرن وكثير من أنماط السلوك الحاطي الذي يأباه المشرع التربوي الإسلامي، وتشهد آيات وأحاديث بذلك كما سنرى بعد قليل، وهذا كله يتطلب علاجاً نفسياً وتمهيداً للسلوك.

ومن لنصوص الإسلامية التي تشير إلى بواحي الضعف الإنساني لدى المؤمنين ما يشير إلى خوف الإنسان المؤمن من أعداء الله، يقول النص القرآني الكريم:

١ - ﴿لَا يَرْفِقْ مَنْ أُولِيَ الْقُرْبَىٰ كَفَرُوا فِي آيَاتِهِ ۖ سَنَعُ قِيلٌ لِّدُنَاهُمْ جَهَنَّمَ رِيْثًا يُّرْثُهَا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ (١)

٢ - ونقول آية أخرى تبين أن بعض المؤمنين تنافلت معهم عن السرور في سئل الله ﴿يَتَأْتِيهِمُ الْفُرْقَانُ فَمَنْ دَاوَاهُمْ مَا لَكُمُ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْبَأُوا فِي سَبِي اللَّهِ أَنْبَأْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ لَوْ صِيحْتُمْ بِالْحَيَاةِ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعُ الْآخِرَةِ أَمْثِلًا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ (٢)

(١) سورة آل عمران: ١٩٧

(٢) سورة النجم: ٢٨

٣ - ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا أَمْرَكُمْ وَلَا تُولَدُكُمْ عَنْ وُكُوفٍ﴾^(١)

٤ - ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا أَمْرَكُمْ وَلَا تُولَدُكُمْ عَنْ وُكُوفٍ﴾^(٢)

٥ - ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا أَمْرَكُمْ وَلَا تُولَدُكُمْ عَنْ وُكُوفٍ﴾^(٣)

٦ - ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا أَمْرَكُمْ وَلَا تُولَدُكُمْ عَنْ وُكُوفٍ﴾^(٤)

٧ - ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا أَمْرَكُمْ وَلَا تُولَدُكُمْ عَنْ وُكُوفٍ﴾^(٥)

٨ - ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا أَمْرَكُمْ وَلَا تُولَدُكُمْ عَنْ وُكُوفٍ﴾^(٦)

٩ - ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا أَمْرَكُمْ وَلَا تُولَدُكُمْ عَنْ وُكُوفٍ﴾^(٧)

(١) سورة المائدة، ٩

(٢) سورة المائدة، ٢٦١

(٣) سورة المائدة، ١١

(٤) سورة المائدة، ١٢

(٥) سورة المائدة، ٦

(٦) سورة المائدة، ٩

(٧) سورة المائدة، ٧

١٠ - ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا مَسَّكُمْ ظُلُمٌ مِّنَ اللَّيْلِ فَطَرُّوا كَأَنَّ لَيْلِيَّ تَصَرُّوا فَإِنَّا هُمْ
مُبْصِرُونَ﴾ (١)

وبوسع القارئ الكريم أن يمدَّ بصره في خطاب القرآن الكريم ويحس
بمكره في آياته الكريمة، فيرى خطابه موجهاً «للذين آمنوا» بأمرهم حياً
بالطاعة وببهاهم حياً عن ارتكاب المعصية.

فعلى الآيتين (٢٠٨ - ٢٦٤) من سورة البقرة تأمر الجماعة المؤمنة
بالدخول في السلم والامتناع في سبيل الله من طيات ردفه المبارك، وفي
آيات أخرى يهاهم القرآن عن فعل المعاصي إما بنجبتها أو بتحرير النفس
من أورارها.

ومن الآيات التي طلب القرآن من فئة «الذين آمنوا» تجنب الوقوع في
حالات الضعف أو الوقوع فعلياً فيها آيتي (١٠٠ - ١١٨) من سورة آل
عمران، وآيات (٢٩ - ٤٣ - ٧١ - ١٤٤) من سورة النساء، وآيات (٥١ -
٥٤ - ٥٧ - ٩٠ - ٩٥) من سورة المائدة، وآيتي (١٥ - ٢٧) من سورة
الأنعام، وآيتي (٢٣ - ٣٨) من سورة التوبة، وآية (٢٧) من سورة النور،
وآيتي (١ - ١٣) من سورة الممتحنة، والآية الثانية من سورة النصف، وآيات
عديدة نعب عن حالات ضعف قد يصيب جماعة المؤمنين أسوة بالجماعات
الإنسانية الأخرى، وبذلك فإنها بحاجة لمعالجة أخطائها وتعديل سلوكها
وفق منهج المعالجة السلوكية بالأصلاد الذي تركز عليه دراستنا

المصروف للقرآني السابقة - كما ترى - تؤكد أمرين:

١ - إن الخطاب في الآيات الكريمة موجه للمؤمنين

٢ وإن الآيات من حالات الضعف الشرعي التي يمكن أن تقع فيها المؤمنون باعتبارهم بشرًا مثل سلوك الخوف من أعداء الله والخوف من امتثال بي سبل الله والتثبت بالمال والولد والعدوان على معصمهم والسحرية والمص بالصدقات والتحسس والعيبة لبعضهم والتأمر بالأنقلاب ورفع الصور فوق صوت لسي، بهذه جميعاً معادج من السلوك الحاطي على أقل تقدير، وقد يتحول الخطأ إلى حالة مرضية تحتاج إلى تدخل المعالج النفسي المسلم وخضاع الممرء أو الجماعة إلى برنامج علاجي لتعديل وإزالة السلوك المرضي.

أما لسة السوية الشريفة فأكدت في نصوصها المشوقة على حاجة انذات المؤمنة لاستخدام منهج الأعداد في مواجهة عادات السلوك الحاطي أو المرضي، ويمكننا الآن تعريف النصوص القرآنية ببعض النصوص السوية بالرغم من أن النصوص القرآنية متواترة ولا تحتاج إلى مساندة من مصدر آخر، ولكننا آثرنا تميزها بنصوص نبوية لإمداد المسلم بنصوص تزيد وضوحاً، وسوف نكتفي بقليل منها.

ورد عن النبي صلى الله عليه وآله وصحبه أنه قال

«ياك والطمع، فإنه الفقر الحاضر»^(١).

«قله ايعر أذخ العيوب، والتسرع إلى الانتقام أعظم العيوب»^(٢)

«الشرة يفسد النفس ويفسد الدين»^(٣).

(١) يحار الأنوار، ج ٧٣، ص ١٦٨

(٢) غرر الحكم، ج ٢، ص ٥٣٧

(٣) المصدر السابق، ج ٢، ص ٧٧

ويقول أيضاً «فصلتان لا تجتمعان في مسلم». المحرر وسوء
حقيق^(١)

«حس والحرس والمخل عرائز سوء (أي طماع سوء) يجمعهم سوء
الظن بالله»^(٢).

«إياك أن نسيء الظن فإن سوء الظن يعسد العبادة ويعظم الزور»^(٣)
«هذا تطهير تامص»^(٤)

«احرسوا من سورة العضب وأعدوا له ما تجدونه به من الكظم
والحلم»^(٥)

«انقوا معاصي الله في الحلوات، فإن الشاهد هو الحاكم»^(٦)

«عجائب المرأة بنفسه يدل على ضعف عقله»^(٧)

«من أعجب بحس حالته قصر عى حس حليته»^(٨).

«إذا اتهم المؤمن أخاه اثبات الإيمان من قلبه كما يُثبِت المدح في
الماء»^(٩).

«ما من رجل تكبر أو تجبر إلا لدلة في نفسه»^(١٠)

(١) النصيحة وأثرها في الحياة الإنسانية، ص ٩٦

(٢) سيران الحكمة، ج ٢، ص ١٦.

(٣) غرر الحكم ودرر الكلم، ج ١، ص ١٥٤

(٤) تحف العقول، ص ٤١

(٥) غرر الحكم ودرر الكلم، ج ١، ص ١٣٣

(٦) نهج البلاغة، الحكمة ٣٢٤

(٧) نهج البلاغة، ج ٤، ص ٧٢

(٨) غرر الحكم، ج ١، ص ٢٧٨.

(٩) سيران الحكمة، ج ١، ص ٥٣٨

(١٠) الرسائل، باب ٥٩ حديث ٣

«إن الله مَوْصٍ للمؤمن كل شيء إلا إزالا نفسه»^(١).

«من أذاع فاحشة كان كميديها»^(٢)

وجاء من الإمام الصادق عليه السلام قوله:

«إن الحمى يأكل الإيمان كما تأكل النار الحطب»^(٣)

«لا يستكمل عبد حقيقة الإيمان حتى يدع المراء وإن كان حقاً»^(٤)

«من تلذذ بمعاصي الله ذل»^(٥)

وفي عهد دستوري منظم بعث الإمام علي عليه السلام لواله آنذاك في مصر

(مالك الأشتر) يقول

«إنيك والسر على وعيتك بإحسانك، أو التريد فيما كان من فعلك،

وأن تعدهم فتشيع موعودك بحلفك، فإن الس يبطل الإحسان، والتريد

يذهب بمر الحق»^(٦)

بدن لا يكون الإنسان المؤمن فوق مستوى الشهات دائماً، ولا تكون

ذاته بريئة في كل الأحوال، فقد تقع نفسه - كما تؤكد تجارب الشخصية -

في أخطاء تحت ظروف المغفلة أو الانفعال أو الحماس أو التعصب الشديد

أو التسرع في الحكم على الأشياء أو لكسبه وميله إلى الدعة والرحمة، وقد

يتسرب إليه الإعجاب بالذات فيسأخر عن التركيب وتطويع قدراته ويبسى

(١) صحاح القول، ص ٧١

(٢) المصدر السابق، ص ٣٩

(٣) أصول الكافي، ج ٢، باب الحمى.

(٤) سفينة البحار، ج ١، ص ٥٢٢.

(٥) مرر الحكم ودرر الكلم، ج ١، ص ٢٢٤

(٦) مستدرك الوسائل، ج ٢، ص ٨٥، كذلك معجزة الولاية، ج ٢، ص ٢١٠، ونجف المعول أيضاً، ص ١٠٣

نفسه، سيما يتحرك الآخرون عنه مسافات بعيدة، يقول الإمام علي
«الإعجاب يمنع من الإزدياد»^(١)

بل قد ينحول الخطأ إلى عادة سيئة أو معصية أو ذنب لا يتفق مع
المعنى الصحيح للإيمان، ويعارة أخرى قد لا معصم الإيمان الهش الذات
المؤمنة من الأخطاء والعيوب والذنوب، لأن إرادته المؤمن نواجه خاصة في
عالمنا بعثريات صاعقة من البيئة المتحرفة فتعوق نموها الإيماني واستقامتها
لسلوكية.

ومن الممكن أن تضعف نفسه أحياناً في صراعها الداخلي مع هذه
المنبهرات والنوازع، وحينئذ تصاب بآثار أخلاقية وسلوكية ودينية
وسمعية كالبخل والخوف والكسل والحسد والتكبر والطمع والإسراف
والرغبة في الانتقام والتسرع في الحكم والتفاخر من عقوبة الكافر ولهو
لحم والبنين والعصب الشديد والعجلة وقبول المسئلة وهول لأمن
والإعجاب بالممل وحب المدح والشلط وسوء الظن بالغير وحب الدس
والتعنى بحفظها وزخارفها

وإذا أردنا استعارة مصطلح «المروق العريضة» من علم النفس الحديث
الذي أسماه النفس الغرائبي «وسع النفس» فإن سمات الضعف في شخصية
الإنسان المسلم تتوزع على امتداد خط مستقيم يبدأ من طرفه الأيمن حتى
طرفه الأيسر، فهناك مسلم يميل بدرجة شديدة ومسلم أقل ميلاً وثالث
أقرب السحلاء إلى دائرة الكرم، وهكذا تتوزع كل سمة من السمات المرضية
أو السلبية لدى الشخصية المسلمة بين الناس بدرجات متفاوتة، فمؤمنون
ليسوا متساوين في أحوالهم السلوكية والأخلاقية والتمسك بالاجتماعية
والإدراكية أو العجلة، وإنهم كذلك متفاوتون في السمات السلبية

ولا يقال إذا قلنا أن يكون للمرض في سيكولوجية الذات المؤمة أثر أقوى من قوة تأثيره في نفوس محرفة، وأوسع مساحة في وجوده ولو كن في نطاق عادة سيرة كالاستجابة السريعة للعصب، والمشاهدات اليومية تبين أن التنبس المنشوش أو الهش يشح بعض العصبية بكثير من العادات والأخلاق المسيئة المذمومة من وجهه نظر المشرع الإسلامي أو بمنظور علماء العلاج النفسي، وليس مستغرباً أبداً أن يكون أحد المحرفين أقدر من شخص مؤمة على ضبط نفسه والسيطرة عليها لحظة العصب، فيسكنها من التلطم المسبب أو المبالغة في الانتقام من العبر رغم ما قد يسكن داخله من عجز وسوء نية وحقد، لكنه يملك نفسه عن العصب العنسي، ويبدو شخصاً سويّاً أمام الآخرين.

ربما يكون شخص آخر قليل التدين أو متحرداً عليه أسرع استجابة في البذل والإنفاق لدعم مشروع إنساني من إنسان مؤمن بالله لكنه يخل بماله، ويحرم نفسه والمجتمع من مزلياً نعمة المال الذي استخلفه الله تعالى عليه، وليس غريباً أيضاً أن يكون المؤمن المستقيم عبادياً وأخلاقياً وسلوكياً بوجه عام أقل شجاعة من شخص منحرف في الدفاع عن قضايا الناس مع ما يحترقه هذا المؤمن من نالهم لأحوالهم.

صحيح أن مواقف «المنحرف» في هذه الأعمال قد تكون غير حانية من انشوائت التي تؤثر على سلامة النية وحن الطوية، فقد يطلب .. مثلاً لشهرة أو يريد المعاصرة أو كسب ود الناس، فؤثر تلك الرواي الداخلية سلباً على قيمه للعمل عند الله عز وجل، ولكن هذه المواقف عليه وقعة لا يلبي جس مؤمن وشجاعة منحرف أو يخل مؤمن وكرم منحرف وهكذا.

كما أن المشرع الربوي الإسلامي لا يرى «العمل» هو المعطل في

دائه، لذلك يطلب من المؤمن إذا قرأ الآية الصحيحة أن يقرر ذلك بالعمل
الصالح ليصل مستوى أفضل من الرضا الإلهي من جهة، ويعمل على
تحرير نفسه من هذا المرض أو ذلك وتعديل سلوكه الحاطط، فالمصاحفة
نفسية عمل عادي لا يتطوع في حياة الفرد المؤمن بسأل عنه العباد أمام
الله.

د، كان المرض النفسي لدى الشخص المحرف كامناً في بنة العمل
المصادر في هذا الفعل أو ذلك، فإن طبيعة المرض النفسي عند المؤمن تكمن
في اختفاء الممارسة العبادية في هذا الموقف أو ذلك، وبالتالي يسقط ركن
من لمسؤولية الشرعية للمؤمن، ومن هنا يطلب منه أن «أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ
وَهُوَ مُسْلِمٌ»^(١) في كل أعماله ويحفظ قلبه حتى يعمل الخير من كل شائبة،
فيكون «كَلِمَةً أَتَى وَهْتَهُ وَرَيْدٌ»^(٢).

ويجد المسلم نفسه - حتى إذا تلى تربية عبادية عالية - في مواجهة
دائمة مع السمات والخواطر الشيطانية التي تحاول أن تزين في نفسه
للمعاصي وتدفعه نحو ارتكاب الذنوب، فالمؤمن معي بمجاهدة نفسه بلا
فتور وإلا نهأت للمعاصي والعيوب ومن ثم الأمراض الروحية أو الفكرية أو
المعضوية التي ترتبط مع بعضها لأن حركة النفس الأماره بالسوء لا تقطع
أبداً، فمحوها المريضة فتداهم قلب الإنسان - مؤمناً أو غير مؤمن -
ماستمرر وفي كل لحظة، وتحاول تعبير مساره الإيماني الرباني حتى يفقد
يسر، فإن هذا القدر يعمل التوسع تدريجاً إذا اسمر نغمة الإنسان المؤمن
وأدعت معه شيئاً شديداً لهذه الخواطر، يقول الإمام علي عليه السلام

(١) سورة النساء، ١٢٥

(٢) سورة البقرة، ١١٢

«املكوا أنفسكم بدوام جهادها»^(١).

المؤمن يجد نفسه دائماً في مواجهة مستمرة مع هذه الحواصر والفتن الشيطانية، ومن المؤمل في ضوء تجرّبات الشريعة أن يسقط ابنس مرة وتجرّ مرة أخرى حتى يندحر الشيطان ويستمر المؤمن على هذه الحواصر ليتدفق الشهوي الرائد غير العقلاني، يقرّر نحن نوري إسلامي حتمية هذه النتيجة

يقول الإمام الباقر عليه السلام: «إن المؤمن معي بمجاهدة نفسه لينبغيها على هواها، مرة يقيم أودها.. أي يعدل اعوجاجها. ويحالف هواها في محبة الله، ومرة يصرفه نفسه، فيتبع هواها، فيعنه الله فينتعش ريقيل الله عشرته، فيتذكر ويخرج إلى التوبة والمحافة، فيرداد بصيرة ومعرفة لما ريد فيه من الحروف، وذلك بأن الله يقول: ﴿إِنَّ الْكَافِرِينَ أَكْفَرُوا إِذَا سَأَلْتَهُمْ طَلَبْتَ مِنْ الشَّيْطَانِ يُدَكِّرُونَ فَلَمَّا هُمْ يَتَّبِعُونَ﴾^(٢)»

ونون تعالى ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا مِنَّا فَتُوبَنَاهُمْ مِنَّا﴾^(٣).

وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وآله قوله «مثل المؤمن كمثل السنبلة تخر مرة، وتسقم مرة، ومثل الكافر مثل الأوزة لا يزال مستقيماً لا يشعر»^(٤)

كما أن المشروع الإسلامي دعا في مصوحيه الشريعة إلى معارضة فكرة السقوط والسعد الذاتي الهادف للبناء وجعلها جزءاً من المعادلة الجهادية مع الذات، وطلب من الإنسان المؤمن تطبيقها دائماً مع نفسه لتطوير قدراتها

(١) ميراث الحكمة، ج ١٠، ص ١٢٣.

(٢) صحيح العمول، ص ٢٠٦ - ٢٠٧، ونص الآية من سورة الأعراف آية ٢٠٠.

(٣) سورة المائدة، ٦٩.

(٤) صحيح العمول، ص ٦٩.

وصحل إمكاناتها في مختلف جوانبها، وكذلك لتعديل سلوكها بشكل مستمر، ولكي تنهأ ذاته لمسؤوليات ومهام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، نقول الأحاديث الشريفة.

«أقبلوا ذوي الهمة عثرانهم»^(١)... أي أخطائهم وذنوبهم.

«أحب إحواني من أهدى إلي عيوبي»^(٢).

وحلاصة الأمر أن شخصية المؤمن - كما تؤكد النصوص والمواقف التي نعيشها - تمرض قليلاً أو كثيراً بحلق دميمة أو بعادة سيئة أو بسلوك مرضي معقد، وهذا تكمن حاجته لمنهج الأضداد والاستعادة منه في تعديل السلوك وتغيير الاتجاهات ومعالجة أخطائه ومحو سيئات

وعلى ضوء ذلك كله، فإن المعالجة بمنهج الأضداد لم يستهدف منها المشرع التربوي الإسلامي تفويم السلوك المعاطى وتصحيحه عند المنحرفين كما يظن البعض من الناس، وإنما شوعه الله تعالى ليأخذ به كل مسلم يجد فيه مكونة ممرضة بسيطة أو أكثر تمقيداً أو يكتشف في ذاته عادة غير صحيحة بالمستور المبادئ ويمكن للمسلم استخدام المعالجة لجبرية إذا كان يعاني من مرض واحد بعينه ويمكنه استخدام المعالجة الكلية الشاملة إذا كان يعاني من عدة أمراض سلوكية.

خامساً: قدرة العلاج النفسي بالأضداد على بناء شخصية متزنة متكاملة

انفق الإسلام وبعض نظريات علم النفس معاً في نظرة مشتركة هي أن الإنسان وحدة متكاملة مكونة من عدد من العناصر والجوانب المترابطة،

(١) صحيح البخاري، ص ٤٧.

(٢) صحيح البخاري، ص ٢٧.

حيث يؤثر كل جانب منها في الجوانب الأخرى، ويمكن اعتبار لشخصية إنسانية في ضوء هذه النظرة كياناً سوياً متكاملًا حين تنظم جميع عناصره أو معظمها في اتجاه واحد، أما إذا اضطرب أحد هذه العناصر امتد أثره السلب إلى غيره، وهو أمر قد يؤدي لدرجات متفاوتة بين الأفراد إلى اضطراب شخصياتهم

بالمخاضات العضوية والنشوهات الحلقية في الجسم تؤثر في النفس، وقد تهيئها للإصابة بحالات مرضية غير توافقية كالإحساس بالحقارة والشعور بالبهذ والحرمان والعزلة عن المجتمع والقلق العصبي وعدم الثقة بالنفس.

كما أن عدداً كبيراً من الأمراض العضوية (الجسمية) لها أساس نفسي كأمراض القلب والقرحة المعدية وقرحة الاثني عشر والشل الرنوي والربو الشعبي وحساسية اللثة والعين، وقد أحصى علماء النفس ما يقارب من ثلاثين مرضاً عضوياً ينشأ لسبب نفسي أو انفعالي

لهذا يؤكد علم النفس الحديث على سلامة ودقة النظرة الإسلامية المؤممة بوحدة التشخيص والتأثير المتبادل بين أحوالها الثلاثة . النفس والجسم والعقل . وأنشأ علماءه مرضاً من الطب أسموه (الطب السيكوسوماتيك) وظيفته دراسة العلاقة بين أجزاء التشخيص وحواسها المتعددة، وقد دخل هذا الفرع الجديد ميدان العلاج بالمستشعرات والعيادات النفسية والعقلية، ونجح في تدريسه بكمالات الطب

ومن المؤكد أن إدراك العلاقة بين الأجزاء الثلاثة السابقة الذكر ليس شئاً حديثاً عرفته البشرية في عصرنا لأول مرة، فقد أشارت إلى هذه العلاقة بعض الاتجاهات التربوية القديمة، كما أن نصوص المشرع السري

الإسلامي أقرت وجود علاقة بين النفس والجسم والعقل وتركزت للمعقل لشري إمكانيه الكشف عن تفاصيل أوسع وأعمق نظره.

بعد تسميت النصوص الإسلامية إشارات عامة تدل على إيمان المشرع بوجود تأثير متبادل بين الأجزاء الثلاثة، حيث أوضحت هذه النصوص أثر البدن في نشأة الحالات المرضية، ودعت على سبيل المثال إلى احترام ذوي الإعاقات وعدم السخرية من أهل البلاء والمجذومين وهي عن معيشتهم والنظر إليهم باحترام

نقول النصوص الإسلامية:

«لا تدبموا النظر إلى أهل البلاء والمجذومين فإن ذلك يحزنهم»^(١).

«لا تنظروا إلى أهل البلاء فإن ذلك يحزنهم»^(٢).

وقد نص ثالث: «من نظر إلى ذي علة أو من قد شغل به أو صاحب بلاء، فليقل سرّاً في نفسه من غير أن يسمعه: «الحمد لله الذي هانني»^(٣).

«سماع الأصم من غير نصبر صدقة هيئة»^(٤).

إن النصوص السابقة تبين بوضوح قوة العلاقة بين بعض الحالات المرضية الجسمية كالعاقات والتشوهات الخلقية بحوائج انفعالية مثل الضجر وفلق النفس والحرق والشمور بالنفص، لذلك نهى المشرع الشرعي الإسلامي في نصوصه السابقة عن الممايرة وتناثر الألقاب والبطرة المؤسمة، ودعا إلى سماع أهل البلاء بكلمات محالية من التأفف والشرم وعشره صدقة هيئة.

١. سجل الأثر، ج ١٦، ص ١١٢.

٢. المصدر السابق، ١٢٢.

٣. رسائل الشيعة للحر العاملي، ج ٣، ص ٢٠٩.

٤. سجل الأثر، ج ١٦، ص ١١١.

يقول القرآن الكريم

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَخْرُجَنَّ مِنْ قَوْمٍ عَتَقَ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا يَسَاءَ مِنْ يَسَاءَ عَتَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا تَلْبِسُوا قَوْمَكُمُ وَلَا تَتَّبِعُوا الْأَلْقَابَ﴾^(١)

وقال الإمام الباقر عليه السلام: «كفى بالمرء عيباً أن ينصر من الناس ما يعنى عنه من نفسه، أو يعير الناس بما لا يستطيع تركه أو يؤذي حبله بما لا يعنيه»^(٢).

كذلك نجد للأمراض النفسية والحالات السلوكية المذمومة تأثيره على صحة جسم الإنسان، وقد أفاضت نصوص المشرع الإسلامي في بيان هذه التأثير إيجاباً وسلباً، فالتفاعلات الإنسانية خاصة الحالات الشديدة تؤدي إلى تعبيرات فيولوجية في البدن وملامح الوجه، ومن تلك التغيرات الفسلجية التي تصاحب الانفعالات المضطرب دقات القلب وتقلص الأوعية الدموية في الأمعاء والأحشاء واتساع الأوعية الدموية على سطح الجسم والأطراف، مما يؤدي إلى تدفق كميات كبيرة من الدم إلى القلب.

وقد وصف القرآن الكريم بعض مظاهر العلاقة القوية بين الحالات الانفعالية والتعابير الجسمية، يقول القرآن في آياته الكريمة مبيناً تغير ملامح الوجه نتيجة تلاوة نص قرآني أو موقف انفعالي عصابي لدى بعض المرضى.

يقول القرآن الكريم في آياته المباركة

﴿وَرَأَى نَجْوَىٰ عَلَيْهِمْ مَلَكًا يَعْنِي خَيْرٌ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّكْرُ يَكَاذِبُونَ وَالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ كِتَابَنَا﴾^(٣).

(١) سورة الاحزاب، ١١.

(٢) الكلبي، الكافي، ج ٢، ص ٤٥٩.

(٣) سورة النجم، ٧٢.

﴿إِنَّا مِرَاسُكُمْ وَالْأَنْثَى طَلٌّ وَجْهَهُمْ سُودًا وَهَرُ كَلِمَةً﴾ ﴿٥٨﴾ بِتَوَرَّى مِنَ التَّوَرَى مِنْ
شَأْنٍ تَبَرَّ بِدَعْوَةِ لِسْتِكُمْ عَلَى هَوِيٍّ لَمْ يَدُسُّ فِي الْقُرْآنِ إِلَّا سَكَنًا مَا يَكُونُ ﴿٥٩﴾ ﴿٦٠﴾.

﴿وَرَدًا يُبْرِئُ لَسْتَهُمْ بِمَا صَرَفَ الْوَحْيَ مَنَّا طَلٌّ وَجْهَهُمْ سُودًا وَهَرُ
كَلِمَةً﴾ ﴿٦١﴾

﴿وَرَبِّهِمُ الْيَمِينُ نَرَى الْيَمِينُ كَلِمَةً عَلَى اللَّهِ وَوَجْهَهُمْ سُودًا﴾ ﴿٦٢﴾

وقال تعالى

﴿إِنَّا الْأَنْثَى لَمْ يَبْرِئْ﴾ ﴿٦٣﴾ عَلَى الْأَنْثَى بِطَرَفٍ ﴿٦٤﴾ تَوَرَّى فِي وَجْهِهِمْ نَصْرًا
الْيَمِينُ ﴿٦٥﴾.

ثم نصف آيات أخرى بعض التعبيرات البديعة نتيجة الحالة الانفعالية
كأنواع حدقة العين، يقول القرآن الكريم:

﴿وَلَا تَحْزَنْ أَنَّ عَيْنًا بِمَثَلِ الْفُلَانِ إِنَّهَا بِوَجْهِهِمْ لَبَرٍّ تَنْطَفِئُ
بِهِ الْأَنْثَى﴾ ﴿٦٦﴾.

وتشير آيات إلى حركات بليغة مرتبطة بحالات وجدانية كتشكيس الرأس
وانكماش الجسم، يقول القرآن الكريم في هذا الصدد

﴿وَلَمْ تَكُنْ فِي التَّحْزِينَةِ تَأْكُفُوا وَوَجْهِهِمْ رَدًّا أَمْرًا وَسَمِعْنَا
فَأَرْجَفْنَا نَقَمًا مَتْلَبًا إِنَّا مُهْتَبُونَ﴾ ﴿٦٧﴾.

(١) سورة الحمل، ٥٨

(٢) سورة الزخرف، ١٧.

(٣) سورة الزمر، ٦٠.

(٤) سورة الأنعام، ١٣.

(٥) سورة إبراهيم، ١٢.

(٦) سورة السجدة، ١٧.

حتموا عسى الشللاند وقطرة على مواجهة الإحاطات، إلا أن قوة احادة
لاعبابه تركت أثراً على نفسه، لكنه ﷺ لم يجد بقاء من مرجه م
حدث ناصر الحميل، وشهد على ذلك نص الآية الثالثة من السورة نفسها،
يقول الآية: ﴿عَالِمٌ بَلَّ سَوَّكَ لَكُمْ تَقْصُكُمُ اثْرًا صَسَّرَ حَيْلًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي
بِهَذَا حَرْبًا إِنَّهُ مُؤْتِيهِمُ الْكَلِمَةَ الْكَبِيرَةَ ۝٩٨﴾.

وقان أيضاً في الآية السادسة والثمانين من سورة يوسف ﴿إِنَّمَا أَتُكْرَأُ
بَنِي وَخَرَيْنَ إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٩٩﴾

لقد أدرك ابنه المعبر نبي الله (يوسف) ما آل إليه حال أبيه من عسى أو
إصابة بعسرية - أياً كانت - فأوصى اخوته أن يحملوا مبعبه ليلقوه على وجه
أبيه عسى أن يرتد بصره إليه بعد أن غمر لهم إساءتهم الكبرى، يقول القرآن
«كريم بعد موقف حوارى بدا فيه العتب واللوم والاعتذار والعفر ردت في
الآيات من (٩٨ - ٩٩)».

﴿قَالُوا تَأْتِيهِمْ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ فَأَتُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ فِي ذُنُوبِهِمْ فَنَسُوا مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ۝١٠٠﴾
ثُمَّ جَاءَهُمْ أَنْبَاءُ الْمَلَائِكَةِ بِالْحَقِّ وَكَانُوا كَالْهَيْفَاءِ الْمَوْزُونِ ۝١٠١﴾
هَذَا فَالْقَوْلُ عَلَى رَجْوِ أَبِي بَاتٍ نَبِيًّا وَأَتَوْهُ بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ۝١٠٢﴾
فَصَلَّى الْإِسْرَ قَالَ أُولَئِكَ ابْنُ أَحَدٍ يُحِبُّ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُبَيِّنَ ۝١٠٣﴾
قَالُوا تَأْتِيهِمْ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ فَأَتُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ فِي ذُنُوبِهِمْ فَنَسُوا مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ۝١٠٤﴾
إِنَّكَ نَبِيٌّ مَصْدُوقٌ ۝١٠٥﴾
فَلَمَّا كُنَتْ جَاءَ الْفِتْنَةَ عَلَى وَجْهِهِ فَأَرْزَتْ
نَجِيرًا قَالَتْ أَنَّهُ لَقَدْ لَعَنَ لَكُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ مِنْ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝١٠٦﴾
قَالُوا تَأْتِيهِمْ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ فَأَتُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ فِي ذُنُوبِهِمْ فَنَسُوا مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ۝١٠٧﴾
تَسْمِعُ لَنَا دُونَنَا إِنَّا كُنَّا حَتْلِينَ ۝١٠٨﴾
قَالَ سَوَّكَ لَكُمْ رَجْوَةً إِنَّهُ مُؤْتِيهِمُ الْكَلِمَةَ الْكَبِيرَةَ ۝١٠٩﴾.

قد يكون العلاج إعمالياً عبر مألوف للناس كما جاء في آيات
للسنة، وقد يكون العمى حالة مؤقتة كالعمى النفسي الذي يحدث عنه

علماء النفس، ولكن تعبير القرآن (وابيضت عساء من الحزن... وارتد نصيراً) قد يعي معنى فعلياً أشفاه الله بقلوبه عن طريق إعجاري غير مأبى للناس هو إلقاء التقيص على وجهه الكريم.

١- مهمتنا كمنوع العلاج - إعجازياً أو طبيعياً - فإن القرآن الكريم وجه الأنظار إلى إدراك سيدنا يوسف للعلاقة بين سبب المشكله وبين طريقة علاجها، وهي معالجة تبيين العلاقة بين الجسم والحالات الانفعالية الشديدة

قد يبدو لنا أن حدوث الإعاقة البصرية ما نجم عن حزن شديد على فقد سيدنا يوسف، بيد أن التأمل في الآيات يضع أيدنا على سبب آخر، فأباه نبي الله يعقوب ﷺ شاركوا في حدوث بياض كامل في العين وعماه لأنهم السبب الرئيسي للمشكلة، إذ قهروا أباهم ﷺ وأغاظوه لأن سلوكهم غير الأخلاقي انطوى على مواقف عدائية ضد أبيهم وأخيه يوسف معاً وهم يفعلوا شيئاً جاداً لرفع حالة القهر النفسي عنهما، فالسورة الماركة تكشف لنا تسويهم ومماطلتهم وكذبهم وسوء مواياهم خاصة أنهم حاولوا ارتكاب نفس الخطأ مع أخ آخر فرددوا والذهب يعقوب ﷺ نهراً رغماً

ويبدو من الآيات أن لغة الأبناء استكبارية لا تخلو من دعة مريضة في إبهاء الأب، فبعد أن قال لهم أبوهـم: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ ردوا عليه سخطاً وقسوة ﴿يَا أَبَتَ بْنَا لِمَ تَفْعَلُ هَٰذَا كَذِبٌ عَلَيْنَا لَمَّا قُلْتَ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ حيث أحدهم العرة بالإنتم ونظروا على أبيهم وهو يذكرهم بمكانة يوسف لديه من جهة ومعهم معنوية من جريمة، فلم يعجبهم منطق الأبوي الإنساني فعادوا إلى عظامتهم الكامنة في عروشهم

وحسب اعتذارهم لم يخلو من حيث فمروا اعترافهم بالخطأ أمام

حبهم يوسف يقولهم ﴿لَقَدْ مَنَّكَ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ ثم كرروا اعتذارهم مرّة أخرى بعد أن ألقى الشير قميص يوسف على وجه أبيهم فرد الله بصراً، ووجدوا معهم وجهاً لوجه أمام الحقيقة فطلبوا من أبيهم أن يستغفر لهم ما فعلوه.

إن عذب سي الله يعقوب عليه السلام يسع جميع أبنائه بالحب والعمو، لكن موافقهم العدائية مزجت مشاعر الحزن والفقر والإحساس بالمظلومية في نفسه، فولدت تلك المشاعر صدمة نفسية شديدة تركت أثراً على بصره.

أشارت أحاديث شريفة إلى تدور صحة البدن بتأثير حالات انفعالية سببة أو عصبية كالحسد والحقد والهلم والحرف والتكبر وسوء الظن، تقول بعض الرايات الشريفة

الحسد يذيب الجسد^(١).

الحرن يهدم الجسد^(٢)

الهلم يذيب الجسد^(٣).

الهلم يصف الهرم^(٤)

وإذا كان الجسم والنفس يؤثران في بعضهما سلباً وإيجاباً، فإن انعكس أيهما بتأثر بهما ويؤثر فيهما، تقول الأحاديث الشريفة

من لم يهدب نفسه لم يتفح بالعقل^(٥).

(١) حرر الحكم ودرر الكلم، ج ٢، ص ٢٢.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٢.

(٣) المصدر السابق، ص ٢٥.

(٤) معج اللاحقة، ج ٢ ص ٤٩٥.

(٥) حرر الحكم، ص ٢٩٢.

من عتق شيئاً أعشى مصره وأمراض قلبه فهو ينظر بعين غير صحيحة،
ويسمع بأذن غير سليمة، قد خرفت الشهوات عقله^(١)

غير مسع بالحكمة عمل معلول بالعصب والشهوة^(٢).

يد أن تأكل ما لا ينبغي فانه يورث الحماقة والبله^(٣)

ما دخل قلب امرئ شيء من الكبر إلا نقص من عقله مثل ما دخل
من ذلك قل أو كثر^(٤).

ما أصغر أحد شيئاً إلا وظهر في ثلاث لسانه وصعحات وجهه^(٥).

ما مزح امرؤ مزحة إلا مع من عقله عجة^(٦).

لعصب يمسد الأبواب ويبعد من الصواب^(٧)

شدة الغضب تعتبر المنطق وتقطع مادة الحجة وتغرق الفهم^(٨).

السرور يبسط النفس ويشير الشاطئ والهم يقبض النفس ويطوي
الانبساط^(٩).

النحمة تمسد الحكمة والبطء تحجب الفطنة^(١٠).

(١) نهج البلاغة، ص ٢٣٠

(٢) غرر الحكم، ص ١٢٢

(٣) البحار، ج ١، ص ٢٢٦.

(٤) ميزان الحكمة، ج ٤، ص ٢٠٠

(٥) نهج البلاغة، ج ١، ص ١

(٦) نهج البلاغة، ص ٥٥

(٧) ميزان الحكمة، ج ٧، ص ٢٣٢

(٨) المرجع السابق، ص ١٢٢

(٩) ميزان الحكمة، ج ١، ص ٧٢

(١٠) المصدر السابق، ج ٢، ص ٧٢.

من قلّ أكله صفاً فكره^(١).

ن. لثقلوب حواطر سوء، والعقول تزجر عنها^(٢).

بعد أن عرفنا التأثير المتبادل بين هذه العناصر الأساسية المكونة للشخصية الإنسانية ندرك أهمية المعالجة بطريقه الأعداد، حيث تترك هذه المعالجة أثراً باحداً على حركة العقل وصحة الجسم وثقاوة الروح واستقامة السلوك الأخلاقي، ومن هنا نرى أن منهج المعالجة النفسية بالأعداد لا يحصر مهامه التربوية في علاج النفس بحسب، بل يمتد إلى سائر عناصر الشخصية البشرية وحواشيها المختلفة وإن كانت درجات الاهتمام تختلف من جانب إلى آخر، فالمعالج النفسي ليس بالتأكيد طبيباً نفسياً يعالج الأمراض المعنوية وبنفسه، ولكنه يدرك علاقتها بالعقل والعقل معاً، لهذا يطلب الأول من الأخير معونته ويحيل الحالات الصعبة له، كما يطلب المعونة كذلك من طبيب الأمراض العقلية

بيد أن المعالج النفسي المسلم مدعو كما نريد النصوص التربوية الإسلامية أن يتعامل مع العناصر السابقة حتى وإن كان مهتمه التركيز على معالجة النفس وتعديل سلوكها، لأن هذه النصوص تحث على الاهتمام بكافة جوانب الشخصية والاستعانة بأطباء العقل والجسم معاً إذا تطلب الأمر

وقد بدأ المعالجة بمشكلة أخلاقية أو نفسية ثم يمتد لعلاج إلى عناصر أخرى بدرجات متفاوتة، وهذا يعكس على هذه العناصر ويحدث بحس ملحوظ في الشخصية، فإذا تمكن المعالج من معالجة حالة المعاليه كشدة العصب عند العمد وحقن للمريض مسوى معقولاً من المصبط

(١) المصدر السابق، ج ٢، ص ٥٤٤

(٢) المصدر السابق، ج ٦، ص ٥٤٤

الاعتدالي، فإن ذلك سوف يؤدي بالضرورة إلى تخفيف التوتر والتعسل من مشاعر القلق الناجم عن الانفعال المذكور، وهنا يساعد على تحقيق درجة من الشفاء للأشخاص العصوية المرتبطة به كالقريحة المعدية مثلاً أو قرحه الإنسي عشر أو مرض القلب، كما سيحدث تحسن في علاقائه بالآخرين ويتوافق بدرجة أفضل معهم، وسيتم كذلك تعديل في مستوى التفكير وفي طرف الاستمادة منه بدلاً من توجيهه نحو أهداف غير توافقية كتفكير في إيجاد مشكلات للآخرين والتلذذ بإبذائهم.

فالشفاء النفسي من داء الغضب بطريقة غير سوية يساعد العقل على التعلم الجديد واكتساب الحكمة وتنمية مهارات التفكير، وبذلك يتحول العقل إلى حركة تفكير هادئة ومتزنة ونشطة وموجهة نحو أهداف عبادية توافقية مفيدة للفرد والمجتمع، بحيث لم يعد هناك مجال لتثير المنطق وقت انفعال العصب أو تقطع الحجة أو تعرق الفهم كما أشار إلى ذلك حديث شريف، ومن هنا قال بعض آخر للإمام علي:

«ادوا الغضب بالصمت»^(١).

و«ادوا الغضب بالحلم»^(٢)... أي مكظم الحيز وتدريب النفس على التعلم.

يقول الإمام علي عليه السلام: «إن لم تكن حليماً فتعلم فإنه قل من نسبته بقوم إلا أوشك أن يكون منهم»^(٣) لأن في حالة السيطرة على انفعال العصب وسطه بتوجيهات وقيم عبادية انعكاسات جسميه وعقلية وإيمانية

(١) ميزان الحكمة، ج ٧ ص ٢٣٩

(٢) الترمذ اللين، ص ٢٤٠

(٣) نهج البلاغة، ص ٥٠٦.

وأحلامه كاسترخاء عضلات الجسم وحلابة الدماغ وتكثيف حركة الدم على نحو طبيعي، وهذا يؤدي بالنفس إلى استعادة هدوئها واتزانها، مما يسمح للنفس الإنساني بتفجير طاقاته الإبداعية وتمييزها واستحفظها في مسارها بآمنه.

كما أن العلاج النفسي بالأضداد قد ينطلق في حالة شخص آخر من معاناة وتشخيص مرض عضوي كالجلد أو عاهة خلقية، دليلاً للمعالج إلى صرائق العلاج المتوفرة، وحين يشعر بتعدد الحالة المرضية لدى مريضه يضطر إلى بدائل أخرى مثل:

١ - يحرصه على أطباء أكثر كفاءة ونحوصية في الأمراض والمعاهات العضوية.

٢ - قد يوجهه نحو معالج نفسي متمكن أكثر مهارة منه ليعمل على تغيير اتجاهات المريض السيكولوجية واستبدالها بمفاهيم واتجاهات جديدة تساعد على تغيير محتواه الداخلي عن دوره في الحياة باعتباره مخلوقاً مكلفاً وإن عاهته العسوية تحت إمكانات العلم، وفي حالة الإخفاق يبين له أن مفهوم الإعاقة في الإسلام والمسلم معاً ليس بخلالة بعاة عضوية بل يعبره عن تنمية طاقاته الإبداعية الكامنة في داخله.

٣ - يتجه المعالج المسلم إلى المجتمع والمحيط البشري الذي يعيش فيه مريضه فيحاول تغيير الاتجاهات الخاطئة لدى أفراد المجتمع عن المرضى المعروفين أو المصابين بمعاهات معنوية، وحين يسجح في تغيير نظرة المجتمع عن حالات الإعاقة كما حاول الرسول ﷺ يشعر المريض بهذا التغيير بدأ معنسته في التعبير الداخلي، ويبدأ بتكوين نظرة إيجابية عن ذاته وعن المجتمع، وتكوين فهم جديد عن الذات والمجتمع معاً يؤدي إلى

استعادة ثمنه نفسه ويدرك أن قيمة المراه بما يحسن لا بجسمه، وأن الإعاقه ليس عصوره بل مكمن في تعطيل الطاقات الإيجابية المودعة في كياه كدسان

٤ - يسعى للمعالج النفسي المسلم بنصوص المشرع التربوي الإسلامي التي تحذر من الإساءة للزوي العاهات والتشوهات الحقيقه ويذكر مرعاه بأدوار الرجال والنساء الدين حولوا إعاقاتهم العصورية إلى يداعات أدبية وعلمية وفنية.

٥ - يتخطى المعالج النفسي المسلم عامل التقدير الاجتماعي، ليستثير لدى مرعاه عاملاً أحر أكثر فعالية هو (التقدير الإلهي) لهذه الفئة ولإنجازاتها الإبداعية، ويحول المعالج وطأة الأزمة عند المرعاه والإحساس به لديه برأ وسلاماً يجعل حرارة الإيمان الديني.

إن التقدير الإلهي للذات البشرية سوية أو معرفة يجعلها ننحس قيمتها الإنسانية حتى وإن بقيت في الجسم عامة أو تشوهات حقيقه، لأن منطق المشرع التربوي الإسلامي «الخلص العمل يكفك منه القليل»^(١) وأقيمة كل امرئ ما يحسه^(٢) كما يقول الإمام علي عليه السلام.

وفي البدائل السابقة يهبط معدل التوتر ويحدث انطفاء تدريجي للقلق ويحل بدلاً منهما الإحساس بالأمان، ونحس قيمة الذات كرامتها، والشعور بأنها ملقت مكانتها اللائقة، والتمتع بنفسها.

ولهذا السحول الداخلي نتائج إيجابية للذات - كما رأيت - تسمح لها بمرعاه إعاقاتها العصورية عن طريق تحقيق إنجازات في حلق أحر كالعوق

(١) جامع البهائيات ج٢، ص٤١٦

(٢) نهج البلاغه، ج٤، ص١٨، وكذلك كتاب نصيب نهج اللائقة، ص٢٩٥

المعقلي مثلاً، وقد نكون في مجال آخر كالمجال العضوي أو الجسمي، ولا يتحس المجنوم حالته وهو يرى أمامه إبداعه وإحساسه بالرضا اتم عهد، وبدلك لا يركز إلى الخواطر المريضة وبين يديه إنجازاته وإبداعاته انني تؤكد فيه ذاته، فكما يقول الإمام علي عليه السلام: «قيمة كل امرئ ما يحسنه».

سادساً: تجدد المعالجة النفسية بطريقة الأضداد في الفكر المعاصر:

يمكن القول إن كثيراً من مفاهيم ومصطلحات المعرفة السيكولوجية مرصولة بالثراث الإنساني، وتجدد نفسها في تجارب جديدة خلال مراحل تاريخية لاحقة تحت مسميات لفظية متعددة، لهذا ملحظ لهذه المفاهيم والمصطلحات صدى في الثقافة النفسية الحديثة، وهي في أصلها ذات وجود تاريخي مستند في ثقافات سائدة في عصور سابقة، وهي متداولة في كتب الأدب والأخلاق والسباسة والأديان والفلسفات الإنسانية وغيرها

فالأنا الأعلى - مثلاً - الذي تحدث عنه فرويد هو مفهوم شائع في نظرية التحليل النفسي، وقد استخدمه فرويد كمصطلح سيكولوجي للدلالة على مفهوم الضمير الأخلاقي أو الممس اللوامة في الأديان وبعض الفلسفات، وكذلك نجد في مصادر المعرفة النفسية بعض المفاهيم انني تقدم بلغائري بمسميات مختلفة ولكنها تعبر عن معاني سيكولوجية متطابقة مستندة في الماويح الثقافي الإنساني ومخاصه في تراثه القنوي، ومن هذه المصطلحات (الآباء، النصيح، الموعظة، الثواب والعقاب، الذم، تركية الممس، تزويج النفس، تهذيب الأخلاق، مداواة النفس، الحبر والشر)

إن مصطلح (حفظ صحة النفس) مثلاً الذي استخدمه بعض علماء الأخلاق المسلمين أمثال ابن مسكويه وغيرهم من علماء وفلاسفة

احصاءات السابقة مطابق تماماً لمصطلح أو مفهوم الصحة النفسية انما هو
على نحو واسع هي كتابات علماء النفس المحققين والمعاصرين

كما يلتقي مفهوم (التحلية) عند الأخلاقيين والصوفيّة بمفكرة (التعريف
الاعمالي)، والعملي، فكلاهما يستهدف تنقية النفس من رواسيها المسببة
للاعتراكية، ويستخدم مصطلح (تعديل السلوك) في الثقافة السيكولوجية
المعاصرة مع مفهوم سابق في الثقافة الأخلاقية وهو مصطلح (تهذيب
الأخلاق أو تربية النفس).

وإذا تأملنا محتوى مصطلح (الزهد) الشائع الاستعمال في الثقافة
الدنيوية والأخلاقية والصوفية وحدناه يلتقي مع مفهوم (خبط الإتياع). أي
تحقيق إتياع للفرد بقدر الحاجة على حد تعبير بعض علماء النفس، كذلك
 نجد أن (مصطلح الإسقاط النفسي) عند فرويد هو تكرار لمصطلح الإنصاف
أو الإلياس عند بعض الكتاب المسلمين وتكرار لمضمون نص ديني إسلامي
أثمه الإمام علي يرى أن الشرير ينظر للناس بحسنة طبعه، ويحلح م في
نفسه من صلبات ودناءة على الآخرين ويتهمهم بعيوبه للدفاع عن ذاته
وتحسين صورتها أمام الغير.

ويشير الإمام علي عليه السلام في إحدى عباراته السيكولوجية الحادثة إلى
حالة الإسقاط النعسي وتسميها كتحقيق علمية في التراث السيكولوجي
الشرقي قبل توصل علم النفس التحليلي إلى اكتشافها معات السنين، ويؤكد
الإمام هذه القضية في أكثر من نص:

«لشرير لا يظن بأحد خيراً لأنه لا يراه إلا بطبع نفسه»^(١)

وفي نص آخر يقول عن حالة إسقاط الفرد لعبونه على الآخرين إن
«لرحل لسوء لا يظن بأحد حيراً لأنه لا يراه إلا بوصف نفسه»^(١)

وهناك شعر منسوب للإمام الشافعي «محمد بن إدريس»^(٢) رضي الله
عنه حيث يقول في أبيات ثلاثة محكمة إن الإنسان يعيب للزمان الذي يعيش
فيه ويسقط عبونه على الدنيا والناس الذين يعيشون فيها رعدة منه في نسيته
بعبه وعدم الاعتراف بمسؤوليته عن الأخطاء التي تصدر عنه، ميلجأ إلى
الإسقاط بدلاً من مواجهة العيوب.

يقول الشافعي.

نعيب زماننا والعيب فينا وما لزماننا عيب سوانا
ونهجرج إذا الزمان بفيردنا ولو نطق الزمان لمهيجنا
ولا نأكل الدواب لحم بعض ونأكل بعضا لحم بعض عبانا
وهناك شعر مماثل - وقريب مني ألفاظه ومعناه - منسوب للإمام
الربيع^(٣) رحمه الله

عن الريان بن الصلت قال: أنشدني الإمام الربيع رحمه الله لعبد
المطلب:

يعيب الناس كلهم زماناً وما لزماننا عيب سوانا
نعيب زماننا والعيب فينا ولو نطق الزمان بنا لمهيجنا
وان الدواب يترك لحم دنا ويأكل بعضنا بعضاً عياناً
لما للجداع مسوك طيب فويل للفرير إذا أنان

(١) المصدر السابق، ج ١، ص ١٢٠

(٢) ديوان الإمام الشافعي، ص ٨٢

(٣) ديوان المحكمة، ج ١، ص ٢٢٥ - ٢٢٦ نقلاً عن بشار الأتور للمعطي، ج ١٩، ص ١١١

ومكنا نجد في التراث التربوي والنفسى والتاريخي معاهيم ومصطلحات مطابقة المعنى مع معاهيم الثقافة العسة المعاصرة. وإن نددت الألفاظ وتعامرت المصطلحات، وهذا يدل على أن الحقائق النفسية الصحيحة خالدة مع الزمان، ونعبر عن جوهر الكينونة الإنسانية، ونحتج إلى عقل سط للكشف وإمطة اللثام عنها، أما استخدام لفظ معين بدلاً من لفظ آخر فبمى أن العمل الإنساني النقي قادر على تنمية ما يتروص إليه بالعد ماسبة لزمانه، وتكون وفق مستوى الثقافة السائدة ومكوناتها اللفظية.

وم انطبق على المعاهيم السابقة يطبق أيضاً على مصطلح (طريقة أو منهج المعالجة بالأصداد) وهو عنوان دراستنا التي ببس يديك فهذه لصرمة التربوية والتعليمية والملاجية شائعة الاستعمال في سلوك لأفراد المؤمنين وفي تراثنا النفسى الإسلامى كمفهوم وكطريقة منهجية يستعان بها في تعديل السلوك أو تركية النفس على حدّ تعبير علماء الأخلاق المسلمين، وهي البرم تجدد نفسها بأسماء وألفاظ متعددة مثل مصطلحات «الاشترط المضادة» والكف بالقبض»

وإذ كانت هذه الطريقة عميقة الحدود في التراث التربوي الشرى وفي الأدباء والفلسفات فإن بعض المجالات العلمية المعاصرة تحاول تجديدّها وتطوّر معاليجها بالبيات ومبنيات العلاج النفسى الحديث وتجنيد أصدالها العلمية، والاستنادة منها في ملاوة بعض أنماط السلوك المرضى كالحوف من حبره، مألوف مثلاً وتعديل سلوك الفرد من.

قد يكون محاولة تحطيد العكرة وتحديثها عن سابق معرفة في ذهن من عزم سحديها، وقد يكون إحيائها نتيجة اجتهاد توصل إليه عمل شرى نبي لم يعرف العكرة من قبل، إذ تحسّس معبرته فاعلية هذه الطريقة في

عملية التعلم ومحو بعض العادات الخاطئة، فأراد استعملها في مجال تعديل السلوك وعلاج الاضطرابات النفسية والسلوكية، وقل أن شحدث عن استخدام لعلاج النفسي المعاصر لهذه الطريقة مسحاو التعرف بإيجار على وجهه نظر فلسفيه

١. العكر الفلسفي الحديث لدى بعض الأوروبيين قد استمد من فكرة التنصاا في صياغة نظرية ترابط الأفكار مثلما فعل ديفيد هيوم الفيلسوف الإنجليزى الذى عاش في القرن الثاا عشر ما بين (١٧١١ - ١٧٧٦م)، حيث اعتبر هذا الفيلسوف فكرة التنصاا أحد مبادئ تكوين المعرفة وترابط الأفكار وافتراتها.

لقد حاول ديفيد هيوم مناقشة السؤالين التاليين: كيف نمهم الأفكار لعامة؟ وكيف يدوك العلاقات بينها؟.

فادته إجابته على السؤالين السابقين إلى بقاء نظريته المعروفة عن ترابط الأفكار

يرى هيوم أن الأفكار الناجمة عن الانطباعات الحسية التي تتكون في عقولنا كمعرفة عن الأشياء الخارجية بواسطة الحواس، ترتبط وفق مبادئ خمسة هي:

- ١ - التشابه بين الأفكار.
- ٢ - التنصاا بين الأفكار.
- ٣ - التجاور المكاني.
- ٤ - التجاور الزماني.
- ٥ - العلة والمعلول.

وما نعينا من المعادئ السابقة هو مبدأ للتصاد، ومعني هذا لمدأ أن حصول فكرة معني في ذهن الإنسان يسدعي حصول فكرة أخرى مرتبطة بها بالتصاد، فالحديث عن المعلم لا بد أن يسدعي الحديث عن الجهل، والحديث عن الديمقراطية يعترن بالحديث عن الديكتاتورية كعكسة ومعارضة مصادة لها.



نعود مرة أخرى إلى ظهور اتجاه علاجي جديد هو العلاج السلوكي واستخدامه لفكرة المعالجة بطريقة الأعداد، فقد احتضن العلاج السلوكي هذه الطريقة واستعاد منها في مجالات التعلم، وعلاج اضطرابات السلوك وبسبب لعادات السلوكية التوافقية المرعوب فيها، لأن المرض النفسي يي نظر علماء هذا الاتجاه مجرد عادات خاطئة متعلمة من وسط بيئة غير توفيقية، وأن علاجها يتم بتعلم عادات جديدة سوية ومضادة

إذن يقدم العلاج السلوكي على نظرية التعلم، فيرى أن الأمراض لنفسية مجرد عادات سلوكية سيئة خاطئة تم تعلمها من وسط بيئة عصابية يسود فيها أحواء المرض السلوكي، فالوسواس والخوف من ثعبان أو صلام، والأعراض الجنسية الشاذة والعدوانية وغيرها ليست سوى استجابات مريضة نشأت عن طريق التعلم الخاطيء، وبالتالي فإن هذا النوع من العلاج لا يعتمش عن جذور مشكلة المريض من خلال البحث في ماضيه، ولا يزيد ما يقوم به لمعالج المرويدي من اهتمام شديد بتحليل أحلام المريض ومحصن سمواته اللعنة

بذلك يتجه العلاج السلوكي إلى التركيز على حل مباشر للمشكلة السلوكية دون التفكير عن أسبابها، فإذا كان المريض يخاف بصورة شاذة

من أرب مثلاً، فلا يعد المعالج السلوكي حاجة للتنشئ في ماضي امرد المريض وطفولته كمعروفه الأعراض العصبية وتحديد العقد النفسية الطفلية أو انصرعاب اللاشعورية التي يخفي وراء المرض، وإنما يسج فوراً إلى اسركير على المرض مباشرة لإزاحة أعراضه وعلاجه عن طريق عملية «نقاء تدريجي لأعراض المثير المرضي» وعن طريق تعلم استجابة شرطية مصادة مرغوب فيها، ومصادة لمثير الخوف من الأرب أو غيره من المثيرات العديدة.

يبدأ المعالج السلوكي بصورة تدريجية معالجة هذه الحالة الشاذة بوضع المريض في مواقف سلوكية معاكسة للمثيرات التي تثير قلقه، بحيث يبدأ مثلاً بمرض (أرب مجسم) من بلاسك أو (أرب مرسوم من ورق) ثم يعرض على المريض شيئاً يظهر فيه أرب

ويعد ذلك يقدم له أرباً خفيفاً عن بعد، أو يعرض عليه أرباً محجوزاً في قصص، ثم يواجه المريض بعد هذه المواقف المضادة لحوفه بمثير قوي لا يذ من مواجهته، فيعرض عليه (أرباً خفيفاً) ويسمح له - قدر الإمكان - بالاقتراب منه ومداعبته بمرض خفيف الفلق وتحقق انقطاع تدريجي لقوة مثير الخوف، وبالتالي تصعب الاستجابة العصبية، وتبدأ في ان تكون والظهور استجابة سوية مضادة لمثير الخوف.

وقد انتهت نظرية الاشتراط السيط - وهي جزء من العلاج «سلوكي» - إلى الحديث عن الاشتراط للمصاد، بمعنى العمل على تكوين استجابة جديدة مرغوب فيها، وتكون غير متعة أو غير منسجمة مع الاستجابة التي نشأت أصلاً بواسطة مثير شرطي غير سوي (م ش) لكن الحوف مثلاً، وهذه الاستجابة الشرطية تكون بمثابة اتجاه مضاد بالنسبة لمثير الحوف،

نبحث يمكن أن يصاحبه هذا الاتجاه بتقديم مثير غير شرطي (م ط) سار
وليكن هدية مثلاً مع ظهور المثير الشرطي وهو الخوف.

وبالتالي نشأ استجابة شرطية جديدة، وهي ما أشار إليه بافلوف في
دراساته واسماها (بالاستجابة من الدرجة الثانية) وحتى يتمكن الفرد من
الحصول على هذه الهدية لا بدّ من أن يقترب من مثير الخوف، فإذا كان
المثير غير الشرطي الجديد مرغوب فيه بدرجة كافية، فإن الفرد سيقرب
منه، ويكتشف أن المثبر الشرطي وهو مثير الخوف ليس صاراً على
الإطلاق، وبعد عدة مرات من الاقتراب يعدم تأثير المثبر الشرطي، وبالتالي
تضعف استجابة للخوف حتى تختفي من سلوك الفرد^(١)، ونشأ بدلاً عنها
استجابة شرطية جديدة ومضادة لها صفة السيادة على الاستجابة الشرطية
الأصلية.

ويشبه الاشتراط المضاد في بعض جوانبه ومعانيه مع مضمون بعض
النصوص التربوية الإسلامية في نهج البلاغة، يقول أحد هذه النصوص:

«إذا هبت أمراً فقم فيه، فإن شدة توقيه أعظم مما تحالف منه»^(٢) أر
من الوقوع فيه»

وهي تعني آخر: «إذا صعب عليك أمر فاصب عليه»^(٣)

وبهذا نص ثالث يتطابق في معناه مع أحد نقاط العلاج السلوكي،
يقول الإمام علي عليه السلام: «لزجر المني» يتوابع المحسن»^(٤)

(١) أمور الشرفاري، العلوم نظريات وتطبيقات، ص ٧٠ - ٧١.

(٢) مصيبي نهج البلاغة ص ٤٢.

(٣) كتاب العباد ج ٢، ص ١٢٨.

(٤) نهج البلاغة ج ٤ ص ٤٢.

وفي نص رابع يقول الإمام علي «عاب أخاك بالإحسان إنه، وردد شره بالأعماح عليه»^(١)

ويجلى استعمال طريقة الأضداد لدى السلوكيين في طريقة (كف لغيص أو الكف المتبادل) التي يرحح الفضل في وضعها إلى العالم (حوريم وولي)، إذ طبقها في علاج الاضطرابات السلوكية عند الراشدين، وتمثل هذه الطريقة امتداداً للاشتراط المضاد وتطبيقاً واقعياً له في معالجة نماذج من السلوك المصابي، وتدور الفكرة الرئيسة لهذا الأسلوب العلاجي حول إزاحة الاستجابة المرضية (الخوف أو القلق) تدريجياً من خلال استبدالها بسلوك آخر معارض للسلوك المرضي عند ظهور الموضوعات المرتبطة به^(٢).

يلخص وولي طريقته في إزالة السلوك المرضي إذا ما نجح في «استشارة ستجابة معارضة للقلق عند ظهور الموضوعات المثيرة للقلق، من هذه الاستجابات المعارضة تؤدي إلى توقف وكف كامل أو جزئي، ولها، يبدأ الخوف في التناقص أو الاحتفاء بعد ذلك»^(٣)

وكمثال على صحة هذا الأسلوب العلاجي العلاج بالكف بالنقيص أجريت تجربة علاجية لحالة طفل اسمه (ينر) كان يعاني من خوف مرضي هو الخوف من النار.

لقد وضع الطفل جائعاً في حافلة مسرحاء عضلي على كرسي مرتفع، وأعطى شيئاً من الطعام، وفي تلك اللحظة التي قدم فيها المعمر (لطعام) ظهر لعنر المحجف (للنار) بعرض استشارة الطفل انفعالياً

(١) المصدر السابق، ص ٤١

(٢) النموذج السوري للطفل، د. عبد الستار إبراهيم وآخرون، ص ٢١.

(٣) العلاج النفسي للطفل قرة للإسلام، د. عبد الستار إبراهيم، ص ٩٤

وعندئذ أبعاد الطفل تدريجياً حتى أصبح على مسافة بعيدة لا تهدد طعامه (أي المعزز)، ثم أعيد تقريب المثير المخيف (العَار) مرات وبصوره تدريجية نحو المائدة، والطفل يلتهم طعامه حتى اكتسب في النهاية استجابة جديدة معارضة للاستجابة الخوف، وتم إزالة القلق نهائياً حين وضع العَار على مائدة الطعام وتلمسه الطفل بثقة وهدوء وطمأنينة^(١).

وتتابعت التجارب السلوكية لمعالجة اضطرابات مماثلة بصورة تدريجية تبدأ بتدعيم المثيرات الضعيفة ثم المثيرات القوية شيئاً فشيئاً حتى يحدث انطفاء تام أو جزئي للاستجابة المرضية المطلوب التخلص منها.

وتضمنت طريقة الكفّ بالتقيص أو الكفّ المتبادل مبادئ سيكولوجية مثل:

١ - التشخيص:

وهو أول خطوة لتحديد طبيعة المرض وسويعه وتحديد أسلوب المعالجة المناسب للمشكلة لإضعاف الرابطة بين المثير وهو (العَار) مثلاً أو شيء آخر وبين استجابة الخوف والقلق، وإزالة للحساسية الانفعالية وانقيل منها، وبالتالي يؤدي ذلك إلى انطفاء تدريجي لقوة الفعل المحكس الشرطي المرضي وتكوين استجابة مضادة سوية.

ويستخدم المعالج السلوكي في مرحلة التشخيص أساليب وفسات علاجية تتم مع طيعة المشكلة كعرفة تاريخ الحالة ومعرفة استجابة المريض لأخبارات القلق وغيرها، واستجابات المريض للاستحواث الذي يقوم به المعالج.

(١) انظر المصغر السابق (بصوف)، ص ٩٢.

٢ - التحصين

وهدف عملية تخليص المريض عن طريق الاسترخاء العضلي والعكري الثام من الحساسية الانفعالية وإلغائها تماماً، وذلك بتقديم للمصاب سلسلة من المنبهات المدرجة يلاً بمثيرات ضعيفة ثم قوية حتى يألف المريض هذه المنبهات، ويبدأ في تكوين استجابته مضادة بعد أن يمكن المريض من التخلص من السلوك غير المرغوب فيه وعاد إلى حالته الطبيعية التي تنسم بالارتان والسواء.

٣ - التنظيم التدريجي:

ومعناه بلعة بسيطة (بث الطمأنينة) في نفسية المريض بطريقة تدريجية وتشجيعية دائماً لمواجهة مواقف القلق والتوتر والخوف ومساعدته على تقليل الحساسية الانفعالية أو إلغائها بهاتياً، بحيث يتم تحييد مشاعر المريض نحوها كما وجدنا في الأمثلة السابقة

وبهذه التنظيم التدريجي نرول الاستجابة المريضة، ونبدأ استجابة معارضة للقلق في التكون والبروز، فإذا كان الطفل يكره منظر حوص الساحة^(١) فإنه ليس من الحكمة أن يدفع به في الحوص ليتحكم من التغلب على خوفه وحالته الانفعالية، ولهذا يتجه المعالج إلى اتاع أسلوب التنظيم التدريجي مع تقديم معزز اجتماعي أو عصي أو ملاهي مضاد لمثير القلق كأن يعطى لطفل لعبة كهدية أو يمنح ديناراً أو يشجع لفظياً أو يعينه المعالج سحر وعطف لحظة تعرضه لمثير القلق والخوف، وهدف المعالج في ذلك تكوين استجابة سلوكية مضادة لمثير القلق وتكون مشاعره إزاءه حادية

وفي الوقت نفسه يبدأ المعالج في بث الطمأنينة تدريجياً، فيرييه مجسداً لحوص، وبعد ذلك يعرض عليه فيلماً لأطفال مثله يسبحون في حوض سباحة، ثم يريه حوص سباحة حقيقي يلعب فيه أطفال آخرون على مهربات السباحة.

يلحظ من المثال السابق اقتران العلاج بالتعزيز، واختار تكرير استجابه جديدة مصادرة بتقديم طعام للطفل الجائع (بئر) في لحظة ظهور مشير القنفذ وهو الماء، ويتكرر ظهور المشير مع الممرر بدأ لطفل في التخلص من الحساسية الانفعالية ويكتسب استجابة جديدة مصادرة ومرغوب فيها بدلاً من الاستجابة المرضية المدمومة التي أراد المعالج تحلص المريض منها.

ومما لا شك فيه أن المعزز (الطعام) في المثال المذكور شجع الطفل على تعديل سلوكه، لأن هذا المعزز يؤدي إلى إشباع حاجة الطفل من الطعام، ويشعر بالطمأنينة والأمان، لهذا بدأ الطفل تحت إلحاح هذا المعزز وتأثيره الإيجابي في مواجهة الموقف النفسي تدريجياً، ومقاومة الحساسية الانفعالية التي تسيطر على الطفل آنذاك، وتمكن الطفل في النهاية من تكوين استجابة سليمة مصادرة.

وهنول الله تعالى.

﴿أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالنَّوْظِ الْمُسْتَقِيمِ وَبِالنَّهْيِ مِنَ الْإِسْخَافِ﴾ (١)

﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَزَيْدٌ عَلِيمٌ﴾ (٢).

(١) سورة الحجر، ١٢٥.

(٢) سورة صافات، ٢٤.

وقوله سبحانه: ﴿لَدَفَعَ يَأْتِي هِيَ أَحْسَنُ النَّبِيَّةِ﴾^(١)

وقوله الحق تعالى: ﴿لَدَفَعَ يَأْتِي هِيَ أَحْسَنُ فَلَمَّا لَزِمَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ يَبْغِيهِ﴾^(٢).

وكذلك فعل الرسول عليه الصلاة والسلام مع فئة المؤلفة قلوبهم في غزوة حبيس من أجل استمالة قلوبهم بالحديث المهد بالدين الجديد، ومما يثبتهم في عهد السلطة الجديدة.

إذ أعطاهم الرسول الكريم غنائم الحرب فنعيرت نفوس بعض الأنصار رضوان الله عليهم بعض الشيء وساورتهم بعض الشكوك، فظنوا أن الرسول صار في غنى عنهم بعد أن لقي قومه، وشعروا بالحرمان والغبن، واضطر صلوات الله عليه وآله وسلم أن يخطب في أنصاره لتوضيح الأمر وكشف ملامسته^(٣)، فأعاد الأمر إلى مجراه السابق ونفهموا بواقع ما قدم به لخدمة الدين واستمالة قلوب هذه الفئة التي آمنت تحت غلبة الدين الجديد، ولم يستقر الدين في نفوسهم بعد.

وكان ﷺ يريد من عملية توزيع الغنائم تقليل الحساسية الانفعالية المعادية للإسلام من نفوس أفراد هذه الفئة، ورد شرهم بالإنعام عليهم، وبعث الطمأنينة في قلوبهم تمهيداً لدمجهم في بيئة المجتمع الجديد، وتنشجماً لاستقامتهم على أمر الدين الجديد، وذلك من خلال استخدام معررات يحاييه مصافة لحالتهم الانفعالية التي تظفر للإسلام نظرة ربة لا تحلو من كره، وتكرار استخدام أسلوب «الثواب الحسن» للمؤمنين للإسلام

(١) سورة المائدة: ٩٦

(٢) سورة مائدة: ٢٤

(٣) د. حسن إبراهيم «تاريخ الإسلام السياسي والفكري والثقافي والاجتماعي» ج ١، ص ١١٨ - ١١٩

نفس بالتأكد حماسيتهم الانفعالية من الدين وأصعابه الذي ينظر إليه كمثير
خوف، وسمو على أثر ذلك وبطريقة بتريجة حالة مضطربة من الميل إلى
الإسلام وللتعامل معه بإيجابية تخلو من الفور مـ

لهذا قال الإمام علي عليه السلام: «أزحر المنيء ثواب المحسن»

أو قوله عليه السلام: «عائب أحلك بالإحسان ولردد شره بالإبعم عليه»
عسى أن نحول إساءته أو شره إلى موقف طيب، وإن كان الملزم في داخل
نفسهم يمنع بعض الناس من الاستجابة السوية أحياناً.

الفصل الرابع

أنماط المعالجة النفسية بالأضداد وأنواعها

والآن شارك القارئ الكريم مزة أخرى - في موقع آخر من هذا البحث - ليعرف على أنماط منهج المعالجة المبنية بالأعداد، وأنواعه، وخطواته، وأثره التربوي كعلاج سلوكي واقعي وفعال في تمديد سلوك الذات المسلمة، ونقلها من دائرة غير مرغوبة عبادياً إلى دائرة الرضا والقبول وفق محدّدات النظرة العبادية ومعاييرها، وبأمل أن يجد القارئ لحلم الكريم في الصفحات القادمة رؤية أكثر وضوحاً لمعالم هذا المنهج وتفصيله الفرعية.

أنماط المعالجة بالأعداد:

يمكن تقسيم أنماط المعالجة بالأعداد السيكلوجية على أساس

١ - طريقة المعالجة.

٢ - مستوى المعالجة.

٣ - طبيعة المعالجة.

أولاً: من حيث طريقة المعالجة:

دكرنا أن النفس البشرية مؤمنة كانت أو غير مؤمنة وقد نصّب ممرض أخلاقي أو سيكلولوجي ما، أو قد تعاني من أكثر من مرض، وقد جهد

بعض علماء النفس المسلمين، خاصة المهتمين بعلم الأخلاق - في تحديد أنماط المعالجة النفسية المناسبة - لكل نوع من الحالات المرضية، وما لا شك فيه أن هؤلاء العلماء حاولوا قدر المستطاع الاعتماد على بصرى القرن ولغة السوية في هذا التحديد الذي يؤكد النظرة الواقعية المتميزة لهذا المنهج في عملية العلاج النفسي للسلوك الحاطي

وقد ترك المصنف الغربي الإسلامي الحرية كاملة للموجه المسلم المرشد النفسي في كيفية اختيار واستعمال طرائق وأساليب النمط العلاجي المناسب، وذلك وفقاً لنوع الحالة المرضية على حدة، وطبيعتها، ومستوى قوتها في النفس الإنسانية.

ومن المؤكد أن المصنف الغربي الإسلامي يولف أفضل الضمانات لسجاح جهد المعالج النفسي المسلم في إزالة آثار المرض أو إحداث تعديل مناسب في السلوك، فما دامت الحالات السيكولوجية أو السلوكية المرضية تنفذت في شدتها، فإن وظيفة المعالج النفسي المسلم هي اختيار أسلوب المعالجة المناسب، حيث يستعمل أسلوباً مناسباً للحالات الحقيقية القابلة للتعديل، ويستعمل أسلوباً آخر للحالات الأكثر تعقيداً التي تتطلب جهداً، وتعطيلاً أكثر، وزمناً أطول.

بمراجعة عامة لكتب الأخلاق والسلوك عند العلماء المسلمين، نجد مطبق أساليب للعلاج النفسي بطريقة الأصداد، يتناسب كل منها مع طعة الحانة وموعها ومستوى قوتها في سيكولوجية المريض، ومع ذلك نرى مرة أخرى بأن نجاح مطبق المعالجة كليهما يعتمد على قدرة المعالج النفسي المسلم في اختيار الأسلوب المناسب للملائم للحالة المرضية، فإذا استطاع المعالج النفسي المسلم تعيينه بدقة أعان مريضه على تحقيق قدر

ساس من الشفاء والصحة النفسية، أما إذا أحقق في هذا الاحتمار، فمن المحتمل أن يكون هذا الإحفاق في التعنى عائقاً بين معادل المريض مع معج معالجه، وعدم استجابته لأساليب تعديل سلوكه، لهذا قد تكون مهمه المعالج النفسي في هذا الأمر من أصعب المهمات وأشدها، ونعتقد بأن خيرة المتوخى للمروي المسلم تساعد المريض على تجنب الوقوع في هذا الخطأ

وقد تمكن الدعاء وعلماء الأخلاق المسلمين الذين حملوا أمانة الدعوة إلى الله ومسؤولية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من تغيير نفوس عدد من المحتاجين لتعديل سلوكهم باستعمال طريقة الأصناد سواء بمعالجة كلية أو بمعالجة جزئية، ويكاد يكون من الاستحالة بمكان أن يمثل المعالج نفسي المسلم في معرفة هذين المنطقتين، وبخاصة إذا كانت تحريره خفية، وغنية في تعاملها مع النفوس المحتاجة للرعاية والتوجيه والإرشاد، وإذا كان هذا المعالج على دراية كافية بمبادئ علم النفس الإسلامي، وأصول النظرية الاجتماعية والتربوية في الإسلام.

ويحدّد معج للمعالج النفسي الإسلامي أسلوبين أساسيين هما:

١- المعالجة الكلية، الشاملة لمجموعة من الأمراض أو لمجموعة من العادات السلوكية المعصية أو المحافظة، وقد استعمله الرسول الكريم مع عدد كبير من أفراد المجتمع العربي الذي كان يعاني فيه الفرد من حمّة أمراض كالنقص والإيمان والانحرافات الجنسية والشرك، والعدوانية، والبؤاد والنهب والتكبر وغيرها، ولا يسمع أن الرسول ﷺ قد جمع في آن معاً بين التعرّ الحادّي لشخصية الفرد بعد أن أحدث تعليلاً حاسماً في الانحادات الفكرية والنفسية للفرد وبين أسلوب المعالجة الجبرية بتركه لكل

فرد إمكانية تعديل سلوكه على حدة تحت إرشاد وملاحظة شخص آخر
- المعالجة الجبرئية، الخاصة بكل مرض سيكولوجي أو أخلاقي أو
فكري على حدة كالتعاقب مثلاً أو العدواتية أو الشعور بالفوقية أو الحروف من
الأعداء إذا كان الفرد مريضاً بأحد هذه الأنماط العصائية

أ - المعالجة الكلية:

ويصلح هذا النمط العلاجي للشخص الذي يعاني أكثر من مرض
نفسى، فعندما تعهد النفس بتركة ثقيلة من النقص والافات، وتعاني من
ضعف حتمية أو مجموعة أمراض سيكولوجية يكون حلها الداخلي يتطلب
علاجاً جذرياً يتميز بالبناء النفسي والعقلي كله، ويسب من الأساس مقومات
الموروثة، ولا يمكن أن يتم هذا التعبير بدون اعتماد أسلوب المعالجة
الكبيرة، الشاملة، التي لا تتعامل مع مرض معين دون غيره، بل يبدل
المعالج النفسي المسلم قصارى جهده لتغيير كامل للحياة الشعورية والعقلية
التي تربط الذات بكل ما هو غير سوى.

فالتغيير النفسي الجذري للذات التي اكتوت بأوهام الحياة المنحرفة
ومتابها نفسية، يكون في نظر المعالج النفسي المسلم أبسر عنه بكثير من
جراه تزيينات أو ترميمات أو تعديلات هنا وهناك لا تميز من سدوك الذات
كثيراً، راسب في ذلك أن التعلم الجديد يحتلظ بالموروثات السابقة سواء
كانت مشاعر أو أنماط من التفكير أو عادات سلوكية خاطئة.

ولا ريب بأن هذه الموروثات الملعومة تشكل عائماً يجمع النفس من
تلقي الجديد بصفاء، وبالتالي تحجب هذه الرواسب حصول الفرد على
(المعارف الإلهية).

يقول عالم الأخلاق الشيخ النراقي رحمه الله:

«الأحلاق المدمومة هي الحجب المانعة عن المعارف الإلهية والمعاني المقدسية، إذ هي بمنزلة العطاء للنفس، فما لم يرتفع عنها، لم تنفع بها جليلة الحال، انضاجاً، كف والقلوب كالأواني، قد كست مملوءة بالماء لا يدخلها الهواء، فالقلوب المشغولة بعبر الله لا بد حلها معرفة الله وحبه وأنسه»^(١).

ومن هنا فإن المعالج النفسي المسلم يبدأ - أولاً - بتحلية النفس من أمراضها ما أمكنه تمهيداً لخطوة أخرى تستكمل جهده في إعادة التربية والبناء، هي خطوة تحلية النفس بالمصاقل والقيم والاتجاهات السوية، لأن المواظبة على الطاعات الظاهرة على حدّ تعبير بعض علماء الأخلاق لا تجدي نفعاً ما لم تظهر النفس من صفاتها المدمومة التي تسكن في داخلها، كالكبر، والحسد، والطمع، وطلب الرئاسة والتسلط، وطالما بقيت النفس تحت قبضة الرواسب من عادات خاطئة وأفكار مريضة

يقول الشيخ النراقي رحمه الله:

«المواظبة على الطاعات الظاهرة لا تنفع ما لم تظهر النفس من الصفات المدمومة كالكبر والحسد والرياء، وطلب الرئاسة والعلو، وإرادة السوء بالقرآن والشركاء، وطلب الشهرة في البلاد، وفي العباد، وأي فائدة في تزيين انظواهر مع إهمال البواطن»^(٢).

بل إن تعمير الذات بطريقة المعالجة الكلية الشاملة يلائم طبيعتها، وبماست طاعتنا وتركيتنا الآدمية لأن النفس الإنسانية فيها لا تستعد ولاستبدال الكامل من حياة إلى حياة، وذلك قد يكون أسير عليها من

(١) الترمذي: جامع الصحاح، ج ١، ص ٤٣

(٢) المصدر السابق، ص ٤٣

التعديلات الجبرئية في أحيان كثيرة . - والانتقال الكامل من نظام حياة إلى نظام آخر أعلى منه وأكمل وأنظف، انتقال له ما يورده في منطق النفس، ونكس ما الذي يسر الانتقال من نظام الجاهلية - على حد تعبير أحد المعكرين - إلى نظام الإسلام، إذا كان النظام الإسلامي لا يرد الدات لبشره إلا تعبيراً طعيفاً هنا، وتعديلاً طعيفاً هناك؟

إن البقاء على النظام المألوف أقرب إلى المنطق، لأنه على الأقل نظام قائم، قابل للإصلاح، والتعديل فلا ضرورة لطرحه، والانتقال إلى نظام غير قائم ولا منطقي، ما دام أنه شيء به في معظم حصائمه^(١).

حقاً إن التعديل الجبري الذي يقوم به منهج المعالجة الكلية - الشاملة - للذات في تعديل أفكارها وعاداتها وسلوكها قد يكون مجهوداً وصعباً ومملاً في بادئ الأمر، لكنه أجدي لها من أي تعديل خفيف أو تزيين لا يبلغ بالذات بر الأمان، فهذا الأسلوب - أسلوب المعالجة الكلية الشاملة - يريح الذات الإنسانية في نهاية المطاف من مشكلات الصراع والتنافس واختلاط المفاهيم، وعدم وضوح الرؤية وغيرها من مشكلات السلوك.

ولكن مع ذلك لا يكفي في إطار هذا النوع من المعالجة أن نجح الداس البشرية في حل مشكلة ما لتحرر نفسها من ضغوط كافة المشكلات الأخرى، وذلك بسبب تداخلها، وامتزاج تصوراتها، وهذا يقتضي أن يكون لتعبير جذرياً والمعالجة شاملة ليشم تعبك شبكة الأمراض التي نجش على قلب الإنسان وتهيئه لعملية تحريره ذاته من عائلة هذه الأمراض

(١) سي طيب، معظم الطريق، ص ١٥٦ - ١٥٧

ودور المعالج النفسي المسلم حين يواجه ذاتاً - غير مسلمة أو حديثة العهد بالإسلام - أن يبدأ بتعديل صرح للاتجاهات الأساسية للفرد، وسوف تكون العلاقة الأولى لتصحيح وضع الذات بطريقة جذرية سداً من نقطة العنقود، إذ يذل المعالج جهده لإحداث تغيير عقائدي شامل حول الذات الإلهية، وسماتها، وعلاقتها، وما يتصل بمسألة التوحيد من مسائل اعتقادية أصولية وفرعية كالمعاد، والجنة وغيرهما، ثم يتوجه فيما بعد نحو تغيير الأفكار الأخرى في كافة الجوانب الحياتية على مهل وأناة، ودون استعجال، حتى تستقر الذات المسلمة على أرضية جديدة تنعياً فيها ظلال المبودية لله، وتسقط من داخلها رجس الشيطان.

ويلتزم المعالج النفسي المسلم الخطوات ذاتها مع النفس المصحفة، فلا بد من التأكد من صحة الآراء والمفاهيم العقائدية عند الفرد، ثم يتبع جهده في علاج المشاعر الوجدانية، وعادات السلوك الخاطئة عن طريق وضعه في أنشطة عبادية مصادرة للسلوك المرضي

وينبغي الانتباه هنا إلى أن التعبير المعنوي متصل بتعبير الأساس النظري، فما أن يعرف (الفرد) موقف المشرع النبوي الإسلامي من سلوك (الشكير) حتى يبدأ في التدرب على ممارسة سلوك (التواضع) عملياً مع الآخرين، وما أن يدرك موقف الإسلام من سوريات (العصب) حتى يبدأ في (التحكم) عملياً في هذا الانفعال والسيطرة على نفسه، أي تتحول التوجيهات الأخلاقية، معادية إلى مواقف سلوك قائمة

وبين من المعقول - وفق هذه الطريقة - أن يتدخل المعالج النفسي في معبر كل مشكلة سلوكية، أو ملوثة كل مرض نفسي، لأن ذلك يلعب أولاً، اعتماد المريض على قواه الذاتية في تخليص نفسه من عيوبها، ولأن ذلك

أصبأ بأحد وقت المعالج، فلا يتعرض لأحد غيره. ومن هنا يحدّد المعالج المسلم فقط خطوات العلاج، ويرشده مباشرة إلى برنامج التعرير، ثم يتركه يعتمد - معتمداً على نفسه - في علاج كلتي المعص الأمراض الأفل سوءاً التي قد نهرّ الذات.

وبعد ذلك يتدرج المريض مع عيونه حسب سلم الأولويات، ومن الضروري أن يراجع المريض معالجه ليسترشد بتوجيهاته عند مواجهة بعض الصعوبات في حلّ مشكلاته وأن يستنصحه في التغلب على هذه الصعوبات

وعلى كل حال فإن المعالجة الجذرية الشاملة، برنامج مشترك وتعاوني يبذل فيه المعالج المسلم جهداً أكبر في تحديد الخطوات الأولى للعلاج للمعربي والنفسي، وتعطى للمريض مسؤولية أكبر في علاج نفسه ذاتياً، بعد أن يحدث المعالج النفسي المسلم تعبيراً أساسياً في اتجاهات المرد الرئيسية، فيكون متهيئاً - نفسياً وعقلياً - للقيام بهذا الدور، وهذا لتغيير ضرورة تربوية في حركة العلاج النفسي من النظرة العبادية الإسلامية لأنه يطلق من أعماق الذات ومن إحساسها بالمشكلة عملاً قوله تعالى

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَتَّخِذُ مَخَافَةً خَلْقًا مُّشْرِكًا﴾^(١)

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَتَّخِذُ مَخَافَةً خَلْقًا مُّشْرِكًا﴾^(٢)

وليس هذا النوع من المعالجة صالحاً للذات المردة فحب كما قد يبدو للوهلة الأولى، فالمهج التعيرى في الإسلام حقق مواسبتها نجاحاً كسراً في تعير البناء النفسي والعقلي للمجتمع الإسلامي الأول، وما را،

(١) سورة الرعد، ١١

(٢) سورة الأعراف، ٥٣

رصيده في هذا الشأن عياً، وهو قادر على إعادة للتجربة، وفي أي وقت ومكان إدار، صدقت النوايا، وسيحقق نتائج أفضل بإخذه تعالى، طالما أن العالم كله أصبح أرحماً متصله أو كما يقال (قوله كوييه واحدة).

إن الذات المسلمة التي ارورت عن الحق - قليلاً أو كثيراً - لا يحرمها من أوصاف (الحجة المنحرفة) إلاّ منهج الله عز وجل الذي خلق انفس وعلم خصائصها ونواياها وحماياها وأساليب التعامل معها.

ب - المعالجة الخاصة لو الجزئية.

إذا كان نمط المعالجة الشاملة تركز على مجموعة من أمراض الذات، فإن النمط الآخر - الخاصة - يتيح للمعالج المسلم مداواة كل مرض عسى حدة، وعند ملاحظة التراث النفسي والأخلاقي عند المسلمين، نجد أن علماء السلوك المسلمين أبدعوا كثيراً في استئصال هذا السعد، إذ صنف هؤلاء العلماء (الأمراض الروحية) ودرسوا أسبابها وطرق علاجها بطريقة متكاملة، ففي كتب الأخلاق لعلماؤنا دراسات مستفيضة، وعية بالمعالجات الخاصة للأمراض النفسية، حيث يفرع كل واحد منهم تجربته النظرية والعملية معاً في هذا المجال

نقد صنف علماء الأخلاق المسلمين أمراض السلوك إلى أبواب، كل باب يدرس فيه الباحث أو العالم الأخلاقي مرضاً معيناً، ويحدد الرؤية الروحية والعلاجية عن هذا المرض أو ذلك، وهي رؤية ممددة من نصوص من القرآن والسنة واجتهادات وتجارب أئمة الإسلام وعلمائهم، محد مثلاً في كتب لحييت وعلم الأخلاق باباً مستقلاً ومنفرداً عن البهول، وباباً آخر قائماً بذاته عن الرياء، وثالثاً عن العجب والمفاخرة، ورابعاً عن الخوف، والرسومة، والطمع، والحمد، والنقلة.

ومكده تصنف أمراض السلوك إلى أبواب سهيلاً للدراسة، وسمح للموجه النفسي المسلم أن يبحث ويعالج كل مرض أخلاقي أو معرّبي أو وجداني، ويعلم في باب مستقل رؤية المشرع الربوي الإسلامي ووجهة نظره من كل دالة أخلاقية أو أية مشكله سلوكية.

وإذا كانت المعالجة الكلية - الشاملة - يستعملها الموجه المسلم في تغيير اتجاهات الفرد والجماعة معاً، فإن المعالجات الخاصة أو الجزئية يمكن استعمالها بشكل موسع في محيط الفرد، لأن المعالج النفسي المسلم يركز مثلاً على مرض معين - كالربا - لدى الذات المسلمة، ويستفرغ كامل خبرته في مداواة هذا المرض ومساعدة المريض على التخلص منه، فإذا كان الشخص يشعر بحاجته الشديدة لمواجهة مرض الربا، فإن المعالج المسلم لا يجد نفسه بحاجة إلى استخدام نظام المعالجة الشاملة، لأن المريض في مثل هذه الحالة لا يفش عن علاج إلا للحالة المرضية المصاب بها، وقد ذكرنا أن النفس المسلمة تمرض كغيرها بأمراض السلوك

والمسلم الذي يعاني من حالة الخوف من أعداء الله - مثلاً - أو الشعور بالخذلة إزاءهم بحاجة لمعالجة جزئية تحرره من هذا المرض، ولذلك يصب المعالج كامل جهده في الاتجاه الذي يمينه على إرادة هذه الحالة المرضية الخاصة عند مريضه شيئاً فشيئاً

رحيباً يعتقد بأن المعالجات الخاصة بمرض ما أوسع استخداماً في محيط الفرد، فلا يعني أبداً أن المعالج لا يلجأ إليه حين تعاني الجماعة المسلمة من مرض نفسي - جماعي معين كإحساس المسلمين في عصرنا بالحاصر بالقصر إزاء الغربيين نتيجة تفوقهم العلمي والتقني، ولهذا قد

يصطر المعالج إلى استعمال هذا النمط لتدريب الأمة - جماعه بعد جماعه على افتتاح مصحات الأمور، فيساعدونها على التحرر من ضغط مشاعر الخوف التي تهيمن على نفسيات أفراد الأمة، وبحاول بالتأكيد استمرار أدنى حد من يوهج في العومس كي يوظفه - كطاقة نفسية - لفك الخوف عن العومس

ومع ذلك فإن المعالج النفسي المسلم لا يعفل عن بعض الاعتبارات التي يجب مراعاتها في العلاج، فعليه كما يقول أبو حامد الغزالي النظر إلى «مرض - المريء - وفي حاله، وسنه، ومراحله، وما تحتمله بيته من الرياضة، ويبني على ذلك رياضة، فإن كان المريء مبتدئاً جاهلاً بحدود الشرع، فيعلمه أولاً الطهارة والصلاة، وظواهر العبادات، وإن كان مشغولاً بما هو حرام أو مقارفاً المعصية فيأمره أولاً بتركها، فإذا ترين ظاهره بقرائن الأحرار إلى باطنه لينظف لأخلاقه وأعراض قلبه»^(١).

وهكذا نجد استعمالات هذا النمط أوسع في دائرة الأفراد، والمعالجة لكلية أسب لمحيط الجماعات، ولا يذ في المعالين من مراعاة ما يصلح للمرضى من أنماط المعالجة عملاً بالقول الداعي إلى معالجة كل رذيلة بفضيلة من جنسها كما سيأتي بيانه في فصل الشروط.

وتنذر أهمية المعالجة - الخاصة أو الجرتية - في أنها لا تنفذ المريص من مرضه الرئيسي الذي تكتوي نفسه به، بل من أمراض أخرى متداخلة ومنصدة بمرضه الرئيسي ومتربة عنه عادة عن المرض الأساسي باعتدال أن بمرض العبي مشأ عادة عن مرض آخر، ويؤدي هو إلى بروز أمراض أخرى

(١) الغزالي، إسماء علوم الدين، ج ٢، باب رياضة النفس وتهذيب الأخلاق ومعالجة أمراض القلب، ص ٥٩، وكتاب رياضة النفس وتهذيب الأخلاق ومعالجة أمراض القلب، تحقيق محمود بيبر، ص ٣٢ - ٣٤

يقول الإمام علي عليه السلام :

«يُهَا نَاسٍ أَعْجَبَ مَا فِي الْإِنْسَانِ قَلْبُهُ، لَهُ مَوَادٌّ مِنَ الْحِكْمَةِ، وَوُضُودٌ مِنَ خَلْقِهَا، فَإِنْ سَجَّ لَهُ الْمَرْجَاءُ أَذْلَهُ الْمَطْمَعُ، وَإِنْ هَامَ بِهِ الطَّمَعُ أَدْنَاهُ الْمَحْرَمُ، وَإِنْ مَلَكَ النَّاسُ قَلْبَهُ الْأَسْفُ، وَإِنْ عَرَّضَ لَهُ الْعَصَبُ شَتَّى بِهِ الْعَبْثُ، وَإِنْ أَسَمَدَ بِالرَّضَى نَفْسِي التَّحَفُّظُ، وَإِنْ تَالَهُ الْخَوْفُ شَعْلُهُ الْحُزْنُ»^(١).

وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قوله في هذا الشأن

«أما علامة الكلالن فأربعة: يتوانى حتى يعرط، ويصرط حتى يهيج، ويضع حتى يائس، ويفجر»^(٢).

ويستهدف المعالج المسلم باستعمال هذا البسط في علاج كل رذيلة على حدة، تكوين العزيمة التي تضاد هذه الرذيلة، فكما أن (الرذيلة) تؤدي إلى ظهور ردائل أخرى، كذلك (الفضائل) تساعد على تكوين قيم وفضائل أخرى.

يقول الإمام علي عليه السلام :

«مَنْ تَفَكَّرَ اعْتَبَرَ، وَمَنْ اعْتَبَرَ اعْتَزَلَ، وَمَنْ اعْتَزَلَ سَلِمَ، وَمَنْ تَرَكَ الشَّهَوَاتِ كَانَ حُرّاً، وَمَنْ تَرَكَ الْمَسَدَ كَانَتْ الْمَحَبَّةُ عِنْدَ النَّاسِ»^(٣).

وبخلاصة الأمر، أن مهمة المعالج أو الموجه للمسلم في استعماله لهذا البسط من المعالجة أيسر، وأفضل لمن يعاني من مرض واحد أو نسبي، كما أن جهد استعماله يكون أقل، ونتائج المعالجة أفضل، لأن إمكانيات المعالج للمسلم ومهاراته تنصب دون ريب على مرض خاص، بينما تتوزع

(١) ابن شعبة الحراني، صفح المبرور، ص ٦٩

(٢) المصدر السابق، ص ٦٩ - ٦٣

(٣) صفح المبرور، ص ٧٩

هذه المهارات، وهذه الإمكانيات في النمط الآخر على عدد أكبر من الأمراض، النفسية، والذهنية في الفئات المسلمة الصالحة.

ثانياً: من حيث مستوى المعالجة:

ذكر العلامة المجلسي (قدس سره) في علاج الغضب، حيث قال

«وعلم أن علاج الغضب أمران: علمي وعملي، أما العلمي بأن يتفكر في الآيات والروايات التي وردت في دم الغضب، ومدح كظم الغيظ والعفو والعلم، ويتفكر في توفقه عزو الله عن دبه، وكف غضبه عنه، وأما العملي فذكر عليه السلام هنا أمرين^(١)

وارد العلامة المجلسي رضوان الله عليه بالأمرين العمليين ما يستفاد من الحديث المروي عن أبي جعفر عليه السلام:

«أيما رجل غضب على قوم، وهو قائم فليجلس من فوره ذلك، فإنه سيذهب عنه رمر الشيطان، وأيما رجل غضب على ذي رحم فليدن منه، وبمسه، فإن الرحم إذا مست سكنت»^(٢).

أوضح الشيخ جانيبي لمعالج أعمال (الغضب) في صورته المرضية أحدهم نظري، والآخر عملي، وملاحظة النصوص الشرعية (قرآنية ونبوية) يجد أنها تشتمل دائماً على هذين الجانبين المتلازمين في تعديل السلوك الإنساني وعلاج جميع الحالات السلبية المرضية، كالسكر، والموسوسة والكذب والاحتراف الجنسي والإحباط والتناقض وغيرها من أنماط السلوك العصابي

(١) دامل الهاسبي، كتاب الجمعية وتلقوها في الحياة الإسلامية من ١٨ خلافاً عن بحر الأرواح

(٢) المصدر السابق، ص ٦٨.

وقد أشار معظم علماء الأخلاق المسلمين في أبحاثهم إلى تكامل الجانبي ومصادمهما في فكك النفوس وتخويرها من ضغط السيئات، من به يلاحظ كذلك أن هذين الجانبين تغطيهما المصوص الإسلامية التي تربي المسلم على الصبات، كالتواضع، وحسن الخلق، وقصر الأمل، والإثارة، ويمكن أن نذكر باختصار فكرة مبسطة عن هذين الجانبين اللذين يحتلان روح المعالجة - للمسلم - بأصداها، وهما

« المستوى النظري للمعالجة

« المستوى العملي للمعالجة.

أ - المستوى النظري للمعالجة:

ويسمى ابن مسكويه (بالقوة العالمة)، وملخصه أن المصوص التربوية الإسلامية، واجتهادات أئمة الإسلام وعلمائه تدعو (المسلم) إلى ضرورة تحصيل المعرفة النظرية التي يسترشد بها الفرد في معالجة نفسه من نقائص السلوك، فالمسلم بحاجة إلى معرفة الأسس النظرية لمنهج الأصداد، وحظوظه، وشروطه، وأساليبه، وهو كذلك بحاجة لمعرفة السمات المتقابلة بالأصداد. وشروط تدريب الذات على تقبلها، لأن هدف هذه القوة ليس بدفع المعرفة في ذاتها، فالمكر في خير الحكمة (هوس)^(١) كما يقول الإمام علي عليه السلام.

إن الهدف من معرفة الأساس النظري لمنهج الإسلام في العلاج النفسي، هو الوصول إلى (مقام التوحيد، وتحليص القلب من وساوس الشيطان، وطمأنينة العزلة بنور العرفان، ولن يتحقق ذلك بدون احكامه

(١) الشريعة الإسلامية ص ٢٢٧، وكذلك ميزان الحكمة، ج ٧، باب الفكر ص ٥٤٤.

المنظرة^(١) التي تهتئ النفس لتمثل السلوك الإسلامي وهضم فوائده ومعارفه، والتوافق مع قيم ومعايير وأحكام المشرع التربوي الإسلامي في العلاقة مع الله تعالى وتصحيحها على أساس المفاهيم العبادية المستمدة من القرآن والسنة.

أما ابن مسكويه، فيقول عن تعالیه وقوة المعرفة النظرية أو (العالمية) كما يطلق عليها

(هي التي يشاق بها إلى العلوم، فهو أن يصبر في العلم بحيث يصدق نظره، وتصح بصيرته، وتنسجم رؤيته، فلا يعلق في اعتقاد، ولا يشك في حقيقة، وينتهي في العلم بأسرار الموجودات على الترتب إلى العلم الإلهي الذي هو آخر مرتبة للعلوم، وثبت به، ويسكن إليه ويطمئن فيه، وتذهب حيرته ويتجلى له المطلوب الأخير حتى يتحد به)^(٢).

وقد استمد علماء الأخلاق المسلمين أهمية - المعرفة النظرية - في تعبير سلوك المفرد من مصادر الإسلام نفسه، وهما الكتاب والسنة، نقول الآية القرآنية

﴿قُلْ خُذُوا حِذْرِي أَذْعُوا إِلَى اللَّهِ عَن صِيْرَةٍ لَّنَا وَمَنِ اتَّبَعِي﴾^(٣).

ونقول أية أخرى.

﴿مِنْ هَذِهِ الْأَرْكَانِ تَحْيَى إِلَيَّ مِنْ أَقْوَمِ﴾^(٤).

(١) جامع المساجات، ج (١) ص ٤٠.

(٢) تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، ص ٥٧ - ٥٨.

(٣) سورة يوسف، ١-٨.

(٤) سورة الإسراء، ٦٦.

أم بخصوص السنة فيروى عنه عليه السلام قوله: «من عمل على غير علم، كان ما يصعد أكثر مما يصلح»^(١).

وعن الإمام علي عليه السلام قوله: «ما من حركة إلا وأنت محتاج فيها إلى معرفة»^(٢).

ويقول الإمام أبو عبد الله جعفر بن محمد الصادق عليه السلام: «العمل على غير بصيرة، كالسائر على غير طريق، فلا تزيده سرعة السير إلا بعداً»^(٣).

وفي نص آخر يقول الإمام المياقير عليه السلام: «لا يقبل عمل إلا بمعرفة، ولا معرفة إلا بعمل، ومن عرف ذاته معرفته على العمل، ومن لم يعرف فلا عمل له»^(٤).

ب - المستوى العملي للمعالجة:

أطلق ابن مسكويه على هذا المستوى في كتابه «تهذيب الأخلاق» وتطهير الأعراق» لفظ (القوة الماملة)^(٥) ويقصد بها (التخلي عن الصفات الرذيلة، والتخلي بالأخلاق المشرعية، ثم الترفي منه إلى تطهير السر، وتخليته عما سوى الله سبحانه)^(٦).

إن العدة الماملة على حدّ تعبير ابن مسكويه فنقل المعرفة النظرية إلى سلوك فورس في واقع الذات، ومما لا شك فيه أن مكون هذا السلوك

(١) تحف العقول، ص ٣٩.

(٢) تحف العقول، ص ١١٩.

(٣) تحف العقول، ص ٢٦٦.

(٤) تحف العقول، ص ٢٦٥.

(٥) تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، ص ٥٨.

(٦) جامع السماعات، ج ١، ص ٤٠.

لصحيح يتم من خلال سلسلة تدريبات، ومواقف عملية متتابعة، فلا يكفي في نظر المشرّع التربوي الإسلامي أن تكسب الذات معارفها عن الإسلام وتصوراته في موضوعات المجتمع، والإنسان، والألوهية وقضايا الحياة كبرى، وإسما لا بد من الملاءمة بين هذه الأحكام ومتطلبات الذات، ويدون هذا التلازم بين المستويين - . النظري والعملية . - نفشل تماماً خطة المعالج

مثلاً أوصى الإمام السجاد عليه السلام بأن يكون من حق (المستصح) على لندصح أن يكلمه بما يطبق عقله وفقاً لبدأ الفروع الفردية العقلية، يقول الإمام زين العابدين في وثيقته التربوية الخالدة (رسالة الحقوق)

«وتكلمه - يخاطبها الصالح - من الكلام بما يطيقه عقله»^(١) أو يعني المستصح

ويكمل الإمام السجاد خطابه أو صيحته الإرشادية فيقول عليه السلام «إن لكل عقل طبقة من الكلام يعرفه»^(٢)

لقد أورد الإمام عليه السلام أن يحدد حقاً للمستصح على ما صرحه، وهو ما سميه الآن (المعالج)، وهذا الحق أن يخاطب الناصح مستنصحه بلغة يفهمها، ويطبقها عقله، لأن لكل عقل مستوى معيناً من الذكاء أو التفكير، ومن المؤكد أن هذه المشورة يجب أن تكون صفة أساسية للمعالج، ويتردد بصوته بها، يكون معاجه في مساعدة مستنصحه، لكن المسألة هنا ليست - فقط - وعياً أو إدراكاً صحيحاً من الناصح أو المعالج النفسي لهذه المشورة، وإنما بتطبيق العكسة بإيجابية على المستنصحين، بحيث تتحول مشورة الإمام

(١) بحسب الأصول، ص ١٩٣

(٢) المصنفون، ص ١٩٤

إلى ممارسة عملية فعالة في المعالجة على نحو تسهم في تعديل السلوك مما يتفق مع معايير النظرية العبادية الإسلامية.

وعن حق المصاح يقول الإمام السجاد عليه السلام في جزء آخر من نص الرسالة السابقة الذكر.

«وأما حق المصاح فإن يلى له جناحك، ثم تشرأب له قلبك، وتفتح له حتى يفهم عنه نصيحته، ثم تنظر فيها، فإن كان وفق فيها للصواب حدث الله على ذلك وقبلت منه، وعرفت له نصيحته، وإن لم يكن وفق لها فيها رحمت، ولم تفهمه، وعلمت أنه لم يأتك نصيحاً إلا أنه أخطأ»^(١).

والنص السابق لا يطالب فقط بفهم حقوق المصاح أو (المعالج) لفهم نظرياً، وإنما يؤكد على حفظ هذه الحقوق التي تضمنها النص (عملياً)، فالمعالجة الإسلامية للسلوك بطريقة الأصداد تؤكد على العلاقة الحميمة بين المعالج ومرصاه، ولأن نجاح هذه المعالجة ما لم يستوعب المريض مضامين هذه النص، ولم يجهد نفسه عملياً على التقيد الفعلي بحق المعالج من حسن استماع، وليس جانب، وفتح قلب، وفهم نصيحة، والتأمل فيها، والعرفان له بالجميل إن وفقه الله في المعالجة، وتجنب اتهام معالجه بالتقصير والمظي دون حق

مؤثرة الحقوق الإرشادية التي صاغها الإمام لتأكيد العلاقة الحميمة بين المصلح ومرصاه ليست مكتوبة للوعي النظري بها، وإنما هي سجل يترشد به كل منهما في تطبيق أساسيات العلاج النفسي، وهو تطبيق مردوح يعتمد به المعالج ومرصاه معاً

ثالثاً. من حيث طبيعة المعالجة:

يمكن أن نقسم المعالجة بالضد من حيث طبيعتها إلى نوعين هما:

١ - المعالجة للخاطئة:

تتعرض مهوس الكثير من الناس إلى انحراف، فيعرق فيه البعض إلى أحمص قدميه، لكن النفس المريضة التي اعتادت (المعاد) حتى «ألم»، تشعر بأهمية البحث عن أسلوب حياة آخر معاد بحلصها من وهدة الانحراف، ولا عربة أن يعمل البعض ممن حاق درعاً بظلمة المعاصي إلى استعمال مسيج الأضداد بنظرة خاطئة، فهؤلاء - الأفراد - يخطئون منذ بداية شعورهم بالحاجة لتعبير أنفسهم في الانتماع منه، وذلك بسبب عدم تعرفهم على شروط نظام المعالجة بالأضداد، وخطواته، وأسس أخلاقية، ومعتقداته، وكيفية تطبيقه على الذات، لذلك يتوقع أن لا يستطيع هؤلاء لعائدون إلى الله تنفيذ خطته الملاحية المتكاملة، بل إن استعمالهم لهذا المسيج بصورة مغلوقة بشوّه صورته في الأذهان، ويصرّ بتأثيره في الممارسة العلاجية.

إن استعماله الخاطئة ليست في صالح معرفة قيمة المنهج من جهة، وليست كذلك في صالح المريض أيضاً لأن المعالجة غير الصحيحة بهذا المسيج لا تعمل فقط في علاج مشكلات الذات وأعراضها بحسب، بل تساعد مدون وعي الفرد نفسه على بروز مشكلات سلوكية جديدة، بحسب به مريد من التوتر والقلق والتأزم النفسي، وتمنع الفئات المسلحة من استعادة نواحيها الداخلي المعقود

فالمعالجة الخاطئة بالأضداد لا تغيّر شيئاً من واقع الفساد في النفس، ولا تؤدي إلى تكوين اتجاه إيجابي لإحداث تغيير إيجابي من داخل الذات،

فكل ما فعله هو إضفاء بعض عيوب الذات خلال فترة مؤقتة من الزمن هي فترة المعالجة، بينما تبدأ في الوقت ذاته عيوب أخرى في الظهور، وبالتالي قد يخصص النوتر والقلق عند الفرد في جانب ماء، ويكون الذات تحت خطر ساعد قلق جديدة في جوانب أخرى، مما يؤدي إلى تشويه بظرسا عن المعالجة العلاجية لمسيح الأضداد ذاته، فتتهمه بالمعجر عن حل مشكلات السلوك غير التوافقي عند الإنسان، وحلق مشكلات أخرى، وعلى كل حال تدل كثير من شواهد الواقع على الآثار البشة للمعالجة خاطئة بمسيح الأضداد.

إن بعض المرضى الذين سئموا انحراف نموسهم، يشعرون بمدى حاجتهم إلى ضرورة القيام بعمل ماء، بعالج ما في قلوبهم من أمراض، ويهدف القلق المبطر على أنفسهم، فيخطر هؤلاء المرضى الفارون من عذاب القلق إلى الدخول في تجربة أخلاقية جديدة، ومضادة، لردم الفراغ الداخلي لديهم لكن مجرد الإحساس القلبي لا يكفي في واقع الأمر لنجاح أي تجربة جهادية، فلا بد من فهم متكامل لمسيح العمل العلاجي، واستيعاب شروطه، وطرئه في التعامل المباشر مع الذات.

ولا بد أيضاً للأفراد الذين عقدوا المرسمة على المعالجة بمسيح الأضداد والعمل به من فهم نموسهم والدراية بسرادبها المظلمة، معرفة النفس حرة، أساسي من مسيح المعالجة وأحد مكوناته الرئيسية، وما لم يستطيع الفرد المسلم الوعي الجيد بهذه المسألة فلن يحقق أهدافه، وسوف تصاب المعالجة بلا شك بحلل كبير، وترتك عملية تطبيق المسيح على الذات ارتباطاً شديداً، ولهذا نعتقد أيضاً أن الكثير من هؤلاء فشلوا تماماً في الاستعمال الصحيح لهذا المنهج بسبب قصور وعيهم بمسيح المعالجة وشروطه وآلياته.

وسوف مشير على عجالة لبعض المشاهدات الواقعية للمعالجات الحاطنة مسيح الأعداد، فلم تتحقق الأهلأف، بل كانت نتائج تجارب هؤلاء معكوسة، وسببة للعاية.

إن بعض مرضى القلوب يعملون إلى عمل تغييرى جزئى، رغم أن معظم جوانب البقاء النفسى والعقلى للذات يحتاج إلى سبب أسامه، فالنفس المربوة بركام كبير من الأحلاق الفاسدة لا تلجأ إلى استبدال جزئى لبعضيات خاصة إذا كان الإنسان يعيش وسط بيئة بعيدة كل البعد عن مسيح الله عز وجل، لأنه إذا تم التغيير الجزئى رادت ساداً، وزاد طريقها فساداً، إذ يخلط الخل بالمثل ويستزجاً معاً، وهذا بعد فى آن واحد مرارة الخل وحلاوة العسل.

ومن ها وجبت التحلية قبل التحلية على حد نمبير علماء الأخلاق المسممين تمهيداً لمرحلة التجلى لمة الصوفية، وهي مرحلة إبداع، وبذلك ينتقل التغيير من مرحلة التحلية إلى مرحلة التحلية ثم التجلى أو مرحلة الإبداع كما يقول رجال الشريعة الحديثة.

كما أن مسيح المعالجة النفسية الإسلامى لا يوجه جهده لتغيير طباع أصيلة في نفوسا ومركوزة بإرادة الله تعالى، ومجولة عليها فطرتا، ولا يشمل المعالجات المسلم نفسه بمعالجة نزعة أصيلة رؤد الله الإنسان بها لعائدة أو حكمه، وذلك لتتظم عليها حركة الذات البشرية في دولاب الحياء كنه، وربما يعالج فقط خباياها، وزوائلها الصارة دون تعريض أو إغراء، وهو يقين على هذه المهمة مسترشداً بوعى كامل لمنهج المعالجة النفسية بالأعداد وفلسفته العقائدية والأخلاقية والعلمية.

ولا شك أن عدداً كبيراً من المشرقيين على أنفسهم من الدنوب،

ومرضى العقوب لا يدركون بدقة هذه النظرة، فتأتي معالجتهم تنكباً للطريق وإن حلتصبت التوايا، ومن المؤكد كما قلنا أن أية أخطاء يرتكبها المعالج أو المريض لا يتحملها أبداً منهج المعالجة، وسوف يبين في مكان لاحق كافة الشروط الصحيحة لضمان نجاح المعالجة السلوكية بالأصدد، وهي شروط متكاملة لا يوفرها للبأس سوى القرآن والسنة، ويمكن للمقل الإنساني بفائه الفطري أن يكتشف بعض هذه الشروط لأن العقل - كما جاء في كلمة حالدة للإمام علي - شرع من داخل الإنسان، والشرع عقل من الخارج، وفي ضوء هذه الوحدة العضوية بين العقل والشرع يتمكن الإنسان من تعديل سلوكه بمعايير وشروط الشرع والعقل معاً.

قال تعالى ﴿وَالَّذِينَ جَهِدُوا بِنَا لَنَهَبِيَنَّهُمْ شَتَاتًا﴾^(١).

وتقول آية أخرى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَبْدُو لِلَّذِينَ هُمْ عَنْ آلِهَتِهِمْ أَتَمٌّ﴾^(٢).

ولمريد من إيضاح الحقيقة، ترك القارئ الكريم مع بعض الشواهد الواقعية الحية تدل على المهم الحاطي في استعمال نظام العلاج بالأصدد ذوي وعي كامل به.

يمكن أن يقع السوء على بعض الحالات المرضية الناشئة من سوء التوجيه والتربية، فقد يعاني طفل مثلاً صد صغره من مشاعر البس، والفهر والاضطهاد، وبشعر أن بيته العاطفية لا تحرمه فقط من الأمان النفسي، بل تكون مصدرأً عدائياً موجهاً صده.

ربط هذا الشعور ينمو تدريجياً خلال فترات النمو اللاحقة من صغره، ومن لطبي أن يكون هذا الشعور مصحوباً بمشاعر أخرى - مرضية - صار

(١) سورة المكنون، ٦٩

(٢) سورة الإسراء، ٦٦.

عنه من مرة وأخرى في حق نفسه، وهي حق الآخرين كالرغبة في الانتقام من الآخرين

ولمناخ نفسي المسلم لا يمكنه بأي حال أن يعزل هذه الانحرافات ويعطل تأثيرها في توليد شعور نفسي آخر يسكن في داخله بحسبة النفس، وهذا الشعور هو الرغبة في إيذاء الآخرين باعتبارهم مصدرًا لسلوك العدواني ولاضطهادي الموجه من دأبه نحوهم، قال الإمام علي

«إفراط في الصلابة يشب نيران اللجاج»^(١).

«كثرة التفرغ يوغر القلوب»^(٢).

إن سلوك الطفل سيكون متأرجحاً بين مرحتين مرغبتين هما الشعور بالبيد والرغبة في الانتقام فكلاهما يمثل طرفاً في خيط واحد تفصل بينهما مساحة كبيرة لا يلتقيان، وإن للطفل ميمو، ويكبر، وقد يتذكر تجربة اليد في الطفولة، فمن المحتمل أن يضاد تلك التجربة سلوك مرحي آخر وهو الانتقام

فإذا غلب - المرء المسلم - عن منهج المعالجة السيكولوجية الإسلامية القائم على التوازن، والوسطية، والمقابلة السليمة بين أبعاد لسلوك، خلت المعادلة وسقط في وسط هذا المجال مبدأ (الصفح والعفو)، وهو كعب معلم مبدأ أخلاقي إسلامي يتوسط ديفلتين هما تقبل المذلة من الآخرين، والرعة الانتقامية، وكل نزعة إذا كان كلاهما عصاب يرفضهما المشرع فإن الصفع سلوك سوي، غير أن هذا الاعتدال يعبر عنه المرء بمقدور وعيه بأهمية الصفع في مقابلة كل عدوانية، لكن المؤسف أن

(١) تحف العقول، ص ٨٤

(٢) كتاب ٢٠٠٠ كلمة، ص ٨٠

الإنسان يعمل السلوك الخاطيء بآخر من جنسه، فينى السامع، والصمغ، والإيتا.^(١)، والتعاون والعلاقات بين الأفراد المؤسسة على الخير

لقد كتب الموصايا الأخلاقية الإسلامية تربي الإنسان المسلم مريضاً ومعالجاً - على العفو والصغح الجميل مثل قوله تعالى

﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا﴾^(٢)

وقوله أيضاً ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَسْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾^(٣)

وقوله أيضاً: ﴿وَالْعَظِيمُ الْقَبِيْطُ وَالْمَافِيْنَ عَنِ النَّاسِ﴾^(٤).

والحديث الشريف «أولى الناس بالعفو أقدروهم على العفو»^(٥).

لكن علم النفس التحليلي يسوع للمرضى انحرافاتهم، ويؤسس السلوك المرضي على قاعدة عامة شاملة للناس تقول: «كل أو فأنت مأكول»^(٦)

وإن من شروط الصحة النفسية السليمة ألا يكون الإنسان طيباً، مردياً في الطبيعة حتى يكون سوياً وصحيحاً، ومعافى، وليس الخلق الرفيع دليلاً على الصحة النفسية^(٧)، لذلك يطالب بعدم كبس البد، والاضطهاد العدواني يمنع نشوء المرض النفسي، وحجة علماء النفس في ذلك أن عدم تصريف العدوان في العالم الخارجي أو في الغير بأية صورة من الصور، كن هذا

(١) انظر آيات كثيرة من القرآن الكريم كآية (٨٥) من سورة الحجر، وأيضاً آية (٩-١٠، ٢٢٧) من سورة البقرة

(٢) سورة النور، ٢٤

(٣) سورة التورى، ٤٠

(٤) سورة آل عمران، ١٣٤

(٥) معج البلاغة ج ١، ص ١٤

(٦) مع علم نفس إسلامي، ص ١٤١ خلا عن مصادر أخرى.

(٧) المصدر السابق، ص ١٤١

العدوان برد على صاحبه، ويكون سباً لكرامية الفات أو في صورة ملاده وحصول واستسلام أو يقضي بصاحبه إلى الانتحار أو التورط في مرض نفسي أو جسمي^(١).

ولكن لو ترك (الملتقم) أن يفرغ عدوانيته، ورغبه في الاندماج، فإنه لا بد أن يأم ظلمه وسلوكه الانتقامي، وسوف يبحث عن حجة بنفسه فقدمها، وطبيعته طيبة مألومة أحبتها المشاعر المتأججة، والإنسان إذا عرض الغضب، اشتد به الغيظ^(٢).

إنه دون شك يبحث عن العدالة بلهجة، لكنه لا يجد نفسه إلا وقد انتقل من أحد طرفي المعادلة إلى الطرف الآخر، من حالة (المظلومية) إلى حالة (الظلم) للآخرين، ومن حالة (الانتقام) إلى (الرضا) بتقبل الحرمان تحت عمارين كثيرة، ولو استوعب الإنسان نظام التناسب بين الأعداد بما عالج نبذه بالانتقام، وظلمه بإيذاء الآخرين

ونذكر أيضاً مثلاً آخر لهذا النوع من المعالجة الخاطئة.

يقول علماء النفس إن النفس يمكن لسبب ما أن ننسجم - بطريقة مرضية - للإحساس بالقصص، وقبول مشاعر الحطة أمام الآخرين، ولا شك أن هذا الإحساس يبدأ في الضغط على النفس، ويرفع سر لحظة وأخرى ترمومتر الفلنك، ويريد من معدل التوتر والتأزم النفسي لدى الإنسان كلما رصمت الدلائل في مواقف الصعلة والحطة.

وحينئذ يبدأ - الكائن الآدمي الموهوب بمشاعر الحضارة - في انحناس عن حالة مصيبة ترفع عنه ثقل هذا الإحساس، ولكونه تجهل أحياناً لوسطية

(١) المصدر ذاته - ص ١٤٦

(٢) تحت المبرق، ص ٦٩

السليمه بين أصداد السلوك المتقابلة، فإنه من المحتمل أن يصطر إلى نصحيح مرضي (لذاته) من أجل اخفاء مشاعر القصد لديه، وتعطية إحساسه بالصحة أو على الأقل خفض معدله في النفس، لأنه كما قال الإمام علي «المرء آفة»^(١)، فحيل الفرد للتكبر تحت دفع إحساس المرء بالنقص، والتكبر لدى علماء النفس الأرضي يعد تعبيراً عن الإحساس بالنقص، والمشرع الشريفي الإسلامي يشير بوضوح إلى المعرض المرضي المذكور، حينما يقول الإمام الصادق عليه السلام:

«ما من رجل تكبر أو تجر إلا لدلة يجدها في نفسه»^(٢).

ويقول في نص آخر مشابه: «ما وجدت رجلاً يتبه إلا لدلة يجدها في نفسه».

والإمام الصادق عليه السلام يوضح لنا الجذر المرضي الواضح لظاهرة التكبر، مبيناً أن (التكبر) لدى بعض الأفراد ناجم من مرارة إحساسهم بالدل، والصحة، والدونية. ومثل هذا (التساؤل) للظاهرة المذكورة، لا يخص مراً من آدميين دون آخر، بل يمكن أن يصدر عنها (مسلم) بنفسه الرعي، أو كافر لا علاقة له بمبادئ الإسلام.

إذا أحاط المرء نفسه (بالتكبر) فإنه في الواقع يعبر عما هي داخله من مذنب، وشعور بالحطة، والتكبر ليس عزاً أو شعوراً حقيقياً بقيمة الذات، بل هو إحساس عصابي سيطر على النفس الحائرة، وبمعاناة دقيقة يجد أن استبدال (النقص) (بالتكبر) ليس علاجاً صحيحاً، لأن الانحراف بقي في

(١) نهج البلاغة ج ٤، ص ٢، وكذلك كتب تصنيف نهج البلاغة ص ٢٩٧، ولهاذا جميع المصادر ج ١ ص ٢٨٤.

(٢) د. محمد البجلي، دراسات في علم النفس الإسلامي، ج ٢ ص ١٥٠.

النفس، وإن عبرت - مؤقتاً - صورة التعبير عنه، فالإحساس (بأنقص) في
في داخل النفس، وإن حاول (المتكبر) إخفاءه (بالتكبر) فكلاهما عصب دم
يعبر من هضاد النفس، ولم تكن للمعالجة قد بلغت (بالنفس) إلى النواصع
والعزة، والتقدير الصحيح للذات

و هو مستعرا بمعاني التحليل النفسي ولغة أصحابه، أمكننا أن نقرر -
بساطة - أن التكبر في ضوء مقولة الإمام الصادق عليه السلام المتقدمة، بعد حيلة
دفاعية قد احتسب المريض بها، بيئة التخفيف عن خبراته اللاشعورية، ومن
المتصور أيضاً، أن يعد المظهر المذكور سلوكاً مصطنعاً تعتمد الشخصية من
خلال الوعي بواقعها الملئ ^(١)

وما قلنا من التنبذ والانتقام كطرفين متقابلين في خط واحد متصل،
يمكن أن نقوله كذلك عن سلوك الفسحة والتكبر، فكلاهما يمثل طرفاً مرضياً
شديداً في محيط واحد، أما النواصع وحرمة النفس فكلاهما هو الغاية لأنها
كليهما سمة مطلوبة، لكن سوء فهم الأعداد، أي سوء فهم السمات
المتضادة، تدفع النفس في حركتها من طرف خاطئ إلى طرف خاطئ آخر
يناقضه تماماً دون الرفوف عند الوسطية، أو عند السمات العبادية التي تحقق
التعادل في داخل النفس بين قواها المتقابلة.

والتيخل كذلك مرض نفسي وأخلاقي يحرم الفرد من نعمة ما يمتلكه
ورشوه ضعاء العلاقات بين الأفراد، امتداد من المؤسسة الأولى - بيت -
و انتهاء بالمؤسسات الأخرى المرتبطة معه بمصالح معينة. رتبة أفراد
يحبسون بالبحل كعبه أخلاقي وكمريض نفسي يؤرق حياته الشخصية
والاجتماعية، ويرغبون بعد صحة وجفائية ناجمة عن صلابة في المحلص

به، عبر أنه ملاحظ أن المرد الذي ليس له ذواية ومعرفة ممهح، الأصدقاء الإسلاميين يدفع بحماس لمعالجته شحه، وسجله، جمع في عب آخر بلده، المشزع الإسلامي. إنه عب (التبذير والإسراف) وسوء استخدامه خاصة إذا حصل على المال دون تعب.

ومما لا شك فيه أن التبذير كحالة سيكولوجية عصابية يعتبر عند المحلل النفسي الرسمي تعريضاً لحالة الحرمان المعروف على النفس حيث كان صاحبها بخيلاً، وحين طلب الإمام علي من ابنه الإمام الحسن السبط أن يحدد مفهوم الشح قال: «أن يرى ما في يديك شراً وما أنفقته لنفسك»^(١). أي صانع حتى لو استخدم هذا المال في سبيل الله بهذه البهة المرضية، وبعبارة أخرى يتصور البخل دائماً صباع ما ينفقه حتى لو كان عطوؤه قليلاً.

وهذا خلاف ما يصعله الإنسان السحي الذي يتفق ما تحت يده بإحساس المحتاج إلى ربه، التغير إلى عطائه عز وجل، ويرى أن ما ينفقه في بدء ضائع ما لم ينفقه في سبيل الله ولخدمة الجماعة المؤمنة، أو لمساندة حق الله وعباده بدون قيود لأنه يرى أن المال صفقة رابحة مع الله.

فالمعالجة الحافظة لداء (البخل) قد ينتهي مانحراف آخر عندما يتحول البخل إلى تنذير، وكلاهما رديفة، . . أي السجل مرض والتبذير مرض أيضاً. . . ولو استوعب (المرضى) فكرة التماس بين الأعداء^(٢) لاستفرت به تجربته العلاجية عدد صفة (الكرم) كسمة سوية في الذات الإنسانية، ولترد السجل والتبذير معاً، فسمه الكرم كما يرى علماء الأخلاق فصيلة جنة توسط بين رديتين هما البخل والإسراف أو التبذير.

(١) ابن شعبة الحراني، صحاح القول، ص ١٦٢.

(٢) انظر السوط الشح من شروط المعالجة بالأعداء في الفصل السادس.

وهناك شاهد آخر على سوء المعالجة بالأضداد، فالإنسان الذي حرم القيود ولحريمات الاجتماعية من إشباع معقول لحاجته إلى الجنس لا يستطيع مقاومة جوعه الجنسي بالتمرد على صوابه العفة وتحطيم قيودها ما دامت معرفته بالأضداد - قاهرة، وغير إسلامية، فهو يسعى إلى حل يصرفه من صغور الحرمان الجنسي وآثاره النفسية والاجتماعية، لكنه يتعبه بمتاعب مرض آخر عندما يطلق لها العنان ويتركها مغلفة بلا صراط توجيه أو سيطرة، فالضغوط والتحريمات الثقافية والاجتماعية حالت بينه وبين الحصول على المتعة الحلال، وكأن شهوة الجنس خلقها الله عز وجل في طبيعة الإنسان ترفاً ووجوداً ولتدأ لا معنى له، وإطلاق هذه الشهوة على عاصها تعدد النفس، وتبدد للعقل، وتخدع الروح، وتضيف إلى شخصية الإنسان مشكلات أخرى.

وهكذا تضعيف العفة حين تطلق النفس من حالة (الجوع) لجنسي إلى حالة (الإشباع الجنسي) عبر المفيد، والاستمتاع المحرم، فكلاهما عصاب يلفت علماء العلاج النفسي وسلوك محرم يرفضه المعالج النفسي المسلم. وإذا كانت حركة النفس تتأرجح بين المتناقضات السلوكية والوجدانية بسبب غياب المهيج الحق الذي تشرده في التمييز بين الفضائل والردائل، فإنه قد لا يتعب من الانحراف إلا ظاهراً، فكل ما عمله النفس أن تنوهم بالخلاص من عيب، ولا تفري أنها هوت في عيب آخر، وهذا ما جعل العلامة الشيخ الراقبي رحمه الله تعالى يسمي هذا النوع من المعالجات (بالمداواة بالسم)^(١).

ويحسن - للمقارئ الكريم - أن يقرأ الفصل التالي لمعرفة أثر هذه المعالجة على بقاء الذات على عيوبها، وإضافة عيوب أخرى.

دور الإمام علي عليه السلام .

«أيها الناس . أعجب ما في الإنسان قلبه ، له مواد من الحكمة ، وأصداد من خلافها ، فإن مسح ظهره - له الرحاء أذله الطمع ، وإن هاج به الطمع أهلكه الجرم ، وإن ملكه اليأس قلبه الأسع ، وإن عرص له العصب شتد به العيظ ، وإن أسعد بالرضى نسي التحفظ (التحور) ، وإن ناله الخوف شعلته الحزن ، وإن اتسع بالأمن استلبته العزة (العفة) والبعد عن الرشد ، وإن أصابت مصيبة فضحه الجزع ، وإن أجهده الجرع قعد به الصعف ، وإن أفرط في الشبع كظته البطة - اعراه الامتلاء المعرط - فكل تقصير به مضر ، وكل إفراط له مفسد»^(١).

ب - المعالجة السليمة:

وهي الطريقة الصحيحة لتعديل سلوك الذات على ضوء منهج العلاج بالأصداد الإسلامي ، وسيكون هذا النوع من المعالجة موضوع بحثنا الذي يسط القول فيه ، وقد سبق لنا إيضاح معنى هذه الطريقة ، وأوضحنا كذلك - في الفصل الثاني - أهم المبررات التي تدعوها للاهتمام بها ، وسوف نتابع بيد الله بحثنا باستفاضة لتكون معرفتنا بها وشروطها ، وحطوطها الرئيسية الأخرى أكثر رسوخاً في عقولنا ، وحيث نكون أكثر استعداداً لتطبيق مبادئها على ذاتنا

رابعاً: خطوات العلاج بالأصداد:

يمر العلاج النفسي الإسلامي - وفق طريقة الأصداد - بحطرات متصلة ، متتابعة تبدأ

(١) صف الصفوة ، ص ٦٩

أ - خطوة الإحساس بأهمية الملاج

ونشأ هذه الخطوة مرحلة الشعور بالمشكلة التي تعسر زلنى مراحل التفكير الإنسانى وخطواته المنظمة، وتعنى به إثارة ذهن الفرد لنمى إلى ضرورة معالجة بعض من مشكلات سلوكه محددة أو أمراض نمى يعاني منها، ونهيتها لقبول العادات الإسلامية والحسنة.

وقد أوصىنا في إشارة عاجلة - من قبل - إلى أهمية هذه المسألة في سير المعالجة، وتتضمن هذه الخطوات المهمة حماساً في الإرادة والعزيمة للبدء بتخية النفس من مضمومات السلوك وقبائحه، ونهية الجهاز العصبي عبد العود المسلم لعملية استقبال، وتلقي الأفكار، والعادات اسجدة المضادة.

وعندما قال الإمام علي عليه السلام: «غَيِّرُوا الْعَادَاتِ تَهْلُ عَلَيْكُمْ سَاعَاتِ»^(١) كان يقصد أولاً إحداث التغيير القلبي، وحاجة الفرد المسلم إلى تغيير داخلي ينبع تغيير في عادات السلوك، فهو المقدمة التي يؤسس عليها النص القرآني حركة التغيير في المجتمعات البشرية بأسرها، وما يطبق على المجتمع يطبق بدرجة أولى على الذات الفردية

وهذا في الواقع استجابة للمفانون الإلهي الذي ينظم حركة تغيير الإنسانى، وقد دعنا إلى الآية القرآنية الكريمة: ﴿لَيْسَ اللَّهُ بِمُتَّبِعٍ مَا يَفْعَلُونَ حَقَّ تَعَبُوداً مَا يَفْعَلُونَ﴾.

إن إحياء القلب ونشيط (قالبه النفس) لقبول أصداد السمات المتعددة بالأمراض عمل مرهق بكل تأكيد، لكنه (خطوة) تهيئ الذات لخطوات أخرى

(١) مبرك الحكمة، ج ١٧، ص ١٢٢.

نستكمل المعالجة، وبدون هذه الخطوة تنتشر المحاولة، وقد تنهي مد
البداية (ولا تستعد النفس للفيوضات القدسية)^(١) على حدّ نعر العلامة
الشيخ اليراقبي رحمه الله

فانتشيط هو إعادة قدرة الذات المعطلة على العمل من جديد
و، استعدادها لمسير وديلة منبوهة مفضيلة مرغوبة. . . أي استبدال سموك غير
سوي بسموك سوي، ولن يتم هذا بالتأكيد بدون فاعة عقلية وحركة إيجابية
تتعلق من داخل الذات بدفعها نحو الأهداف المحددة أو المرغوبة، فالمرء -
كما جاء في رواية شريفة عن الإمام الجواد - يحتاج إلى أمور ثلاثة مترابطة
هي

- توفيق من الله.

- وواعظ من نفسه

- وقبول من نصحه

ب - تشخيص المرض وتحديد الدواء

يحاول الفرد المسلم - إن كان يعتمد طريقة العلاج الذاتي أو ملازمة
مرشد أو معالج نفسي - بعد أن يهيئ نفسه للملاح ويرميها في الإقمان عليه،
أن يحدد الداء ويشخص المرض السلوكي، ثم يعيّن أسلوب المعالجة
المستحب، وفي هذه الخطوة تظهر مهارة المعالج وعلمه بالنفس والسميح
مماً، لأر تشخيص المرض وتحليله يتطلب علماً بالغوس ودراسة مطاعها،
فلا يمكن للمعالج أن يساعد مرضاه على تحقيق الشفاء النفسي، ما لم يكن
قادراً على تشخيص أعراض المرض ومسبباته، وسبل التغلب عليه، وذلك

(١) شمع السعادت، ج ١، ص ١٢.

من خلال مصور إسلامي أصيل بعيد عن النظرات الفاصرة والمعبية وإن كان من الإسلام أيضاً الاستفادة من الآراء العلاجية الأخرى.

لهذا لا صير عليه أيضاً - في هذا المقام - أن يستعين بأراء معالجين نفسيين من المدارس والاتجاهات العلاجية الحديثة، فالحكمة تحارب سراكمة، وهي ضالة المؤمن في ميدان العلاج النفسي وفي كل مبادئ الحياة الأخرى، وهي علم مستأنف أو مستعاد كما قال الإمام علي عليه السلام.

ولا نقصد من ذلك أن يجمد عقل المعالج النفسي المسلم عن الاستفادة من بعض الأفكار العلاجية التي تضمنتها المناهج الوضعية الأخرى، ولكن نؤكد مرة أخرى أنه حتى لو اتفق الإسلام مع هذه المناهج في بعض النقاط العلاجية، فإن الإسلام يتميز بروح أخلاقية توازن بين انفس والجسد، كما يتميز كذلك بتفسيراته الخاصة، فلو تطلب علاج «مخرج الخبوات اللاشعورية» تحرر المعالج والمريض عن بعض المحاذير الشرعية كالعبية، وشتم الآخرين أثناء عملية التعرّيج الانفعالي والاعتراف، التي يقوم بها المريض.

نقد أشار الإمام علي عليه السلام إلى حقيقة سيكولوجية وهي احتواء الفرد في داخله للحركات اللاشعورية المكونة أو هي عالم العقل الباطن على حد تعبير عالم النفس المساوي سيجمند فرويد فقال الإمام عليه السلام في نهج

«ما أضر أحد شيئا إلا ظهر في فلتات لسانه وصفحات وجهه»^(١)

ونوره عليه السلام أيضاً «عد تصحيح الصائر يدو غل السريرة»^(٢)

«وقول الإمام الحسن عليه السلام -

(١) نهج البلاغة، ج ٤، ص ٤٠.

(٢) عرو الحكم وعرو الكلام، ج ١، ص ٢١.

«الاعادات فاهرات، فمن اعتاد شيئاً في سره وحلواته فضحه في علانيته أمام الملا»^(١) أي في العلانية بين الناس.

ومع ذلك فإن الإمام عليه السلام استغفر لمن يقع في سقطات الألفاظ وهفوات اللسان وشهوات الجان فقال في نص آخر يدل على أن المنزع الترموي الإسلامي يستهدف تعديل سلوك الإنسان باستمرار والارتقاء بمستواه روحياً وعقلياً ووجدانياً، ويدل على الحب الذي يطالب أن يحلعه العربي المسلم على الآخرين بحرارة وقوة وصفاء وأريحية

وفي الأدعية الإسلامية إشارة واضحة إلى مواجهة ما استتر داخلنا واستقر في صماتنا، ولهذا نطلب هذه الأدعية المعفرا وستر فاضحات لسرائر، يقول أحد الأدعية

«اللهم اغفر ومرت اللعاط، وسقطات الألفاظ، وشهوات الجنان، ومفات اللسان»^(٢).

ويقول الإمام زين العابدين في المناجاة الأولى «وأن تستر علي فاضحات السرائر»^(٣).

وهي نص آخر «تستر الناس من لا يحضو عن الهفوة، ولا يستر العورة»^(٤)

وهي نص آخر مسائل: «تستر الناس من لا يقبل العذر، ولا يقبل الدنس»^(٥)

(١) مهرا الحكمة، باب العادة ج ٧، ص ١٢٦.

(٢) الشيخ سم البحري، شرح الملة كلمة من كلمات أمير المؤمنين، ص ٢١٢ - ٢١١، وكذلك شرح عبد الرهاب للملة كلمة تها، ص ٦٥.

(٣) الصفحة الشجافية، المثابة الأولى، ص ٢٨٥.

(٤) غرر الحكم ودرر الكلم، ج ١، ص ٤٠٥.

(٥) غرر الحكم ودرر الكلم، ج ١، ص ٢٠٢.

إن النهج العلاجي الإسلامي يقدم في كل مراحله للمعالج أو المريض مفسراً مرناً للأمراض العصبية، ويحلل بواقعية ودواعي المرض، ويعطي سعة المعالجة المناسبة لكل حالة عصبية على حدة، كما يحدد المواقف العملية التي تجعلنا نسطر على أنفسنا، ونسمح للمعالج بالاستفادة من النهج العلاجية لتفسير العصاب وعلاجه

ج - تنفيذ برنامج المعالجة:

بعد أن نقبل النفس الإنسانية على المعالجة، ونتم تحديد الداء بسخر للمعالج النفسي المسلم كافة قواه، وخبراته الفنية والعلمية لمداواة المريض، ونسظم ذلك في برنامج مناسب سواء كان قصيراً أو طويلاً، حسب نوع وشدة المرض وطبيعته.

وفي هذه المرحلة يتقبل الاثنان - المعالج والمريض معاً - إلى عملية التطبيق النهجي للإسلام، أو الملاءمة بين متطلبات الذات الإنسانية وبين متطلبات الفكر العلاجي الإسلامي بطريقة متدرجة إن تطلب الأمر ذلك ولكن هذه الملاءمة تحتاج إلى وضع المريض في مواقف عملية مناسبة لداء الذي يشكو منه، فإذا كان الفرد المسلم يعاني من خوف غير طبيعي من الغرباء، فإن المعالج النفسي المسلم يضعه تدريجياً في مواقف مضادة لهذا الإحساس، بحيث تساعد على مواجهة أشخاص غرباء عنه، ويتعلم شيئاً فشيئاً عادات التعامل الطبيعي مع أفراد لم يألفهم، معرضاً تعظيم شعور الحوف لديه، حتى تستقيم داته على الثبات والصمود، ونمو لديه - وهذا هدف علاجي مطلوب - روح المواجهة والشجاعة.

يقول الإمام علي عليه السلام:

«إد هب أمراً تقع فيه، فإن شدة توقه أعظم من الوقوع به»

«إن لم تكن حليماً فتحلّم».

وإذا كان المريض يشكو من حالات السوء، والشعور بالاضطهاد وعدم الانتماء، أو سوء التقدير الشخصي لذاته، فإن المعالج النفسي المسلم يدمج في وسط جماعات إيمانية ذات سلوك سوي، يتدرب خلالها على تعيل عادات أخرى مضادة للعزلة والبذ، وتحرر من جهة أخرى الشعور بالانتماء، والإحساس بالثقة، وتحمي لديه بعض أنماط السلوك العبادي الجماعي كآداء صلاة الجماعة، والجمعة، والأعياد مثلاً، أو دمج الجماعة كشعبة مؤمنة تؤمن له الأمن وتساعد على تعيل شعوره بعدم الانتماء إلى الجماعة بإحساس جديد يشعر فيه بالثقة والحضورية الفاعلة في حركة المجتمع

وهكذا يختار المعالج النفسي المسلم مواقف عملية لتدريب مريضه على سلوك إيجابي مضاد وغير مألوف، وبالطبع يحاول - هنا - تركيز جهده من أجل تغيير الاتجاهات الحاطنة عند المريض، فمثلاً لو ظن مريضه بضعف التقدير الاجتماعي لذاته، فإن وظيفة المعالج النفسي المسلم إقناع مريضه بأن الله عز وجل - لا المجتمع - هو مصدر التقدير والإنابة والتدعيم، ميسمهي لديه الشعور بالإحباط - أو تحف حدة على الأقل - عند يتفهم هذه المكرة، ويعود إلى ممارسة مشاطة على أساس تعبدية خالص، معتقداً أولاً بأن الله عز وجل هو مصدر التقدير والمطاء، وأنه لائباً بقدر العبد مسلم لا بيه، وأن هذا التقدير يأتي في النهاية ليركز في ذهن (المريض) بأن ذاته تستمد قيمتها الإنسانية من خلال ما تحس وما تحرر من أفعال تسحق التقدير كما نصّ على ذلك الإمام علي عليه السلام

ومن المؤكد أن هذا التغيير في الفكرة، يترتب عليه إحداث تعبير شعوري رسنوكي، فالتفسير في السلوك الخارجي مرتبط بالتمسك الداخلي المعرفي والنفسي أو بمحتوى الذات.

إن المريض يقوم تحت إشراف - معالجه - بعملية تحلته لنفسه بإدخال
القيم والمصائيل المحسنة والعادات المرغوبة كالكرم محل الحل،
و شوصع بدلاً من التكبر، والحلم بدلاً عن العنف، والحيظ وضعف
السيطرة الوحشية، والعمو بدلاً من الحقد، والمنة محل التهنيت، وهكذا
يراطب المريض بشكل دائم على الطاعات وترويد ذاته بالتقوى، فإن تعالى

﴿وَكَزَّوْذُوا فَاِنَّ خَيْرَ لَّابِرِ الْاَلْبَابِ الْاَتَّقُونَ﴾^(١)

وهذا هو المفهوم الصحيح لطريقة المعالجة البكولوجية بالأعداد.

ولكن النفس الإنسانية تعيش في هذه المرحلة الهامة من العلاج
والتعبير النفسي والمقالي للمقاومة والاسجداد للماضي بدرجات متفاوتة من
لقوة، رتدابع بين عاداتها المنبوذة والمرغوبة، بين دلائل الحاصي وفضل
الحاضر، بيد أن إصرار الفرد المؤمن على الجبر في هدى الإيمان بحمل
الذات على الوصول إلى بر الأمان ويلوغي مستوى مقبول من السلوك الصالح
السوي

د - المتابعة العلاجية

كما قلنا قبل قليل، فإن عملية إدخال للعادات الجديدة، تجعل الفرد
المسلم يواجه مقاومة من داخل نفسه، لذلك لا يكفي القيام فقط بتحليلة
الذات بالمعضائل والقيم، بل لا بد من متابعة العلاج حتى آخر العمر، لأن
للموس طنائع سوء لا تنتهي حد زمن معين أو عند مرحلة من المحدثه،
وهذه الطنائع ترمو إلى الظهور مره تلو أخرى، وتنتظر عملة الفرد لعرفلة
العلاج

ومن هنا فإن المعالجة النفسية بمفهومها الإسلامي تستغرق العمر كله، لذلك أكد المشرع الإسلامي في نصوصه الربوية على أهمية ديمومة المعالجة واستمرارها، لأن في ذلك ضمان ضبط حركة الذات وتوجيه دوافعها والسيطرة عليها في الممارس المعبدي الذي شدد عليه المشرع الإسلامي.

يقول الإمام علي عليه السلام في هذا الصدد: «املكوا أنفسكم بدوام جهادها»^(١)

ويقول للمرد المسلم: «عود نفسك الصبر على المكروه نظفر به وإن طال إزمانه»^(٢).

وفي نص أيضاً: «لا يمدم الصبور الظفر وإن طال به الرمان»^(٣) إن إقبال المريض على تغيير اتجاهاته وأنماط سلوكه التي ألغها منذ فترة طويلة عاشها في حياته يواجه بالتأكيد مقاومة شديدة من نفسه، فهي كما قلنا لا تستجيب بسهولة للأحلاق الجديدة المضادة، وتحاول أثناء المعالجة اجتذاب الإنسان المسلم نحو العادات القديمة التي ما يزال سلطانها قوياً خاصة في المراحل الأولى للعلاج، وهذه المجاذبة تريح نفسه من عبء المواجهة مع الجديد، وأخذت للتصوص على أهمية الانتباه إلى أثر ضغط الأفكار والعادات المألوفة على إحافة حركة النفس نحو السلوك السوي.

يقول الإمام علي عليه السلام

«ما أصعب على من استعبدته الشهوات أن يكون فاضلاً»^(٤)

(١) ميراث الحكماء ج ١٠ ص ١٤٢

(٢) صبح المفروق لابن شعبة الحرثي، ص ١٤

(٣) معج البلاغة ج ٤، ص ٤، وكذلك كتف تصنيف معج البلاغة، ص ٣٢٢، ١٥٤

(٤) شرح معج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ٢٠ حكمة ٤٢.

«أدركت الرياضة النفسية غلبة العادة»^(١).

«أصعب السياسات نقل العادات»^(٢).

ويقول الإمام الحسن بن علي العسكري عليه السلام:

«إن ربابه الجاهل ورد المعتاد عن عادته كالمعجر»^(٣)

وبنأمل النصوص السابقة نلاحظ ما يلي

١ - إن التخلص من الرواسب وضغوط العادات التي عاشها الإنسان من قبل ليس أمراً هيناً بالتأكيد، فهذه السلوك الحاطي الذي تعلمناه من بيئة مسخرة يحتاج لبرنامج رشيد ومجاهدة واعية قد تستغرق العمر كله حتى لا نجتر لدنات رواسبها مرّة أخرى وتعيش من جديد في أجوانها النفسية والعقبة، ولهذا وصف ابنان من النصوص المذكورة (رياضة الجاهل) ورد المعتاد عن عادته) بأنها كالمعجر أو من أصعب السياسات على حدّ تعبير النص الكريم

٢ - إن إعادة البناء والتربية للشخصية يتطلب جهداً إرشادياً يتابع عملية نقل العادات الجديدة المرغوبة بالدقة والانتباه من سياقها النظري إلى مجالها التطبيقي حتى يتم ملاءمة متطلبات الذات المسلمة مع أحكام المنهج العبادي الإسلامي في تجربة قد تطول أو تقصر.

٣ - تضطر الذات الثابتة المنقولة مضطربة الرواسب النفسية والمعرفية والأخلاقية العاسدة أن تتحمل آثار الصراع النفسي الراجعة عن تجربته التعبير الجديدة، وذلك بين العادات القديمة المضاعطة بقوة العاصي واستحكاماته

(١) مرقاة المفكر ج ٧، ص ١٢٢

(٢) مرقاة المفكر، ج ٧، ص ١٢٢.

(٣) معجم النصوص، ص ٣٧٢

العنصرية، البائسة وبين رغبة العرء في مأسل العادات الالءة وترسبها ونشئها . إئء صراع بين إرء الماضى المألوف الذى يرء الفاء والامتءاء فى حركة المءاء ءئى فى فئرة التعبير وبين ءماس الءاضر وفوءه وآماله رءطعائء المسئلية

٤ - وءوصء تعبىرات النصوص السابقة لوءة الصراع بين ما المء لشءص من عءاء فى ماضىه وبين ما رءعب فىءه من عءاءء سوءة فى الءاضرء، فهءء النصوص رءى أن مصدر آفة «الرباضة المءىة» وما فىءا من روء المءاءة والئرءة الروءىة إنما نءص فى «غلبة العاءاء» الئى عائءا الفرد فى ماضىه، وشكلاء نمسبءه المصى والمعرفى والأءلافى والاءئماهى، وظلك قاءرة على الأاءىر فى المواءة ببءا وبين العاءاء لءبءة، الئى يرء الفرد نكوءئها فى شءصئءا، وئشبر كلمئا «غلبة العاءاء» لى هءء النئىءة فى ءءربة الصراع لءى بعض الأمراء . أى علبه العاءاء القءىمة المألوفة على المءاءاء الالءة آءاءاً.

رءبىن مسألة «غلبة المءاءاء» فءاوء فءراء الناس وإمكانائهم الءائىة فى ءءاربهم الئعبىرىة، وءماوء مسئواءاء السءاء لءبهم فى مباء الئرءة السءاءىة، فمءهم من ىمكئ مدرءة أفضل من الآخرىن فى فءر عاءاء الماضى السألوفة وءءاورها، ومنهم من ىفءر على غلبه فءر سمى ومءءوء مءا، وءء ىءءر نءر مءهم عن ءءاوز ءئى المء الأءبى من هءء الماضى، مل ىنسبم مءه آءرى للإرء النعسى والمعرفى والسلوكى لىءاصره من ءءىء مءوة أكبر

ءما أن النصوص الئرءوىة الإسلامىة رءى أنه من أصعب الءارب على الإنسان ما ىقوم به من «مقل العاءاء» واستبءالها من عاءاء ءاطئة لى

عادات صحيحة، وهذا ما يسميه علماء التحليل النفسي بالمقاومة النفسية لحظة. للمعالجة النفسية بين يدي معالج أو طبيب نفسي أو من حلال عمية معالجة داتية، إاد من الموقف أن مصطدم عليه «نقل العادات» بي مرة «تعبير أو حلال جلسات المعالجة النفسية مدفاعات مرصدة مدفع نفس نحو لمقاومة رعدم الاستجابة الصهلة السريعة لأحكام الصهج العبادي للإسلامي

هذه العملية مجهزة بلا شك للفرد المراقب في تعديل أفكاره وسلوكه ومحو عاداته الخاطئة، ومع ذلك فهي متوقعة ولا بد منها لتحقيق الأهداف المأمولة في البرنامج العلاجي.

أما الرياضة النفسية التي تحدثت عنها نصوص المشرع التربوي الإسلامي فهي أوسع وأشمل بكثير. لأن هذه العملية الجهادية ببت في جوهرها مجرد مقاومة سلبية مضادة للأفكار والمشاعر التعبيرية لجديدة لتي تستهدف إردة الأفكار والمشاعر القديمة للعالقة في النفس فحسب، بل هي كذلك حركة تقدمية وإيجابية تصح في حاسبها دائماً تصفية سلبية الحاصي وأثاره المدمرة، ولا تتوقف عند حدود متاعمة السلوك الخارجى، وإنما تهتم كذلك بسلامة النية وضبطها من الشوائب بضوابط عادية

وفي انرفت معه لا تقف آثار الرياضة النفسية عند هذا الحد، فهذهها أيضاً العمل على المساهمة في بناء جديد للشخصية الإنسانية على فو عد وأسس عبادية مشبعة من النثق المعرفي والقيمي للإسلام ومسمدة من نظامه لروحي، والأخلاقي والمعرفي والسياسي والاجتماعي.

٥ - ومع أن النصوص المذكورة وغيرها ترصد واقعاً لمعالجة الرياضة النفسية وأثرها في حياة الإنسان، إلا أن هذه النصوص تؤكد على دور الإنسان وفعاليته في تحمل أمانة العمر لنفسه من حجة، وإعدادة مبادئه

المجتمع من جهة أخرى، وبذلك لا نرى أن تجربة الرياضة النفسية مجرد عملية إنسانية ممتدة في حاضرات الفئات فحسب، بل أيضاً حركة استشراف لمستقبلها، فمعبية النمو والتطور الطبيعي تبدأ عادة لدى الكائن الادمي في مرحلة التكوين، ثم تنمو في مراحل لاحقة وتكون أكثر تفاعلاً من طور سابق حتى تصل في نهاية الأمر لمرحلة النضج والاكتمال

ومن المنطقي أن يحاول التشريع التربوي الإسلامي تقوية الذات من داخلها على تحمل الشدائد والتصبر على القيام بهذه المسؤولية الكاملة، لذلك يقدم المشرع توجهاته في هذا الشأن.

يقول نصاب سابقان أوردهما من قبل

«عود نفسك الصبر على المكروه تنظر به وإن طال الزمان»^(١)

«اطرح هنك وارداك للمهموم بمزائم الصبر وحس اليقين»^(٢).

وثمة نصوص إسلامية كثيرة في هذا السياق المعرعي والتربوي والبيكولوجي.

(١) معب القول لابن شبة الحرثي، ص ٥١.

(٢) سيراد الحكمة، ج ٢، ص ٣٩٤، وكذلك كتاب عمر الحكم ودرر الكلام ج ١، ص ١٢١.

الفصل الخامس

شروط العلاج النفسي
بالأضداد

يتضمن منهج العلاج النفسي بالأضداد مجموعة من الشروط الأساسية لغيان تحقيق الأهداف التي يتوخاها المشرع الإسلامي من عملية المعالجة النفسية، ولا شك أن هذه الشروط متصلة فيما بينها، فإذا تخلف العربي أو المعالج المسلم عن تطبيق أحد هذه الشروط أو نباطاً المريض في الاستجابة المناسبة لها، فإنه سوف تتعطل - بالتأكيد - عملية المعالجة النفسية على النحو الذي يتناسب للمهدف الأساسي المحدد شرعاً.

ومن هذه الشروط ما يلي:

أولاً: النية والقصد:

يحرص المشرع الإسلامي ويشدد على ارتباط جميع الأنشطة العبادية الصادرة عن العباد بالله عز وجل، فيجب أن تؤدي جميع الأعمال بنية الخرس لله سبحانه، وطلب العون والمدد منه تعالى، وتوحيده وطعته والكافة، فلا يريد المرء لنفسه إلا ما يريد الله سبحانه، ولا يطلب نفسه إلا ما يعطيه ياء ربه، وبالتالي فإن المقصود من النية في مفهومها الإسلامي هو حصاع النفس لإرادة الله في حركتها وسكونها، واصلها على هذا الوجه لفتي الداخلي.

إن انية الخالصة لله عز وجل، هي روح العمل المصالح و كونه

ومقاييسه، حتى لو لم يستطع المسلم إنحار الكثير منه في حياته كلها، تحقيقه للعمل العادي مكس في سلامة الية وليس فقط في نائحه الخارجة الملحوظة لأنه ليس عابه يطلب لذته، ومن هنا ينبغي للعبد المسلم أن يعالج نفسه ويدأوي افئتها لا بحثاً عن لذة دنيوية يطلبها أو بحثاً عن توافق سوي بحسبه، وإنما استجابة لنداء (الله) فعليه أن يسلم «وجهه لله وهو بحسب»^(١).

لهذا لم يشدد المشرع الإسلامى على مسألة حجم العمل بمقدار تشدده على نوع العمل وحركة النفس في توجيهها نحو العمل لله سبحانه، مصداقاً لقوله ﷺ:

«إما الأعمال بالنيات، ولكل امرئ ما نوى»^(٢).

وقوله أيضاً: «أخلص الية يكمك العمل القليل»^(٣).

كما ورد عن الإمام علي عليه السلام قوله الشريف: «رب يسير أسمى من كثير»^(٤).

فالنية قاعدة إصلاح العلاقة بين العبد وربه، «من أصلح ما بينه وبين الله، أصلح الله ما بينه وبين الناس»^(٥).

وقال أيضاً: «من أصلح أمر آخرته، أصلح الله أمر دينه»^(٦).

وعندما سئل الإمام الصادق عليه السلام عن النية والمسجية قال «الخلق

(١) سورة النساء، ١٢٥.

(٢) جامع الصغائر ج ٣ ص ١١٢، وكذلك ميزان المعك، ج ١٠، ص ٢٧٧.

(٣) جامع الصغائر ج ٢، ص ٤١٦.

(٤) نصيب موج البلاء، لب يثون، ص ٤٣.

(٥) موج البلاء، ج ٢، ص ٢٠.

(٦) موج البلاء ج ٢، ص ٢٠.

حكما أحدهما مئة، والآخر سحبة قل «أيهما أفضل؟ قال ﷺ: البية لأن صاحب السحبة محمول على أمره لا يستطيع غيره، وصاحب البية يتصبر على الطاعة تعبيراً . فهذا أفضل»^(١).

والتأمل في عنصر النية يجد أنه يجمع بين مبدئي (الدافعية والهدفية) اللذين يتحدث عنهما علماء النفس التربوي، على أساس أن النية في واقع الأمر تمثل ماعياً داخلياً يحرك النفس المسلمة في فعلها الذي تقوم به فتجعله صالحاً أو سيئاً، كما أن ثمة علاقة مباشرة بين هذا العنصر، والهدف المحدد من العلاج النفسي، وقد سبق أن أوضحنا التلازم بينهما حينما ناقشنا أهداف ومسوغات المعالجة بالصد

رأى مهج الأضداد، فقد شدد على النية في سمات الإحلاص والصدق والحقيقة والاستسلام، واليقين والطاعة والحب، وهي دون شك النفاذ نمر عن مفهوم أساسي تضمنته قائمتنا الأضداد، وهو صدق العقد في أي سلوك عبادي يصدر عن المسلم، وصدق حركة النفس وإخلاصها من كل شوائب الدنيا الرائقة

وإذا كانت النية فجميع بين مبدئي الدافعية والهدفية، فإن لمشرع التربوي الإسلامي يضيف مبدأ ثالثاً، ويؤكد على أهميته في تربط بين هذين المبدأين وهو مبدأ «الإتقان» فمن الممكن أن يفلح الفرد المسلم في التحكم فيه اقربى لله حين معالجة نفسه بطريقه الأضداد، فيكون ﴿فَلْيَكُنْ أَتَمُّ بِهِ وَقِيَّةً﴾^(٢)، عبر أن (التربية العلاجية) لا تتقدم كثيراً بدون إتقان العمل وإبحاره وفق محددات الخطة العلاجية التي يقترحها المعالج المعني

١ - مصنف المعرف ص ٢٧٥.

(٢) - سورة البقرة: ١١٢

مسلم، لذلك تضمنت قائمة الأصداد سمات إيجابية تؤكد حرص المشرع الإسلامي على إتقان العمل مثل التعكير، الكتمان، المعرفة، المهيم، الرأفة، لنشاط

ثانياً: اختيار المنهج العلاجي الإسلامي:

يعتبر هذا الشرط في نظرنا أبرد وأهم شروط العلاج النفسي بالأصداد، لأنه الشرط الذي تطلق منه عملية العلاج كلها، وتنظم على أساسها علاقة الممارس بعرضه، أو هو عبارة أخرى منهج العمل وآلياته الذي تجتمع فيه كافة الشروط الموضوعية والملائمة للعلاج بالأصداد

وسواء استعمل الفرد المسلم علاجاً نفسياً ذاتياً يعتمد فيه على إمكانيات نفسه أو اختار ملازمة معالج نفسي مسلم، فإنه لا غنى له عن المنهج الشامل الذي يمدّه بالمعرفة العلاجية والوقائية، وقد ذكرنا من قبل بعض النصوص التشريعية التي تؤكد على أهمية اختيار المنهج في نجاح المعالجة مثل قوله سبحانه وتعالى:

﴿إِنَّا هَذَا الْفَرْدَانِ يَهْدِي إِلَيْهِمْ نَحْنُ وَمَنْ قَوْمُ﴾^(١)

وقوله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنَّا فَتَبَيَّنْهُمْ مِنَّا﴾^(٢)

وقوله ﷺ في حديثه الشريف: «من عمل على غير علم، كان ما يفسد أكثر مما يصلح»^(٣)

وقال أبو جعفر الإمام محمد بن علي الباقر «لا يعمل عمل إلا

(١) سورة الإسراء، م ١٦

(٢) سورة المائدة، م ٦٩

(٣) جمع الفرق، م ٣٩

سمعة، ولا معرفة إلا بعمل، ومن عرف دلت معرفته على العمل، ومن لم يعرف، فلا عمل له»^(١)

وقول الإمام علي عليه السلام: «العلم يرشدك، والعمل يبلغ بك إليه»^(٢)

وفي قول آخر: «ما من حركة إلا وأنت محتاج فيها إلى معرفة»^(٣)

وهكذا لا نؤكد هذه النصوص أهمية المنهج بحسب، بل شدت على التلازم الوثيق بين اختيار المنهج الصحيح والعمل المنقح ودورهما في بناء الذات وصقل المكونات الأساسية لها من جديد لضمان نجاح برنامج المعالجة السلوكية بالأضداد في تعديل سلوك الشخصية

وإذا كانت للنفس قابلية الأضداد، فإن المنهج الإلهي هو المنهج القادر من بين مناهج العلاج النفسي، الذي يملك القدرة على تحديد الأضداد التوسيطية كما سرى في بحثنا، فلا يكفي أن نختار منهجاً للمعالجة، وإنما يشترط أن يكون منهج العمل العلاجي قادراً على صياغة شخصية إسلامية منبصرة عن الشخصية غير المسلمة، لهذا لم يستطع البعض من لعرضي تحليل أنفسهم من الميؤب والأفات بسب سوء اختيار منهج العمل.

وبملاحظة فائمتي الأضداد التي سمعناها في مكان من البحث^(٤)، نجد أن كل الأعاطهما، ومعالجتهما تمثل خيوط المنهج المتشاككة، فما ورد في هاتين الفائمتين لس الأعاطاً عديمة المعنى، وإنما هي سيج منكاس من

(١) سمع القول من ٢١٥.

(٢) غرر الحكم ودور الكلام ج ١، ص ٥٢.

(٣) سمع القول من ١١٩.

(٤) انظر الفصل الخامس.

الدوافع والصوابط التي تحكم حركة الذات وتنظيمهما في مسارات عادية سوية، مثلاً حدد فيهما ألقافاً تمثل دوافع السلوك مثل العدوان، لغير، الحمص، لتعب، الرغبة، الشك، كما نجد - كذلك - مصطلحات أخرى تعبراً عن القوى الصابطة للسلوك على محور ألقاف العفة، للصر، الحياء، الشهامة، الجهاد.

وفي هاتين القائمتين يعبر المشرع الإسلامي سلبيات النفس وإيجابياتها، ويميز وسائل البناء والعلاج وشروطهما، ويوضح الأسس والركائز التي يعتمد عليها الإنسان المسلم في صوغ ذاته صوغاً مسجماً مع روح أممهم والقيم والمصطلحات الإسلامية كالزهد، والدعاء، والتوكل، والصبر، والرجاء... إلخ.

وبالرغم من أننا مشير بين لحظة وأخرى إلى قائمتي الأضداد عند الإمامين الصادق والكاظم عليهما السلام إلا أن مهج الأضداد ليس محصوراً في هاتين القائمتين المتماثلتين تقريباً، فثمة نصوص كثيرة في القرآن^(١)، وفي نصوص السنة النبوية الشريفة أيضاً.

ويمكن ملاحظة أن آيات القرآن الكريم تشير في دقة إلى مجمل الحطوط العامة لمنهج الممالة النفسية بالأضداد، ولا تتوقف كثيراً عن تفصيلات علاجية لهذا المرض أو ذلك، ويبدو أن القرآن الكريم ترك معاصيل هذه المهمة للسنة الشريفة، حيث أسهمت في الممالة النفسية بكن المعادات الحسنة والسنة، بالإضافة إلى جعلها الآخر المعبر للقرآن في لعب النظر إلى خطوط المنهج الأساسية.

(١) انظر سورة الرعد، آيات ٧١ - ٧٥، وكذلك سورة آل عمران آيات ١٩٦ - ٢٠٠، وسورة الأعراف آيات ١٠ - ١٦، وكذلك سورة البقرة آيات ١٧٧ - ١٨٢، انظر مجلة الوعي الإسلامي الكويت، العدد، ص ٧٠ - ٧٦.

ثالثاً الاستقرارية:

من غيوت مناهج ومناهج العلاج النفسي الوضعي، انقطاع جذبات
لعلاج النفسي بين المعالج ومرضاه، بعد حدوث تحسن مدموم في
الاتجاهات الرئيسية للفرد، لكن ما يلفت أن يعود المرض مرة أخرى وربما
يكون ظهوره بصورة أكثر حدة، لأن هذه المناهج رغم انحرافاتها العقائدية
والتربوية عن منهج الله سبحانه في بعض الأفكار أو الممارسات، نتمتع
مرضى انغمس وترعاهم بمسلمات مادية بحتة، خلال فترة محددة نسمى
فترة العلاج، فإذا انقطع العلاج - بعد التحسن - ضعفت أو اضر العلاقة بين
المعالج ومرضاه، وبقيت بصماتها فيما بعد محزنة للقلوب أو مريحة لها.

ولهذا انبسط لا تحقق هذه المناهج غايتها في الشفاء النفسي للمرضى
باعتراف بعض علماء الغيوب أنفسهم أمثال ما قاله عالم النفس السويسري
(آيزيك) الذي يقول في هذا الصدد

«إن معدن شفاء المصابين ثابت فعلياً، سواء عولجوا بأدوية العلاج
النفسي المعروفة أو تركوا دون علاج»^(١)

وحلال فترة الانقطاع أو ما يسميها أطباء النفس الغربيون بمرحلة
الشفاء تبدأ أعراض المرض في العودة والظهور، ولعل مصدر هذا الخطأ في
أنظمة العلاج النفسي الوضعي يكمن في إهمال متابعة علاج النفوس وتربيتها
خلال فترات العمر كله، ولا تعرف ما يحمله المشرع الإسلامي (المجاهدة
لروحانية الدائمة)، فيتوهم أطباء هذه المناهج أن فترة العلاج قصيرة كانت أو
طويلة تكفي لإزالة أعراض المرض، وتحرير النفس من ضغط الرواسب
الساكنة في أعماقها.

(١) إيريك، كتاب الحقيقة والوهم في علم النفس، ترجمة عدوي حفي، ص ١٥٨ - ١٦١

وفصلاً عن ذلك، يلاحظ على هذه المناهج الوصفية، أنها لا تعاني فقط من قصور واضح في معرفة السمات المتقابلة بالأضداد، بل وبعبء أيضاً من سوء فهم لحقيقة النفس الإنسانية، فتراها على سبيل المثال لا الحصر بدل السرمي وبرشده على استبصار مشكلاته والوعي بأساسها وتأثيره ونتائجها، لكنها مع ذلك تمهد له الطريق للوقوع في برئ من مرض آخر، والمدرسة الفرويدية مثلاً نقلت الإنسان في العزب المسيحي من حالة النزمت والكتبت الجسي التي فرضها التشدد الديني والأخلاقي إلى حالة الحرية الممتوحة، والإباحة الجنسية، وهذا النقل مثال على معالجة خاطئة من ضد إلى ضد آخر.

كما أن مناهج المعالجة النفسية الوضعية تهمل - متعمدة أو بعير لعدم - البعد الأخلاقي، فلا يهم أن يمارس المريض تعريضاً انفعالياً للشحنات المحبوبة، حتى لو ارتكب عملاً محرماً كحببة الآخرين أو صبههم أو قذف أعضائهم، فالتحليل النفسي يترك الحرية كاملة للمريض للتعبير عما في نفسه وتفرغ شحناتها الوجدانية المحبوسة، مما يؤدي دون شك إلى بدم المريض على ما فعله بحق الآخرين، فيعود المريض مرة أخرى في صورة شعور بالذنب بحاصة إذا ترتب عن هذه المسلسلة المحرمة ظهور مشكلات للآخرين

وسبب هذه العوامل أو بعضها تعاود الاستجابة المرضية لظهورها، وقد تأخذ هذه المرة وصفاً أكثر توتراً وتأزماً، لأن ثقة المريض بمعالجيه ومناهجهم أصبحت أسوأ حالاً، وبالتالي يكون تجاوبه ضعيفاً في أية محاولة علاجة جديدة، ويرداد التوتر النفسي حدة عند المريض، فيشعر سريداً من الصعاع والمشتت، وقد يفلج جهفاً مضاعفاً لاسعاده الثقة

أما في منهج العلاج الإسلامي فالأمر مختلف، إذا لا يفغ لعلاج عد حد مرحلة دون أخرى، بل يستمرق دورة الحياة والمو النفسي لمعد، ويظل المريض ومعالجه يتابعان بدقة عملية العلاج حتى آخر العمر، وإن بدت بمدر محسني كبير، فليست الأهداف عدهما دنوية محصة كما هو لحال عند الغربيين، كما أن العلاج النفسي الإسلامي يدرك بالتأكيد خطر تقطع الإنسان عن المعاهدة الروحية، وأثر ذلك في إعاقة كلى جهد لتغيير الاتجاهات النحاطة عنده.

إن المعالجة النفسية بمنهج الأصداق عملية ممتدة، لا تقطع طوال العمر كله، لأن الإنسان الذي يعتمد على هذا المنهج في مداواة نفسه من أخطائها، وأثامها، لا يخصص أبداً تحقيق قدر ملحوظ من التعبير إذ. قطع المعاهدة الروحية في حياته حتى لفترة قصيرة من الزمن، فإن من السهل جداً، كما أثبتت بعض تجارب العلاج في العرب، أن تعود خلال فترة الانقطاع سلبيات النفس، وتظهر رواسبها مرة أخرى في الوعي والشعور والمسرك، بل تظهر خلال هذه الفترة عيوب جديدة بسبب ما تعوده خلال فترة العلاج من تجاوزات غير أخلاقية سحن الآخرين كالعيبه ولكذب، فالإنسان على كل حال عرضة في كل حين لظهور عيوب في ذاته حتى في حالة درم المعاهدة النفسية، فكيف إذا كث عنها، وعطل فاعليتها؟

وبعد، فمحرص المشرق الإسلامي على المعالجة النفسية بكر ربي، وأب، واستمرارية، فلا تقطع الهجرة كما جاء في المعرويات، وليست الهجرة بقعة مكانية في حياة الفرد، بل هو هجرة للسياث، وقد أكد على سمرارية المعالجة ودوام المعاهدة النفسية مص شريفه ورد عن الإمام

«املكوا أنفسكم بDRAM جهادها»^(١).

فالفلس المومنة «كالمسألة»^(٢) - على حد تعبير الحديث الشريف -
تستقيم بارة، وتحرز مرة أخرى حتى مستقيم نهائياً بالمجاهدة الدائمة، قال
الإمام الباقر عليه السلام

«إن المؤمن معي بمجاهدة نفسه ليعلمها على هواها، فمره يقيم أودها
- عرجها - ويحالف هواها في محبة الله، ومرة تصرعه نفسه فينبع هواها،
يسعشها الله فيتنش ويغفل الله عنوته، فيتذكر ويغزغ إلى التوبة والمجاهدة،
فيرداد بصيرة ومعرفة لما يريد فيه من الخوف، وذلك بأن الله يقول

﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ أَكْفَرًا ۚ أَنَّىٰ لَهُمْ فَهْمٌ مَّا خَسِرُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ كَذَّابٌ كَذِبٌ ۚ﴾^(٣)

وهكذا فإن مفهوم المجاهدة ليس استمرار التمييز وديمومته فحسب،
والتحكم في حركة النفس وضبط دوافعها، وإنما هو توجيه هذا التمييز
والفساد في الطريق الذي يريد المعبد مصيرة ومعرفة وتعبداً لله^(٤) ويريده
صحة نفسية.

وما دامت عملية المعالجة النفسية بمفهومها الديني الإسلامي جهد
إنساني فله تشعق العمر كله، فيجب البدء - بها - مبكراً منذ اللحظة الأولى
لاكتشاف المرض السلوكي ومحدد آثاره ومظاهره وطرق السيطرة عليه، لأن
التكبر في المعالجة السلوكية يحقق للذات المسلمة نتائج أفضل

(١) ميراث الحكمة، ج ١٠، ص ١٤٣

(٢) مصنف المصنف، ص ٢٢

(٣) مصنف المصنف، ص ٢٠١ - ٢٠٢

(٤) يمكن للتدري الكريم أن يقرأ وصية الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام لصاحبه طهر الجسمي في كتاب
مصنف المصنف، ص ٢٠١ - ٢٠٧.

ومن هنا تبدو أهمية اسمرارية العلاج النفسي، والمجاهدة الروحية كشرط أساسي لضمان إحداث تغيير داخلي مقبول في اتجاهات وأفكار واعدت مريض يؤدي إلى تعبير حاسم في حياته، فمن طريق المتابعة والاسمرارية تتحول الفئات تدريجياً من واقعها المريض إلى عهد آخر، ويقبل معه من أوصار الدنس والرديلة، وذلك كي تستقل ذاته في، العصية الإسلامية ومعانيها الإنسانية، وتتدفق في أجوانها إشاعات منهج الله، تتزهج القلوب حرارة وحيوية.

رابعاً: الصبر والاحتمال^(١)

يبحث منهج المعالجة النفسية بالأصداق في مصوره التربوية والمعرفية المتعددة على احتمال الشدائد والصبر عليها في عملية العلاج، ولن يتمكن المرء من بلوغ مقاصده - الدنيوية والأخروية - بدون تدريب النفس على المواجهة الجادة لكافة المشكلات، فالاحتمال «غير الميؤس»^(٢) كـ يقول الإمام علي عليه السلام وهو الذي بذل الصعاب في حياة الأفراد، ويفسح للعقل الإنساني مجالاً لحل المشكلات السلوكية أو الشيات العاطفية حين مواجهتها، وهذا ما يسميه علماء النفس «فوسيد الإحباط»^(٣)

وطالما أن المعالجة النفسية في الإسلام عمل صالح وعبادي يتقبله الله عز وجل بمقدار ما انطوى في القلب من مية، وبمقدار التنصر عليه، فإن انحطوة الأولى للصبر على معاناة العلاج نبذاً من استبعاد الضجر و لكس

(١) انظر كتاب مختصر التفسير، لابي حامد المظني، ص ١٥٤

(٢) نهج البلاغة ج ١، ص ٤

(٣) اسد م عالم النفس المصري د. احمد عزت واسب هذا المصطلح السيكلوجي في كتابه «أمور علم النفس» ويصده «دور الفرد على الصبر وتحمل الشدائد، واليات العاطفية ومواجه الإحباط والحرمان والمعدلات الانفعالية بطريقة توافقة بالحيل المبادي والروحي معاً انظر الكتب المذكورة، ص ٤٩٨

معاً استعداداً كلياً، وهذا لا يحبطان الأمر فحسب، بل يسعدان محققين الشيء السليم للذات، وبهي صورة ذلك معهم ما ورد عن أئمة أهل البيت عليهم السلام

«إياك وحصلتين، للعصبر والكسل، فإنك إن ضجرت لم نصر على حق، وإن كسلت لم تقوّ حجة»^(١)، فالخزع مدخل نمسي للمشعر بالمدلة، ومقدمة لإحقاق كبير في التوافق النسي للفرد

وأرد مسيح المعالجة النسي الإسلامي أن يقتل الباب مد اللحظات الأارلى لظهور الجرع وصعب الاحتمال، فأطلق الإمام علي عليه السلام حكمت: «امشي بدائك ما مني بك»^(٢).

فما دام الفرد المؤمن يقدر على احتمال الداء، فلا ينبغي عيب أن يضعف عن متابعة العمل واقتحام الأمور، أي عليه بحسب التوجيهات الإسلامية أن يواصل الجهد ما احتمل ذلك، وأن يصعب على الأمور ما صعب عليه، فيتحمل المسؤولية كاملة بلا حرج ولا خوف، ويثبت للأحرين أن المؤمن النوي خير عند الله من المؤمن الضعيف.

إن المريض المسلم إذا تذكر هذه التوعية وغيرها استمر في مواجهة ما يتعرض، واحتمل شدائد ما، وهذا تدعو مهارة المعالج المسلم في استثمار هذه النصوص في استمادة التوازن لشخصية المريض، وقد أرسى نظام المعالجة الإسلامي مجموعة من الأسس التي تحرر الذات من ضعفها، وترددها في مواجهة الأمور، ويمكن للفرد المسلم معالماً كان أو مريضاً أن يوائمه بين نفسه، وبين هذه الأسس العبادية عن طريق الاحتمال، وعندما سئل أمير سهل السري عن حسن الحلق قال: حسن الحلق وأدماه الاحتمال»^(٣).

(١) صحيح المقول، ص ٢٦٦.

(٢) صحيح المقول، ج ١، ص ٤.

(٣) إحياء علوم الدين، للإمام القرطبي، ج ٢، ص ٢٠٥.

خامساً. المعالجة بالأضداد ليست تغييراً في الطباع القطرية:

نفهم أسس المعالجة السكولوجية الإسلامية على تنوع المحاور
المرصنة في الذات البشرية، وهي تركز كذلك على تغيير الاتجاهات
والعادات الحافظة، ولا يكون العمل بمسح الأضداد موجهاً - بالتاكيد - نحو
تغيير الطبع الأصلية في جبلتنا النقية التي زودنا بها الله عز وجل لحكمة
اقتصنها مشيئة، ونحن - ها - أمام خطأ أحر يحارسه الإنسان بحق نفسه،
والأحرى، فقد حاول - بجهله - وعبر تاريخ مديد، أن يعير من لطبع
المركورة في طبيعته كما فعل إزاء محاولاته اقتلاع نواحي التدين ومائة شهوة
السوء - بهائياً - أو رفع المصعب - كلياً - عن النفس واستئصال رغبة النفس
في التملك كما أرادت الماركسية ذلك، ومدوسة التحليل النفسي وغيرها،
عندما حاولنا حذف رغبات الإنسان وحاجاته في التملك، والتدين، وحب
الذات.

وند أخطأت أيضاً بمص سامح الملاج الأرضي في سبرها بهذا
الاتجاه، ومثلت في ذلك فشلاً ذريعاً، وكشمت عن جمل أصحابها بحقيقة
النفس، وخباياها، وطباعها الأصلية، حيث أراد منهج التحليل النفسي عند
فرويد وصحبه استئصال الحفة كعامل أساسي في ضبط النفس عند الإصراف
في شهوة الوقوع والمجامة، وكان يسوع لنفسه نظريات مغلقة بامور شرعية
والدقة العلمية، وشهدت فيها عن خطر الكبت الجسدي، وضروره رفع
يقود عن الطاقة الحسية وإطلاق حركتها في عقالها

أما لماركسيه، والوصحية المنطقية، والوجودية السارتريه، فقد صبت
جهدا بقوة لامزاع التدين من كاتنا العطري الأصيل، لكن قدون العطرة
أقرى من جهد جميع العلماء والفلاسفة المتمرديين الذين يستعلون العلم
و لعمريه لم وب الواقع البشري، ومستقى الحقائق العطرة أكثر صلاةً وناثاً

وساعد على نجاح المعالجات الإسلامية للنفس في مختلف حالاتها المرمية، ولا غرابة في ذلك، فجميع التوصيات التربوية - وقائية أو علاجية - التي عرّضها المشرع الإسلامي في مصادره الأساسية ثلاثاً: التزكية النفسية للأدعي.

وقد أشار المشرع الإسلامي إلى خطأ محاولة تغيير طباعاً الأصلية عن عدد من العلماء المسلمين كأبي حامد الغزالي وابن قدامة المقدسي، وشيخ السراي، وأبو الفيض الكاشاني، وهذا يعني أن تاريخ هذه المحاولة ليس حديثاً علينا، إذ عبرت أقوال هؤلاء العلماء عن وجود هذا النوع من المحاولة في زمانهم.

يقول أبو حامد الغزالي رحمه الله عليه:

«بأن الأدعي ما دام حياً لا تنقطع عنه الشهوة والغضب، وحب الدنيا وسائر هذه الأخلاق»^(١).

لم يواصل هجومه على أصحاب هذه المحاولة المضادة للفطرة ليقول:

«فهذا غلط وقع لطائفة ظنوا أن المقصود من المجاهدة نزع هذه الصادات بالكلية ومحوها، وهيئات، فإن الشهوة خلقت لمائدة وهي ضرورية في العبد، فلو انقطعت شهوة الطعام لهلك الإنسان، ولو انقطعت شهوة الرقاق لانقطع السل، ولو انعدم العصب بالكلية لم يدع الإنسان عن نفسه ما يهلكه ولهلك، ومهما بقي أصل الشهوة، فبقي لا محالة حب المال الذي يوصله إلى الشهوة، حتى يحمله ذلك على إمساك المال، وليس

(١) حجة علوم الدين ج ٢، للغزالي، ص ٥٥.

«المطلوب إحاطة ذلك بالكلية، بل المطلوب ردها إلى الاعتدال الذي هو وسط بين الإفراط والتفريط»^(١).

فذلك أمر ممكن كما سرى فيما بعد، وقد تابعه في هذا الرأي، للمعديسي، حيث أعاد قوله بالكامل عندما لخص كتاب (إحياء علوم الدين) بأجزائه الأربعة لأبي حامد الغزالي، وذلك في كتابه (مختصر القاصدين)^(٢).

أما جملة الإسلام العلامة الشيخ التراقي فيقول عن ذلك

«إن المراد من التغيير ليس رفع العصب والشهوة، وإماطتهما بالكلية، فإن ذلك محال لأنهما محلوقتان لغائده ضرورة في الجبلة، إذ لو انقطع الغضب عن الإنسان بالكلية، لم يدفع عن نفسه ما يهلكه ويؤديه، وامتنع جهاد الكفار، ولو اتمد عن شهوة الطعام لم تبقى حياته، ولو بطل عنه شهوة الوقاع بالمرة لصاع السل، بل المراد ردهما من الإفراط والتفريط إلى الوسط، فالمطلوب في صفة الغضب حلو النفس عن الجبن، والشهور، والاتصاف بحسن الحية»^(٣)، «كذلك الحال في صفة الشهوة»^(٤).

سادساً: الاعتدال في قوى الذات:

مبدأ (التوازن)^(٥) أوسع المبادئ في المنهج الإسلامي كله لا في مجال السلوك وحده، بل في مجال الكون ومظاهرهما كلها، وهو أحد المبادئ التي جعلت من الإسلام منهجاً متحيّزاً عن غيره في نظره للطبيعة، والإنسان والعلاقة سهماً، وما بينهما هنا هو تحديد أثر التوازن في الملائحة لإسلامة

(١) إحياء علوم الدين ج ٢، للغزالي ص ٥٥

(٢) مختصر القاصدين / الأبن فطحة المقلبي، ص ١٥٢

(٣) جامع المسالك ج ١، ص ٥٨.

(٤) جامع المسالك، ج ١، ص ٥٨.

٥ انظر كتاب الشيخ محمد علي التيسري «توازن في الإسلام»

للأمر من السلوكية، بل هو نقطة مركزية في نظام المعالجة السلوكية للأصحاء. وهذا أمر مفرد.

نقد حرص المذهب المعرفي في الإسلام على رسم الخطوط العامة التي تنظم عليها عملية موازن الذات وقاية وعلاجاً، ولذلك يبدأ للمربي المسلم بتوجيه عناصر الذات توجهاً متوارماً هادفاً، وإذا أحقق في الوصون بالشخصية إلى قدر مقبول من التوازن انعكس ذلك على سلوكها.

وهنا نكون أمام المعالج النفسي المسلم مسؤولة كبيرة وصعبة لاستعادة التوازن النفسي المفقود للذات، ويساعده في هذه المهمة التربوية دينامية مذهب المعالجة الإسلامية للسلوك، وكذلك تجارب المريض مع هذا المذهب العبادي، فإذا انتظمت هذه العناصر الثلاثة - مهارة لمعالج - وتجارب مريضه، ومنهج للعمل - سارت عملية العلاج في الاتجاه الصحيح.

إن التوازن بين القوى الفطرية الكامنة في النفس شرط أساسي آخر لانتعاش الفرد من أسلوب المعالجة بالأخلاق، وتوجيه الذات نحو الاعتدال بعيداً عن الإفراط والتفريط، وكلاهما طرف غير سوي في الشهوة، ولهذا حرصت مصوص المشرع على ترتيب التوازن بين القوى المتقابلة في النفس، تكون الذات في حالة استقامة أو سلوك إيماني سوي، وس هنا يرى المشرع التربوي الإسلامي أن ثمره التوبة في حياة المريض المسلم هي «استدراك فوارط النفس»^(١) .. أي مدرك ما فاتته من تقصير في الواجبات والمسؤوليات الدنية عن طريق مقل ما يمكن بدله من القيام بالأنشطة والواجبات المعادية الإسلامية

ولسأمل مقطعاً من دعاء (مكارم الأخلاق) للإمام السجاد عليه السلام وهو الدعاء الذي حدد أهمية التوازن وضرورته في أية عملية علاجية جسيماً نال

«اللهم صل على محمد وآله ولا ترفعني في الناس درجة، إلا حفظني عند نفسي مثلها، ولا تحدث لي عراً ظاهراً، إلا أحدثت لي دنة باطنة عند نفسي بقلوها»^(١).

ففي هذا الدعاء الشريف يتضرع الإمام عليه السلام إلى ربه عز وجل آملاً من أن يحفظه من كل إمرأ أو تعريض كي تتوازن قوى دأته الكريمة، إنه عليه السلام يرجو عز وجل بزيادة تواضعه بين الناس كلما رفعه درجة بينهم، وأن تتعادل الرفع الاجتماعية بمثلها من الدلة الباطنة في نفسه، فالتواضع معادلة بين عز ظاهر وذلة باطنة في النفس لله عز وجل.

وهذا النص الشريف للإمام يطالب - المؤمن - بأن يسبح عن نفسه نظرة صحيحة، بأن يعرف قدر نفسه فيتحسس الذلة والحطة بين يديه - سبحانه - بدلاً من الإحساس بالعزة الظاهرية بين أوساط الناس، بل يجب أن يقابل العز الظاهري بإحساس القصور تجاه الله، فإذا تعادلت هذه الاحساسات في نفسه لازم التواضع وبإس التكبر، والتطاول، والعصية.

ونعبراً لأهمية هذا المبدأ في عملية المماثلة بالأعداد، فقد سطر القول فيه عدد من علماء العلاج النفسي الأخلاقي من المسلمين، وقد تحدثوا عن اجناس العصائل والرفائل معاً وتصيغتهما، فقال الشيخ الرافعي

- «بعد التحقيق يظهر أن لكل فصيلة حداً معيناً، والتحاور مع بالإمرأ أو التعريض يؤدي إلى الرذيلة، فالعصائل بعثره الأوساط، والردائل

(١) دعاء مكارم الأخلاق، الصحة السجادية، ص ١١٢

بمثابه الإطراف، والوسط واحد معى لا يعمل التعدد، والأطراف غير متناهية عدداً. فاصفيله بمثابة مركز الدائرة، والردائل بمثابة سائر النقاط المفروضة من المركز إلى المحيط، فإن المركز نقطة معينة مع كونه أحد النقاط من المحيط، وسائر النقاط المفروضة من جوانبه غير متناهية، مع أن كلا منهما أقرب منه من طرف إليه^(١).

ثم أخذ هؤلاء العلماء في ذكر بعض الأمثلة عن الأوساط والأطراف وهي (الفضائل والردائل) مثال ذلك «الحكمة وسط بين السفه والبده، والذكاء وسط بين الخبيث والبلاهة، والذكر وسط بين النسيان ولعنائة، وسهولة التعليم وسط بين الرعابة فيه والتعصب عليه أو تعذره، والنفع وسط بين رديفتين هما الشره وحمود الشهوة، والشجاعة وسط بين لجبن وشهور، واعدالة وسط بين الظلم وتحمل الظلم أو تفضله»^(٢)

ويمكن القول في هذا الصدد إن بعض الفضائل كالصدق، والعدل، تعتبر صفات حدية يسمي اعتبارها وسطاً ملا أطراف، ومع ذلك فإن الاعتدال في الأخلاق هو الصحة في النفس، والميل عن الاعتدال سقم ومرض، وكما يقول الشيخ المفيد «فإن مثال النفس في علاجها كالبدن في علاجه، فكما أن البدن لا يحلّي كاملاً، وإنما يكمل بالتربية والعناء، كذلك النفس تخلق ناقصة قابلة للكمال، وإنما تكمل بالتزكية وتهذيب الأخلاق، والتنقيب العلمي

وكما أن البدن إذا كان صحيحاً، فشأن الطبيب المعمل على حفظ الصحة، وإن كان مريضاً، فشأنه جلب الصحة له، كذلك النفس إذا كانت

(١) جامع السعادات، ج ١، ص ٩٤ - ٩٥.

(٢) انظر كتاب إحياء علوم النفس للزماني، ج ٢، ص ٥٢ - ٥١، وكذلك كتاب تهذيب الأخلاق وتهذيب الأعراق لابن سكرية، ص ١٥ - ١٨.

ركبة طاهره مهديّة الاخلاق، فيبقي أن يسعى بحفظها وحلب مرمد العوة لها، وإن كانت عديمة الكمال، فيسفي أن يسعى بجلب ذلك له^(١)

سابعاً. لنقاء قيل الهدم:

تبدأ بعض المساهج العلاجية الأرضية بعملية الهدم لكافة لسلبيات والأخطاء الموحودة في النفوس، وقد حاولت هذه المعالجات أن تقوم بإصلاح بعض المادات الخاطئة في الذات، وهي في واقع الأمر لا تملك تصوراً إيجابياً كاملاً، يساعدنا على إعادة البناء وتعديل السلوك، ولعل المعالجات الخاطئة للأصداد التي سبق الحديث عنها تظهر لهدم المحيط العشوائي، فالمعالج النفسي المسلم يحاول أن يقتلع البأس - مثلاً - من النفوس، ليطوح به تيهه في فهم الأصداد إلى المبالغة في طلب لأمل، حتى يتحول فعلاً إلى رغبة في طول الأمل لا قصره، أو يرهق أن يزيل من النفس شعورها بالنقص، فيقوده قصوره في معرفة أصداد السلوك إلى إدراكه روح انتكبر دون وهي

فالمعالجات التي تبدأ الطريق دون أن تملك تصوراً إيجابياً لعمليتي البناء والعلاج معاً نجعل الشخص لا يغير شيئاً من واقعه، عيحل صفات سيئة محل صفات سلبية أخرى، ولا يكشف ذلك إلا بعد ظهور مشكلات سلوكية جديدة نتيجة للمعالجة الخاطئة

إن إعداد التصور الإيجابي لعملية العلاج النفسي هو الضمان الأكيد الذي يرفق الطاقات والجهد، ويؤدي إلى تصحيح وضع الذات بحطوات متنامة منظمة، وهذا يهم - المعالج والمريض معاً - أن يقوم البناء العلاجي

احدلت لشدات على مسف أسوار الوصح العاسد السابق لها، وإعادته في صوء النغويه للملاحة العبادية.

وإذا أردنا تصور حجم المسؤولية في هذه المسألة فلتصور فرداً - كما شاهد دنماً - أراد أن يهدم بيتاً أو يرمم بعض جوانبه، فإنه يصع قبل كل شيء، مشروعاً مسبقاً متكاملًا ومحطاً له يحدّد فيه سير عملية البناء ومتطلباتها ومرآحتها، وهو يفعل ذلك قبل الهدم، لأن المشروع المذكور يعتبر التصور الذي ينظم على أساسه سير العمل أثناء عملية البناء، ولا بد أن يكون للمشروع خطة عمل منظمة تستند على إمكانيات الفرد مثل خبرته وأمواله فلمدحوة لإمجاز العمل على أحسن وجه.

وإذا كان بناء بيت أو عمارة سكنية يحتاج مسبقاً إلى خطة عمل دقيقة تكون جاهرة لتنفيذ قبل البدء في الهدم، فإن التعامل مع الذات أشد حاجة إلى تصور إيجابي متكامل لعملية البناء، قبل محاولة تعبير العادة الصارة، والتخيلة والتحلية متلازمان في عملية المعالجة النفسية، وسوف نوضح ذلك في ثنايا البحث، ومن هنا لا بد أن ننصّب مدواة النعوس أسلوبين متساعدين

الأولى أسلوب هدم . . والآخر أسلوب بناء .

إن النفس التي أنفقتها الذوب تكون كالمرأة التي اجتمع على سطحها ركام كثيف من العار، بسبب الإهمال وعدم العناية بتنظيمها، وليس أمام الفرد سوى يرغب في الانتفاع بهذه المرأة سوى القيام بتنظيف سطحها، وإعادة تلميعه، ولكن طريقة التنظيف مهمه، وأداة التنظيف أهم، فإذا ستمعمل - المظف - خلال عملية مسح الغبار قطعة ليه من لقماش النظيف، لدعم، عادت إلى صورتها الأصلية السابقة، وبهيات للاستعمال مره أخرى دون حدوث حدث على سطح المرأة

أما حين يكون أدلة المسح حشنة، حافة، فإن ذلك العمل يؤدي إلى حداث في سطح المرأة بقدر حسنتها، وقد يكون لهذا الحداث أثر دائم لا يزال، ويبدو واضحاً على السطح، حتى وإن زال العيار كله، لأن الحمر في سطح المرأة يكون يأثر الضغط عليه، ويمتثلر عمق الحداث

ويبدو لنا أن وضع النفس المثقلة مسبتاتها وأحطائها، والتي ران عليها ركام من انحرافات السلوك، يشبه إلى حد كبير ما يتراكم على سطح هذه المرأة من عيار وأثرة، فإذا كانت هذه المعالجة حمراً خاطئاً في النفس بسبب قصورها، وأحطاً المرربي في تحديد النظرة، واختيار المسحج، والخطوات العلاجية المناسبة، فإن النفس المريضة تصاب بمزيد من انجرافات، مما يؤدي إلى اضطرابات أشد خطراً، وأعمق أثراً فيها.

وعندما يحاول المرربي المسلم أن يمسح عن النفس المضطربة عناصر الانحراف برفق وأناة ودون استعمال، فحينئذ يمكنه تدريجياً إعادة لذات المنحرفة إلى فناء فطرتها، ويزيل عن جهازها العصبي شيئاً خبيثاً كل تبدل عقلي وانفعالي يمنعها عن التلقي والأخذ والمطاء، وبعد ذلك تستأنف حياة إيمانية مؤسسة على تعاليم الكتاب والسنة وعلى قيم المشرع العبادية.

ومن المؤكد أن مبدأ الرفق ضروري جداً في عملية البناء والهدم معاً، فإذا اتفهم الممارس النفسي المسلم المواقع الداخلية للذات ووضع يده على أحاسيسها، دون ترفيب أو تنظيم يشقى مع سلم الأولويات، فإن هذا لتبعثر سوف يحلط فعلاً بين ما هو مهم وبين ما هو أهم، فترثلك المعالجة بحيث يمكن أن تبدأ في علاج ما هو مهم وتترك معالجة الخطأ الأهم

ومن الأسس والقواعد العامة لنظام المعالجة الإسلامية أن يبدأ الممارس بتصحيح الخطأ الأهم ثم يتدرج بعد ذلك إلى الخطأ الأقل أهمية بما دونه، ولعل هذا الحلط قد يؤدي إلى ذوبان حتى العناصر الصحيحة التي يحترها الداب في كيانها قبل فترة المعالجة، فكون فترة المعالجة أسوأ حالاً مما

فلسفها، وما يحقق المعالج في اقتلاع سلسلات النفس، ولذلك يتطلب مشروع
سواء الذات استعمال الرق في البناء والهدم، وتحديد الأولويات المطلوب
إسعادها من العادات المحاطة.

وعلى كل حال، فإن العربي المسلم الذي لديه داية وحدف بمعرفة
النفس وأحوالها وتقليباتها، لا يجد سوى التصرف مع النفس المحطنة
بحكمة، تتفوق على أسلوب مسح القبار عن المرأة، فأبي حدش في المرأة
يشوه صفاءها حتى لو كان يسطأ، أما النفس المحدوشة بسبب أخطاء
للمعالجة فتتداخل فيها الخطوط المحفورة بحيث يحطل على أقل تقدير جزءاً
من معالجة جهازها العصبي، ويحول دون استناب شاطه بشكل طبيعي في
الأخذ والعطاء من جديد، وحينئذ تتحدد خلاياه، وتبطل النفس عن قبول
كل محاولة تستهدف تغيير كل انحراف في أصنافها.

وبالتأكيد فإن مشروع البناء قبل عملية هدم سلبيات النفس ينضم
أيضاً محططاً مفصلاً يحدد أولاً ما يشفي هدمه، وأساليب وشروط البناء،
وطرائقه، وكيفية استعمال القدرات الحقيقية التي تحقق هذا الهدف، ومدى
استعدادها لكافة المواقف العلاجية، كما يتطلب المشروع تحديد المحطرات
المنهجية قبل تفرع الذات من استجاباتها غير السوية، ثم الملاءمة بين
الذات ومهيج المعالجة.

ومكنا عرفنا أن الساء الجديد للذات يجب أن نحدد بوضوح قبل
مباشرة عملية تصفيه ما في النفس من عيوب لأن كل جهد من هذا النوع
عبر المظم هو في الواقع جهد غير مأمون النتائج، فالتخطيط ضرورة علمية
وإسلامة لضمان نجاح المعالجة للذات على أسس عبادية. وصدق الإمام
عبي بن عبد الله حين قال:

«من عرف الأيام لم يفعل عن الاستعداد»^(١).

وقول الإمام الحسن المبط: «من تذكر نعد السفر استعداد»^(٢).

ثامناً: ضرورة معرفة الأصداد:

أكد منهج العلاج النفسي الإسلامي على أهمية معرفة الأصداد سواء كانت أساطير من السلوك، أو حالات وجدانية وفكرية متقابلة أو غيرها، لهذا التأكيد دلالة الهامة، وهو أن عملية المعالجة بدون هذه المعرفة تعرض للارتباك والتعثر، مما يؤدي إلى أن تتعرض الشخصية لعلاج طويل سيباً، ورغم ذلك فإنها لا تستطيع ضمان النجاح في محاولاتها، ومن هنا تبدو أهمية معرفة الأصداد كخطوة منهجية، وشرط أساسي لأداء المعالج لوظيفته العلاجية، وقد بحث على فهم الأصداد القرآن والسنة معاً

تقول بعض الآيات القرآنية الكريمة بأن الحسنات تمحو السيئات

﴿وَيَذَرُوكَ بِالْحَسَنَاتِ الْكَبِيرَةِ﴾^(٣).

﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ الشَّرَّاتِ﴾^(٤)

﴿وَقُلْ لَكُمْ يَوْمَ اللَّهِ سَعَتٌ حَسَنَةٌ﴾^(٥)

وقد روي عن الإمام علي عليه السلام قوله الشريف.

«واعلموا أنكم لن تعرفوا الرشيد حتى تعرفوا الذي تركه، ولن تأخذوا

بميثاق الكتاب حتى تعرفوا الذي نقضه، ولن تمسكوا به حتى تعرفوا الذي

(١) صحاح المنقول، ص ٧٠.

(٢) صحاح المنقول، ص ١٧٠.

(٣) سورة الفصيح، ٥٤.

(٤) سورة حود، ١٦٤.

(٥) سورة الفرقان، ٧٠ - ٧١.

سده، ولن تعرفوا الضلالة حتى تعرفوا الهدى، ولن تعرفوا التعوى حتى تعرفوا الذي تعدى»^(١١).

وفي رواية أخرى قوله الشريف: «إنما يعرف قدر العلم بممارسة صدها»^(١٢).

وقوله في نصيحة لابنه الإمام الحسين: «في خلاف النفس رشده»^(١٣).

وقوله أيضاً «الرشد في خلاف الشهوة»^(١٤).. والمراد الاستجابة للشهوة المحرام غير السوية بالمعيار الديني والإنساني هو خلاف الرشد العقلي للإنسان.

وثمة نصوص كثيرة في هذا الصدد، وجميعها تؤكد على أهمية هذا المنهج في تحقيق التوافق بالمعيار الإيماني، فالعلم كما يقول عالم الأخلاق لمسلم الشيخ المراتي

«فضيلة وحسن، وهو أصول شيء على إزالة ما يضادها من الرذيلة»^(١٥).

وسوف نعرف إن شاء الله عز وجل قائمة للأضداد مروية عن الإمام الصادق عليه السلام رغم أن هناك قائمة أخرى مماثلة، غير أن التشابه بينهما كبير، بل هما متطابقتان - هي الألفاظ والمحماني - اللهم إلا في ترتيب مراق بعض الألفاظ فقد تناحر ألفاظ في القائمة الأولى، وتقدم ألفاظ مماثلة في قائمة الأخرى، ومع ذلك فإن الهدف من صياغة هاتين القائمتين - للأضداد هو تعريف المسلم بها، فتعنه على تربية شخصيته.

(١١) مجمع اللازم ج ١، ص ٤٥٠.

(١٢) عرو الحكم ودرر الكلم ج ١، ص ١٣٤.

(١٣) تحف العقول، ص ٦٦.

(١٤) تحف العقول ص ١٥٢.

(١٥) طبع المسالك، ج ١، ص ١٣٤.

ولمعرفة الآن قائمة الأخلاق للإمام الصادق عليه السلام، حيث تصع العائب
مال كل سمة إيجابية سمه سلبية على نحو ما ملحظه في تصبغات السعد
الأرضي لسمات الشخصية.

| السمه | السمه المعصاة | السمه | السمه المعصاة | السمه | السمه المعصاة |
|-------------|---------------|-----------|---------------|-----------|---------------|
| الإيمان | الكفر | التصديق | الجدود | العدل | الجور |
| الرحمة | القسوة | العلم | الجهل | الزكوة | الحرص |
| الوفاء | الفرقة | الرفقة | الجهل | التواضع | الكبر |
| العلم | الجهل | الصمت | الهدر | الطهر | الجلد |
| الزكاة | القسوة | الصبر | الجزع | الصنيع | الانكسار |
| المفكر | السهو | الحكمة | الغفلة | البرائة | المنع |
| الرياء | الفكر | المصوح | التفوق | السلامة | البلاء |
| الصدق | الكذب | الحق | الباطل | الفتوح | الحرص |
| المدينة | البنى | الإحلاص | الشوب | الشهادة | البلادة |
| انصرفة | الإنكار | المداواة | المكاشفة | الكشفي | الإفشاء |
| الجهاد | الانكول | البر | الشرقي | المشفقة | الرياء |
| التقية | الإفاعة | الإصلاص | المنية | الحياة | الحجم |
| للحسد | العدوى | السهولة | المصوعة | البركة | للمحق |
| الغوام | المكاشفة | الحكمة | الهدوى | السماوة | الخطاء |
| التوبة | الإحراق | الآلفة | الفرقة | المصفاة | البحر |
| المحافظة | التهاوي | الاستغفار | الاعتذار | الرجاء | القسوط |
| الامانة | الحيانة | الشكر | للتكرار | الدعاء | الاستعانة |
| الرافة | للمرة | الفهم | الفتولة | الفهم | العمى |
| سلامة العيب | للملكوة | الرقق | الحرق | المصود | الديمية |
| المؤدة | المسرع | المعروف | المسكر | الاستسلام | الاستنكار |
| منظافة | التقذارة | البياض | الشك | الراحة | التمب |
| العمى | الغفر | العافية | البلاء | التعريف | القطعية |
| للوفاة | الحقة | للمطاعة | المعصية | الفرح | نحور |
| للمحب | اليقض | الانشاط | الكسل | المسير | للتبوج |

«ويلاحظ في القائمة المذكورة أنها تتناول أصولاً عامة للعصاب من نحو انحداد، القسوة، الانتقام، البغض، الخيانة، العدا، للمماكرة، السمة، وهي جمعاً سمات لافتة (لشخصية العلوانية)».

كما أن سمات من محور: الحزن، الشقاء، الجوع، السخط، اليأس تظل طوائع الشخصية المنطوية والمكتنية، فضلاً عن أن سمات من محور: لئس، الجحود، الإنكار، الكول تظل طابعاً للشخصية القلقة، وهكذا.

ولا يعيب عن بالاً أن بعض السمات التي وردت في القائمة المذكورة تمثل سمات عقلية من نحو الغباء، البان، والمهم: أن السمات البان عددها أكثر من (٧٠) سمياً سمة، تظل أنماطاً من السلوك العصابي الذي تألفه البحوث الأرضية في شتى تصنيفاتها لأمراض العصاب أو لسمات الشخصية المريضة. في حين أن السمات الفكرية الخالصة تمثل سمة واحدة أو اثنين، وردت في أول القائمة، ونمى بها سمة (الكفر) ومقابلها (الإيمان) مما يعني مدى صلة الأمراض النفسية - في شتى أنماطها - بالمرض العقري (الكفر)، وباتج الأصول النفسية لها، أي: وحدة العصاب العقري والعصي مقابلاً لوحدة السوية نفسياً وفكرياً^(١) على حد تعبير د. البستاني.

زحون بعض علماء النفس أمثال ريموند كاتل أن يقدم تصنيفاً لسمات لشخصية لمنغالة، كالسيطرة وصدعها الخضوع، الشجاعة وصدعها الحس، المرح وصدعها الاكتئاب،

وكذلك فعل العالم السويسري أيزنك حين قابل في تصنيف صغير

(١) دراسات في علم النفس الإسلامي، ج ١، ص ١٢٩

مداول بين معطى هما الانطواء والاتساع، ثم تفرع عن هاتين السمتين سمات فرعية متقابلة، حيث يتدرج بعض السمات الفرعية ضمن سمات لشخص المتوسط وتتدرج سمات أخرى ضمن سمات الشخص المطوي، ولكن يلحظ أن هذه التصنيفات غير شمولية.



ولنلاحظ أن هذا التشابه - بين القائمتين - منطقي جداً لأن قائمة الأصداد الأولى منسوبة للإمام جعفر الصادق عليه السلام بينما تنسب القائمة الثانية لابنه الإمام موسى بن جعفر^(١).

والابن - وفق الطريقة التقليدية السائدة آنذاك - يتعلم بالتأكيد على يد أبيه ويتعلم مباشرة من علمه، وبذلك ينقل الابن عن والده القائمة بمفرداتها والعاضها تقريباً، وإن اختلفت في ترتيبها اللفظي ها وهناك، ولذلك كان المعنى أو المحتوى المعرفي للقائمتين واحداً، فعندما نشير إلى قائمة الأصداد نعني القائمتين عند الإمامين.

القائمتان - قائمة الأب وقائمة الابن - تحلطان عن (٧٥) سمة إيجابية، وعن (٧٥) سمة سلبية، تتقابل جميعها على محور واضح يحدّد للإنسان المسلم ما أسماه القائمتان (حنود العقل) مقابل (جنود الجهل)، والمطلوب كما هو من القائمتين أن يتروك للفرد المسلم السمات السلبية أو حنود الجهل ويرى معه على السمات الإيجابية أو حنود العقل.



ولا شك أن هذه الأنماط من الأصداد الواردة في القائمتين تعبس

(١) جمع القول لابن شعبة الحراني، ص ٢٩٦.

للمعاج العسلى على تحديد السلوك العصائى والسوى وفق المعايير الإيمانية، ومختار منها ما يحقق أهدافه فى عملية المعالجة

واسحق أى ما ارتكبه الناس من الأخطاء فى أنفسهم، كان نسب أنهم لم يستطيعوا تعيين الأنماط المتضادة المتقابلة، فحالت محاولاتهم العلاجية حاطة نفل المريض من مرض عصائى إلى مرض آخر لم يكن موجوداً فى النفس، وقد أسمى العلامة الشيخ النراقى هذا النوع من المعالجة (المدواة بالسم) كما ذكرنا

تاسعاً: تناسب الأضداد وتجانسها:

ذكر علماء السلوك والأخلاق المسلمين شرطاً هاماً هو تناسب الأضداد وتجانسها، هبر أن اهتمامات بعضهم كانت أقل أو أكثر من اهتمامات لبعض الآخر، مسألة التناسب بين الأضداد تبدو أكثر وضوحاً عند ابن مسكويه، والنعماني، والعلامة الشيخ النراقى، ولكنها أقل وضوحاً عند آخرين مثل نبي بكر الرزاقى^(١)

ومهم كان التعارض واضحاً بين اهتمامات علماء الأخلاق المسلمين فإن لهذه الفكرة جذورها الأصل فى مذهب الله عز وجل، وهذه دون شك خاصية أخرى تؤكد تميز هذا المذهب عن غيره وتفرد، يقول الإمام علي عليه السلام فى هذا الصدد

«كل حسن يعيل إلى جسه، وكل شئى ينغر من صده، وكل أمرئ يعيل إلى مثله»^(٢)، وهذا النص كما يبدو - والله أعلم - فيه نعت نهر إلى فكره تناسب الأضداد

(١) راجع رسالة نبي بكر الرزاقى فى الطب الروسنى

(٢) مذهب البلاء، ج ١، ص ٧٨

ولكن ما المقصود بفكرة التناسب بين الأضداد؟

إن كل سمة عصبية تُععى باسمه إيجابية سوية من نوعها، وكل سمة تعالج بحسنة من جنسها، فاللدواء من معار الداء كما قال حجة الإسلام أبو حامد الإمام الغزالي رحمه الله: «فإن المرض يعالج بضده، فكل طسمة ارتفعت إلى القلب بضده، فلا يمحوها إلا نور يرتفع إليها بحسنة بضادها، والمتصادات هي المتناسبات، لذلك ينبغي أن تُععى كل سمة بحسنة من جنسها، فبأن البياض يزال بالسواد لا بالحرارة والبرودة»^(١).

والحرارة تزال بالبرودة لا بالبياض، وهكذا تضاد كل سمة سلبية بأخرى إيجابية من نوعها، ومن جنسها. أي تناسبها.

أما الشيخ الرازي رحمه الله فيقول:

«إن العرد ينبغي عليه: أن يادر بعد معرفة الانحراف إلى تحصيل الفضيلة التي هي ضده - ومن جنسها كما قلنا - والمواظبة على الأنعال التي هي آثارها، وهذا بمنزلة المصاد للمرض، فكما أن حصول الحرارة في المراج يدفع البرودة الحادثة فيه، فكما كل فضيلة تحدث في النفس تزيل الرذيلة التي هي ضدها»^(٢).

ويقول الإمام الغزالي

- «إن العلة المعيرة لا اعتدال البدن الموجبة للمرض لا تعالج إلا بضدها، فإن كانت من حرارة فالبرودة، وإن كانت من برودة فالحرارة، فكذلك الرذيلة التي هي مرض القلب علاجها بضدها، فيعالج مرض سجهل

(١) إحياء علوم الدين ج ١، ص ٣٦٠

(٢) إحياء علوم الدين ج ١، ص ٣٦٠

بأنعلم، ومرضى البخل بالتسخي، ومرض الكبر بالتواضع، ومرضى الشبهة بالكلم عن المشي تكلفاً^(١).

كذلك يقدم لنا الشيخ محمد الغزالي «المعاصرة» رحمه الله عز وجل نموذجاً نكيبه استعمال فكرة التناسل في منهج المعالجة بالأصداق يقول:

«عندما يكون المرء بخيلاً مثلاً، فعلاج شحه أن يتعلم الكرم ويتموده، فيصبح عسى من الأبهام طبيعياً، أما أن يلجأ إلى الصلاة الطويلة كي تخفي بغيضته - في البخل - فذلك لا يجدي، وسيبقى بخيلاً لو صلى أثناء الليل وأطراف النهار»^(٢).

والكلام واضح جداً، فعلاج السيئات لن يكون مجدياً وفعالاً إلا بما يناسبها من الأصداق، فلا يعالج الحروف إلا باقتحام الأمور والوقوف فيه لا بالسفاه، ولا يعالج الكسل إلا بالنشاط والحماس لا بالصنع، ولا نصح عادة ظلم الآخرين إلا بالعدل لا بالنشاط، وهكذا يغير المعالج انفسه المسلم كل عادة سيئة في مرضاه بما يناسبها من الفضائل، وما يصلح لها من لفهم العبادة، فكل جنس يميل إلى جسده، وكل شيء يعبر من ضده كما قال الإمام علي عليه السلام:

«وكل رذيلة نعالجها ففيلة تناسبها».

«أيما يعرف قدر الحمم ينقاسه ضلها»^(٣).

ب. اختيار المتناسبات من الأصداق يوجه عملية العلاج في صيرتها لصحيح، لأن الاختيار يقع إما على سمة إيجابية تتوسط سمتين متقابلتين

(١) إحياء علوم الدين ج ٢ للغزالي، ص ٩٩.

(٢) الشيخ محمد الغزالي، صبور الوجدة الثقافية بين المسلمين، ص ١٩٢.

(٣) مراد المحكم ودرو الكلم، ج ١، ص ١٢٤.

من السمات الإيجابية فو يجمع على سمة حدية لا وسط لها، ولأنه
المحكم للأعداد يحقق اعتدالاً سوياً في حركة الذات، فيحصيها ضد شيء
انماط المرض النفسي وأنماطه المختلفة

ويلاحظ أن تناسب الأعداد لا يتحقق من خلال الأساس لسطري
للمنح الإسلامي، فالمعلم النظري يرشد المعالج والمرمض إلى اختيار
المناسبات بين الأعداد، لكن المعالجة أبعد في واقع الأمر من حدود
لمعرفة النظرية، فيجب أن تكون المعرفة، مرشداً ودليلاً خلال فترة
المعالجة، غير أن العمل هو الذي يحقق التعبير والشفاء النفسي، فلا يكفي
الفرد علمه بأن ما يناسب البطل هو سمة الكرم، لأن التسخي في سبيل الله
موقف، وعلم، واختيار، وتدوير متواصل وتصحبة بما في اليد، وتسييم
كسر لله عز وجل.

عاشراً: التخلية والتخلي:

تسلك المعالجة النفسية الإسلامية للانحراف طريقاً شاقاً تصاحبه آلام
المعاناة وحلاوة المجاهدة، ويبدأ هذا الطريق بسحو تلويحي مرتب للأخلاق
المدمومة من النفس، وهذه خطوة تيسر عملية تخليتها بالسمات الإسلامية
فكما قال القرآن الكريم:

﴿أَلَمْ تَكُنْ مِنْهُمْ نَفْسًا﴾^(١)

وقوله ﷺ في حديثه الشريف: «أتبع السيئة الحسنة تمحها»^(٢).

ولا يكفي كما يقول العلامة الشراقي في بدارك الشهوات وتوبة،
مجرد مركها في المستقل، بل لا بد من محو آثارها التي انطعت في جوهر

(١) سورة هود، ١١٤

(٢) جامع الصحاح، ج ٣، ص ١٢.

انفس سور الطاعات، إذ كل شهوة ومعصية صدرت من الإنسان ارتفعت منها ضلعة إلى قلبه، كما ترتفع من نفس الإنسان ظلمة إلى وجه المرأة العقيمة، فإن تراكمت ظلمة الشهوات والمعاصي صارت راساً، كما يصير بحار انفس في وجه العرقة عند تراكمه خثاً^(١).

فالعبد لا يستغني أولاً عن البدء بخطوة محو آثار الميئات من قلبه، تتبعها بعد ذلك خطوة تزويد النفس بالقيم والفضائل الحسنة وتغزيرها بكل سلوك عبادي سوي، شرط أن تتوفر في عملية التمدلج فكرة تناسب بين الأضداد، وهذا العلاج كمنهج، بمثابة تفريع الإناء من الخلل، وإعادة ملئه بالماء النقي فإنه لا يكفي كما يرغم بعض علماء النفس، أن نمرغ النفس من لمبجونات والمزعبات القديمة عن طريق التنفيس والنداعي للحر أو أي طريقة أخرى من طرق العلاج الحديث، سواء كان طريق النفس «الفن» أو العلاج باللعب أو بأسلوب آخر.

كل ذلك لا يكفي ليكون الإنسان صالحاً مؤمناً، ومتوافقاً سرّياً

إذ أنت لا تشك في أن الإنسان معرض دائماً لأن يمأ مرة تلز الأخرى - بعد عسية التنبس هذه - بحكم العادة والتطبع والتقليد شهوات ودرغبات ومتعلبات أكثر جوحاً وأعظم انحرافاً لأن نمسه في هذه الحالة فارعة تماماً وفي حالة ظلماً شديد.

نكما أن النفس مستعدة لقول الحديد، مشوقة لمصادره أول ردة لشبعها، وحريصه على الإقبال على الشهوة دون أن تتين ما هو جميل لها، وما هو قبيح، فتتحرك في شغف لتشبع النفس بكل ما يقابلها من احتياحات

نريد إشاعها، ومن أفعال نود القيام بها، وأعمال معنى لها، دون أن نسكن إلى شيء أو نرعى عن شيء فإذا شعيت من مرض ملبت وأمراض أخرى، وإذا سكنا فيها الخوف هاجمها الغرور، وحب الذات، وإذا مفرغ منها الناس تنبها الرياء والكبر^(١) وأمراض سلوكية أخرى.

وتحلية النفس من دمانها - أولاً - ضرورة أساسية للمعالجة، فما لم تحصل التخلية لم تحصل التحلية أبداً، ولم تستعد النفس للغيوصات النفسية، كما أن المرأة ما لم تذهب المكذورات عنها لم تستعد لارتسام الصور فيها، والبدن ما لم تزل عنه العلة لم تنصور له إفاضة الصحة، والثوب ما لم ينق عنه الأوساخ لم يقبل لوماً من الألوان، فالمواظبة على الطاعات الظاهرة لا تنفع ما لم تظهر النفس من الصفات المدمومة كالكبر، والحسد والرياء، وطلب الرئاسة والعلو وإرادة سوء للأقران والشركاء، وطلب الشهرة في البلاد وهي المعاد، وأي فائدة في تزيين الطواغر مع إهمال البواطن^(٢).

وحالاً لمنهج العلاج النفسي الوضعي، لا يقف منهج المعالجة الإسلامية عند المحطوة الأولى دون الأخرى لأن ذلك يسمح للمرواسب أن تنبث من جديد، كما أنه يحتمل أن تنعرض لدخول انحرافات جديدة يريد الذات بساداً، يختلط فيها الخير بالشر معاً.

يقول العلامة الرافعي رحمه الله

«وكما أن اليدن الذي ليس بالسقي كلما غلوتته، فقد ردت شرأ،

(١) - حسن الشرفي، نحو علم نفس إسلامي، ص ٤٥ - ٤٦، وكذلك كبر ذلك في مقال آخر للمؤلف
كتب بصران امليب النفس الإسلامي، وشرو بمجلة الاتفاقية العربية العلمية، العدد الخامس، السنة الثالثة ١٩٧٦ م - ١٣٩٦ هـ

(٢) - صانع السماعات، ج ١، ص ٤٢.

بكدلك النفس التي ليست نعمة عن ذمائم الأخلاق لا يزيده معلّم لعموم إلا
ساداً^(١١)

وفي صوء ذلك يجب ترشيد المريص بهذه الحقائق، ويعلم ضروره
اصيدع نفسه لها، فكما أن المعطلح المسلم يمر بالخطوتين - التحية
والتحية - جياً إلى جنب، كذلك ينبغي على المريص أن يبدأ عملية التحية
النفسية والعكرية قبل التحية، فالنفس الإنسانية كما تقول بعض المرويات
«إن لم يسقم بها الهدى جار بها المصلا».. ولا وسط بينهما

وقد وردت مصوص عن الإمام علي عليه السلام في هذا الصدد:

«واصلح إذا أنت فسدت، وأتمم إذا أنت أحست»^(١٢).

«النفوس طيلع سوء، والحكمة تنهى عنها»^(١٣)

وفي روية أخرى أن الحكمة تخرج النفوس عن طيلعها سوء، فتقول
المروية إن لطنفس طيلع سوء، والحكمة تخرج عنها.

«غالبوا أنفسكم على ترك اللذات، وحامدوا أمواءكم تملكوها»^(١٤).

يقصد - ها - ترك المرء المسلم للمذات الحاطنة واستبدالها بمذات
السلوك العبادي الصحيحة التي تشتمع بقدر كبير من السواء، وذلك عن
طريق التدريب وتحمل مشقة العملية الجهادية يومي وصبر وقصد، فالمقالة
نعمي حالة التذامع داخل النفس بين قوة ضبط المذات المدممة المستحكمة
التي لا ترمي فك سيطرتها على النفس وبين جدية التغيير الجديد. وهو،

(١١) جامع الحاديات، ج ١، ص ٦٠

(١٢) ٣٠٠٠ كلمة، ص ٢٩

(١٣) ٢٠٠٠ كلمة، ص ٨١

(١٤) مبرك الحكمة ج ٧، ص ١٢٢

الفصل السادس

معوقات العلاج النفسي
بطريقة الأضداد

ليست المعالجة النفسية بأسلوب الأصداد عملاً جهادياً سهلاً كما سبق الإشارة إلى ذلك عدة مرات، فهي مجاهدة نفسية وذهنية وحركية طويلة المدى تستغرق العمر كله بالنسبة للإنسان المؤمن، ولكن بالنسبة للمريض والمعالج النفسي المسلم فهما يعيشان خلالها لفترة مؤقتة - أي خلال الجلسات العلاجية - في مواجهة مع كافة التحديات والقرى المترسبة والدفاعات المرضية التي تسع الفرد المريض من استعادة توازنه الداخلي لمفرد، والعودة إلى حياة التكيف والرضا النفسي، ثم يواجه كل منهما دوره المعتاد في الحياة.

وسوف يوضح في الصفحات القادمة - بإذن الله تعالى - أن الحالة السيكلولوجية التي أطلق عليها علماء النفس الوهمي المعاصرون مصطلح لصراع النفسي^(١) لا تبدأ أبداً من فراغ، وإنما تولد بسبب تدافع داخلي بين قوى النفس المتقابلة في اتجاهين متعارضين أحدهما يمثل موه الشهوة ورر ندهم الصاره، والآخر سمو الروح ورفي العقل، وحكمة الدين وستمم والأخلاق

(١) ستأش في الفصل القادم - إن شاء الله تعالى - موضوع الصراع النفسي وعده - منهج العلاج النفسي بالأصداد على حسب حالات الصراع النفسي حسباً مؤقتاً وسوياً في ضوء القيم البادية التي أكد عليها المزمع التربوي الإسلامي، وإحاطات تولد في سيكلولوجية الفرد

ومما لا ريب فيه أن ثمة معوقات تواجه للمرضى النفسانيين، ومعيق حركتهم في الوصول إلى الهدف الجهادي المرجو وهو تحقيق حالة مقبولة من الرضا النفسي الموصول بإحساس المريض برضا الله عنه، وتكوين علاقة مردودة ذات معدين وأسي مع الله عز وجل وآخر أفضي مع الناس والمجتمع كما أوضحنا ذلك في موضح سابق من هذه الدراسة

وتتأثر شخصية المريض بعدد من المعوقات يستيق بمصعب من داخل النفس، ويستيق البعض الآخر من المعوقات التي تواجهه وتصلبه البيئة الاجتماعية والثقافية، وسواء كان المجتمع أو الفرد نفسه مصدراً لهذه المعوقات، فإن تأثيرها يلحق ضرراً أكيداً بذات المريض وسبكولوجيته ويتوغل في الحياة ويؤثر - بدرجة ما - على سير المعالجة السلوكية وبطامها، لهذا يصح المعالج النفسي المسلم مرضاه بالصبر والاحتمال، وللبات أمام صعوبات التعديل السلوكي ومعوقاته الداخلية المرتبطة بالظروف النفسية للمريض أو الصعوبات الخارجية المرتبطة بالمحيط الاجتماعي ومثيراته وضغوطاته.

سوف نشير إلى بعض هذه المعوقات.

أولاً: معوقات النفس «المعوقات الداخلية»:

وهي معوقات تصدر من داخل الفرد كالأرواسب النفسية، والشهوات الشخصية، وكل العوى التي تصعب من إرادته الفرد، كعدم المعاودة الدائمة للعلاج المعبي أو تعديل السلوك، أو الإعجاب بالذات، أو النظرة الرئائية للذات، وهكذا.

ويمكن الآن تحديد بعض هذه المعوقات على سبيل المثال لا الحصر النهائي بما يلي:

- ١ - اتباع هوى النفس
- ٢ - العجب والجهل .
- ٣ - الرواسب النفسية .
- ٤ - مقابلة الناصح بمقاله .
- ٥ - الإسراف في لوم الذات وتلقيها .
- ٦ - استصغار ذنوب اللذات .

١ - اتباع هوى النفس:

ويشير هذا العائق إلى مقاومة سلبية نطلق من داخل النفس لمعالجة نردن بمضائل، والقيم المادية، ولا تحتاج معرفة أثر هذا لعائق في المعالجة إلى جهد كبير، إذ تؤثر أمواه الشخص - سويّاً أو مريضاً - على تقدم حركة العلاج وتعديل السلوك، وتعطيل طاقات الإنسان عن استئناف سورها الطبيعي.

وقد بيّه المشرع التربوي الإسلامي إلى خطورة هذا العائق. كما دم المشرع التربوي الإسلامي الفتنة التي تنقاد لرامام الهوى، فتحبط أجزها عند الله سبحانه وتعالى، وتدمر إمكانياتها التي سخرها حر وجل لتعبير الحياة

إن النفس الأماره بالسوء والمنقادة تمشي في أحيان كثيرة مع رعونة الشهوة خاصة إذا كان العلاج يسهف كف تأثير عادة مستحكمه، مضي عليها زمن طويل أو يتاء عادة سلوكية جديدة، ومن المؤكد أن سهوله ميل النفس إلى الباطل، يمعها من قبول الحق والانصياع لتهجه في الحيد، وقد س لقرآن الكريم لفعل الهوى ودوره ومخاطره المعطية على استقامة الشخصة وانصاطها، بقول بعض آياته المحيطة

﴿إِنزَيْتَ مِنْ أَعْدَى إِلَهِهِ هَوْنَهُ وَأَمَرَهُ اللَّهُ عَلَى بِرٍّ﴾^(١)

﴿وَلِئَلَّا تَتَعَ اللَّيْلِ طَلَبُوا أَهْلَهُمْ بِمَاءٍ عَلَيْهِ﴾^(٢).

﴿وَمَنْ أَمْلَأَ يَتَّى النَّجَّ هَوْنَهُ يَضْرِبُ مَلَكِي يَسْ لَقُو﴾^(٣).

كما أن للمرويات والنصوص الروائية تؤكد - بقوة - على ضرورة المجاهدة الممثلة لصفط الهوى ومقاومة الشهوات الرائدة والسيطرة عليها مثل

«لا اجتهد كمجاهدة الهوى»^(٤).

«أفضل الأعمال ما أكرهت نفسك عليه»^(٥)

«جاهدوا أهواءكم تملكوها»^(٦).

«لا فضيلة كالجهاد، ولا جهاد كمجاهدة الهوى»^(٧).

واقف عند غلبة الهوى باسترشاد العلم»^(٨).

وإذا لم يلتصق الإنسان كثيراً إلى أثر إغواءات الهوى، فإن خطة العلاج النفسي سوف تنعثر حتى لو كان متجهاً لمساواة النفس من عادة واحدة، كالعسك، والمغفون مثلاً، ولن تستطيع النفس بعد ذلك بلوغ ما تصو إليه، لأن أول انحراف البصرة التي يتركها عامل الهوى في النفس هو خطة انقلب

(١) سورة العنكبوت، ٢٤

(٢) سورة الروم، ٢٩

(٣) سورة القصص، ٥٠.

(٤) شعب المقول، ص ٢٠٨.

(٥) موج البلاغة ج ٤، ص ٥٤.

(٦) ميراث الحكمة ج ٧، ص ١٢.

(٧) شعب المقول، ص ٢٠٨.

(٨) شعب المقول، ص ٢٠٧.

عن انهدي، وصده عن قبول الحق، وليس من شك في أن هذه المشكلة العسية هي رأس المشكلات في انساع دائرة الانحراف بلربح في حياة الفرد، فالمحب، والكفر، والعصية، والعصب، والعفة ماشئة عنها

٢ - العجب والجهل

قد يعجب المرء بنفسه، فلا يراها بحاجة إلى مزيد من الكمال الروحي والمعنوي، فكما قال الإمام علي عليه السلام: «الإعجاب يمنع الزهادة»^(١).

ويراد من ذلك أن الفرد إذا استعظم ذاته وركز إلى الوهم الذي صممه لنفسه... (وهم كمال الذات)، فإن هذه الحالة النفسية تزيث له سوء عمله غيراه حسناً، مصداقاً لنص الآية القرآنية الكريمة: «أَفَسَ يُؤْنَسُ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ»^(٢).

ولم يشرح لهذه الآية الشريفة بقول أبو الحسن عليه السلام:

«العجب درجات ومتها أن يزين للمعبد سوء عمله فيراه حسناً، فيعجب، ويحسب أنه يحسن صنعا، ومنها أن يؤمن المعبد بربه، فيمن على الله - عز وجل - ولله عليه فيه المن»^(٣).

والإعجاب بالذات مرض سلوكي وجاهل بالنفس قد لا يسه له الفرد الذي ينضمم ذاته دون وعي منه، ويطالب للمشروع التروبي المسلم بسد سبيل لعجب ومقاومته بقوة وبشجاعة، ويتم التعلب عليه كما أكد نص شريف عن طريق معرفة النفس، يقول النص:

(١) معج البلاغة ج ٤ ص ٤١

(٢) سورة ماطر، ٨.

«سد سبيل المعجب معرفة النفس»^(١).

وليس أمام المعالج النفسي المسلم لواء هذه الحالة النفسية المرضية سوى البدء بتحليل المشكلة ومعالجة الأسباب، ووحيد آثارها في حياة الفرد المريض معه قبل القيام بعملية المعالجة النفسية وأثناءها ومقارنته ذلك بالسائج المنزلية عن عملية العلاج بطريقة الأصداد، فيحل المعالج النفسي المسلم محل هذا الإحساس المريض إحساساً آخر، وهو تدريب الشخصية المسلمة على الشعور بالقصور في كل أعمالها إزاء الله، وإتهام النفس - بنقص العمل - حتى تتابع العمل، فأحظر مساوئ هذا الإحساس المرضي - أو الإعجاب بالذات - موت الضمير والشعور بالمسؤولية، وتوترات نفسه مع المجتمع، وإضاعة الأجر، لأن المعجب يطلب التقدير من المجتمع، فإن لم يظفر به تراجمت الذنات عن متابعة العمل

لهذا يبحث المشرع الإسلامي الشخصية على التحرك من خلال شعورها بقصور العمل دائماً لاستكماله، فتكون باستمرار في حالة استعداد للترقي ولسمو والسي للكمال، وفملاً فإنه «لا جهل أضرم من المعجب»^(٢).

٣ - الرواسب النفسية

تصدر الرواسب النفسية العائدة قائمة مشكلات العلاج النفسي التي تواجه الشخصية المسلمة، حيث تسهم مباشرة في الحد من حركة لجهاز العصبي في الأخذ والعطاء، وساهم بذلك في تعطيل كثير من الطاقات العاملة في «العومس» وإيقاظها مجملها عاجزة عن أداء وظيفتها التربوية وكأنها لم تعرف بعد، فالرواسب تركة ثغيلة متراكمة من المشاعر الأفكار والعادات

(١) بحث المبروك، ص ٢٠٧.

(٢) ينظر الأثر ج ٧٦ ص ٣١٥.

لتي قد تلد النفس والعكر معاً إذا كانت جذور هذه الرواسب ذات طبعه مرضية، وظلّت قابضة في قاع النفس.

إن الرواسب وعاء نفسي للميراث الثقافي للعرد والجماعة معاً، ويمكن أن تفسد هذه الظاهرة المرضية على العربي المسلم جهده التربوي والعلاجي وتحرمه من فرصة الاستفادة الكاملة من الكتوز والطاقت الدخيلة في ادات الإنسانية، ونفس عليه صوغ النفس صياغة عيادية تحررها من أسر الشهوات وصفوط الماضي.

وتبدأ الرواسب النفسية في شخصية العرد عادة من تراكم الخبرات لتي يمر بها الإنسان في حياته سواء كانت هذه الرواسب صالحة أو فاسدة، لتشكل على مرّ الأيام وصيداً تعين المرء على التوبة والتوجيه الحسن أو تكون له عقبات كأداء تثقل عليه جهده وتموق عمله للتغيير.

وهذه الخبرات الوجدانية والمكرية والسلوكية تنسرب إلى أستر جره من نفوساً، ونهيمس عليها، ولعل ذلك هو السر الحقيقي لقوتها في التأثير على حركة العلاج النفسي وتعديل السلوك تأثيراً صارماً أو ناعماً، ويكاد يكون من الصعب إلقاء تأثيرها من النفوس ما دامت قدرتنا عاجزة عن مقاومة ضغطها تدريجياً، وهي بذلك من أهم مشكلات العلاج النفسي بالأصناف

وكيف هو واضح فإن للرواسب عمق رمزي تتأثر به، ونستمد من قوتها وضعفها، فاستدائها التاريخي في النفوس ممتددة وقاعدية أكثر، وبالمعنى فتماماً كلما كان رصيدها الرمي أقصر كان تأثيرها الحركي أقل تأثيراً في القلوب، وأكثر عرضة للزوال، ولهذا فإن تفاوت الاكتساب الرمي لهذه اتركة للمراكمات من الأفكار والعادات يجعلها تتفاوت في قوة تأثيرها على النفس، فالشخصية البشرية تحجب عادة لصفت العادات والأفكار الراضحة

مد فترة طويلة، بحيث يصعب على عادات ذات عهد جديد أن تكتسب قوة صمط مماثلة لصمط قوة للعادات المترسحة، ولا يرفض المسلم بالتأكيد تأثير العهد التاريخي للرواسب.

غير أن قدرة السهج العلاجي في ميدان النفس تتصح سيطرته، المعالاة على حركة الرواسب وتوجيهها في مسار يحقق الأهداف العبادية، ومن هنا به، المشرع الترموي الإسلامي في مصوحه الكثيره إلى أثر صعود الرواسب الراضحة، ومشاعر انعمالية لدورها في تكوين قوة دفاعية مرضية لمقاومة كل تعديل للسلوك

إن الرواسب بلغة بسيطة مجموعة أفكار، وعادات تشكلت بالتدريب، ووجدت لها مكاناً في النفس بمرور الأيام، ولو شبهها النفس بإناء واسع وعميق، لقلنا إن الرواسب تستقر عادة في قاع هذا الإناء، وتظل في الطبقة السفلى منه تتحجر لمواجهة النفس العاقلة كما يقول الفلاسفة في لحظة الاستشارة، فتعكر صفو هدونها، فإذا حدثت الاستشارة سببت صدمة لها، تنالرت تلك الرواسب في داخل النفس من أوداعها إلى أقصاه، وظهرت عواصف العفن في المباء الآسنه، بل يصبح نمرها عملاً تلقائياً يتجه صوب الاستشارة، لكن حركة الرواسب من حيث قوتها لا تكون دائماً بعمرها التاريخي كما يذهب الماديون، فهناك راسب هشه وجدت طريقها إلى النفس بدون قناعة عقلية داخلية، أو فرصت على الناس لاعتبارات نحو من الإيمان الفلبي والعقلي بها

ومثل هذا السط من الرواسب ينهار بمجرد أية مواجهة عصفه من قبل المصالح النفسي المسلم، حتى لو كانت هذه الرواسب ذات بعد تاريخي طويل إلى حد ما، لأن هذه الرواسب تبدو غير منطقية، ولا تحتاج إلا إلى مواضع جعلها بالعلم والمعرفة الصحيحة وتعريه محزونها وتصعيه وتدبيره

وسوء كائن الرواسب ذات عمق تاريخي أو حالة معروضة ملاذات عقلية، فإنها على كل حال تبعي ولو فتره ما حية فاعلة في الفوس، وصاعطة في فترة المصالحة بمقدار قوة استحكامها، وهذا في الواقع قدر كس الشترين على أنفسهم الراعين في تغيير أنفسهم وتعديل أفكارهم وانجاسهم، وخلال هذه المدة يسط الصراع النفسي وجوده دوما رحمة، ويوحج الشعور بالقلق، والتوتر، غير أن حدثه تحف أو تشتت بحسب مجاح أو فشل برنامج المصالحة في السيطرة على قوة الرواسب، فنصبة «العمل أمد من العمل»^(١) على العاملين وأصعب كما جاء في الرواية الشريفة المسبوبة للإمام علي عليه السلام.

ويقول في نص آخر.

«تخليص النية عن الفساد أمد على العاملين من طول الجهاد»^(٢).

ومعناه أن تخليص النية من الشوب، ورواسب الشر أصعب على الفرد من أداء عمل معين، فالصلاة حمل عبادي قد ينجح للفرد في أدائه بحركات متقنة، جرياً وراء عادة رسمت في ذهنه منذ أمد، لكن ذلك لا يعني أبداً نجاحه في إخلاص النية، وتصفيتها من الشوب والرياء، وهذا يؤثر في نظر لمشروع الإسلامي على إنقاذ العمل، لأن الإنقاذ في مفهومه الإسلامي ليس حركياً فقط، إنما هو أيضاً أحداث عبادية متكاملة تمتد من عنصر النية إلى عملية التفكير ثم العمل والأداء.

فالرواسب العالقة تدو فعلاً مشكلة صعبة إذا فرضت على الفرد حالة من الصراع النفسي العنيف، المقلق للشخص، لكنها أشد إبلاماً إذا صعدت

(١) صفاء العنبري، ص ٧١.

(٢) صفاء العنبري، ص ٧١.

العندرة الدائمة لدى الأفراد، وحثت عندهم كل مقاومة لها، ومن هنا يرد إبداء الرواسب للنفس التي اعتادت الانصياع للشهوات، وهذا يسمي من الانتماع من استثمار قولها الضاعطة المتمثلة في الفعل والإرادة، وقد اجتمع صوت هذه الرواسب فيما أسماه علم النفس التحليلي بالمقاومة النفسية، حيث يلجأ الفرد عادة في مقاومة مهم ذاته، ويعجز عن التصور في وجه التركة الثقيلة من الأفكار والعادات المضافة، مهما كان إحلاصه، واجتهاده، إذ تتوقف حواطره، وأفكاره عن التذكر الصحيح بسبب مقاومة شديدة من داخل نفسه أو إعاقة الرواسب لأي تقدم ملحوظ في المعالجة، وقد سبصر المريض في صبر وأناة، ما حفي عليه، عادت حواطره إلى التذكر، والانسحاب، ونهياً لاستقبال وتلقي الجديد، وإحداث تعديل في السلوك

ويعتقد رجال علم النفس التحليلي أن هذه الرواسب لا شعورية حواها للزمن تحت ضغط حيرت غير سارة، وأصبحت مصفراً للألم عند استعادتها لحظة غفلة الوعي عن مرافقتها، لهذا تحاول النفس كبت هذه الحيرتات وحدها من دائرة الوعي والمشغور لفترة معينة تطول أو تقصر، وهي تثجين الفرصة للظهور مرة أخرى - في وعينا لتخرجنا، ويقترح فرويد معالجة هذه المقاومة ومداومتها حتى تصبح شعورية، ولا بد أن يناسب جهدها لمبدون بمنحها عليها مع قوة المقاومة ودفاعاتها المرغوبة التي تبديها النفس في حالة استعادة حيرت مكبوتة مرعجة، وأدى ذلك إلى صياغة نظرية فرويد في الكبت، التي أصبحت فيما بعد حجر الأساس لمفهومه عن العصب

وانتهى فرويد إلى إمكانية ضعف المقاومة النفسية باستخراج جزء من مكبوتات النفس إلى عالم الشعور، وحتف بصحو النفس وسبصر الفرد مشكلته، غير أن الشفاء يكون مؤقتاً كما اعترف بذلك أحد لعلماء

للسلوك كس، لأنه من المحتمل أن تعود أسباب المرض، وتشتت مرء أخرى دواعي المشكلة، لقد أكد أنزيك هذه الحقيقة بقوله:

«إن معدل شفاء المصابين ثابت فعلياً سواء عولجوا بأساليب العلاج النفسي المعروفة أو تركوا دون علاج»^(١) وهذا يرجع إلى عقم المرض والطبقات التي أسسها علماء التحليل النفسي عن حقيقة النفس البشرية^(٢).

إن المقاومة النفسية التي تبديها عادة كل نفس - مريضة أو عادية - طبيعية وحقيقية مادام الفرد قد اكتسب خلال فترات عمره تجارب متروكة من الأفكار والمعتقدات والمشاعر الوجدانية وأنماط مختلفة من السلوك، ولا أحد يلوم الفرد على إبداء مقاومة فهم نفسه واستعادة ذكرياته خاصة المولمة منها، لكن المعروف إسلامياً، بل في العيادات النفسية الأرضية أن يجعل الفرد من نفسه كياناً صميماً وعاجزاً، وقد أمده الله بالقدرة على تهرق القوة انفسانة من الرواسب النفسية لأنه كما نقول نوعة الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام: «ما صعب بدن عما قويت عليه»^(٣).

والمعالج النفسي المسلم يحاول تفهم طبيعة وقوة هذه المقاومة ليبلغ لغاية، فيفري الرواسب الإيجابية، ويحطم الرواسب السلبية، فيبدو (المرضى) بعد ذلك مكشوفاً، علواً أمام المريض، ويتعرف على دواعي المرض، وشحائنه الامعالية، وينقل الأساليب العلاجية التي يقترحها للمعالج النفسي المسلم لصوغ ذاته من جديد بوجهة نظر إسلامية، وهي صياغة لا نكتفي فحسب بالتعلل على روح المقاومة التي تبديها رواسب أنفس، ربما تنشئت عناصر إيمانية جديدة تعين الفرد على استئناف دوره الجديد وتكوين عادات سلوكية عبادية مرغوبة.

(١) د. حسن الشرفاوي، بحر علم من إسلامي، ص ٨٩

(٢) المصدر السابق، ص ٨٩

(٣) جامع العادات، ج ٢ ص ١١٩، وميران الحكمة ج ١٠ ص ٢٧٢

ومن المسائل الثابتة في المنهج السلوكي الإسلامي أنه لا يعمل أبداً،
 عن هذه المقاومة التي يبديها النفس، ولا يتجاهل أثر الرواسب على سير
 المعدلة للذات المصلحة، فقد وضع برنامجاً متكافئاً لمواجهة هذه
 الرواسب، فهو يفتقر في أول خطوة له واقعية الصمصع في الطبيعة البشرية،
 ويحاول أن يتعامل مع هذه الواقعية بمسطق إيجابي يهرز الإسلام

لقد أقرت الروايات الشريفة بدور هذه الرواسب وأثرها في مقاومة
 تعلم العادات الجديدة، وفعاليتها السلبية في تغيير اتجاهات الأفراد، ولكنها
 من جانب آخر نحث على تواصل التدريب التربوي العبادي في تكوين
 العادات الجديدة المرغوبة وتمييزها لدى الشخصية

ومن هذه النصوص:

«رياسة الجاهل ورد المعتاد عن عادته كالمنعرج»^(١)

«إزالة المحال أهون من إزالة قلب عن موضعه»^(٢).

أما أصعب على من استعدته الشهوات أن يكون فاضلاً.

ويدرك المنهج التربوي الإسلامي خطورة نتائج هذه المقاومة على سير
 المجاهدة والمعالجة السلوكية، ويثبت كذلك العلاقة بينها وبين البعد الزمني
 والتاريخي، وكذلك عامل الانفتاح الداخلي بالأفكار والعادات، وهذا يعني
 أن المنهج السيكولوجي الإسلامي ينظر إلى الرواسب نظرة واقعية حالية من
 التهويل والتهوير، وقد اتخذ من ذلك قاعدته لتشخيص الأمراض السلوكية،
 لأنه يدرك أن خطأ فادحاً في تقدير الوجود الحقيقي لروح المقاومة يعني
 مكينة فشل المعالجة بأسرها

(١) صحاح المصنف، ص ١٩٢.

(٢) صحاح المصنف، ص ٢٦٣.

«لعل سوء المصالح في تقليل حجم هذه الرواسب جعل بعض المعطيات المرمية ترى أن الفرد أسير دائماً لهذه الرواسب مهما حاول التخلص منها وتحرير نفسه من قسوتها وسلطانها، فيظل الإنسان رهس إشارتها بين فترة وأخرى، مما يشعر المريض حمة أمل دائماً، وهذا وضع لا يقره الإسلام، لأنه دين يتجه بالإنسان دائماً نحو المستقبل، ويعمل على إدانة تأثير الماضي على نفسه إذا كان عنصراً معوقاً للنمو الطبيعي.

ومما لا شك فيه فإن الغرف على حقيقة الرواسب من حيث قوتها، وبوعيتها، يمثل جزءاً هاماً من منهج الإسلام في تربية الذات وعلاجها، وبعد أن يرصد المعالج النفسي المصلم حركة الرواسب، والمقدمة لنفسية ودفاعاتها المرضية ويدل جهده لإضعافها، يحدد إلى متابعة مفضة أخرى أكثر تقدماً في موضوع العلاج، حيث يجعل من الرواسب قوة حيادية لا تحمل شحنة انفعالية ومعرفية سلبية وعائقة لسير المعالجة، ثم يتبع المعالج خطورته بواقعية، يتجه جهده - بعد ذلك - لاستئصال كل خطأ تربوي نهت في المرحلة الأولى من العمر، أو عادة مرضية وقعت في فترة أخرى لاحقة من فترات النمو، ويعب في ذلك شعور المريض بأنه الآن في مرحلة لرشد، رسي التكليف الشرعي الذي لا يجوز فيه للمسلم أن يسكت عن أخطئه ماضيه، يدعوى أنها أصبحت رواسب غير ممكن تغييرها، أو تأثيرها يعاود نسلطه على النفس مرة بعد أخرى

إن المرحلة الرشد أهمية كبرى في نقل العلاج من مقله نوعية في حياة المريض، فهي مرحلة الشباب الراشد نمو لدى الفرد مدرته العقليه وبرد مسترى دكانه وتنوع قدراته العقلية الخاصة، ويتوق كذلك إلى استقلال أدوات، والاعتماد على قواه الذاتية في تدبير أموره، وهو لذلك بصحي بأمر ما يملك، ليحقق استعلائته، ويكون دائماً مستعداً للمواجهة مع كل قوة

تعوق نمو هذا الشعور لديه، ويبعدي للمعالج النفسي للمسلم أن يستثمر هذا الإحساس لطبعي لسجاح نظام المعالجة، بالتغلب على تأثير روست النفس، راء لتعلم الجديد.

ويبني للمعالج كذلك أن يراعي الإحساس السليم بحظف الإسلام وحياته الدائم الهادئ، وينمي في سيكولوجية المريض روح المسؤولية، مبحث لحمل مسؤولية تغيير ذاته على أساس الإيمان بالله، بل عليه أن يستعيد - كامل الاستعادة - من استثمار قوة هذا الشعور في مواجهة الراشد لرواسب تربته في المسبب الممكرة، فلذا استطاع المربي أو الموجه المسلم إدراك هذه لمسألة بوعي، وأجهد نفسه في توظيفها لصالح المعالجة، فن المريض لن يتردد بإدنه تعالى في اقتحام الأمور، وتحطيم كل ما يحشاء، وستجح محاولة التعديل السلوكي كما أثبتت تجارب الإسلام مع اناس عن مدار تاريخه الطويل.

وهناك عامل آخر يعين الراشد على تلويب روايه تدريجياً، وهو أنه لا يشعر أبداً بالخجل، أو لا يحس (بالذنب) المرحمي إزاء أفعال صدرت عنه وهو في سن الطفولة، وإن كان يأناها في رجولته، لأنه غير مكتمل الضح لحظة تشكيلها، وهو على فناعة نامة بأنها نشأت في مرحلة لا يملك راءها حبراً، ولا إرادة في دفعها، ولهذا يشعر أن يتسأل الإحساس بالذنب - المرضي في وجدانه، على ارتكاب أخطاء وقعت في سن اللعب (مر انطفرة)، وهو سن يتلب عليه عدم قدره الطفل على التمييز أو قدرته على الاعتقاد بفاعة عقلية، فإعفاء الإسلام للعرد من أخطاء ما قبل التكلف يعطيه دوماً معبواً لتجاوزها في مرحلة الرشد خاصة وأنها لا تشكل رصيد وجدانياً مريضاً ومعتقلاً.

وفي ضوء هذا الإحساس السوي لا تتفاعل الدلائل الراشدة بحسب ما سمعها للتخلص من عادة غير مرغوبة، بل يضمورها أمل كبير بالعصاة على كانه بيدها الأخرى، وحيث تنفع الدلائل المصلحة الراشدة إلى أمر أكبر يستهدف إعادة البناء العبادي للذات بشموليه، ويسمو هذا الإحساس بدرجة أكبر عندما تكون طريقة الرد على الرواسب المصكوتة تتم في صورة اعتراف أمام الخالق العظيم، لا يعلم عنه الناس شيئاً.

وما دام هذا الاعتراف يتم في وضع نفسي يختلف جذرياً في النية والهدف، والمصموم عن الوضوح النفسي الذي يفرسه أساساً رجال التحليل النفسي العرييون، فإن نتائج مختلفة عن نتائج الاعتراف في عملية التحليل النفسي، كما أن دافعية الاعتراف ترتبط عند المريض المسلم برغبته الصادقة في تطهير نفسه امتثالاً لأوامر الله وبواهي عز وجل.

كما أن الراشد يتجاوز - بفشوته، وثقته في نفسه، وتميزه الطبيعي في إثبات داته - كل أخطائه التي نبتت في طفولته، ولا يرضى أن يعامل في المجتمع كطفل يقبل الأوامر والإملاءات عليه، ويريد أن يحدد وجهة نظره الخاصة، كما أنه أبصاً يمشي من حلال هذا الشعور على دور مقبول في المجتمع، يريد أن يحصل على تقدير الله من خلال تأكيد قيمة الذات التي يفرزها لشرع الإسلامي، ومن خلال تعجير طاقاته المبدعة المكسورة في أعماق نفسه، وبالمالي تنشأ عن الراشد شجاعة جديدة لإسعاد رواسب ماضيه وتلقي التعلم الجديد.

ومنار شخصيه الراشد عادة بالاستعداد للصحة، وحس الاحتمار العقلي، وسمو لديه قابليته الانقلابية، فتحرره هذه العوامل جميعاً نحو ثورة شاملة أو جرئية على أوكار (الاصحراف) بعه، وهو على هذا الأساس

متعدد لقول الحديد حتى لو كان صعباً على نفسه، ومصتباً لها، فابشره في مرحلة الشباب كما يقول بعض الحكماء (وسع العمر) توجد فيه أفضل الفرص للتعبير عن إمكانيات القلب، ومن هنا اعتبر المشرع الإسلامي «شباب المشرشد نوعي عبادي أحد البجة الذين يستظلون بظل الله يوم لا ظل إلا ظله عز وجل

ولا شك أن مرحلة الشباب هي بدء مرحلة المزوج إلى تشكيل المجتمعات، والانحراط المفعول في الحياة الجماعية وممارستها ضمن أطر جماعية كضرورة تربوية لا تعوض بغيرها، فيما يتم التدريب على الأعمال المشتركة، ومن خلالها تنمو الروح الجماعية، وتحقق قيم لمجتمع الإسلامي من الأخوة، والإيثار، والإحسان والتعاون والتواصي بالحق، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإقامة البيان الذي يشد بعضه بعضاً، وفي إطارها تصممحل الأمراض النفسية من الانزواء والعزلة والأنانية والانسحاب من المجتمع، فلا يذ - والحالة هذه - من الاستجابة لهذا النزوع^(١)، وتنمية الشعور بالمسؤولية عند الشخص الراشد.

وثمة نقطة أخرى يؤكد عليها منهج المبالغة النفسية الإسلامي، وهي أن الرواسب لا ينبغي أن تكون دائماً عائقاً أمام دواعي الخير، لذلك يوجه نشاطه، وجهه نحو تصفية الرواسب العائدة، ويحرص بجديته على زوالها منه كاست الصعوبات، أما الرواسب اللطيفة، فهي في نظر المصالح المسلم رصيد أخلاقي وقيمي وفكري يحميه بالقدره على مواجهة الأزمات، والأفكار والمعادن المستمدة من الإسلام بقيت رصيداً حياً في نفسية المسلم، رخصاً لها من عمليات التعريب وعمليات تعبير الهوية الشخصية للذات الملمعة

(١) من مقدمة كتاب مجلة الأمة النظرية، مشكلات الشباب العدد ١٠

وقد ظلّ هذا الرصيد يقاوم بقوة عناصر فاسدة في الثقافة العربية، وبراى هذا الرصيد يوفّر الآن حماية داخلية للذات المسلمة، ولم تنسرب عناصر الفساد في الشخصية المسلمة إلاّ بعد أن ضعف عند بعض الأفراد أثر وحيوية هذا الرصيد من الرواسب الطيبة المتدفقة.

وكما استطاعت رواسبنا الطيبة من إعاقة الفكر الجاهلي - ولو مؤقتاً - في تحقيق هدفه الكبير المتمثل في محو أصالة الشخصية المسلمة وتدريب تعبيرها الحضاري، فإن الرواسب العاسدة - بالمقاييس الإسلامي - أصبحت كبرى مشكلات السلوك التي يواجهها الإسلام المعاصر، فكثير من ضغوطها المباشرة وغير المباشرة، كانت سبباً في تأخير عملية تحليل الذات المسلمة من محتنها الحضارية التي تمثّلها اليوم في وسط أجواء عاصفة، وكانت سبباً في بروز مشكلات التناقض في سلوك أفراد الأمة.

وفي اعتقادنا أن هيمنة الرواسب العاسدة على شخصية المسلم، وعرقلة علاج مشكلاته السلوكية ليس راجعاً إلى صحة المناهج الوضعية وحذف مهارة أنصافها، وإنما يعود إلى الإمكانيات الكبيرة التي يمتلكها أصحاب هذه المناهج، وقسوة التحلف الحضاري على المسلمين، وغياب التربية الإسلامية لمرن طوئل عن البيئة العائلية والاجتماعية للمسلمين

ولما كانت طبيعة الرواسب ليست بالضرورة ضرراً على النفس، بل تكون أحياناً مانعة، وحيوية ووعاء ثقافياً أصيلاً، ولها الأثر العميق في يقف حركة رجف بعض عناصر الثقافة الأجنبية الفاسدة الغربية عن بيئة المسلم، فإن المصالح العلاجي والرموي في الإسلام يقف منها موقفاً طيباً، حيث يعمل مسيح التربية الإسلامي على إنماء هذا الميراث الثقافي للأمة وتقويته في وحدان أفرانها، ويحاول توظيفه لدعم عملية المواجهة بين المسلم وبين

عند العاصر الثقافية الواعدة العاصرة، كما يجهد المعالج المسلم نفسه من "حل استنصال الروائد الصلابة التي تحالف طبيعتنا السلوكية ونكوبنا اللغامي والأخلاقي".

وعادت أحداث الساريج لليوم تكشف عن نهامت منطق مدرسة التحليل النفسي - افرويدية - اللاتل بأن الرواسب باقية رغم محاولات الجهد التعميري المبدول، وقد أثبت التجارب الجهادية قدرة الإنسان العانقة على صوغ السوس وتظيمها مرات، فالرواسب التي انطوت عليها النفس العربية وغير العربية عند مجيء الإسلام، قد تقلصت تدريجياً بعناء المجاهدة وإخلاص إرادة المعالج والمريض معاً، وكشف أيضاً أنه لا جبرية في السلوك، ولا استنحالة في تغيير الرواسب الثقافية والأخلاقية والسلوكية للناس.

فكل م في الأمر أن التحليل الغربي للنفس حاصة الفرويدية، يقتعنا بوهم لا وجود له هو حنبة تأثير هذه الرواسب واستحالة التخلص من نبضتها، ثم تحول هذا الوهم - فعلاً - إلى أحد المراكز الأساسية في طريقة التحليل النفسي، ويدوره تحول إلى اتجاه في العلاج النفسي لفرويدية

استفراء ظاهرة التغيير السلوكي والروحي للناس في بدء الدعوة الإسلامية وخلال عمرها المديد، يؤكد أن الجهد التعميري الإسلامي لم يستهدف كل السمات ولا جميع الأفكار والمشاعر والعادات السلوكية لسانده أنداك، بل صت - كامل جهده - على العائد منها فقط، دعم أن اسظام القيمي يمثل الإرث الحضاري للناس، فمن العيث حقاً أن سدد سلوك محمرد في حله أمة أو مجمع أو جماعة، لمجرد أن معها معياً يريد تأكيد قدرته على محور الموروثات الثقافية عند الضر - أمراً

وحناءات - خاصة وأن المعالج المسلم كان بحاجة إلى استثمار الوقت وبوغير العهد والطاقت وكب مودة الناس.

وفي الوقت نفسه، كان هذا المنهج لا يركز على شهوات الناس ليربح المعالج والمريض من مشقة الجهد، وعناء المواجهه مع روح المقاومة التي تبديها النفس - عادة - أثناء فترة العلاج النفسي وتعديل السلوك.

ورغم هذا كله، فإن منهج التربية الإسلامي لم يكن نوعياً في معالجته لمشكلة الرواسب، يقبل بالترقيع هنا وهناك، بل هو ذو طبيعة انفعالية، جذرية، شاملة، تصف من الجذور أساس السلوك العصبي، ويتأصل كن انحراف يصير بتعاضد الذات المسلمة وتوازنها الداخلي

وحتى السلوك الحسن الذي أقره المشرع الإسلامي لم يقبل به كسلوك فاضل سوى مجرداً عن النية السليمة والأهداف العبادية السامية، والمحتوى المرتبط بالله عز وجل، ولهذا حاول المشرع الشرعي الإسلامي مد يده تطبيقاً لمنهجه، أن يجعل من تمييز المحتوى الداخلي للذات قاعدته في تعديل السلوك واستنقا، للموروثات السلوكية السليمة، وبالتالي استهداف الإسلام بالتغيير كل أثر جاهلي يختفي وراء هذا السلوك الحسن أو ذلك، وتعديل بواعثه الداخلية، فأبقى مثلاً على شجاعة العربي وعمرته وأصاها، لكنه مع ذلك صاغ شخصيته القتالية بروح جديدة، ومنهج آخر يفصله عن قم لا يحرف بفكر القواصل المعنوية بينه وبين الإسلام، وساعد به وس ماضيه في العايات، والوسائل والأساليب، وهو القتل، واحتج في داخل «روء» لثقافي الجديد الذي قدمه الإسلام عن عادات القتال، والكرم، وعرة النفس وغيرها، كل رواسب الجاهلية المعتادة عند العربي حين يحارب، وحين يتخفى، وحين يستعلي بنفسه

فهم بعد العربي المسلم يتفاعل ببرعة جاهلية مع العبداء المعانل «انصر أحاك طائلاً أو مظلوماً»، وإنما أنقى «المسلماً» كما هو، وغير محتواه وأصمى عديه طابعه الأخلاقي ومعهومه المعرفي الإنساني، فرج منه الروح الجاهلية وألصقه معنى عادياً سامياً، وهكذا امتدت نظرية العلاج والتربية في الإسلام إلى كل أثر يني منحرف.

وفي هذا الصدد نتذكر الحادثة التاريخية السنودجية المشهورة عندما امتثلت الإمام علي عليه السلام في نفسه نزعة التشيعي والانتقام حين أريد قتل عمرو بن عبد ود العامري في مبارزة بينهما بمحكمة الأحرار، وذلك بسبب أن الأخير حاول أن يستثير غضب الإمام وأن يهينه في تلك اللحظة التي تمكن منه الإمام وطرحه لوضاً، حيث بصق في وجه الإمام علي، لكنه عليه السلام تمكن من ضبط غضبه حين تركه برهة من الوقت وتحنى عنه ليسكن غضبه وتهدأ عنه تماماً، ثم عاد إليه وقتله، وقد تصرف الإمام بهذا السلوك - كسابقة إنسانية - ليكون دافع القتل نبيلاً يراد به وجه الله تعالى لا انتقاماً دانياً لثورة غضب أو تشنيداً شخصياً، وبذلك قدم الإمام للناس كيف يجمع المقاتل المسلم بين سمو الهدف وطهر الوسيلة . بين نبل القتال وأدبه وبين شرف المقاتل على نحو لا يتك أحدهما عن الآخر

وفي ضوء ذلك لا يجب أن يتحذ المسلم اليوم - معالجا ومرصداً - موقفاً حديثاً إزاء للمصائر الفاسدة من موروثات نفوسنا، ويتطلب الأمر في هذه المواجهة تحطيظاً متصفاً يحصل من الرواسب المستحسنة، والرواسب المسفحة، ويعبر مواقف حرجية حجم تأثير كل نوع منها في حركة الذات المسماة. كما على المعالج أن يفهم التماوت في قدرات الموصى على التفاعل مع رؤاهم البيئية، فهناك من الموصى من تحكمه الرواسب بقوة، وآخر يملك قدراً أكبر، وعزيمة أقوى للسيطره عليها، وهذا بلا شك يؤثر على حركة العلاج.

قال الإمام علي عليه السلام: «إذا قلب المقطرة كثرت الشهوة، وإذا كثرت المقطرة قلب الشهوة»^(١).

٤ - مقابلة الناصح بمقالته:

تعتبر هذه المشكلة عائقاً آخر يواجه المعالج والمريض معاً، فهي لا تقل خطراً عن سابقتها على سير المعالجة النفسية، فإن استطاع المريض أن يتقبل الدور الذي أنيط به من قبل المعالج المسلم، ساعده ذلك على التمسك على المشكلات التي يعاني منها، رغم أن المريض بأشد الحاجة إلى دور معالجه النفسي.

وهذه الظاهرة أو العادة السيئة تبدو أحياناً في سلوك المريض، تتمثل في مقابلة المريض لناصره بمثل مقالته، فإذا حاول البعض تقديم المشورة، ولصيحة نصيره من الناس عملاً بمبدأ التواصي بالحق، فإن بعض المصرحين يقابل هذا الصبح بنفس المقولة، فيرد المستنصح على الناصح بأنك أيضاً فعلت كذا وكذا، فيتحول مبدأ التواصي بالحق إلى مواجهة شخصية بين الناصح والمستنصح، ومن هنا فإن المستنصح لا يلتفت إلى غيره، ولا يتفقد ما في نفسه من باب أولى، وإنما يشغل عليه بذكر عيوب الآخرين والناصحين بحماة، ويسى أن:

«من استقبل وجوه الأراء عرف مواقع الخطأ»^(٢)

«من سبب يرايه هلك، ومن شاوّر الرجال شاركها في عملها»^(٣)

ويسى كذلك أنه:

(١) موج البلاغ ج ١ ص ٥٤.

(٢) موج البلاغ ج ١ ص ٤٢.

(٣) حبيب موج البلاغ، ليب يظون، ص ٤٥٢.

«إذا أراد الله بعد حيراً وهذه في الدنيا، وفقهه في الدين، وبصره بعيوب نفسه»^(١).

إن عدم نقل المستصح للتصح والمشورة من الآخرين، وبخاصة إذا كان معالجاً، يقتل كل محاولة علاجية في أول خطواتها، وبحوث دور توطيد علاقة حميمة بين المعالج والمريض، فيؤدي هذا الساهل إلى تحقير الفرد لذنوبه واستصغار ذلته، وما لا شك فيه أن التسويف بحر يعرق فيه الهلكى ويفود إلى تساوة القلب، «وما ضرب عبد بعقوبة أعظم من قسوة القلب»^(٢) كما يقول الإمام الباقر عليه السلام.

فانرفض لصح المعالج ومقابلة نصيحته بالرد عليه بأنك فعلت كذا وكذا يجعل ذنوب العبد تتراكم أكثر يوماً بعد يوم، فلا ينفع - بعد هذه المكابرة والاستنكاف - علاج ما دام المريض معه يخلق مدخل المعالجة ويقصر صرحها بنفسه.

يقول الإمام الباقر عليه السلام :

«إياك والتسويف، فإنه بحر يعرق فيه الهلكى، وإياك والتمنع، فمبها تكون تساوة القلب»^(٣).

كما أن الاشتغال بعيوب الآخرين بدلاً من التركيز على عيوب النفس، يشتر مظهراً للإعجاب بالنفس وزهواً مريضاً بأعمالها، وهذه الحالة السمية المرضية مع التأكيد «تقدم حركة العلاج» وبالتالي فهو بوابة الشيطان

(١) ميزان الحكمة ج ٢، ص ٢٠٨.

(٢) ميزان الحكمة، ج ٦، ص ٣٩٠.

(٣) صحف المعول، ص ٢٠٧.

حاء في الأحاديث

«لست نسوؤك خير عند الله من حسنة تعجبك»^(١).

وفي هذا الحديث تمّ للنفس، واعتراف معها، وهذه حصوة عامة يحتاجها المستنصح لضمان قبول عمله عند الله عز وجل

ثم بعد ذلك أن لا يستعظم محاسبه: «إذا أردت أن تعظم محاسبك من الناس، فلا تعظم في عينك» وتتبع هاتين الحطرتين بثالثة هي استقلال الخير عنه، بقول أحد النصوص.

«استقلل من نفسك كثير الطاعة إضراراً على النفس وتعرضاً للعفو»^(٢).

وقوله «لا تستكثروا الخير، وإن كثر في أهنيكم»^(٣)

ربما لا شك فيه أن ترويض النفس على قبول آراء الآخرين الصحيحة، يؤدي إلى استجمام القلب وشعوره بالراحة وتحقيق قدر كبير من الصحة النفسية، لأن المصاحبة بين المؤمنين، وتقبل المصاحبة يقلل بكل تأكيد من أخطاء الذات، وينمي في النفس الشعور بالثقة، ويصب في حياتها الطمأنينة والسكينة.

فان الإمام علي عليه السلام

«نخلص إلى إجمام القلب بقله الخطأ»^(٤).

وفي نص آخر «أطلب راحة البدن بقله الخطأ»^(٥).

١ - نهج البلاغة ج ٤، ص ١٢.

٢ - معجم المصنف، ص ٧٢.

٣ - ميراث الحكماء، ج ٦، ص ٤٨.

٤ - معجم المصنف، ص ٢٠٧.

٥ - معجم المصنف، ص ٢٠٧.

ولهذا دُمَّ التشريع الرموي الإسلامي إصرار النفس على عدم فعل المشورة من الناس، وبخاصة من المعالج أو المصحح الذي يشرف على التوجيه والتربية للمستصح، والذي يضطر إلى القيام بمجهود كبير لتعديل نظرة المريض أو المستصح لتقبل عملية علاج أمراضه أو يعرف بأخطائه السلوكية ويكون مستعداً للتعاون مع المعالج لتعديلها.

٥ - الإصراف في لوم الذات:

هذه حالة نفسية عكس الحالة السابقة، فإن كان رفض المصححة مكابرة عن اتهام النفس بالخطأ يعد سلوكاً معوقاً للمعالجة، فإن الإصراف الشديد في لوم الذات، هو الآخر سلوكاً مريضاً مبالغ فيه، وكلاهما سلوك لا يترغبه المشرع التربوي الإسلامي.

لقد دعا منهج المعالجة النفسية الإسلامية إلى اعتماد مبدأ النقد خاصة نقد الذات واستثماره كأسلوب تربوي للتعرف على الأخطاء التي تقع فيها شخصية المسلم اليوم، كما دعا أيضاً إلى تدريب المسلم لنفسه على تقبل نقد الآخرين عملاً بمبدأ التناصح والتواصي على الحق.

ومبدأ النقد الذاتي واضح إلى درجة كبيرة في مصوص إسلامية كثيرة سواء في القرآن الكريم أو نصوص السنة المطهرة، أو في تراث أئمة الإسلام واجتهاداتهم ورعيتهم الثقافية.

ومن ذلك على سبيل المثال قوله عز وجل

﴿فَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَأَعْيُنُهُمْ تَوَّجَعِلَّةٌ مِّنْ ذُنُوبِهِمْ ۗ لَبِئْسَ لَكُم بِلَايِكُمْ وَلِأَعْيُنِكُمْ قِيلٌ ۖ فَلَا تَرْكُبُوا الْوَسْوَاسَ الْكَاسِرَ ۖ﴾^(١)

﴿أَن تَرَىٰ إِلَى اللَّهِ لَئِنْ يَرَوْهُمْ نَبِيًّا يُرَىٰ لَهُمْ يَوْمَئِذٍ مِّنْ يَّسَارَةٍ ۖ﴾^(٢)

١ - سورة النجم، آية ٢٢

٢ - سورة النساء، ٤٩

وقوله عز وجل: ﴿وَمَا أَرْزُقُ قَلِيلًا إِنَّا نَقْصُ لَأَمَلًا﴾ ^(١) إِلَّا مَا رَزَقْنَاكَ

ففي الآية مذكور للإنسان بأن نعمه ليست دائمة فوق مستوى الشهوات، وإنما لا تكون دائماً برفعة ما لم يتعهد منهج الله عز وجل بالنزعة والتوجه، وما لم يتعهدوا الفرد بتدريج عبادي هادف

وفي السنة النبوية المطهرة نصوص أخرى كقوله ﷺ

«رحم الله امرأً أهدي إلي عبدي».

وفي قول آخر للإمام الصادق عليه السلام:

«أحب إخواني إلي، من أهدي إلي عبدي» ^(٢).

وقول الإمام علي عليه السلام: «من استقبل وجوه الأراء، عرف مواقع البسطا».

وعن الإمام الكاظم روي عنه قوله: «ليس منا من لم يحاسب نفسه في كل يوم» ^(٣).

ويقول الإمام الحسين بن علي عليه السلام:

«من دلائل العالم انتقاده حديثه، وعلمه بحقائق قرون الظلم» ^(٤)

والنصوص في هذا المعنى كثيرة.

إن نظام المعالجة الإسلامي للسلوك المتحرف يستهدف منهجه نقد

(١) سورة يوسف، ٥٣

(٢) نهج النور، ص ٢٧٠.

(٣) نهج نهج الخلافة، لبيب يصفون، ص ٢٢٨، نهج النور، ص ٢٩٢

(٤) نهج النور، ص ١٦٩، ١٧٨

البدن وتخليصها ما أمكن من الإحساس المرحسي بالقلب، واستصدار
دروب، وحثها على متابعه للعمل لتستكمل تجربتها الروحية والعملية، ولا
يكون ذلك إلا مرصد موضوعي للعيوب ومعالجتها الواقعية، بحث مستعيد
انذات المسلمة موارثها، لأن استحمام القلب - وهو تعبير عن تمتع الفرد
بقدر عال من الصحة النفسية - مرتبط بقوة الحثا

لكن نفراً من المجتهدين في مجاهدة النفس يحاولون بصدق تطبيق
مبدأ اسفد على تلك المجاهدة، فيهللون فيه ويسرفون في تأنيب ضمائرهم
بفسوة بأبائها نظام المعالجة الإسلامي، بل إن البعض ما يتفقد معاييه إلى
درجة شديدة من الحزن، ويألح في نصحيح التأنيب، فيوهم نفسه بوجود
عيب في ذاته لا وجود لها أساساً، وهو يفعل ذلك على ظن أنه بأن ذلك
هو السبل لبثه شخصية سوية نحى الله وتنتظم بمهاجه القويم في الحياة.

ولا شك أن إسراف المرء في لوم نفسه لوماً شديداً، درساً مسوغ
مقبول، يحتمل النفس على الوقوع في سلوك مرضي يأباه الله عز وجل
للمسلم، فالمبالغة في ترميع الذات - بسبب وبدون سبب - يمهّد الطريق
سمر مشاعر الذنب على نحو عصامي، ويرمي في أعماق الذات إحساساً
دائماً بالآثم حتى في اللحظات التي يسمي فيها المريض إلى إرادة هذا
لإحساس من داخل قلبه والتعلب عليه، ومن هنا يبدأ الصراع بسيط سيطرته
على الأجزاء الداخلية للنفس.

صحيح أن اتهام النفس في تصرفاتها ممارسة علاجية يحتاجها المؤمن
في حركة الحياة، لكن المبالغة في هذا الشأن بفسوة يؤدي إلى سلب في
انفعالات المرء، ويعطل حيوية النفس اللوامة في مختلف مواقع الخطأ،
ولعمل على الحد منها، فيفقّد - كذلك - خصائصها الإيجابية التي يبحر

المرد من خلالها نحو التوافق النفسي والتوازن الداخلي لشخصيته، وإقامة صلح به وبين الله من جهة وبين المجتمع من جهة أخرى

تفوق التصور في التربية الإسلامية:

«من أصلح ما بينه وبين الله أصلح الله ما بينه وبين الناس، ومن أصلح أمر آخرته أصلح الله أمر دنياه، ومن كان له في نفسه واعظ كان عبده من الله حافظاً»^(١).

وفي نص آخر يقول الإمام علي عليه السلام: «من أصلح سريره أصلح الله علانيته، ومن عمل لدينه كماله أمر دنياه، ومن أحسن فيما بينه وبين الله كماله الله ما بينه وبين الناس»^(٢).

وفي نص ثالث: «ومن أحسن فيما بينه وبين الله أحسن الله ما بينه وبين الناس»^(٣).

٦ - استصغار ذنوب الذات:

كما يوجد من يسرف في تقريع النفس ويبالغ كثيراً في دُمِّ اللذات ولومها، كذلك يوجد منهم من يبالغ في استصغار الذنوب التي تصدر عنه والتهاون في أمرها، فبزيں الشيطان في نفسه حسب الإطراء، والمدح، والرضا عن النفس، والمملة عن معاصيها.

إن البعض قد يعترف بخطئه، لكنه على عكس الصنف السابق ينظر إلى الخطأ على أنه من «الصغائر» فلا يقدر هؤلاء التأثير الحقيقي

(١) نهج البلاغة، ج ٤ ص ٢٠.

(٢) نهج البلاغة، ج ٤، ص ٩٩.

(٣) نهج البلاغة، لب يهود، ص ١١٥.

لأحفظانهم - في النفوس مستقبلاً، وهذا بلا شك يعطل عملية تحطيط النفس من أضرارها، وأضرارها، لأن التساهل بالخطأ والتهاون في أمره يقتل في ذاتنا كل حساس طبيعي بالندم على ما تركته من أعمال خاطئة، ونمو معه الرغبة في تجاوز الواقع إلى الممكن الأفضل، وحسبنا يصعب في ذات المسلمة حماس الاندفاع النفسي الذي يديه الفرد إزاء ذنوبه، فيهم الفرد مواجهتها ويضعف أمامها، ومن ثم تتفوق هذه الأخطاء الصغيرة بمرور الوقت - شيئاً فشيئاً - في النفس، وتكون جرماً منها.

ومن المؤكد أن هذا الموقف السيكولوجي الحاد يؤثر - بصورة مرضية - على تكيف الذات المسلمة وغير المسلمة في آن واحد وتوافقها، لأن هذه الصعائر قد تتحول إلى كباتر تزيد من دوائر سوء التكيف لدى الذات.

وقد نهى المشرع الشرعي الإسلامي عن نهارد الفرد في أمر ذنوبه، صنيها وكبيرها، أو النظر إليها بظرة أقل من حقيقة أمرها في الواقع الذي تعيشه الذات، بل إن هذا النهج اعتبر هذا التساهل من أشد الذنوب التي يرتكبها الإنسان للمسلم، لأن الاستخفاف بجمل الذنوب تتراكم حتى تفرق ذاته في بحر الانحراف

قال الإمام علي عليه السلام:

«أشد الذنوب ما استهان به صاحبه»^(١).

وفي رواية أخرى بلفظ آخر:

«أشد الذنوب ما استخف به صاحبه»^(٢).

(١) نهج البلاغة، ج ٤، ص ١١٠.

(٢) نهج البلاغة، ج ٤، ص ١١٠.

وحين يهوى المشرع الترموي الإسلامي عن الإسراف في لوم الذات أو عندما يبدد تعاملها مع أخطائها، فإنه يتعامل مع النفس تعاملًا واقعياً مترباً، فلا يطلب من الذات أن تفعل هذا الرأي أو ذاك إلا في حدود ما تستطيع، فالنوم الرائد بوهم الذات بوجود عيوب لا أساس لها، والاستحفاف يجعل من صغائر الأخطاء كبائر، فمن صيغ المهم صيغ الأهم كما جاء في الصريح، فالاعتدال على تحقيق صغائرها، بمقدننا القدرة على التعبير بين الحق والباطل، ولا يحقق منهج المعالجة بالأعداد أهدافه العبودية في تعدين نفسك.

إن من حسن التدبير أن المسلم اليوم - معالجاً ومريضاً - قادر على أن يعتمد لأخصاء، وتغيير أهمها، ثم بالانتقال من الأكثر أهمية إلى ما هو أقل أهمية، ونعتقد شخصياً أنه من الحكمة أن لا يقطع المسلم الصلة بين كبائر الأمور وصغائرها بحجة أن هذا أهم وذلك أقل أهمية لأن المنهج الإسلامي يحاول مد البدايات الأولى للعلاج أن يسير بالأخطاء - صغبرها وكببرها - في اتجاه واحد، ولا يمانع أن يكون التركيز مركزاً على الأهم في المقام الأول، فإذا كانت الذات تعاني من أكثر من مرض، فيجب أن يوجه جهده - للمرض البارز - مع عدم إهمال كلي للأمراض الأخرى.

ويبدو لنا أن سكوت الفرد المسلم عن أخطائه شديد الارتباط بمرض آخر قد يسمو لديه بصورة واضحة، وهو أن يشغل نفسه بعيوب الآخرين، مما دام لا يشغل نفسه بمعرفته بمقاصده، فمن الممكن أن يجد لذته ومنعة ومنعاً لإشباع نوعة النقد لديه بالتعتيش عن عيوب غيره، إذ تأنس النفس بالكف عن تتبع عيوبها الخاصة وتسترخ بعد الغير، ولا يحصى ألبداً محاطر هذا سوء السلوك، المريض وأثره على سيره الذات.

ولهذا قيل في الحروب الشريفة الواردة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام :
«طوبى لمن شغله عيه عن عيوب الناس»^(١).

وعنه عليه السلام : «فمن أذاع فاحشة كان كملها»^(٢).

وقول الإمام علي عليه السلام : «طوبى لمن كان له من نفسه شغل شاعل
عن الناس»^(٣).

وقوله : «من نظر في عيب نفسه اشتغل عن عيب غيره»^(٤).

«من نظر في عيوب الناس فأنكرها ثم رضيها لنفسه، فذاك الأحمق
بعبه»^(٥).



ثانياً: صفوط المجتمع:

لا تبتق دائماً معوقات المعالجة من داخل النفس وحسب، فثمة
طروب خارجية ضاعطة تواجه الذات، وهذه الظروف تنبتق من البيئة التي
نعيشها الشخصية، حيث لا يترك الناس غيرهم يتحملون عبء المسؤولية
الجهادية فقط، بل يكون هؤلاء الناس مصدر قلق، وضغط يوهن من عزيمة
المرد في بلوغ وتحقيق الهدف المرجو، وقد تنطلق عنه الضغوط أحياناً -
من أفراد يكون له حياً ومودة، لكنهم يخطئون في استخدام طريقة التصبر،
وأساليب الإرشاد، والوجيه، فتمر تلك الممارسة عن صموط تعطل برامحه

(١) ميراث السكينة، ج ٧ ص ١٤٠.

(٢) صف العقول ص ٣٩.

(٣) ٢٠٠٠ كلمة، ص ١٢.

(٤) نهج البلاغة ج ٤، ص ٨٩.

(٥) نهج البلاغة ج ٤، ص ٨٩.

إعلاحي. إلى حدّ ما، فيصعب وعيه، وتقلّ خبرته مشكلات الحياة بهما وبصيرة، ومن هذه الضغوط الخارجية.

- ضغط الآباء والأجداد.

- تلط الضالين ومداهنتهم

- فصور خطة المعالجة.

١ - ضغط الآباء والأجداد:

دم القرآن الكريم بقوة تقليد الآخرين - آباء وغيرهم - بدون تعقل أو ررية، وامتدح مسيرتهم إذا كانت أعمالهم تعبدية لله تعالى، غير أن بعض الآباء بسبب ثبات نفوسهم على أنماط محدّدة من السلوك الموروث - حسناً كان أو خطأ - يميلون دائماً إلى التدخل في حياة أبنائهم - ويمارسون ضغطاً لا مبرر له، من أجل أن يكون أبنائهم ومن الإشارة بالحق والباطل معاً، ببعض الآباء يريجه - بدون وعي منهم - استنساخ أبنائهم استنساخاً صحيحاً وقد أمر الله أن يكون النطور في عجينة السم والتكوين، قال الإمام علي عليه السلام:

«لا تفسروا أولادكم على أخلاقكم، فإنهم مخلوقون لربهم غير زمانكم»^(١).

وحلال هذه المرحلة من المعصاة الحضارية والمفاندية للأمة تحاول لعائدون إلى الله عز وجل أن يعيشوا منهجه بروح مخلقة كل الاختلاف عما ألفوه في حياتهم العائلية والاجتماعية، فيضطربهم التعاون بين الرؤية العائنية للحياة، وبين رؤية المشرع الإسلامي للأمور إلى محاولة التعديل

(١) صيف جوج البلاغة، ص ٢٩٩

لسلوكي، ولتوجداني، وإصلاح الخلل في النفوس، وهنا يدخل الكبار من خلال صبرهم مستمرة، وفاسيه أحياناً، لوقف هذا التعبير

وما يفعله الآباء ليس صادراً عن رغبة في الانتقام من أبنائهم، وإنما يحسبون أن ما يصعبونه حساً، أو يعتقدون أنهم يحسون صغارهم أني لم تصغر بعد بعوسهم تجارب الحياة، من زلزل للثقة وحماستها الصبر، وأحياناً يصدر ذلك التدخل من حرصهم على متاع الحياة، أو لسبب آخر قد يكون شاداً لو استهدف الإصرار بمصلحة الآباء.

والملاحظ أن الروح التي تحتفي وراء هذه الضغوط ذات طبيعة دينية، فبعض الآباء - مثلاً - يصرّون بأنهم من طاعة الله في أمر دينهم، ويصدونهم من إجراء تعديل لمفهوم العفة لديهن، إما لاسحراب سلوكي عند انكبار، أو لخوف عصبي من توقع مكروه يأتي من سلطة عليا تملك القدرة على القمع، ويشعر إزاءها بالضعف عن مواجهتها، وإما خوفاً من فقدان امتيازات أو لسبب آخر.

فالمشروع الإسلامي أوجب لولي الأمر توجيه الأبناء في الطريق الذي يحمر قلوبهم بذكره عز وجل، وبارك جهود الآباء إذا استشهدوا تربية صغارهم على شريعته، ولكنه رفض كل ضغط - بل حرمة - بمارسه الكبار لسبب ديني يفصل بين الأبناء والمسيح الإلهي، ومن الممكن أن يشعر هذا الضغط عن سلوك عاق بحق الكبار.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه سلم:

«نعم الله والدين حملنا إيهما على عقوبتهما»^(١).

(١) الطعن بين الرواية والفتوى ج ٢ ص ٩، قلاً عن كتاب وسائل التوبة، للشيخ البجلي، ج ٥ ص ١١٥.

قال الإمام أبو جعفر محمد بن علي الباقر عليه السلام متحدثاً عن سمطين من أنماط السلوك المرضي وهما مشكلتا تقليل الأولاد وعقوق الوالدين «شر الآباء من دعاء السر إلى الإهراط، وشر الأبناء من دعاء التفصير إلى العقوق»^(١).

٢ - مداواة الضالين

تشعر بعض النفوس في معركة التعبير والمجاهدة الروحية بالضعف فتجلب أحياناً إلى مجاورة المنحرفين، ومداوتهم خوفاً من الصموت، خاصة وأن فكرة المنحرفين تكون - عادة - أشد وقماً من ضغط المربين، وربما بسبب هذه المداواة لا تسيير المعالجة الإسلامية للنفس سيراً عادياً طبيعياً، لأن الذات تقع في ازدواجية وتناقض في الموقف، فهي ترغب في تغيير حالها، ونحشاها تحت وطأة ضغط المنحرفين، مما تضطر إلى المداواة، والتفان.

ولبت المداواة في إطارها العام سوى استجابة عصابية تنصل بأنماط أخرى من السلوك غير السوي، كالخوف من الآخرين، والخشية من قوة الضالين، والإحساس بالحقارة، والنقص، وفقدان الثقة بالذات أمامهم، وما لا شك فيه أن المداواة مشدوع لهذه الأنماط من السدوك العصابي التي لها تأثير كبير في إثارة القلق، والتوتر، والشائخص في السط الأساسي للشخصية، ومن هنا نجد المشرع الإسلامي يسوق الضالين، وبهي الناس عن مداوتهم

قال تعالى: ﴿لِيَحِيلُوا قَوْلَهُمْ كَذِبًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمَنْ أَرْذِلَ الْبَرَّ يُحِيلُونَهُ بِعَمْرِ عَلَيْهِ آتَا مَكَاتٍ مَا يَرْزُقُ﴾^(٢)

(١) تاريخ الجوهري، ج ٢، ص ٥٣

(٢) سورة النحل، ٦٥

وفي بعض قراتي آخر تقول الآية الكريمة ﴿وَلْيَسِّرْ لِقَائَهُمْ وَأَنْقِزْ لِقَائَهُمْ وَأَنْقِزْ لِقَائَهُمْ وَأَنْقِزْ لِقَائَهُمْ﴾^(١).

وحامت أمة ثلاثة نهى - موضوع نام لا لبس فيه - عن مهادنة الصالحين العالمين لأنفسهم والناس معاً.

قال تعالى ﴿يَقْرَأُ عَنْ قَوْلِ عَمْرٍو وَكَرِهَ إِلَّا الْحَبْرَةَ الدُّنْيَا﴾^(٢)

وقوله عر وحل. ﴿وَلَا تَزَكُّوا إِلَى اللَّهِ لَكُمْ أَنْ تَكُونُوا كَالْكَافِرِ﴾^(٣).

إن امهادنة بلعة بسيطة أن تصبح الفات كالباء مستلباً وإمعة صميغة نافذة لإرادتها، وتتحرك في الاتجاه المنحرف الذي ارتضاه الضالون لها، ويكفي لرفض المهادنة كسلوك مرضي أن تمنع الذات نفسها من التفاعل الحي مع مهبج الله، وما يترتب عن المصع من نتائج اجتماعية وسيكولوجية وأخلاقية تدمر الذات الإنسانية من داخلها وتفسد ودها مع الله تعالى ومع المجتمع.

قال تعالى ﴿فَأَمْسِكُمْ فِيهِمْ بِمَا لَمْ تُحِزْ لَهُمْ وَلَا تَلْبِسْ لَهُمْ شَيْئاً جَاءَهُمْ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَمْعٍ مِنْكُمْ بَرْهَةٌ وَمِنْهَا لِمَا﴾^(٤).

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْكَبْكُمْ يَكْفُرْ بِهِمْ﴾^(٥).

ويقول الإمام علي عليه السلام:

«اعظموا أقداركم بالتفاضل عن الغني من الأمور»^(٦).

(١) سورة المكيوت، ١٣

(٢) سورة النجم، ٢٩

(٣) سورة هود، ١١٣

(٤) سورة البقرة، ٤٨

(٥) سورة المائدة، ١٧

(٦) صفح المنقول، ص ١٦٦

وفي الحديث الشريف قوله ﷺ: «من أقر بالفل فلاناً فليس ما»^(١)

وهو دل فدل يوجه للذات من الآخرين أو تنقله طواعية من داخلها كتميلها تسلط الشهوة والإذعان لهيمنتها، وقد عبر أحد النصوص عن هذا المرض بقوله: «عبد الشهوة أدل من عبد الرق»^(٢)، وفي كليهما مرض يصي من الطرة الدينية الإسلامية.

إنه من الصعب جداً أن يكون الفرد قادراً على تجاوز انحرابه السلوكي هذا، ما دام عاجزاً عن تحقيق حتى الحد الأدنى من الاستقلال الذاتي والشجاعة، ومواجهة الأمور، فأمام هذا الضعف نجتر النفس أخطاء المعاصي ظاهر الإنم يباطه، وتشكل للذات في سلوكها المداهن غافلاً، رخداه لله، ولنجدد الإيمانية وللمعالج النفسي المسلم ولحمها.

وسبولوجية الضال تقوم على أساس الرعة الأبوية للأخيرة المنطوية على (ظلم) العير، ولا يملك المداهن سوى القبول بالمذلة طائفاً، أو خائفاً لها تحت ضغط التسلط الضال الذي وجهه المسحرون، رغم أن نفسية المداهن - قد تكون غير معترضة على التثيير أو راحة فيه ولكنه مغلوب على أمره، حينئذ يكون كياناً (إمعة) فاقداً لتميزه كمسلم

يقول الرسول ﷺ في حديثه الشريف

«لا تكبر أحدكم إمعة يقول: أنا مع الناس، إن أحسن الناس أحسنت، وإن أساءوا أسأت، ولكن وطنوا أنفسكم، إن أحسن الناس أن يحسبوا، وإن أساءوا أن تعذبوا إساءتهم»^(٣).

(١) صحيح البخاري، ص ٢٧

(٢) بيان الحكمة، ج ١، ص ٢٧٩.

(٣) صحيح البخاري، عبد الجبار عيسى.

٣ - قصور في خطة المعالجة :

يسعى أن تتوفر في شخصية المعالج النفسي المسلم محموعة من الصفات والسمات الأساسية^(١) لضمان نجاح المعالجة السلوكية برؤية تربوية عبادية، غير أن القصور ممكن في خطة العمل التي يعدها المعالج مهم كان حدته في فهم الذات ومهيج العمل، فقد يقصر نظره عن اكتشاف عناصر أساسية تحتاجها المعالجة، أو يخطئ في تطبيق إحدى الأساليب ادعية، فتخفق خطة أسس ومبادئ المعالجة النفسية على الذات أو يكون تطبيقه لهذه الأسس والمبادئ غير مناسب.

وبالطبع فإن ذلك ليس ناجماً عن قصور في مهيج المعالجة بقدر ما هو خطأ في فهمه من قبل المربي أو حتى المعالج نفسه، فمس أبرز الأخطاء في فهم مهيج المعالجة الإسلامية للانحراف - مثلاً - التركيز على طبع التشخيص للمرضى، فنجد محاولات من بعض رجال الفكر المسلمين تركز على الميوب لإمتاعى المسلم اليوم من هيبوته الطويلة، وتشغل نفسها - فقط - بتحديد علل المرض في ذاته، حتى يشعر الفرد أن وصفه الدواء ليست موجودة في منهج التربية الإسلامية، وقد أضعف ذلك من أثره في علاج بعض القوم.

إن محاولات الإنعاش المستمرة لبعض النسميات المسلمة قد صيرت في كثير منها على النقد، والكشف عن الأمراض الروحية محسب، بينما أهمل العلاج النفسي لهذه المشكلات، وتحديد دواء كل داء، وأصبح الأمر ترفعاً عن مرحلة تحديد الداء، ولم تأخذ مرحلة تحديد الدواء حظها، كي يستكمل العلاج خطواته

(١) سجدت إن شاء الله هذه السمات والصفات التي يسعى أن تتوفر في شخصية المعالج النفسي المسلم في الفصل التاسع

كما أن الاكتفاء بتشخيص المرض الروحي دون الأمراض العقلية والعكس مثلاً قد يؤثر على خطة المعالجة، فالإنسان وحدة متكاملة، وكل جانب منها يؤثر على جانب آخر، فقد تكون بعض الأمراض الروحية شائعة عن عامة أو إعاقة في البدن - كالجذام - أو التشوه الخلقي، وقد نشأ أمراض عضوية كالمرحلة، والسل الرئوي، وتصلب الشرايين وغيرها من الاعطالات الشديدة، كما أن المرض العقلي ثمرة لحمل في العلاقة بين النفس والبدن أحياناً

ويعتقد أن بعض المريض يقعون عند تشخيص المرض وينجحون في ذلك، لكنهم يعجزون عن تحديد الدواء، وهذا الحلل قصور في فهم المصالح النفسية المسلم لألية العمل للمصحح الذي يؤكد على تشخيص المرض وتحديد وصفة الدواء.

ويجب على المصالح أن يدرك ذلك حتى لو اضطر لتنوع وصعوبات العلاج، وبعد أن ينجح المريض المسلم في تحديد الدواء والدواء، يتابع «تجربة جديدة في حياة المرء، ويحاول رفع مشواره الإيماني بإضافته سمات عبودية في جميع المشويات عن طريق تكوين عادات سلوكية يرتقيها المشرع الإسلامي

رييدو لما أن وقوع المصالح المسلم في خطأ كهذا، يعود إلى سبب رئيسي هو سوء التخطيط وضعفه وقصوره، فيؤدي تبعاً لذلك إلى خلل واضح في سير المعالجة السلوكية، قد يكون هذا الخلل أصعب على المرء من معاناته المرضية بها.

رصد الخطيئة لكل أمر، قاعدة أساسية في منهج الله، وهو ضرورة شرعية وعقلانية لبناء الذات وترشيد خطواتها، جاء في الحديث الشريف

«إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه»

وفي قول أيضاً «أتمس بالعمل فإن لما قد صير».

وعن الإمام علي عليه السلام قوله «التدبر قبل العمل يؤمك من العلم»^(١)

وعنه أيضاً «العكر في الأمر قبل ملايته يؤمن الزلل»^(٢).

وأيضاً يقول عليه السلام «التدبر قبل العمل يؤمن العثار»^(٣)

وقوله عليه السلام أيضاً «سبب التدمير سوء التدبير»^(٤).

وقوله أيضاً: «من عرف الأهم لم يعقل عن الاستعداد»^(٥).

وقوله «ما من حركة إلا ولدت محتاج فيها إلى معرفة»^(٦).

وفي النص كذلك قوله عليه السلام «ف ف عند كل أمر حتى تعرف مدخله من مخرجه قبل أن تقع فيه فتدمر»^(٧).

وجاء في حديث آخر «لا تقدمن على أمر حتى تخبره»^(٨).

ويشتمل التخطيط وعياً بمنهج الممارسة وفهماً صبوراً بالنفس وحذراً لها، رداءً متقناً لحظة العمل، وتحقيقاً سليماً - ما أمكن - للملاءمة بين متطلبات الذات وأحكام المنهج، فمن أخطاء العمل التعميري وعثراته في

(١) صحيف الطول، ص ٩٦ - ٧٠

(٢) غرر الحكم ودرر الكلم، ج ١، ص ٩٦

(٣) غرر الحكم ودرر الكلم، ج ١، ص ٧٢ رقم الحديث ١٥١٩

(٤) صحيف الطول ٩٥

(٥) صحيف الطول، ص ٧٠

(٦) صحيف الطول، ص ١١٩

(٧) صحيف الطول، ص ١١٩

(٨) ميراث الحكمة، ج ٢، ص ٢٤

معالجة الذات محاولة للحصول على النتائج على عجل قبل نضوجها،
يحدث هذا الاستعجال حاله ملم في النص

يقول الإمام علي عليه السلام:

« لا تمجلوا الأمر قبل بلوغه، فتندموا »^(١)

ملاحظة ضرورة أساسية لبلوغ الكمال الروحي والعقلي، ولا يكون
مبالعين إذا قلنا إنه بفقد وعي المريض وتقيد مبادئ وأساليب وخطط
المهيج العلاجي الإسلامي تكون معدلات الشفاء النفسي، ونرى أيضاً أن
عدم الأخذ بالتخطيط لإحداث التغيير والتعديل يؤدي إلى الإخفاق، وإلى
التكليف غير السوي مع برنامج المعالجة السيكولوجية بطريقة الأعداد.

هذه مجموعة متداخلة من الموانع ينتظر حدوثها أثناء فترة لمعالجة،
لتعرقل توثيق العلاقة بين المريض والمعالج، وعلى كل منهما أن يتعارفا معاً
- كل حسب طاقته - على إنجاز برنامج المعالجة النفسية وفق الأهداف
لعيادة مهما كانت ضراوة الصعوبات المتوقعة من هذه المواجهة، فالوعي
بالأعداد، وإرادة الفرد، وخطه المعالج شروط هامة للعمل الجهادي
ومدخل لتوفيق الله.

مسؤولية المعالج المسلم أكبر في تفهم هذه الموانع، لأنه المريض
الحبيب الذي يمنع بالحصول الحميدة التي لا بد أن ينشأ المريض بها، لكن
على لمريض في الوقت نفسه التعاون مع معالجه والاستجابة لمقتضيات
المعالجة ليضمن كلاهما نتائج إيجابية.

الفصل السابع

منهج الأضداد
وحل مشكلة الصراع النفسي

الإضداد والصراع النفسي:

أشيرنا من قبل إلى أهمية الاحتمال والصبر كشرط أساسي في عملية العلاج النفسي، ذلك أن إقبال المريض على تغيير اتجاهاته وتعديل أنماط سلوكه التي ألفها منذ فترة طويلة يواحه بلا شك بمقاومة داخلية شديدة من قبل نفسه، فهي أي إن النفس... لا تستجيب - كما قلنا - بسهولة لتقدم جديد مصاد، وتحتاج إلى فسحة من الوقت والصبر والانتباه والتمسكة ومناخبة العمل حتى يستقر التعلم الجديد عند مستوى الإنقائ المطلوب، والنخلص من ضغوط السلوك القديم المألوف

وتحاول خلال فترة المعالجة أن تجذب صاحبها نحو عاداته القديمة التي ما زال سلطانها قوياً أو قادراً بعد على التأثير، وهي بهذا التوجه نحو السلوك المألوف تحاول إرواحة نفسه من عناء المواجهة مع أنماط السلوك الجديد وعاداته.

وقد أشارت بعض المرويات الشريعة إلى أهمية التصعص العمي لمعاداب المألوفة خاصة للمتحدرة في أعماق الدات منذ زمن بعيد، يقول

«ما أصعب من استعدته الشهوات أن تكون فاضلاً»^(١١)

«دقة الرياضة النفسية على العادة»^(١٢)

«أصعب السياسات نقل العادات»^(١٣).

«ربما الحامل ورد المعتاد عن عادته كالمعجر»^(١٤).

«إزالة النجاسات من إزالة قلب عن موضعه»^(١٥)

غير أن التدافع بين العادات القديمة والعادات الجديدة قد يحسمه الفرد لصالح عناصر الخير في ذاته، فيصحب نتاجه في جدول الفضيلة بعد أن يتمكن من فهم العادة المدمورة ويحطم أسوارها، ربما لا شك فيه أن النفس البشرية تعاني في سبيل ذلك المكاره، وتحتل ضغطاً شديداً.

ومن هنا تبدو أهمية توفر الاحتمال والتصور كأساس لضمان تحقيق الملائمة بين حاجات الذات ومتطلبات الواقع العلاجي في ضوء نظرية تربوية إسلامية تحترم الإنسان وتكرمه، حيث سمحت هذه النصوص بنتائج إيجابية في هذه المواجهة إذا ما تمكن الفرد من الاستجابة لشرط الصبر والاحتمال. وقد وردت بهذا الشأن توصية تربوية إسلامية:

«لا يعدم الصبور الظفر وإن طال به الزمان»^(١٦).

«مؤد نصك للصبر على المكروه، تنظر به، وإن طال الزمان»^(١٧)

(١١) شرح معجم اللغة، ج ٢٠، حكمة ٤٤

(١٢) مبررات الحكمة ج ٧، ص ١٢٣

(١٣) المصدر السابق، ص ١٢٥.

(١٤) تحف العرف، ص ٣٩٢.

(١٥) نصف القول، ص ٢١٢

(١٦) معجم معجم اللغة، ليب يقرن، ص ٢٢٢ - ١٤٤

(١٧) المصدر السابق، ص ٤٠

«أخرج عنك ولذاتك اللهموم معزاتكم الصبر وحسن اليقين»^(١)

كما أشارت نصوص إسلامية أخرى إلى الفعالية السلبية للمعادن القديمة «سألوها»، ودور الإرادة الإنسانية في التغلب على هذه المعادن وتخطيم قصبتها على شخصية الإنسان، ووصول ذاته المتتصرة إلى «أشرف المقامات»

«المجاهدة النفسية تعني مقاومة سلبية من النفس بسبب روايتها المستمرة في أعماقها، ومقاومة إيجابية جاذبة من رهي الإنسان وعقله النفسي، وحسن هذه الموازنة أو حالة الصراع الداخلي حسماً موفياً بالوصول إلى نتيجة صحيحة يحتل فيها الإنسان المؤمن نفسه وتطويعها وترتيبها بالمفاهيم والقيم المبادئ الإسلامية، ويستعيد بها توازنه النفسي المفقود ويرد الفناء اعتبارها المهدور».

لنتأمل - معاً - النصوص التالية التي نجعل من التغلب على المعادن لينة طريقاً إلى أشرف المقامات المبادئ وهي طاعة الله تعالى كما يسمي «بعلية المعادن للوصول إلى أشرف المقامات»^(٢).

«غالبوا أنفسكم على ترك المعادن، وجاهدوا أهواءكم تملكوها»^(٣).

«خبروا المعادن نهل عليكم الطاعات»^(٤).

«دللوا أنفسكم بترك المعادن، وفردوها إلى أفضل الطاعات، وحملوها أعباء، بمعزم، وحلواها بفعل المكارم، وصوبوها من دنس المائمه»^(٥)

(١) ميراث الحكمة، ج ٢، ص ٢٩١

(٢) ميراث الحكمة، ج ٧، ص ١٢٣

(٣) المصدر السابق، ص ١٢٣

(٤) المصدر السابق، ص ١٢٣

إن الله عز وجل خلق الأصداد - كما يقول الشيخ الراجسي - بحكمة بالغة، وبدونها لا تتقدم حركة الدباب بالحياة، فلو كانت العلبة والسطرة لقهر ماد العقل ظهر في مملكة النفس أحكامه، وآثاره، وانتظمت أحواله، ولو كانت لغيره من القوى ظهر فيها آثاره، فتهلك النفس^(١)

ويوضح العلامة الشيخ الراجسي طبيعة هذا التدافع بين عناصر الجبر والشر، فيقول رحمه الله:

«ولا ريب في أن كل نفس في بدو فطرتها قابلة لأثر كل مهمل - الخير والشر - على التساوي، وإنما يترجح أحدهما بمشابة الهوى، وملازمة الورع والنجوى، فإذا مالت النفس إلى مقتضى شهوة أو غضب وجد الشيطان مجالاً، فبدخل بالوسوسة، وإذا انصرفت إلى ذكر الله ضاق مجاله وارتحل، فبدخل الملك بالإلهام، فلا يزال النظار بين حنفي الملائكة والشيطان في معركة النفس^(٢)... إلى أن يعلب أحد المجتهدين ويسخر مملكة النفس ويستوطن مهمل^(٣)»

فالنفس تشهد في داخلها معركة قائمة بين السلوك الحسن والسلوك المنقبح، حتى يتم في نهاية الأمر تثبيت المادة المرغوبة، فتهبأ النفس وتعتمد على السلوك السوي بمعاييره للعبادة

إن حالة الصراع النفسي مشكلة قائمة في حياة الإنسان، لكنها قد تكون سبباً لكشف إمكانيات الذات المجاهدة وصقل تحاربها، وبالتالي فإن الصراع يعتبر جزءاً من عملية المجاهدة ذاتها، فإذا كان الصراع النفسي في

(١) جامع السماعات، ج ١، ص ٢٦

(٢) تحف العقول، ج ١، ص ١٨٦

(٣) المصدر السابق، ص ١٨٦ - ١٨٧

نظر بمحلول الوصعي يمثل موازنة بين دافعين متعارضين، فإن الموازنة في مفهومها الإسلامي لا تتضمن قسب هذا المتدافع بين أجزاء النص، من نضمن كذلك قدره المرد على الانتصار على شهوده من حلال محدّدات إيمانية مستمرة من الكتاب والسنة

ومن هنا يقال إن أحد الحكماء قال بأن «النفس لا يمكن ترويضها بسلسلة من الحديد، وإنما شعرة من الإيمان»

ومما لا شك فيه أن حسم الصراع التفسيري بين الدوافع ينم عن طريق لبطرة على دوافع الشر، وإنما دوافع الخير، فقد شاعت حكمة الله تعالى ورحمته أن يحد الإنسان بجميع الإمكانيات اللازمة لحل هذا الصراع، واجتياز هذا الاختبار الصعب، بأن وهب العقل ليميز به بين الخير والشر، وبين الحق والباطل، كما أمده سبحانه بحرية الإرادة، والاحتياط، يستطيع أن يست في أمر هذا الصراع، وأن يختار الطريق الذي يريده لحل هذا الصراع، وإن حرية إرادة الإنسان، وحرية في اختيار الطريق الذي يحل به هذا الصراع إنما يمثلان أساس مسؤوليته وحسنه^(١).

ربما لاحظت بعض المصممين التربوية الإسلامية - قرآنية ونسوية - نجد أن حل الصراع ينم بتزكية النفس، وانتصار قوة التقوى على قوة الفجور كما ورد في المصممين التالية، قال تعالى

﴿وَمَا أَتَيْنَا نَبِيًّا إِلَّا أَنذَرْنَا أَنذَارًا مَّا رَجَوْا نَدْوًا﴾^(٢)

وقوله ﴿وَنُفِصَ وَمَا مَوَدَّتْهَا ۖ فَالْمَنَّا غُورَهَا وَتَقَوَّيْنَهَا ۚ هَٰذَا أَفْطَحَ مَن رَّكَّبَهَا ۚ﴾^(٣) وقد حاب من دسستها^(٤).

(١) د. محمد عثمان حجازي، القرآن وعلم النص، ص ٢٠٥.

(٢) سورة يوسف، ٥٢.

(٣) سورة القصص، ٦٠ - ٦١.

وقوله عز وجل ﴿قَدْ لَخَّخَ مَرُّ زَكَاةٍ﴾^(١).

ومرسله ﴿وَأَمَّا مَنْ خَلَفَ مَعَامَ رَبِّهِ وَتَتَى الْقَنَسَ عِىَ الْوَكَاةِ﴾^(٢) فَإِنَّ ثَلَاثَةَ رُؤُوسٍ لِمَارِكَةٍ^(٣).

كما إن النصوص الشريفة لأئمة أهل البيت عليهم السلام نصت في هذا المعنى.

يقول الإمام علي عليه السلام: «إِنَّ اللَّهَ رَكِبَ فِي الْمَلَانِكَةِ عَقْلاً بِلَا شَهْوَةٍ، وَرَكِبَ فِي الْبَهَائِمِ شَهْوَةً بِلَا عَقْلِ، وَرَكِبَ فِي بَنِي آدَمَ كِلَيْهِمَا، فَصَ حَلَبَ عَقْلَهُ شَهْوَتُهُ فَهُوَ خَيْرٌ مِنَ الْمَلَانِكَةِ، وَمَنْ غَلَبَتْ شَهْوَتُهُ عَقْلَهُ فَهُوَ شَرٌّ مِنَ الْبَهَائِمِ»^(٤).

غير أن حل مشكلة الصراع النفسي لا جدوى منه ما لم تكن مواجهته خالصاً لله وتقرباً له عز وجل، وهذا يقتضي أن تكون مواجهة حالات الصراع النفسي عملية إيجابية ذات هدف عبادي يتم من خلاله مجاهدة أهواء النفس ومبولةا وشهواتها بطريقة توافقة وصحيحة وحسم هذه لمواجهة يحو يرضي الله تعالى ويشرح للفرد الانتصار على نفسه والاستمادة من قواه الخيرة، ومن هنا أخذت النصوص على أن أجر العمل يقدر الملفة فيه، قال الإمام علي عليه السلام:

«ثَوَابُ الْعَمَلِ عَلَى قَدْرِ الْعَمَلِ فِيهِ»^(٥).

وفي بعض أحرفه «عَلَى قَدْرِ الْإِلَاءِ بِكَوْنِ الْجَزَاءِ»^(٥).

(١) سورة الأعلى، ٦٤.

(٢) سورة النازعات، ٤٠ - ٤١.

(٣) للرسائل ج ٢، باب جهاد النفس، كذلك ميراث الحكماء، ج ١، ص ٣٦٢.

(٤) كتاب ٢٠٠٠ كلمة، ص ٤٢.

(٥) كتاب ٢٠٠٠ كلمة، ص ٧٣.

ولما كان الصراع النفسي لا يشأ إلا بسبب تعرض الفرد لإحباطات مستمرة ولمواقف مصادمية بين الآمال والطموحات، فإنه من الضروري أن نحدد أولاً مفهوم الإحباط، والصراع، ونوضح ثانياً وجهة نظر بشرع إسلامي فيهما.

الإحباط والصراع النفسي:

الإحباط النفسي بمفهومه الأرضي هو إعاقه السلوك عن الوصول إلى هدفه المرجو، فعندما يبحث الكائن الحي عن الطعام لسد جوعه أو إرواء ظمئه إذا كان عطشاً، فإن توتره النفسي سوف ينخفض وينتهي بتحقيق إشباع كامل أو جزئي لهذه الحاجة، غير أن مواقف الحياة لا تحقق للكائن الحي إشباعاً كاملاً في كل الأوقات، وبالتالي كثيراً ما يفشل في بلوغ هدفه، ويحرم من إشباع حاجاته أو يؤخره بشكل مضر، وهنا يشعر الكائن الحي بانفلاق النفسي نتيجة هذه الإعاقه، وهذا ما يسميه علماء النفس «بالإحباط النفسي».

ومن ثم يبدأ الكائن الحي المحيط في البحث عن خيارات أو بدائل لتخفيف توتره، إما بتغيير طريقة الإشباع كتأجيل الفرد لموعد رواجه مثلاً أو بتغيير الهدف كأن يتحول من الاهتمام بالشقافة إلى الاهتمام بالرياضة، أو يتحول من تخصص معين لم يوفق فيه المحصور عليه إلى تخصص آخر.

ولمعه سؤال في هذا الصدد هل موافق المشرع الإسلامي على هذا للمعنى؟

وفي هذا المجال، يمكن القول بأن الإحباط بمعناه الإسلامي ليس مجرد إعاقه لسلوك الكائن الأدمي عن ملوغ الهدف المحدد في دماغه، لأن

العدد يمكن أحياناً من إشباع حاجاته، والبلوغ بسلوكه إلى نهايته، ومع ذلك فإن مفهوم الإحباط النفسي - إسلامياً - يطبق على هذه الحالة، حيث إن لمعنى الإسلامي للإحباط يتجاوز هذا المفهوم القريب ولا يتضمن فقط منع تحقق الإشباع المادي للحاجات المأجلة، أو عجزه عن إنجاز العمل إنشائياً صحيحاً، وإنما هو كذلك عجز المكلف المسلم عن التخلص بينه من شوائب لذيء، كالرياء، والمفاخرة، والرغبة في الحصول على تقدير اجتماعي، وهو عجز مقروء - بالتأكيد - بإحباط الأجر.

ويكفي الفرد «إحباطاً للأجر» إعاقة سلوكه عن تحقيق الهدف العبادي الذي يرنو إليه، وهو أمر لا يلتفت إليه المشرع أو المصالحح النفسي الوضعي، وبالتالي ينطوي المفهوم الإسلامي للإحباط إعاقة سلوك الفرد أما في دنياه أو آخرته . في جانبه المادي وفي جانبه المعنوي.

لهذا لا يركز المفهوم الإسلامي للإحباط على مسألة الإحباط الظاهري للسلوك في بلوغ الهدف، فهناك من لا يطاق جهده ظاهرياً في إشباع حاجاته المادية، لأنه استطاع بلوغ المستوى المناسب لتحقيق هدفه، كان نجح في تأمين إشباع حاجته من الطعام، فإن علم النفس الوضعي لا يعتبر هذه الموقف «إحباطاً» مسياً طالما تم الإشباع بطريقة ما دون النظر إلى مشروعية الإشباع أو عدم مشروعيته

أما المشرع التربوي الإسلامي فيرى أن هذا الموقف قد لا يحلوا من إحباط لأن الهدف من إثبات سلوك معين في مقام التربية العبادية ليس دنيوياً محضاً معرولاً عن التقويم الإلهي للسلوك في اليوم الآخر، إذ يعرف إحباط الجهد من علمه من خلال ارتباطه بربا الله.

وفي ضوء هذه النظرة فإن إحباط السلوك لا ماص. منه، طالما أن

دراهم «سوك» لم تطلق من أجل تحقيق هذا الرضا، فالمشروع الإسلامي لا يرى أن يحسب الإحباط ممكن بإشباع الحاجات العادية - دنيوياً - فقط، وإنما يتطلب تفاديه بطريقة أخرى لا يريد علم النفس الوضعي أن ينتعت إنيهاً، وهو ضرورة تخليص الشيء فعلاً من شوائب الدنيا ومنعها، ليعبر، والإحباط في مفهومه الإسلامي ليس فقط إعاقة السلوك عن إشباع قصير وعاجل مادي، وإنما لعدم تحقق الصيغة العبادية للإشباع، فإذا سم الإشباع المادي للحاجات، بمنزلة عن هذه الصيغة أحبط «أجر» الفرد على هذا السلوك متى اقترب من بنية لا علاقة لها بمرضاة الله سبحانه وتعالى، بل يقول بعض إسلامي إن: «تقية العمل أشد - على العاملين - من العمل»

إذ لا يتحقق الإحباط النفسي بمجرد عجز الكائن الأدمي عن بلوغ الإشباع الدنيوي المباشر، وإنما يتم أيضاً بمجرد عن تخليص نفسه من الشرب، والساق، وتسقيتها من الرياء والأهداف الدنيوية المحضة، مما دامت نوايا الفرد خالصة لله، فإن مثوبة عمله قائمة، ومضمونة سره تحفل الإشباع الدنيوي أو لم يتحقق

وبهذا لا يتم إحباط السلوك إسلامياً بمجرد إعاقة السلوك عن بلوغ الهدف الدنيوي وهو إشباع الحاجات، وإنما كذلك بإعاقة الشيء عن تحقيق رضا الله عز وجل، ولهذا يحبط أجر «فلان» وعم أن سلوكه الدنيوي لم يعرف الإعاقة في إشباع الحاجات، ولا يحبط أجر «فلان» وإن لم يبلغ ما يريده دنيوياً، ما دامت نيته خالصة لله، فكما جاء في الحديث الشريف «نية المؤمن خير من عمله»^(١).

ولكي يتجنب الفرد الإحباط النفسي يجب عليه أن يعرف الإشباع

المادي والمعنوي الذي يحصل عليه الكائن الأدمي بنية حالته لله تعالى لا يشوبه عرص آخر، قال الرسول الأكرم في حديثه الشريف ﷺ

«إن العبد ليعمل أعمالاً حنة فتصعد بها الملائكة في صحن محضمة، فتلقى بين يدي الله عز وجل فيقول: ألقوا هذه الصبيحة، فإنه لم يرد بها فيها وجهي، ثم تبادي الملائكة اكتبوا كذا، وكذا، فيقولون يا ربنا، إنه لم يعمل شيئاً من ذلك، فيقول: إنه نواه»^(١).

أما الصراع النفسي فهو نمرة مزة للخبرات الإيجابية المتراكمة الناجمة عن الممارسة المحرمة والشعور بالاستياء، وهو يتأثر به، فكلمة كان لإحباط حقيقاً كان الصراع كذلك مساوياً له في درجته، وعندما يكون عيباً يعدو الصراع كذلك عنفاً في النفس، ولكن الشيء المشترك بينهما أنهما يزدبان بمرض النفسي إذا لم نستطع النفس حسمهما بطريقة توافقية سوية.

ولكن ماذا نعني بالصراع النفسي؟

إذا تعارضت بعض دوافع الإنسان بأن يجذبه مثلاً دافع إلى اتجاه معين، ويجذبه دافع آخر إلى اتجاه مضاد، أحس الإنسان بحالة من الحيرة، والتردد، والمحرج عن اتخاذ قرار في أي اتجاه يسير، وتعرف هذه الحالة بالصراع النفسي^(٢).

لنلاحظ هنا أنه من الصعب إشباع دافعين متعارضين في آن واحد، لمتساوي قوتيهما في الجذب والتأثير على النفس، كالصراع بين رغبات لإسناد والتقيود المفروضة عليه، وبين نواته والمبادئ الأخلاقية التي تحكم حياته، أو الصراع خلال فترة للمجاهدة بين العادات القديمة التي اعتاد عليها

(١) منهاج النجاة، للمولى الفيض الكاشاني، ص ١٢٨

(٢) د. محمد حسان سحلي، القرآن وعلم النفس ص ٤٩

وبين العادات الجليدة المصادة التي يسعى لتعلمها، كالرغبة في أن يكون كريماً، وحبه وتمسكه الشديد بماله، أو بين حب العنة للعنف وارتدائه عنها، وبين خوفها من نظرة أصدغانها الساحرات منها، فهذا «سرع من الصراع» يسميه علماء النفس الوضعي العربيون «صراع إقدام-إحجام»^(١)

وقد أشار القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة إلى حالة الصراع بين دوافع النفس^(٢) كما قلنا في الصفحات السابقة، لكن ما يعيننا في موضوع بحثنا هو ما أسماه المشرع التربوي الإسلامي «بمجاهدة النفس» التي بواسطتها يتجنب الفرد المؤثر الإحباطات العنيفة أو يضعف على الأقل من قوتها وبعائيتها، وبالتالي تخف الصراعات إذا تمكن من التحكم في سلوكه النفسي، وإذا تمكن من ترويتها بأضدادها من أنماط السلوك الإسلامي المفضل، وذلك يساعد على مجازاة الفرد - محالها ومريضاً - بحسب حالة الصراع حسباً موقفاً يرتفيه المشرع التربوي الإسلامي

كيف تواجه منهج الأضداد مشكلة الصراع النفسي؟

مما سبق أخذنا على ثلاثة أمور، يتصل الواحد منها بالآخر وهي:

أولاً: إن عملية التعبير النفسي، وصياغة اللغات تواجه دون شك ما أطلق عليه المشرع الإسلامي «المجاهدة النفسية».

ثانياً: إن عملية المجاهدة النفسية تتضمن عنصرين هما

(١) هناك مطلق آخران لحالة الصراع النفسي أحدهما اسمه طلاء النفس صراع الإقدام - وتجنب فيه اختيار الفرد أمرين كلاهما حلو كاختار مهنتين متنافستين يحتاج لهما الفرد ويحبهما منه - والآخر صراع الصراع الأحكام، وفيه يتوجب على الفرد اختيار أمرين كلاهما صعب ومرسل المعاملة بين طرفين منه أو دخول السجن، أو تبني السلوك بين رد الأمور المسروقة ومصادرتها بالقوة أو بتحاكم محاكمه عليه خصمه أمام الملا

(٢) انظر سورة الأنعام، ٧٦ وكذلك سورة التوبة، ٤٥، وسورة النساء، آيات ٩٠ - ٩٢ - ٩٤

١ - إنه لا ماضٍ من حتمية الصراع الداخلي بين دوافع النفس وقواها المتعارضة، بين الشهوة والعمل . فالصراع يختلف أشكاله وأنواعه يعتبر أحد مظاهر عملية الجهاد النفسي، وهو جزء من التركيبة البشرية

٢ - قد يصاحب هذا الصراع - ولفترة مؤقتة توتر وفلق في داخل النفس - قد يلحق الضرر بها إذا لم يستطع الفرد التحكم فيه، وتوجيهه في الطريق الصحيح، لكن عند الفرد المؤمن تكون حالة الصراع النفسي موقف علم، واثنيار، ومسؤولية تمكنه من صقل شخصيته وتحقيق توارثها الداخلي، وهو في الوقت نفسه اختبار لا بدّ للمؤمن من اجتيازه بطابع عبادي بغي.

ثالثاً: ولما كانت المجاهدة النفسية عند المؤمن موقف علم، وتحمل مسؤولية، فإن المشرع الإسلامي يحاول من خلال منهج الأضداد أن يجنب المؤمن الإحباطات الشديدة، وأن يهيئ الصراع بضبط الشهوة، وتطعيم طرائق إشباعها، وإحضاعها لقوة العقل، ولكن السؤال:

كيف استطاع منهج الأضداد حل مسألة الصراع، بحيث تؤدي المجاهدة إلى انتصار العقل كقوة موضوعية على الشهوة؟

للإجابة على هذا السؤال لفت النظر إلى ما يلي

أولاً: ملاحظ الباحث ظهور الصراع النفسي في كل الأمراض العصبية، وهو سمة مشتركة بينها جميعاً، إذ ينشأ كل مرض نفسي من تراكم الإحباطات التي تصاحبها حالة صراع بين الدوافع، ولما كان الصراع هو السمة المشتركة لهذه الأمراض، فإن الهدف الأساسي لمنهج الأضداد هو معالجه النفس من عليها، وأنتائها، لذلك يبدأ المعالج في تركيز جهده على إنهاء الصراع ويجب الإحاطة، وحللال السكين والطمأنينة والسلام في حياة الفرد

ومما لا شك فيه أن خطوات المعالج المسلم لإنهاء حالة الصراع العمي يتم بخطوتين إحداهما وقائية والأخرى علاجية.

١- أولاً تبدأ بتوفير الإجراءات الاحتياطية والوقائية اللازمة لتأمين إشباع حاجات الفرد وتقدير عمله وتمتين منجزاته دنيوياً وأخروياً، ونسأ عندما يتناحر الفرد المسلم عن فهم وتطبيق البرنامج الوقائي للإسلام، فإن الفرصة ما زالت قائمة بأجراء وإعداد خطوات علاجية تساعد على استعادة التوازن الداخلي للشخصية المسلمة في عالم متغير وصعب.

ثانياً: إن حل مشكلة الصراع النفسي يتم بمنهج الأضداد - موضوع بحث - وإن لهذا المنهج بصوص شرعية كثيرة لكننا أثرنا أن نحقق التوازن الداخلي للشخصية المسلمة عن طريق قائمتي الأضداد^(١) اللتين قدمهما الإمامان لصادق، والكاظم عليهما السلام، حيث طالبت هاتان القائمتان بتعليق النفس عن السمات العصبية، وتحقيق توازن للشخصية بإحلال سمات السوية الإيجابية، أو يعمل على إبعاد الصراعات العنيفة عن النفس لبشرية.

والواقع أن المفاهيم التي تضمنتها قائمتي الأضداد التي وردت عن الإمامين عليهما السلام تشمل على رؤية معرفية إسلامية جامعة بشقي التربية الوقائية والعلاجية، فالمربي المسلم كما قلنا يبدأ أولاً بعرض السمات الإيجابية، كالإيمان، والعدل والرحمة والعفة، والحلم، والعسر والإحلاص، والشكر والدعاء، والفهم والإدراك، والجهاد والصمت، والتواضع والزهو، والحب والألفة والتأني وغيرها، فإن قدر المربي على تربية الشخصية على هذه السمات بلغ مرماها في تحقيق التضيغ للشخصية.

(١) انظر قائمتي الأضداد التي ذكرناها في المعمل الخامس

رحبهما يخفف العربي المسلم في جهته هنا في تعميق سمة ما أو أكثر. يلجأ مرة أخرى إلى البرنامج العلاجي لمنهج الأصداد، ويردم اسماء المصابة شيئاً فشيئاً، لتأخذ مكانها في النفس سمات السلوك السوي وفق المحددات الإيمانية الواردة في قائمتي الأصداد عند الإمامين

وذلك إن هذه المفاهيم التي يؤكد عليها منهج الأصداد الإسلامي لا يطرحها علم النفس الوضعي، ولا يلتفت إليها أبداً، ويطرحها بعيداً عن أبعاده، لأنه يبدأ في فهمه للنفس الإنسانية من مطلقات مادية دون النظر إلى القيم الروحية التي تمثل جانباً حيوياً من تركيبة الأدمي، والتي تضمنتها قائمتي الأصداد

ورغم أن هذه المفاهيم قادرة على تشكيل جديد للإنسان العاقل كما اثبت ذلك تجربة الأديان والمذاهب الروحية جميعها، إلا أن مختلف مدارس علم النفس الوضعي رفضت التأكد من فاعلية هذه المفاهيم في الحياة الإنسانية وأوصدت الباب أمامها باستثناء مدرسة القيم برعاية مسير وجماعته التي حاولت مؤخرًا التنبيه إلى ضرورة القيم الروحية في تربية وعلاج الشخصية.

رابعاً. تضمنت قائمتا الأصداد سمات عصبية وسوية، لكن يلاحظ كذلك أن السمات السوية منها، سمات متكاملة، إدراكية، مزاجية، أخلاقية، فكرية، فالسمات العصبية تجسد الصراع في النفس، وهذا خلاف السمات السوية التي تحقق التوازن، فكل مفهوم من المفاهيم التي تصممها قائمة الأصداد تعمل على تجيب الفرد الإحباطات العنيفة، وإزالة لصراع النفسي، وسوء نرى - بالأمثلة - كيف استطاعت مفاهيم قائمتي الأصداد حل مشكلة الصراع النفسي عند الفرد.

حامساً: إن وعي المسلم بأصناف السلوك بعينه بقبياً على نجس الإحباط والصراع، غير أن وقوفه على المعوقات الرئيسة التي تعطل علاج دباب، ومحاوئته تجاوز هذه المعوقات شيء من الحكمة والعصاة، يسهم بقدر كبير في التعتب الجذري للمتفرج لمشكلة الصراع النفسي، وبخاصة أن ألباظ قائمتي الأضداد تصم بين جانبيا معوقات الممالحة وطرقها، باعتبار أن بعض المعوقات سمات عصابية، والطرق سمات سوية كالرهد، والتوكل، والرصاء، والحلم، وصون الحديث... الخ

سادساً: تصمت قائمتا الأضداد السابقتان (٧٥) سمة أساسية متقابلة تمثل الأصول العامة للعصاب النفسي، غير أن المشرع التربوي الإسلامي لم يكتف بهذا التصنيف العام، إذ نجد كثيراً من النصوص الإسلامية خاصة الأحاديث - قد صفت كل سمة أساسية سواء كانت عصابية أو سوية، إلى عدد من السمات المرهية، المتمثلة إليها، رغم أنه يلاحظ تداخل السمات المرهية وتماؤها لأكثر من سمة عامة، ولا يفسر ذلك إلا على أساس تعامل المشرع الإسلامي مع الإنسان كوحدة متكاملة مكونة من سمات عقلية وبدنية وانفعالية ولغوية واجتماعية وروحية، وهي جميعاً سمات مترابطة لا تنفصل عنها سمات الإنسان البدنية هي سماته المراجعة، والإدراكية وغيرهما، ويؤثر كل منها في الآخر كما سبق القول في الفصل الثاني

وبهذا يكون من المضمومة بمكان على الباحث المسلم حصر هذه السمات بدقة إلا لشخص له دراية واسعة بالتصووص، ومع ذلك فإن المسلم العادي لديه القدرة على معرفة الكثير من السمات العامة، والمرعبة المشعة عنها، كي يستخفها في تحفيل ما هو سوي وما هو عصابي في سلوكه وفق المحددات الإيمانية.

ويهدف المشرع الإسلامي من تصبئه المعري للمعامل العامة بمذاق المسموع بعري أعمق ومعرفة أقوى لهذه المعامل، حتى يتمكن من فهم مسؤوليته التكليفية في الحياة، ويتمكن من تحديد دائرته العقائدية التي ينتمي لها، ويتحرك في إطارها، ويحافظها، ومحفظها.

وليس هذا التصنيف المعري للمعامل الأساسية التي حوّلها قوائم تصبئ السؤوك إلاّ دليلاً على عظيمة هذا المصيح، وفردته، وقدرته على التمييز الدقيق بين سمات التحص السوي، وسمات العصابي من الناحيتين النفسية والفكرية، فمن الناحية النفسية ملاحظ أن بعض المعامل العصابية - مثلاً - كالشعور بالنقص، بضمّ إليه سمات أخرى لا يقرّ بها علم لنفس الوضعي مثل الكبر، والنفاق، العنق، الرياء، الذنوب، الحراء، الشوبف والمساظلة التنبؤية

وبلاحظ كذلك أن المفهوم الواسع للعصاب بالاحتية النفسية والفكرية يشمل حتى العنة التي تشتمل بعلم النفس، فبعض رجال هذا العلم عصابيون وفق المحدّدات الإيمانية^(١) فهم مشتمون إلى دائرة الكفر أو النفاق، وهم بكل تأكيد مخطئون فكرياً ييران بين السوي والعصابي من الناحية العقائدية.

ولن اقتصر مفهوم السواء والعصاب عند العلماء على أساس معنّوات الناحية للسيكولوجية، فد أسهم بشكل مباشر في فشل كثير من الجهود العلاجية، فعلم النفس يقرّ المعصية، والنفاق، والكفر، والجحود لله ومعهم، وحيثها مظاهر للعصاب الفكري الذي أكد عليه المشرع الإسلامي، ومما لا ريب فيه أن للعصاب النفسي غير مفصل في لصور

(١) يجب مضي علماء التحليل النفسي يحتقن موقفاً للشود والنفاق عنه ويبرر السؤوك الجسمي المعاني

لإسلامي عن العصاب الفكري، فظاهرة «الس الحق بالباطل» عند بعض الناس ليست عصباً فكرياً فحسب، بل يعبر فيه هؤلاء عن شكوكهم في الله وصرهم على الاستمرار في طريق الكفر، بل هو كذلك تجسيد لحالة عصبية نفسية، إذ هو إعجاب المرء بنفسه، مما يجعله يتأرجح في الرأي بتبريره الأخطاء، وتأول العوج.

كما أن مظاهر السلوك وصوره الحلق وهو حالة عصبية نفسية أيضاً، منصلة بعصاب فكري هو الكفر بالله والجرأة على تعاليمه وقيمه وتكرار نشرهاته، وكما ارتبط العصاب النفسي بالفكري، كذلك ارتبط مفهوم السوء النفسي والفكري في وحدة واحدة.

ولنفرد ما كتبه الإمام علي عليه السلام في تصنيف آخر للسلوك السري والمصابي:

بني الإيمان على أربع دعائم على الصبر، واليقين، والعدل والجهاد.

والصبر على أربع شعب. على الشوق، والشغف (الخوف) والرهف والترتب لمن اشتاق إلى الجنة سلاحي الشهوات، ومن أشفق من الدار رجع عن المحرمات، ومن رهد في الدنيا هانت عليه المصائب ومن ارتتب الموت سارع إلى الخيرات.

ولنفس على أربع شعب: على نصرة الفتنة وتأول الحكمة، وموعظة المرء وسنة الأولين، فمن تبصر في العظة تأول الحكمة، ومن تأول الحكمة عرف العبرة، ومن عرف العبرة عرف السنة، ومن عرف السنة عاش في الأولى.

والعدل على أربع شعب. على غائص الفهم، وعمرة العلم، ورهرة

الحكم، وروضة الحلم، ومن فهم فسر جميع العلم، ومن عرف الحكم لم يصل، ومن حلم لم يفرط أمره، وعاش في الناس حميداً.

وإجهاد على أربع شعب: على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصدق عند المواطنين، وشأن العاسقين، ومن أمر بالمعروف شد ظهر المؤمن، ومن نهى عن المنكر أرغم أنف الكافرين، ومن صدق في المواطن قضى ما عليه، ومن شأ القاصتين غضب لله، ومن غضب لله غضب الله، عدلك الإيمان ودعائه وشعبه

والكفر على أربع دعائم: على الفسوق والغلو والشك والشبهة

والحق على أربع شعب: الجفاء، والمعنى، والغفلة، والعتو.

والغلو على أربع شعب: التسمق والنازع والزيف والشفاق

والشك على أربع شعب: الرية والهول، والتردد، والاستسلام

والشبهة على أربع شعب: إعجاب بالزينة وتسويل المعسر وتأويل الموج، وليس الحق بالباطل.

ثم صلب الإمام علي عليه السلام هذه الشعب إلى سمات أخرى متفرعة عنها.

ثم قال الإمام علي عليه السلام مصناً للمصاب النعسي والفكري - المعاني - فقال:

المدى على أربع دعائم: على الهوى، والهوى، والحقيقة، والطمع

والهوى على أربع دعائم: على البغي والعدوان، والشهوة والطغيان

والهوى على أربع شعب: على الغيرة، والأمل، والهيبة، والمعاملة.

والحماسة على أربع شعب: على الكبر، والفخر، والحمية،
والعصية

والطمع على أربع شعب: على القرح والمرح واللجاجة وانتكر

وصب الإمام كذلك هذه الشعب إلى سمات أخرى متفرعة عنها^(١)

أما النبي ﷺ فقد وضع قائمة مطولة لتصنيف أحوال السلوك العنصري
والسوي، فنجس منه بعض التصنيفات^(٢)، قال ﷺ: رداً على سؤال وجهه
إليه أحد الرهبان، فآمن به وصدقه:

شعب من العقل الخلم، ومن العلم العلم، ومن العلم الرشد، ومن
الرشد العفاف، ومن العفاف الصيانة، ومن الصيانة الحياء، ومن الحياء
الرزاة، ومن الرزاة المداومة على الخير، ومن المداومة على الخير كراهية
الشر، ومن كراهية الشر طاعة الناصح، فهذه عشرة أصناف من أنواع الخير،
ولكن واحد من هذه العشرة الأصناف عشرة أنواع، ثم بدأ يصنف كل سمة
أساسية إلى سماتها الفرعية، فمثلاً شعب من الحياء اللين والرافة والمراقبة
له في السر والعلني، والسلامة، واجتناب الشر، والبشاشة والسماحة،
والعطر، وحسن الناء على المرء في الناس.

وكذلك في تصنيفه للسمات الأساسية الأخرى

ثم بدأ ﷺ يتحدث للمراحم سمات المؤمن، والصابر، والتائب،
ونكر، والحناع، والصلاح، والناصح، والمؤمن، والمخلص، وراعد،
والبار، ولتقوى وبعدما انتهى من تصنيفه للسمات السوية تمثل قوله عن

(١) انظر مما انصبت للسلوك السوي والسلوك العنصري في جز مطول إلى حد ما في كتاب (صفت

المعروف)، ص ١١٥ - ١١٧

(٢) تنجس المعقول، ص ١٩ - ٢٤

علامة الصالح يصغي إليه ويصلح عمله، ويصلح كسبه، ويصلح أموره كلها، وهكذا اتسع طريقته في تصنيف السلوك عن العصابيين، كالمتكلم، والطالم، والمرائي، والماثق، والحاسد، والعرف، والغافل، والكسلان، والكذاب، والفاقد، والحقن، إذ سمع النبي ﷺ لكل عصابي من لغات المذكورة مجموعة من السمات مثل تصنيفه لسمات المرائي، يقول الرسول الكريم ﷺ:

«وأما علامة المرائي فأربع: يحرص في العمل لله إذا كان عنده أحد، ويكسل إذا كان وحده، ويحرص في كل أمره على المحمدة، ويحرص سمته بجهده» وقوله ﷺ:

«وأما علامة الظالم فأربع: يظلم من فوفه بالنعصية، ويمسك من دونه بالعلية، ويفض الحق ويظهر الظلم».

وثمة ملاحظة هامة في التصنيف المغربي، وهي أن سمات الشخص السوي المذكورة في الفوائم الأنفة المذكور، تتداخل فيما بينها، فسمات المحلص كسمات الصالح، والحاشع، وهذا يؤكد على وحدة العناصر النفسية والفكرية لتركبة المؤمن، وكذلك الحال إذا نظرنا إلى تداخل سمات العصبي أدركنا نفع شخصيته وناحلها عقائدياً، ووجدانياً، وسوديكياً، فسمات المرائي شبيهة ببعض سمات الماثق، وبعض سمات الحاسد مماثلة لبعض سمات الفاسق، فمثلاً من سمات الحاسد «الغيبة» وهي مظهر لسمات العدوانية التي انطبع بها سلوك الفاسق، والمرائي

وهكذا نجد أن التصنيف الإسلامي للسلوك يكشف عن أبعاد وحالات لسواء التي سجد الشخصية المؤمنة السوية، ويكشف كذلك عن حالات لمرض في شخصية العصابي وسماته الفكرية والنفسية والسلوكية

ويعود الآن إلى قائمتي الأعداء سأل عمل فيهما، ونحتار منها سمات نحقق للفرد بولماً داخلية، لأنها تجسه الإحاط في إشباع حاجاته وأبسط متطلباته المعنوية والمادية، وهذا بدوره يجمع أساساً شوء صراع بين لدواعي في النفس، وهذه السمات السوية يتمتع بها بكل تأكيد الشخص المزمن

كما أسا سبختار في مقابل ذلك السمات العصابية المصادرة للسلوك الإيجابي، وهي عصابية أو مرضية بمقاييس العلاج النفسي الوصفي، وبمعايير المشرع الإسلامي معاً، وهذه السمات أمراض سلوكية في الشخصية الإنسانية.

ولإثبات وجهة نظروا، سحاول إن شاء الله عز وجل أن نبين - بالأمثلة - أثر اللفظين المتضادين في الحياة النفسية للفرد، وسيكون حديثنا عنهما بطريقة انتقالي، فعندما نتحدث عن سمة ما من قائمة الأعداء نندخل معه الحديث حول السمة المصادرة له، مثلاً نتحدث عن الإخلاص ونذكر الصدق، وعن الصمغ ونذكر الانتقام، والصر ونذكر الجرع، وهكذا يجري الحديث عن اللفظين المتضادين في سياق واحد، لنعرف أثر كل منهما في السلوك، فالسمات العصابية تنشأ الصراع في النفس وتقلق مضجعيها، وسمات السوية بالمعيار الإسلامي التي نحقق - للفرد - بولماً، ونكاملاً، وتوافقاً لشخصيته.

ولأن عدد السمات في القائمتين يبلغ (٧٥) سمة سوبه يعانها عدد مماثل من السمات العصابية، فإنه من الصعب على الباحث أن يتناول أثر هذه السمات جميعها إلا في دراسة متعة، معيقة، ولولها السب أثراً - كمثال فقط - شرح ماذج من السمات المقابلة في قائمتي الأعداء المذكورتين لمعرفة الأثر النفسي لكل سمة وللسمة المقابلة لها

ونأمل أن يجد القارئ الكريم توصيحاً للسمات التي اخترناها وسمات المقابلة لها من القانتين، وهي عشر سمات أترأ أن تكون سمات تنتمي جميعاً إلى المكون الروحي والأخلاقي للذات الإنسانية، بحيث تكون هذه السمات نموذجاً لأحد مكونات التركيبة الشربة الذي تعمله أدياب التربية الحديثة عن عمد وإصرار مسبق، وإذا اهتم بعض علماء النفس السلوكيين - كما فعل عالم النفس الأمريكي كاتل - بهذه السمات وتصنيفها فإن اهتمام بها كان مبعثه عنايته بالسمات الوجدانية التي يعترف بها هؤلاء العلماء.

وعرضاً في قبالتها عشر سمات معادة لها تنتمي للمكون الروحي والأخلاقي ذاته، مع أنه تتنوع في القانتين المذكورتين سمات مختلفة للشخصية الإنسانية من إدراكية ومعرفية واجتماعية وجسمية وانفعالية ولغوية، بيد أن بعض التصنيفات الوضعية لبعض علماء النفس العربيين تقدم محاولات متطرفة لفهم هذه المكونات عدا المكون الروحي والأخلاقي، إذ أهملت استجماً مع البيئة الثقافية العربية التي تعادي المكون الروحي والأخلاقي وتجاهل وجوده في التركيبة البشرية، وإن حاول اتجاه قيمي وأخلاقي جديد ظهر مؤخراً في وسط أوروبا التأكيد على قيمة الدين وأهمية لعنصر الروحي والوازع الأخلاقي في توجيه السلوك الإنساني وضبطه.

ويمكن وضع هذه السمات المحشاة التالية والسمات المقابلة لها - كمظاهر للمكون الروحي والأخلاقي في جدول كما يلي

| رقم الصفحة | الصفات الإيمانية السوية | الصفات العنصرية المخالفة أو المصاندة لها |
|------------|-------------------------|--|
| ١ | العفة | التهتك |
| ٢ | الصبر | الجزع |
| ٣ | الإخلاص | الشوب |
| ٤ | الرضا | السد |
| ٥ | التوكل | الحرص |
| ٦ | الزهد | الرغبة |
| ٧ | الصنيع | الانتقام |
| ٨ | الجهاد | التكول |
| ٩ | السفاة | البخس |
| ١٠ | العناء | الاستغناء |

أولاً: العفة والتهتك:

العفة هي طابعها الأخلاقي والعبادي هي طريق الاعتدال والوسطية في الاستجابة للشهوات بشكل سوي، والتوازن في إشباع الحاجات كالمأكل، والشرب، والجنس، والبنوة، والجاه، والتملك، وسائر الحاجات المعنوية الأخرى، لأنها ضبط داخلي لسلوك الذات وتنظيم عقلي صحيح لإشباع حاجاتها، ولذلك فالعفة هي وسط بين طرفين . طرفي الإفراط والتفريط كالشره وحمود الشهوة مثلاً، وبذلك تجسد العفة - في شكلها الداخلي والداخلي - حكمة العقل وصحة التفكير وسلامة التفكير، فإنه كما قال الإمام علي عليه السلام:

«لا ترى الحامل إلا معرطاً أو معرطاً»^(١).

يقول العلامة الشيعي اليراقني عن مفهوم العفة بأنها:

(١) نهج البلاعة ج ٤ ص ١٥

«اعتماد قوة الشهوة للعقل في الإقدام على ما يأمرها من المناسك، والمنكح كماً وكيفاً، والاجتناب عما ينهاها عنه، وهو الاعتدال المدحوق عقلاً وشرعاً، وطرفاه من الإفراط والتعريط مدعومان»^(١)

وأكدت النصوص الشرعية على أهمية المعاف في توارده الشخصيه مثل قوله تعالى:

﴿رَحُّوا زُرَّارَكُمْ وَلَا تُزِرُّوا﴾^(٢) تشير إلى عفة الفرد في ضبط إشباع حاجته لتغذية والشراب

وقوله عز وجل في قرآنه المجيد: ﴿يَسْأَلُكُمْ رَبُّ لَكُمْ لَقَدْ قَاتُوا رَبَّكُمْ أَنْ يُشْكِلَكُمْ﴾^(٣) تشير إلى العفة الجنسية.

وقوله أيضاً في كتابه المجيد: ﴿مَنْ يَأْتِ لَكُمْ وَأَنْتُمْ يَأْتِ لَكُمْ﴾^(٤).

وقال الإمام علي عليه السلام: «أفضل العبادة المعاف»^(٥).

وعن الإمام الباقر عليه السلام قال: «ما من عبادة أفضل من عفة بطن ولرج»^(٦). ويشير النص إلى عفة الفرد في ثلاث حاجات بيولوجية أساسية هي تنظيم دافع الجوع والحاجة للشراب وال ضبط والسيطرة على الدافع الجنسي

إن المنعرج التربوي الإسلامي يوازن بين دوافع الإنسان، ويعادل بينها في طريقة إشباعها، فلا هو يكثر الإشباع أصلاً، ولا هو يسمح بالإشباع

(١) جامع الصحاح، ج ٢، ص ١٦

(٢) سورة الأعراف، ٣٠

(٣) سورة البقرة، ٢٢٢

(٤) سورة الفرق، ١٨٧

(٥) جامع الصحاح، ج ٢، ص ١٦

(٦) جامع الصحاح، ج ٢، ص ١٧

الصليق، غير المصلح مضبوط أخلاقاً، لقد اعتبر هذه الحاجات متاعاً للحياة الدنية كما صرح بذلك الآية ودم (١٤) من سورة آل عمران

﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ نَقْصُورٌ لَّكَ الْفَيْسُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ لَا يَزِيدُهُمُ إِلَّا هَمًّا مِّنَ الْأَمْرِ وَالْأَمْرِ وَالْمَمْلُوكِ وَالْمَمْلُوكِ لِلْمَوْلَىٰ وَالْأَمْرُ وَالْعَمَلُ وَالْعَمَلُ لِلْعَمَلِ وَالْعَمَلُ لِلْعَمَلِ﴾^(١)

ويطلب المشرع الإسلامي بتأجيل الإشباع الجسي مثلاً، لا بإسكاره أصلاً، حينما لا يستطيع الفرد لسيب ما تحقيق الإشباع المناسب لبعض حاجاته الملحة، وصرحت بذلك الآية القرآنية الكريمة

﴿وَلَا تَسْتَوِ الْأَنْفُ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَسَادِهِ﴾^(٢).

ولضبط النفس في هذا الصدد ينهى عن إبداء الرينة، ويأمر بستر الجسد، وعض النظر، وهي أهم المثيرات الجنسية، ويحدد المشرع آداباً أخرى لتنظيم الملاقة الجنسية، ولتربية المسلم على العفة في الإشباع لهذا الدافع أو غيره

ففي مثل هذا التوازن بين إشباع الشهوة بقدر الحاجة، وقدرة الفرد على التحكم فيها، لا يشأ أصلاً صراع في النفس، لأن الصراع لا ينشأ إلا عن إنكار أربعة أصلاً، ورغبة الفرد في الاستجابة لها، أو بين رغبة الأفراد في الإشباع، والمواقف التحريمية المقيدة التي تفرضها السلطة الاحتكافية وقسمها المتمرمة، والمعيق ليس محروماً من الإشباع، وليس عداً لشهوته، فهو يبقى الإنسان السوي بقدر ما يحتاجه، وهو في الوقت نفسه قادر على كف المواقف الضارة للشهوة.

ومن هنا يعني التوتر النفسي تنحية عدم وجود حرمان، ولا يهدده قلق بسبب عدم وجود ضغوط من التحريمات الأخلاقية للمجتمع، وبمضي الوقت نفسه مسموح له بتأجيل الإشباع حتى الوقت المناسب أو اللحظة المطلوبة، جاء في الحديث الشريف لرسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم أنه قال:

«طوبى لمن أجل شهوة حاصرة لم يعر»^(١)

لكن الأمر غير ذلك في حالة «التهتك» أو صهي الفرد إلى ممارسة الإشباع، لزيادة عن الحاجة حتى لو اخترق قوانين المجتمع وتعاليم السماء وحكمة العقل، فلا المتهتك قادر على تأجيل الإشباع، ولا هو مقتنع داخلياً بفكرة التأجيل، فالحياة عنده «ال لحظة حاضرة» يجب اعتناؤها قدر المستطاع، ولا الحياة نفسها تسمح له دائماً بالإشباع الطليق الذي لا يقبله قيد، وبالتالي ينشأ الصراع في نفسه بين رغبات الذات المفتتة وقيد الواقع ومتطلبات التنظيم.

إن شهوات النفس تضغط عليه بقوة وبالحاح مستمر للحصون على إشباع بها بأية حيلة سواء كانت مشروعة أو بطريقة غير مشروعة، لكن ضوابط الدين والأخلاق وقوانين المجتمع وتعليماته تمنع هذا الإشباع، وحينئذ لا يجد «المتهتك» أمامه سوى القلق والإحباط والجوع الدائم، وانحمرار بالاستياء الناجم عن ممارسة الفعل المحرم وما يرتب عنه من مشاعر الازدراء والإحساس بالإثم.

وقد شبه الإمام الغزالي ضغط شهوة الجنس عند الإنسان لمتهتك

المصنعت أخلاقياً بأنه العامل الظالم الذي لو أطلقه السلطان، ولم يمه من ظلمه أحد أموال الرعية على التدريج بأسرها، وابتلاهم بالعمى والعمى أهلكهم للجوع، وعدم تمكنهم من تحصيل القوت^(١)، كذلك هذه العمرة الممرطة في الإشباع، تستمرغ طاعة الإنسان كلها في محال يمين - بكثرة الطرونة أو كثرة ممارسة للفعل الجسي - القلب، ويشغل العقل عن التفكير، الشئ في عظمة الله عز وجل، ويجعله «حيواناً» غايط الروح، والتفكير، بعيداً عن وظيفته المهادية

ثانياً: التصبر والجزع:

يتعرض الأفراد لاشتلاءات ومواقف صعبة كثيرة، كموت عزيز أو حسارة مالية أو فقدان مركز اجتماعي، لكن هذه المواقف تتفاوت شدة، فبشرم البعض ويضجرو، ومعاني حلال هذه المواقف من حالة صراع بين رغبته في الإبقاء على العزيز، أو استعادة مركزه الاجتماعي المفقود، وبين عدم قدرته على استعادة المفقود، فاستعادة «العزيز» غير ممكنة أبداً، واسترجاع المال، والمركز الاجتماعي يحتاج كذلك لصبر غير متوفر حينئذ عند الفرد، وبالتالي ينشأ صراع في النفس نتيجة هذا الجزع، فلا المفقود العزيز عاد إلى «الحياة» ولا هو تحلى - بهذا الجزع - عما فقده، فيقتل نفسه حسرة وألماً، وتبقى نفسه مقراً لتعارض دافعين أحدهما رغبته الشديدة في استعادة ما فقده، والآخر فشله في الحصول على ما ييسره

حقاً كما قال الإمام علي عليه السلام «من لم يسجد الصبر أهلكه

(الجزع)^(٢)

(١) جامع الحافظ ج ٢، ص ١٠

(٢) نهج البلاغة ج ١، ص ٤٣

إن الشخص النرجع لا يتعامل مع نفسه كعابر سبيل في هذه الدنيا، لذلك يافس أهلها في عراها وقد لا يستطيع أن يسبح في هذه المسافة، وفي الوقت نفسه يعجز عن أن يحرر نفسه من حزن «ذلها»، لذلك ألقى كتابه في عصابة الصراع النفسي، لا لأنه لم يتمكن من تجنب حالة الصراع في عمن لدات، بل لأنه لم يوفق في حسم صراعه الداخلي حسماً موقياً رابحياً من النظرة الإيمانية

أما «الصبر» فتأثيره في النفس مضاد تماماً لحالة النرجع، فهو ثبات لنفس عاطفياً، وعدم اضطرابها في الشدائد، إذ تستري عند الصبور مختلف حالات المواقف النفسية، وينظر إلى تقدير الله للأمور بعين الرضا، فلا يتبرم، ولا تفجر نفسه، ولا يلهث وراء إشباع عاجل لحاجات يعدم بأن الله عز وجل هو مصدر تأمبها للناس جميعها، فهو الوراق، وهو وحده - عز وجل - الذي يهوض الصابرين، ويستبدل إشباعهم العاجل بأحر أسمى منه في ديارهم، وهو مطمئن إلى تأجيل إشباعه، وأجره في عالم الآخرة.

هكذا فقد الإنسان الصور «عزيراً» أحسبه عند الله، وإن ضاع منه مال أو فقد دراً أو جاهاً مما عند الله خير وأبقى، قال الله تعالى ﴿إِنَّمَا يَرْزُقُ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ﴾^(١).

وفي هذه المواقف المعبرة عن الثبات العاطفي في شخصية المؤمن نحتفي لأحواء المرضية المعقدة، ولا ننشأ حالة صراع نفسي صعبة بين رعبه ودوافعه المتعاضدة، فتعيش نفسه في ظلال الرحمة الإلهية، ولعل هذه السكينة ما أشارت إليها الآية الكريمة:

(١) سورة الزمر، ١٠.

﴿رَئِيسُ الصَّابِرِينَ﴾ ﴿١٥٥﴾ لَقَدْ إِذَا تُكِيَّتَهُمْ مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ رَجُوعٌ ﴿١٥٦﴾
أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَواتٌ مِن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ﴿١٥٧﴾^(١)

ب. الذي يجعل موقف المصاب سكتة وطمأنينة ونوافقاً أنه لا يرى في داخل المرء مغارصاً بين إرادته وبين إرادة الله، وهذا عكس ما يشعر به لجبروع الذي يرى فعل الله مخالفاً لهواه، ويشعر بأن المجتمع يتهدده بالخطر، فكما قال الإمام عليه السلام:^(٢)

إِن صَبِرْتَ جَرَى عَلَيْكَ الْقَدَرُ وَأَنْتَ مُأْجِرٌ، وَإِنْ جَرَعْتَ جَرَى عَلَيْكَ الْقَدَرُ وَأَنْتَ مُأْزِرٌ^(٣)

وقوله عليه السلام أيضاً: «اطرح عنك واردات الهموم بعرائم الصبر وحسن إيقين»^(٤)

وأخيراً لمة شبهة صد فكرة الصبر وهي أن الثبات في الشدائد وتحمل المكاره هي نظر البعض من الناس موقف سلبي في شخصية المؤمن، الذي يرى أن الدين لا يحميه من المشايكة، ولا يحوقه عن الجهد المنظم لصنع الأحداث، التي تحقق له أهداف الوظيفة العبادية المكلف بأدائها، والثبات العاطفي أو سمة الصبر شرط ضروري لتحقيق هذه الأهداف وهو الشخصية ونضجها بمعاييرها العبادية

ثالثاً: الإخلاص والشوب:

وبكليهما تأثير في توازن النفس أو اضطرابها، فالمرائي يبحث عن طلب لمزلة الرديئة لنفسه أو يسعى للحصول على تقدير اجتماعي - رعب -

(١) سورة البقرة: ١٥٥ - ١٥٧

(٢) معارج النجاة ص ١٢٤

(٣) ميراث الحكمة، ج ٢ ص ٣٩٤

لأعدائه التي أنجزها، فهو إذن يحب أن يمدحه الآخرون وتقديرًا، ويعشق السامي، ويشعر - بصورة مرضية - بالرهو الداخلي بقلته عن طريق إظهار حصان طيبة أمام غيره لتحسين صورته ذاته أمامهم، ويكسل عن انتمك هذه الحميد الحميدة إذا كان وحده أو محتلاً بنفسه

ولقد سبق أن أوردنا الحديث الشريف الذي يحذّر لنا علامات المرائي، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه:

«وأما علامة المرائي فأربع يحرص في العمل لله إذا كان عبده أحد، ويكسل إذا كان وحده، ويحرص في كل أمره على المحمّدة، ويحسن سمته بجهده»^(١).

لكن الرياء إذا أخضعه المصالح النفسية الإسلامي للتشخيص بحدوده يمثل حالة عصبية تسبب لصاحبها القلق، والتوتر، والاضطراب المرضي الشديد، ودلت عندما يحيط سلوكه في الوصول إلى الهدف المطلوب، وهو الحصول على التقدير الاجتماعي الرائد الذي لا يضمن ولا يعني من جوع، أو يثلّذ بعشق عمله، فيطلب من أجله مكافأة من الآخرين

لكن المجتمع قد يحرمه من لذة الاستمتاع «بزمهوه» الداخلي، بل إنه قد يفسد ما أنجزه ولا يعيره انتباهاً، وحينئذ يتألم المرائي القلق، ويعتريه صراع في نفسه، بين حاجته إلى التقدير الاجتماعي، - وهو مظهر يطلع فيه المجتمع حبه له - وبين الموقف الاجتماعي الذي لم يحقق له إشباعاً لحاجاته، بل سفه إنجازاته، فأصابه إحباط شديد، فيدخل في صراع نفسي قد ينتهي بتكوين حالة مرضية في شخصية المرائي

(١) ص ٢٢ من القول، ص ٢٢

وربما مشتد حالة الصراع النفسي سوءاً وعمقاً عندما تتحول رغبة المرائي في تسوية مكانة اجتماعية مرموقة إلى كره عقيت لشخصه من قبل الأفراد الذين أراد أن يخلعوا عليه حبيهم، ولا يستبعد قبل أن تبدأ النفس الممرية في البحث عن انتقام ضد من يحرمها الحب، والتقدير، والمكبة الاجتماعية اللائمة، لأن تصرفاته العصبانية تؤجج الكره لا الحب وترزع الشعور بالعوقية لدى المرائي فيبدله الناس كرهاً مفتياً بصورة علبية أو سرية

المرائي - مثلاً - قد يكتب كتاباً يحسه في نظريته الخاصة عملاً قيماً، وينتظر أن يقدوه المجتمع، فتكتب عنه أجهزة الإعلام، ويتحدث عنه الجميع في أحاديثهم الخاصة، لكن كل شيء من هذا الوهم لم يحصل، فلم يقدر الكتاب بالظرة التي تشع وهو، ولا أشبعت رغبته في حاجته إلى التقدير الاجتماعي، فبداهه القلق والإحباط، والصراع بين رغبته في البحث عن حب الآخرين له، وبين توهمه بأن المجتمع حرره من هذا الحب، وهذا التقدير، وبالتالي قد يتصور بأن المجتمع مصدر إحباط لا مصدر حماية رأس وتقدير.

وتبلغ قمة الاضطراب النفسي للمرائي خاصة إذا كان مسلماً، بمكاشفته المباشرة بأن شوائب الرياء التي يخلطها بعمله، مظلة لأجره، ومحبة بثوبة الله عز وجل، فمن الممكن أن يمارسه الناس بذلك، أو قد يواجه نفسه المصوح الشرعه التي تلم الرياء كسمة عصابية، فعلم المرائي بمصر عمله، وإحباط أجره عند تعالى يمثل في واقع الأمر ذروة القلق، لأن إعاقه السلوك عنده لم تقف عند حد عالمه الديوي العسير العالي المشتبه به، بل يشعر بإبطال أجره وإحباطه في العالم الآخر، فلا المجتمع حقاً به شعاعاً في التقدير، ولا اطمأن على تدمير الله تعالى لعمله

ومن المؤكد أن عودة التوازن الداخلي للمراتي - لا تتم عبر معالجة الرباء، وتطهير قلبه بالإخلاص من الشوائب، ولكن كيف يحقق الإخلاص كسمة إيمانية سوية هذا التوافق النفسي والمعملي في الشخصية الإنسانية؟

يوجه المسلم المخلص لذاته حل أعماله لله عز وجل، ولا يشرك بعبادة ربه تعالى أحداً، فهو لا يتجزأ أعماله من خلال الإحساس بالإعجاب كما يفعل المراتي، وإنما يوحى الشعور بالتقصير في إنجاز كل عمل يؤديه لله واتهام لفس في ظنونها، وفواحشها، وهذه المفارقة الكبيرة تجعل للمراتي قلقاً إذا أحطت رغبته في طلب التقدير، لتصوره بكمال عمله، وتجعل المسلم الملتزم أسأ، مطمئناً بأن التقدير الإلهي لعمله واقع لا مباح، وأن الممنونة مكتوبة له لا ريب، طالما أن بذل جهده في إخلاص له، ولعزير جلت قدرته وعد بضمائنا أجر المحسنين

﴿إِنَّكَ أَنتَ لَا تَبْخِشُ أَبَرَ الْتَّحِيَّينَ﴾^(١)

وقوله ﷺ: «احلص العمل بجزك من القليل»^(٢).

وهذا قمة الاطمئنان المضي بصاد تقدير العمل، حتى القليل منه، فالمخلص لا يعثره ريب بقول عمله ولا يعرف الإحباط، والتوتر، لتأثده من التقدير الإلهي الذي لا يعجزه شيء، وإيمانه بعدالة السماء.

والمفارقة الأخرى في سيكولوجية المخلص أنه يقدر نفسه براء ربه بتقديره حقيقاً، فله عز وجل يعلم ظاهر الإثم وباطنه عند الإنسان، ويعلم إخلاص الية وشربها، لهذا تستوى شخصية المؤمن سرّاً وعلناً عن طريق استشهاده المراقبة الإلهية، واستواء المر والعلن تمنحي الازدواجية، وتعنى

(١) سورة التوبة، ١٢٠

(٢) جامع المسائل ج ٢، ص ٤١٦

مساعد الملقى في النفس بظاعة الله، فالمؤمن المخلص يدركه - كما جاء في حديث شريفه - أن

«من كان ظاهره أوحى من باطنه خف ميزاته»^(١)

دسواء اللغات سرها وعلها، لا يسمح للإحساس المرحي بالدب أن يتسرب إلى نفسية المحللين لله المستسلم له استلاماً كاملاً، لأنه لا يتكسل عن إنجاز العمل العيادي أولاً، ولا يحاول - ثانياً - أن يحبط عملاً صالحاً بأحر سبي، فبأكله الإحساس باللوم على ثقافته، ويفتح مضجعه تأيب الضمير، ولا يشعر - ثالثاً - بأن مصيره الأحروري مهلداً، لاطمئنائه إلى عدله الله سبحانه

إن المحللين باستنواء ظاهر ذاته وباطنها، يتفياً ظلال سرحة، والاطمئنان القلبي بمدلة تقدير العمل الذي أنجزه، فأجر العمل كم صرحت النصوص الشريفة على قدر المشقة فيه، وهذه المشقة تشمل بالتأكيد على الأداء، وتصبية العمل التي هي أشد على العاملين من القيام بالعمل نفسه كما في الرواية الشريفة

يؤد الفارق كبير بين سيكولوجية المؤمن المخلص لربه وبين سيكولوجية المراتي الذي يمكن فيها رحة مريضة في التظاهر بالصلاح، ويسار من المي العملي ويشعر الناس - فائماً - بتفضله عليهم بأكمل إحسانه شعر بذلك أو لم يشعر

رامعاً: الرضا والسخط:

السخط كموقف نفسي - حالة انفعالية أو عقلية يحجج فيه الفرد على

ما يصدر عن الله والناس من تقدير للأمور، وشعر بالضييق والتمرم والإحباط الشديدين والاسياء من مقتربات المخطوط عليه وأفعاله، ومن هنا فإن رعاية لاحتاط عرضه للساقطات الداخلية والصراعات بين دوافعه، بين ما يرى في حقيقته، وما يتطلع إليه، وبين ما هو موجود في الحياة والواقع العملي

وينعكس هذا الإحساس المرضي إلى نزعات عدوانية مدمرة، وموجهة نحو المجتمع، ومؤسساته، كالتخريب، والإحلال بالأسلحة، وإحداث الأضرار بالمؤسسات العامة والخاصة.

ولعل ما عنده الآية القرآنية الشريفة: ﴿وَمَنْ أَغْرَصَ عَنْ إِحْسَانِي فَإِنَّهُ كَفَرٌ﴾ (١) هو قلق النفس وضجرتها بسبب كثرة اعتراضات الماحظ على الله، وعلى الواقع الإحباطي للثقبل السائد في المجتمع، وعلى معصيات الحباة، فهو يحتج على النظام الاجتماعي، ومخط الحباة الاقتصادية، والأخلاقية، ومستويات التفكير عند الناس، وقد يراهم - على حد تعبير جان بول سارتر - جميعاً لا يطلق يهددون وجوده باستمرار.

ولأنه يرغب في مواضع وتصورات مقبولة وغير مقبولة، وبسبب إحساسه في تحقير المطلوب من هذه النوازع، وتقع نفسه في صخب، وضجور، وكراهية، ومخط للجميع، وقد يوجه إحساسه المرضي هذا نحو الله تعالى، وربما نسوق له نفسه توجيه السؤال لخالقه: لماذا خلقتني؟ إنه يشعر بوجوده مشهوراً في عالم متناقض، لا اتساحام فيه، ولا عدالة فيه، وملهي بالاحتباطات.

أما الرضا كمة إيجابية وسوية في الطفرة العادية، فيحدث نوعاً من

أحراراً، انفساً، فالقرد الراضي عن نفسه وعن ربه وسلم بكل ما يصدر عن إرادته الله، ويتحرك بشجاعة وإرادة حرة لتحسين ظروف الحياة المادية والمعنوية، حياه لا تنبرم من مقدرات الله تعالى، بل يستأصل منها كل مظهر الفساد الاجتماعي بلا صجر أو شعور بالملل.

والراضي يؤمن بأنه ليس بمقدوره أن يسير الوجود وفق رغبته، وليس بمقدوره أن يحقق دائماً كل ما يحلو له، ويعتقد بأن ما يجهده أكثر مما يبعده، لذلك حذف من نفسه السخط على الغير، ويسعى بدلاً من التبرم والاستياء، إلى تبديل حالهم حسب الموازين العبادية، ومن هنا لا يشأ في نفسه مجال لصراع داخلي، فهو على رضا تام من تقدير الله للأمور، وما وفره له من إشباع حاجته، ولا هو يتطلع إلى المجتمع ليؤمن له الإشباع، فهو نفسه يتعامل مع الحياة بسلوك الزاهد، ويحين الرضاء، وانتقير الدقيق لحركة الوجود كله.

فان تعالى عن أصحاب النفس المطمئنة: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾^(١)

وبالرضا تتوازن الغفات، وتختفي المشايب والآلام الممبلة للمعرض النفسي أو نقل آثارها في النفس على الأقل، وتظهر محلها مشاعر الراحة، وتقبل أقدار الله طواعية، والاطمئنان من تقدير الله تعالى في سعة العيش أو النقص في الحياة، ومن صحة أو مرض، ومن تقدير أو عطاء، حيث يسوي عنده جميع هذه الأحوال، بل لا يزيده تنوع ما يصدر عن الله، لا حباً لمحبه، وعشفاً لذاته القديمة.

إن الراصي من الناس يقضاء الله وقدره لا يستطيع روقه، ولا ينهم ربه في تقديره، ولا يلج في الطلب مأبياً لحاجاته، لأنه يعرف قدره، ويدرك أن اعراضه لا يؤثر في مجرى الأحداث، ولا سحطه يعثر من التقدير الإلهي المتم، ولأنه يتعامل مع هذا القدر بظرة إيجابية نتق بالله وحكمت في توجيهه مجرى الحوادث، لذا يتقبل ما يرد عليه من سرور أو سحط فإن ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْقَاسِتِينَ وَلَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (١).

خاساً: التوكل والحرص

كيف يؤثر كل مهما في حركة النفس سلباً وإيجاباً، فيتحقق بأحدهما التوازن الداخلي لها، والاتسجام بين أجزائها، ونعيش بالأحر فلفاً، وتوتراً، وصراعاً بين قواها؟

إن التوكل بمعناه الإسلامي هو الاعتماد على الله سبحانه وتعالى، وإحالة الأمر إليه، والثقة بقدرته جل وعلا كمؤثر حقيقي في الوجود كله لا سواه، مصداقاً لقوله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الْأَمْرَ كَلِمَةً قَالُوا وَتَكْفُلُ عَلَيْهِمْ﴾ (٢)

وهي المولى الغبض الكاشاني - رحمه الله - أن التوكل (٣) يطلق في ثلاثة مواضع هي:

أحدهما في موضع القسمة وهو الثقة بالله، فإنه لا يفوتك ما قسم عليك، من حكمه لا يبدل، وهذا واجب بالسمع.

(١) سورة النمل، ٢٠.

(٢) سورة هود، ١٢٣.

(٣) منهاج السجدة، القمص الكاشاني، ص ١٢٨.

والأمر الثاني في موضع النصرة. وهو الاعتماد والوثاقة بصر لله عز وجل ث، وإذا نصرته وجاهدنا، قال الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَعْلَمَ أَنَّكُمْ تُبْتَلَوْنَ﴾ (١) وقال: ﴿لَنْ تَعْمُرُوا اللَّهَ بِمَالِكُمْ﴾ (٢) وقال: ﴿وَلَا تَحْسَبُوا أَنَّكُمْ مُؤْتَوْنَ﴾ (٣)، وهذا واجب الوعد.

والأمر الثالث في موضع الرزق والحاجة، فإن الله تعالى مكمل ما نقيم به بيتك لخدمته، وقمكس من عبادته، ﴿وَمَا يَتَزَكَّى عَلَى اللَّهِ نَفْسٌ﴾ (٤) أي كافي

ربنفس النص السابق عنصرين أساسيين هما

أولاً: إن الله سبحانه هو مصدر تأمين الحاجات لا غيره، وهو موضع الثقة، والصبر، والرزق باعتباره المؤثر الحقيقي في الوجود بأسره اندي لا يعجزه شيء، ولذلك وجب على المسلم أن لا يشعر بفتق، وإشباع الحاجات موكول إلى الله عملياً، فهو - عز وجل - يرق من يشاء بغير حساب، ومن حيث لا يحتسب الفرد شرط أن يتوفر وهي عبادي بمفهوم التوكيل.

إن الاطمئنان إلى توفر الإشباع وتأمينه دائماً لكل العباد، يريح بكل تأكيد كل توتر نفسي يسجم عن صعوبات الحياة، بل إن الاطمئنان إلى توفر الإشباع بحسب الفرد مد البداية أية إحباطات، وحتى مع تعرض العد بمواقف، وحسرات إحباطية بين حين وآخر، فإن ذلك لا يؤدي إلى صراع في حل نفسه بدرجة حلادة مريضة ليعنه بأن الله عز وجل قد انتلاه بذلك

(١) سورة آل عمران، ١٥٩

(٢) سورة محمد، ٧

(٣) سورة الروم، ٤٧

(٤) سورة الطلاق، ٣٢

ثانياً: والعصر الثاني الذي تضمنته النص السابق هي السعي في الأرض، والكسح، وتحمل المسؤولية من العبد في البحث العملي عن الإشباع، ومأس الحاحات، فلا يروق العبد دون توفر هذا الوعي العادي لمعهوم التوكل وفهمه بطريقه إيجابيه، وهو شرط ضروري لمعرفة العلاقة بين التوكل وفانون السببية للأشياء، ولذا لما أحمل الإعرابي بعيره، فائلاً: «توكلت على الله».

رد عليه النبي ﷺ: «اعقلها وتوكل»..

وجاء عن الإمام الصادق عليه السلام قوله

«أوجب الله لعباده أن يطلبوا به مقاصدهم بالأسباب التي سببها لذلك، وأمرهم بذلك»^(١).

ونصت آيات أخرى على ضرورة تحمل الإنسان مسؤولية الكسح والسعي لتحقيق المعنى الصحيح للتوكل، قال تعالى

﴿وَأَن لَّيْسَ الْإِنسَانُ إِلَّا نَفْسٌ فَلَوْلَا مَا سَنَّ (١٥) وَلَئِن سَأَلْتَهُ مَا بَيْنَ يَدَيْهِ (١٦) ثُمَّ يَهْرَءُ الْجَزَاءَ الْأَوَّلَ (١٧)﴾^(٢)

وقوله تعالى ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فَلَوْلَا تَقْتُلُوا فِي سَكَابِهَا وَلَوْلَا مِن يُنْقِذُكُمْ وَلَئِنِ الْأَشْهُدُ (٣)﴾.

وقوله: ﴿وَأَمْسِكُوا لَهُم مَّا قَسَطَكُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْيَدِ (١)﴾

وعلى هذا، فإن العبد إذا أوكل أمره لله، وسعى من حلال دعه

(١) المصدر السابق، ص ١٢٩

(٢) سورة النجم، ٣٩ - ٤٠

(٣) سورة المائدة، ١٠

(٤) سورة الأنعام، ٦

العادي مفهوم التوكل إلى الكدح والسعي في الأرض اطمانت نفسه، واستيقنت سعة تأمين حاجاته من قلة عز وجل لا الآخرين، ومن هذه الناحية لا تتعرض أبداً للإحباط القاسية المؤدية للصراعات النفسية، وحينئذ الإحباط العنيف يمنع نشأة الصراع المرضي، فضلاً عن أن وصيد الإحباط للتوكل على الله يمنع - بالتأكيد - من تعرضه للمرض النفسي

ولكن إذا تخلف العيد عن الفهم الصحيح للتوكل، فإنه قد يوقع نفسه في المرض النفسي بسبب تمسكه بالدنيا، وحرصه الشديد على ملذاتها ومنافعها، وبسبب أنه وكل تأمين حاجاته ومتطلباته إلى نفسه وإلى غيره من الناس، غير أن المجتمع كثيراً ما يعجز عن تلبية الإشباع، وأحياناً يعتمد عدم توفير الحاجات وتأمينها، فيعيش إحباطاً نفسياً يتحول فيما بعد إلى قس، وتوتر، لأنه توهم - في داخله - بأن الإنسان هو مصدر تأمين الحاجات، وفي السماء من حسابه ناعماً كمصدر للإشباع

إن المريض قد يفهم معنى السعي في الأرض، ويدرك أهمية الكدح في تأمين حاجاته، لكنه إدراكاً معزول عن السماء ومرتبطة بالأرض وبالمجتمع وينعكس الصعوبة الماجرة، وهذا الفهم يكلفه كثيراً ويعرضه للصراع النفسي، فهو يربح في إشباع وتأمين حاجاته، لكنه يخطئ بوضع آخر في الحياة، فالمجتمع يعجز عن توفير الإشباع، وربما يعتمد عدم تأمين الحاجات بسبب ضعفه ضد إنسان ماء، فذلك يتضاعف في هذا الموقف موزن، وحدهما حرصه بمطلق مادي على تأمين الإشباع لحاجاته وتأمينها، وثانية عمر مجتمعه عن ذلك، فيتسرب القهر إلى نفسه، وتهدد سلطة المجتمع بسعي تأمين الحاجات، ما لم يقبل بالموقف الذليل، والمعتوق أن يقبل امريض قهر الآخرين وإذلالهم لنفسه لأنه يبحث عن إشباع يؤمن له حاجاته بأي ثمن لا يعبر الكرامة وزناً.

ومع افتراض أن المجتمع يمتلك وسائل الإشباع، ويوفر له حاجاته بعد «تأمله» فإنه في هذا الموقف يشعر بالدله، فأفراد المجتمع يشعرون بالملح ولتفضل عليه، وهذا تعارض مع استقلاله الذاتي، ولذلك بقي نفسه بها لصرع بين رعيته في تأمين حاجاته، وبين ما يهدده من عدلة وقهر، إنه صراع بين رعيته في المحافظة على استقلال الذات وبين إحساسه بأن ذاته مهددة طالما أن وسائل الإشباع بيد إنسان يفرض القهر عليه ويشعره بالملح والتفضيل والمعايير.

سادساً: للزهد والرغبة

لبست الرغبة - هنا - نقص الحاجة وسعي الكائن الأدنى للإشباع لطبيعي لحاجاته بمقدار مناسب، وإنما هي اندفاع نحو إشباع زائد عن الحاجة، ولو اكتمت - الراجع - بإشباع قدر حاجته لكان ذلك إشباعاً طبيعياً من وجهة نظر المشرع التربوي الإسلامي

وبلاحظ هنا أن رغبة الإنسان تنجبه في أغلب الأحيان إلى إشباع الحاجات المادية أكثر من اتجاهها نحو إشباع الحاجات الممنونة، ومن هنا يختل نظام التوازن في سلوك الإنسان وينسف أسوار «التمتع» بين قوى الذات ومكوماتها

ولكن الحياة نفسها قائمة على مبدأ الإحباطات المستمرة، فلا تسمح دائماً لمراشع غير مفيد للشهوات، وتؤكد وفائع الحياة أن الذي يعمل إلى الشهوات ميلاً عظيماً، لا يحب أبداً التعامل مع شهواته من خلال مدا الأسهل، وهذا وضع نفسي يهيئ متاحاً للتعارض بين رعة الفرد في إشباع حاجته بلا حدود، وبين قيود الحياة نفسها التي تحول دون تلبية الحاجات

والعرد - مثلاً - قد يريد أن يجمع المال المشروع، ويحب الحياء، والسلط، والولد بلا حدود، لكن الحياة لا تجاريه، ولا تحقق له أمنيته، بل تصاد رغباته أحياناً، إنها لا تعوقه - صحب - عن الإشباع الرئد عن حاجته، بل تحرمه أيضاً حتى من الإشباع الطبيعي المقيد، كأ أن تحرمه من بناء دهر للمسكن أو لا توفر له ما يحكمه من جمع المال الضروري للفقرات اليومية، والمعمل، والكاح، وكل متطلبات حياته الأساسية.

وأمام هذه التحديات وضغط رعبته في الحصول على هذه الشهوات نشأ في نفسه حالة صراع بين رعبته في جمع الثروة والحصول على المميزات لدبوية المختلفة وبين عجزه عن ذلك، قد تنتهي بوقوعه في براثن لمرض النفسي، براثن المشهور بالقهر والحقد والبعد والرغبة الشديدة في الانتقام ممن يحرمه، أو التبرم من تقديرات الله له، ويعترض على نعمه لحياة وقوابله التي يراها ضيقاً وضيقاً وقلقاً لأنها تهدد إشباع رغبته، وتسلب منه متعة الإشباع العاجل، واللحظة الحاضرة التي يقاتل من أجل سمرارها وبفائها، وتتدافع في نفسه المتضادات دوماً توازن، ما دامت مفاهيمه لا تستطيع أن تعقد حبل المودة بيه وبين أجزاء نفسه، وربما يؤدي العصاب النفسي إلى حالة عصاب أكثر تعقيداً. . هي حالة الكفر

وفي ضوء ذلك يمكن فهم النص التالي:

«أركان الكفر أربعة: الرغبة، والرغبة، والسخط، والعصب»^(١)

إن الرغبة في تحقيق إشباع رائق عن الحاجه سمة مريضة تؤدي إلى شوء حلل في النفس، وقد أطلق المشرع الإسلامي على ذلك مصطلح

(١) جمع القول لابن شعبة الحزقي، ص ١١٢

«الرعة» أما المصطلح المعادل له فهو «الزهد» الذي له فاعلية كبيرة في تحقيق التوازن الداخلي للشخصية المؤمنة

إن المراد يتنظر إلى الحياة كمتاع عابر، ويعيش فيها بمفهوم قصر الأمل، ويكتفي - عادة - بإشباع على قدر حاجته، وربما إلى حد الكفاف، وهو بالتأكيد تأميس مبط لمتطلبات الحياة، فهو لا يطلب داراً ضخمة، ولا يلهث وراء حاد أو منصب أو مكانة اجتماعية أو عقار أو امتيازات أخرى، ويكتفي بها بما يبد الرمز، ويعينه على إنجاز مهمته العبادية في الحياة

ومن الطبيعي أن قناعة «الزاهد» بإشباع قدر الحاجة يجنبه الإحباط، ويشفي التوقيع في حالة صراع نفسي فهو لا يصاب بإحباط لأنه لا يجري وراء إشباع زائد عن حاجته، ولا يعتربه صراع، لأنه بهذه يتيح لنفسه هدوءاً وتوازناً داخلياً.

والذي يجعل الزهد وسيلة فعالة للتوازن الداخلي للشخصية العبادية، أن الزاهد قد يمتلك الأشياء لكنها لا تنطقه، فهي تحت تصرفه يتحكم فيها بما يشاء وليس لها سلطان عليه، فيمكنه أن يملك الدار، والزوجة والمصالح التجارية، لكنه لا يفعل ذلك يدافع تحقيق إشباع يعوق حاجته، وإنما تلك الحاجات من «المباحات» يأخذ منها قدر حاجته، ويتصرف بالرائد منها في سبيل تحقيق وإنجاز مهمته العبادية في الحياة.

وننسب للإمام علي عليه السلام مقولة دقيقة معبرة عن مفهوم الزهد «ليس لزهدي أن لا يملك شيئاً، وإنما لا يملكك شيء».

وبهذا فنحن نحرر الإمام الزهد من مفهومه الحاطي لدى بعض الناس الذين يشعرون بحساسية معقدة من الزهد والزاهدين مسبب التراكمات المادية والاجتماعية المترسمة في أدمعته.

بهذا فإن «الراهد» كما جاء في حديث: «عريب في هذه ادلب، لا يجرع من دنها ولا يتافس أهلها في عزها، ولا يأخذ منها إلا بقدر ما يحتاج من نعم»^(١)

قال رحمته: «الرهدة في الدنيا قصر الأمل، وشكر كل ذي نعمة، ولو روع هن كل ما حرم الله»^(٢).

والراهد بتأثير مفهوم «قصر الأمل» ينظر للدنيا نظرة «العابد» المستعد للقاء ربه، وينتظر هذا «أجله» في أية لحظة، ولهذا يبادر إلى العصف العبادي، ويحور نفسه من مائة أهل «الدنيا» في عزها، ومن ذلك «الجزع» الذي تتركه في نفوسهم.

أما «الشكر» فمعناه ببساطة اعتراف الراهد بحم لله تعالى حتى في المدة التي تقل عن الثانية، فلا يشمل نفسه بعبر ردّ هذا الجميل وهذا العطاء، من خلال أنشطته العبادية، وهو يعلم أنه لا سبيل لهذا الشكر سوى رهنه، وعبادته.

ولا يتحقق الرهد إلا بكف النفس عن السمي وداء الإشباع المراد من الحاجة، وهذا ما عناه الحديث الشريف بكف النفس عن «كل ما حرم الله» والامتاع عن الرضا بما أفاض الله سبحانه وتعالى وأسبغ عليه من نعم، يقول الحديث الشريف:

«من أكل ما يشتهي، ولس ما يشتهي، وركب ما يشتهي، لم ينظر الله إليه حتى يبرح أو يترك»^(٣).

(١) جمع المصروف، ص ٤٧.

(٢) تحف العقول، ص ٣٢.

سابعاً: الصبر والانتقام:

وبصمت القائمة المذكورة مصطلحي الصبر والانتقام، وهما سمتان متضادتان وكنيتاهما تؤثر في سيكولوجية الكائن الأدبي وسلوكه الأخلاقي، لكن الصبر يصنع توافقاً إيمانياً في الشخصية، ويحقق لصاحبه توارثاً داخلياً بين مكونات ذاته، وفي علاقاته الاجتماعية مع الآخرين، بينما الانتقام لا ينم عن سوى الإحباط، والاضطراب النفسي، وسوء التوافق، وسرى تأثير كليهما في الصحة النفسية للفرد.

اعتادت للنفس في مواقف الإهانة والإبداء - كأحد الاستجابات المتوقعة - أن تتحفز لرذاعتها بالانتقام خاصة إذا كان الإيمان لم يخالف النفس مخالطة صحيحة يسمها من تجاوز الحد في الرد على المعتدي، إذ تبدأ بممارسة سلوك انتقامي ضد الطرف الآخر تفرغاً للنفس من شحناتها الاضغالية كالقهر، والعين، والمظلومية.

وفي هذه الحالة لا يسانع المشرع الإسلامي من رذ العدوان بمثله أو القصاص القانوني والشرعي من المعتدي، ولكنه مع ذلك لا يترك الأمر بلا تنظيم، فيتدخل في تحديد كمية الرد أو يمين أسلوب القصاص والجهة التي تملك رمام القصاص، ومن المؤكد أن رذ الاعتداء يختلف في نظر المشرع الإسلامي عن الانتقام، فالأخير يتجاوز فيه المعتدي عليه الحد الشرعي لرد عدوان الآخرين، فيعاقب أو يرد عليهم - تحت تأثير دوافع شخصية - دون مراعاة للحدود الشرعية

ب. المعتدي عليه قد شعر بحاله قهر ضد خصمه الذي أرتع لأذى به، وهو على هذا الأساس يحاول إراحة نفسه من ضغط هذا الشعور. وتعرض اشحنة الامعالية للقهر المحسوسة في النفس، فيدفع نجاه خصمه

يرونه له ما يمكنه من الإهانات التي قد تكون غير مناسبة مع مقدار الاعتداء عنه ، فيحدث ما لا يحمد عقاه ، وهنا يكون الموقف على أحد أمرين

أولاً إن «المعتدى عليه» ليركب فعلاً محرماً ومحالاً للقدس والأخلاق الدينية والاجتماعية كالقتل مثلاً تحت ضغط إحساسه بالفهر ، وهو حالة وحدانية قد تجرده عن الاعتبارات الشرعية المحددة للفرد باسمه ، فيؤدي فعله هذا بعد هفوة النفس وسكونها إلى معاقبتها بشدة ، فتعيش حينئذ معه قلق الإحساس بالذنب ، خاصة إذا لم يتمكن القانون من معاقبته ، وبقي تحت تأثير عذاب الضمير ، وربما تكون لهذا القلق مضاعفات تؤدي إلى المرض النفسي

ومما لا شك فيه أن الانتقام على هذا النحو يفرز صراعاً في النفس بين لرغبة في الاعتراف بالجريمة استجابة لداء الضمير أو لآلة قوة أخلاقية أخرى كاخوف من العقوبة الإلهية ، وبين خوفه من فساد القانون وعقابه الصارم .

لأننا : وفي الحالة الثابتة يتعرض الفرد لصراع نفسي بسبب رغبته في الانتقام ممن اعتدى عليه ، لكن إذا هجر عن الانتقام لسبب ما كقوة خصمه الجسمية أو قوة معوذه الاجتماعي مثلاً ، أوقفه ذلك المجر في حياط نفسي ، يترتب عليه فيما بعد صراع مرير بين رغبة الانتقام لديه وهجره عن الانتقام ، ولا يستبعد أن يسجم عن ذلك حالة مرضية كالخفقان على المجتمع الطامس والمجازر عن حمايته .

ولا شك أن هذه الحالة هيئ تربة مضيعة لوقوع العرود في برائش سلوك عصامي ، فهو لم يستطع الانتقام فعلاً ، ولم يحور عليه من شحات العهر الامعالة لمصاحبة لها ، وهو من جهة لم تسم نفسه عن الانتقام ، فعمت ، وصمعت عن المعتدي ، وزالت من النفس الرعة في الانتقام .

ومما ينبغي فعلاً أن يكون الانتقام هو الحل الذي يقترحه بعض علماء النفس التحليلي مثل كارل هورني، على اعتبار أن ذلك يؤدي إلى خفض العائق، ودرجة التوتر الناجم عن السلوك العدواني الموجه إليه.

وكما يكون السلوك العدواني سبباً لاحتلال النوارب الداخلي للشخصية، فإن المشرع الإسلامي طالب بالعفو والصمح بدلاً من الانتقام وإن أكد على مبدأ رد العدوان بمثله، فالصمح يحدد طهارة حقيقة للقلب، ويحرم عبودتنا لبعضنا حياً، ويجعل تنازع الأفراد تمارساً ومودة، فالإسلام يأمر بالصمح ويؤسس العلاقات بين الأفراد على قاعدة الحب، والتعاون، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْفُتُورَ بِشَرِّهِ﴾^(١).

فالصمح يلزم كل نزعة عدوانية في النفس، قال تعالى: ﴿فَاصْفَحْ﴾^(٢).

وقال جل وعلا: ﴿فَاغْفِرُوا وَاصْفَحُوا﴾^(٣).

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَتَّقُوا اللَّهَ أَزْبَدْتُمْ وَلَا تُسْأَلُوا عَنِ الْفَسَادِ بَيْنَكُمْ﴾^(٤).

﴿كَمْ عَفَا وَأَسْفَحَ تَعَالَى عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٥).

﴿وَالْعَظِيمُ الْعَفْوَ وَالْعَظِيمُ فِي الْكُفَرِ﴾^(٦).

ورود عن الإمام الصادق: «ما أقيح الانتقام بأهل الأعداء»^(٧).

(١) سورة البقرة، ١٠٩.

(٢) سورة النور، ٨٥.

(٣) سورة البقرة، ١٠٩.

(٤) سورة البقرة، ٢٣٧.

(٥) سورة التوبة، ٢٠.

(٦) سورة آل عمران، ١٣٤.

(٧) صحاح العقول، ص ٢٦٤.

والمعو في مفهومه الإسلامي خلق وقيع يفت في النفس شحانها «عدو»، ويمتص انتفاعها غير العقلاني نحو التدمير وإيداء الآخرين حتى كد ظلمة، ولهذا فإن عمو الذات لس قبولاً مريضاً مظلم الآخرين، لأنه حس يصمح الإنسان المؤمن بفعل ذلك وهو قادر على الانتقام، لكنه أثر الصمح، الجميل عن قاعة داخلية، وحباً للناس في سبيل الله الأمر بهاء علاقات اجتماعية قائمة على أسس الأخوة الإيمانية

وسواء اكتفى المعتدى عليه برد الإهانة في حدود معقولة شرعاً وقانوناً واجتماعياً أو رد العدوان بمثله دوما تطرف أو مبالغة، أو عما وأصمح، فإنه لا سبيل أبدأ لمواجهة موقف مريض، لأنه انتفى الصرع، فلا هو راعب في الانتقام، ولا هو عاجز عن الانتقام، وبالتالي لم يعد هناك مجال لسو إحساس مريض يدفع المرء للانتقام بشحنة قهر قوية وغير مضبوطة، مما يؤدي إلى توازن قوى النفس وتحرك عناصرها في اتجاه واحد.

نسباً الجهاد وضده التناول:

بشامل قائمتي الأضداد للإمامين عليه السلام اللذين عرسانهما في لفصل الرابع، يلاحظ المرء أن سمتي الإيمان والكفر يأتيان في الصدارة وبأحداً موقعاً أساسياً، وما جاء بعدهما مما أسماه القائمان (حنود الخير والشر) يمثل في لواقع سمات سوية وعصائية مشعبة عنهما، فجميع السمات المطوية تحت دائرة الإيمان تجسد السلوك السوي، أما ما نزع عن سمة بكر جميعها سمات غير سوية، وتجد السلوك العصابي

وعندما يحاول تذكر تصنيف الإمام علي عليه السلام للعصاة والسواء، حدد أن الإيمان شي على أربع دعائم هي: الصبر، والنفس، والعدل، والجهاد، وسنأخذ منهما دعامتين أساسيين فقط هما الصبر والجهاد، لمعرفة أثرهما في تحقيق التوافق النفسي للمسلم

وعطراً لآما تحدثنا عن سمة الصبر في موضع سابق من هذه الدراسة،
هنا سنبحث عن فريضة الجهاد لمعرفة أثرها الإيجابي الفعال في حقل
الصحة النفسية

كما أن كذلك سنجاول إيضاح دور سمة الشكر المضادة بسمة
لجهاد، في اضطراب الشخصية وانعدام استقرارها النفسي

إن لجهاد الذي نعني هنا هو الجهاد السياسي والاجتماعي الذي يمثل
دعامة أساسية للإيمان، فقد تشعب الجهاد من الإيمان، وتشعبت سمة الأمر
بالمعروف والنهي عن المنكر عن سمة الجهاد.

يقول الإمام علي عليه السلام :

«من أمر بالمعروف شدّ ظهر المؤمن، ومن نهى عن المنكر أرغم أب
للكافرين»^(١)

في هذا النص القصير حقيقة نفسية ألتمرنها عملية الجهاد نفسها من
خلال قاعدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فالمستكبرون - بما
يمسكون من أدوات انقوة المادية - هم في أغلب الأحيان مصدر قلق الذات
المؤمننة وتهديدها كما يحدث الآن في المشكلة الفلسطينية خاصة بعد
استعلاء الاستكثار الأمريكي لحادثت تعجيرات ١١ سبتمبر ٢٠٠١ م، وكفي
بتجسس المزمس هذا الخطر أوعى المشرع التربوي الإسلامي في مصره
ممارسه أنواع الجهاد السياسي والاجتماعي، وذلك من أجل أن يتح
للمجتمع المؤمن فرض ساء القوة والإرادة بمختلف أشكالها، وهذا من شأنه
تحقق اسكيه والطمانية النفسية لأفراده سواء في حالتي النصر أو الشهادة

(١) جمع للمعروف، ص ١١٦.

ففي حالته الأولى يرغم المؤمن بجهاده أنف الكافرين، ويرور المجتمع المؤمن هيته في قلوبهم، فلا يتجرأ الكافرون على إبداء المجتمع أمورهم لشعورهم بقوته المادية والمعنوية، فيشعر أفراد هذا المجتمع بالحر، والكرامة، والاستقلال الذاتي، ولا يتأهبهم قلق تهديد الأعداء، ولا يشعرون بالحاجة إليه لئلا، لأن من أحسب إليه دليلاً هنت عليه كما قال الإمام علي عليه السلام:

«المؤمنون عن طريق الجهاد قادرون على المحافظة على وجودهم المنعبر، ولعل هذا ما عناه النص بأن الأمر بالمعروف يشد ظهر المؤمن، ومن هنا ليس هناك مجال للتوتر والقلق بصورة غير طبيعية، وليس هناك لسة تسرب للشعور بالهزيمة في النفوس، لأنه لا توجد هيبة مرهضة من لأعداء تفش إرادتهم وتهزمهم قبل بدء المعركة، بل على العكس تماماً بطوي أفراد المجتمع المؤمن في داخله الشعور بالعزة والاستعداد - بالقوة - لمرجئة الأعداء والدفاع عن أنفسهم»

أما في حالة الاستشهاد، فقد ناك أفراد المجتمع المؤمن إحدى لحسبيين، كما يطمش الشهيد إلى مصيره عندما يكون بين رحمة ربه، ونحت مظلة رضاء عر وجل، فالجهاد يحقق التوازن النفسي - للمؤمن - سعدين أحدهما دنيوي، والثاني معالم الآخرة

والسؤال الآن: ماذا لو ترك الإنسان المسلم مسؤوليته في جهاد أعدائه؟

لا يشأ عن ذلك سوى القلق النفسي، وسوف محاصر دأحه مشاعر السدلة وبتعية للآخرين، فالمرء الكول عن جهاد أعداء الله تعالى وأعدائه معذوب علم، أمره يفرض عليه خصومه ما يشاءون، ويجبرونه على قبول

مطالبهم التي تطوي على إذلال نفسه، وهذه الصرية العادلة لمن يترك الدفاع عن نفسه، جاء في أحد النصوص التربوية الإسلامية أنه «من ترك الجهاد ألبسه الله ثوب الذل».

إن الشخص الكول المتحلي عن جهاد أعدائه وأعداء الله دين في دينه - كما هو حال الكثير من المسلمين اليوم - يهدده بين لحظة وأخرى قلق الاستكانة وألم الاستسلام ويضبط عليه رق العبودية ومرارة الإحساس بالهزيمة.

ومن هنا لا يشعر بطمأنينة في نفسه، ويتملكه صراع شديد بين رغبته في التخلص من هذه المذلة، والتبعة، وبين شعوره بالضعف أمام أعدائه وعجزه عن قهرهم.

ومن هنا نفهم قول الإمام علي عليه السلام:

«من تردد في دينه سيفه الأولون، وأدركه الآخرون، ووطئه الشياطين»^(١).

ومن هؤلاء الشياطين في هذه الأيام سوى المستكبرين الظالمين الذين ملأوا الأرض فساداً بحرر القوة وديكتاتورية الطاغية؟

بل إن أثر الصراع التمسحي يشتد ألماً عندما يتذكر الذليل عقوبة الأحرار لتقبه هزيمة ظلم «الظالمين» ومباحب هذا الصراع قلق حقيقي على مصيره بمالسه الأحرار، قال تعالى: ﴿وَلَا تَرْكُوزُوا إِلَى الَّذِينَ ظَنَّمُوا فَتْنَتَكُمْ أَنْزَلُوا﴾^(٢) لأن الله هو - للمؤمن - كل شيء - إلا أن يذل عنه، وبالتالي لا يجد الساكن لحقه في الجهاد راحة لا في ضيائه ولا يشعر بطمأنينة على مصيره يوم الحساب بين يدي الله تعالى في آخرته

(١) صحيف المرحوم، ص ١١٦.

(٢) سورة هود، ١١٣.

وهكذا نحدد المفارقة السيكلوجية واضحة بين آثار الجهاد وأثر صده الكول، فالأول طريق التوارد الداخلي للذات واستقلالها، وهي تجسيد واعي لمفهوم عزة المؤمن وحيوية مبادئ القوة والكرامة، والثاني أي حاله الكول - مصدر اضطرابها، وحضورها للذليل.

تاسعاً: الخيال والخيال:

والبحر سمة مرجية يمتلئها الذوق الإنساني السليم، ويكرهها كل دين سماوي أو وصفي، لأن البحر جامع للمساوي والعيوب كما جاء في الروايات والتوصيات للتربية الإسلامية، أما سمة السحابة فتتمثل عصباً إيجابياً في كيان الإنسان، فما أثر كل منهما في ميدان الصحة النفسية؟

البحر يشرح دائماً بثوتر نفسي تتفاوت شدته بتفاوت حركة الصراع التي نتجم عن رغبة الخيال في تمسكه الشديد بما تحت يده من مال، ورغبته في التمتع بما يملك، لكنه بسبب بخله يحرم نفسه من متع الحياة، وينتلذذ ببخله، والخيال - مع ذلك - يبقى فلقاً في الحالتين. إن أنقى أو امتنع عنه. فإن أنقى سبب إنفاقه ثلثاً شائماً لا يعود عليه بالعائدة، أو دأبه إحسان عصابي متناقض ماله، كما يخلق الخيال إن امتنع عن الإنفاق لأن ذلك يحرمه من التقدير الاجتماعي، والإثابة الأخروية معاً، ويرداد قلقه حين يرى الآخرين كورثته يستفيدون من ماله.

وللصراع العبي في شخصية الخيال صورة أخرى، فأفراد المجتمع قد يعايرونه، وقد يتناسر الناس حوله، ويرى مجهم وجوههم في وجهه، وقد يدكرمه دائماً بحرماته لذاته من متع الحياة ولذاتها، إن المعاصرة وأشكال النقد الاجتماعي لذاته تعبير جميعاً مصادر قلق للخيال لا تربح أداً، وتسبب لشخصه إحساساً بالبد الاجتماعي، والعلاء الموجه ضده، ومن ثم

يسيطر عليه صراع بين رغبته في التمسك بما في يده، ورغبته في الانسحاق بماله ونفسه تمنعه، ويقلق البخل حين تدافع في نفسه شهوة البخل لديه، ورغبته في كسر رضاء المجتمع، وقد يعكر في روع استياء المجتمع عن نفسه فيحاول أن يذل شيئاً من ماله للمجتمع، لكن شهوة البخل المنحكمة في نفسه تشده بعيداً عن البذل والإنفاق، فتعتربه الحيرة، ويتابه صراع مربر بين رغبة محدودة في البذل ورغبة الشح المضادة

ومن المؤكد أن قلقه يزداد حدة، وتوتره يتضاعف سوءاً عندما تؤسسه نفسه اللوامة، ويتحسس عقوبة الله في البخل، لأن نفسه حريصة على نيل الأجر، والمثوبة الإلهية، ولا يتحقق ذلك إلا بالإنفاق الذي لا يستسيغه، ومرة أخرى تتعرض نفسه للصراع بين حرصه على إبقاء ماله لا ينقص منه شيئاً، وبين خوفه الشديد من عقاب الله عز وجل.

واعتقد أن هذه الحالة هي أصنف صورة للصراع النفسي في شخصية البخيل، لأنه قد يتقبل حرمان نفسه من متع الحياة، لكن ترومتر «القلق» النفسي يصل إلى مداه في سيكولوجية بخل متدبّن حين يتحسس خطر «الحرمان» من الرضا الإلهي له صلة بسيكولوجية بخل متدين.

ولا شيء من ذلك التوتر يحدث في شخصية السخي، فالأجواء النفسية مختلفة تماماً.

السخي يؤدي واجبه تجاه أوامر الله في البذل والإنفاق، ونعمير الكرم، والحياة باستثمار ما استخلقه الله فيه، ويوفر لنفسه حريل الأحر، ويبعد عنه عن غضب الله عز وجل، ويشعر بالانسجام والواقف، والرضا، هذا إذا كان - السخي - مؤمناً يتصرف فيما تحت يده من مال بسهولة، ولا يجد هناك شد وجذب خلال إنفاقه، لأنه هو الذي يتصرف في شهوره، ولست هي التي تحكم سلوكه.

عن طريق - السخاء - يحقق المسلم موازناً في شخصيته، باسترصاء الله عز وجل، والبحث عن تقديره الذي لا حدود له، فليس المال الذي بيد الإنسان السخي ملكاً خاصاً به، بل هو متخلف فيه، يؤجر عليه بسلامة بيئة لإعاق، ومعتقدار كيفية التصرف فيه، وليس للإنسان من حق سوى الإبداع ليحقق الرضا في نفسه من خلال تطبيق مبدأ الاستخلاف الإلهي للإنسان في الأرض.

وموقف المجتمع من السخي يختلف عن موقفه من البخيل، فقد انتفت المعاصرة التي كانت توجه دكماً للبخيل، وبرزت محلها البشاشة في وجه السخي، وتذكر الجميع له بالخير، وامتداحهم المستمر لحصالة الطيبة، بل إن هذا المدح يمتد إلى أكثر من جانب في شخصية السخي، فيغطي حتى عيوبه، ويسويه، ومحاولة تفسيرها دائماً بشيء من حسن الظن

ومما لا شك فيه أن نغمة السخي لا تعرف القلق المصابي، ولا تكتوي بشدة الأمراض النفسية الذي يمتلي منه البخيل، لأنه لا وجود لمصدر القلق أبداً، فهو بعيد الله سبحانه عما ينفذ مما استخلف فيه من لئال، ويبحث عن تقدير الله عز وجل بالمعطف على الفقراء، والمساكين، وإكرام الضيف، وتوجيه المال في المشروع الخير هنا وهناك، قال تعالى ﴿رَبِّ زَيْدٍ شَيْءٌ تَسْبِيحُ تَأْوِيلُكَ هُمْ الْمُتَّقُونَ﴾^(١).

من إن شخصية السخي تصل إلى قمة التوافق، والرضا لنفسه بالإيثارة، والوجود بما عنده رغم الحاجة إليه، قال تعالى ﴿وَيُؤْتُونَ مَلَكًا أَنْفُسَهُمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾^(٢).

(١) سورة الحديد، ٩، وكذلك سورة النمل، ١٦.

(٢) سورة الحديد، ٩.

عاشراً الدعاء والاستكفاف.

للدعاء فاعلة كبيرة في تحقيق التوافق النفسي للشخصية المسلمة، غير أن هذه الدراسة لا تستهدف ما نلك الآثار، لذا نكتفي بمدر يسير لمعرفة فعالية الدعاء في ترشيد النفس وتحقيق توازنه الداخلي من أجزائها^(١)

إن الدعاء علاقة مباشرة بلا حواجز بين كائنين أحدهما مطلق الكمال، وغني بذاته، ومصدر للإغاثة المستمرة والعطاء، والآخر وعاء الفقر والحاجة والمسكنة، لكل إنسان (مسلم وكافر) ينتابه شعور بالحيرة والصباغ، ويعتريه دائماً إحساس بالحاجة إلى قوة ذلك الكائن الأعلى والتوجه إليه لإنقاذه، ومساعدته على الخلاص من محتته، وهذا الإحساس كما نعلم نظري في كل ميس بشرية، وليس محصوراً بفئة من الناس، ولا يختلف الجميع إلا في تفسير هذا الإحساس

وهنا نجد للمعارقة بين المسلم والكافر، وهي معارقة لها علاقة كبيرة بالصحة النفسية لشخصية كل منهما.

فالمسلم يعرف المصدر، والجهة الذي يتوجه إليه وهو الله سبحانه وتعالى، فيعبرغ إليه عن طريق الدعاء كل ما في نفسه من آلام، وبهت شكواه، وهمومه، وأحزانه، ويعترف إليه بذنوبه، وإحساسه بالحاجة إلى ذلك الكائن الأعلى الذي يثق بحسن إجابته، وجزيل عطائه، ودوام إفاضته، وعونه عن ديوب عيونه، فتتراج نفسه بعد هذه المكاشفة، ونمود إيمانه الطمأنينة، ويعاهد للداعي ربه عز وجل بالاستعانة وبرشيد سلوكه

وما يحقق التوازن النفسي، والعقلي لشخصية الداعي كذلك، أنه

(١) انظر دراستنا في فاعلية الجانب البيكولوجي للدعاء في كتابنا «بناء الشخصية في خطب الإمام المهدي»

يبرح بما هي قلبه لكائن مطلق عليم بأسرارهم وخفاياهم حتى لو لم يكشفها لآخرين. وأن هذا البرح في الواقع لا يسب له حرجاً، ولا يعنى أسراراً يحشى اطلاع الناس عليها، فيفتضح أمرهم بينهم، فهو عر وجل - ستار على عباده، ومن هنا يحو العد كل أثر لفتونه بتأثير طريقة الدعاء للمشاعر الوحداية دون أن يضطر إلى كشف سره للمعبر فافقه لا يطلع أحداً على أسرار عباده، بل لا يكتفى الدعاء بإسقاط تبعه الدنوب وحسب وإنما باستبدال هذه العيوب بسمات صالحة.

ومن يقرأ - بتأني - دعاء مكارم الأخلاق للإمام السجاد عليه السلام يدرك العلاقة بين الدعاء كأحد آليات منهج الأعداء وبين النتائج الإيجابية التي يحصلها المرد المسلم من استخدامه لهذا الأسلوب في تربية نفسه ومعالجة بعض أمراضه، إذ قال الإمام السجاد عليه السلام:

«اللهم صل على محمد وآله، ولا ترممني في الناس درجة إلا حطمني عند نفسي مثلها، ولا تحدث لي عراً ظاهراً إلا أحدثت لي ذلة باطنة عند نفسي بقلوبها»^(١)

وفي مقطع آخر من هذا الدعاء يقول الإمام السجاد عليه السلام:

«اللهم لا تدع حصلة ثيابي مي إلا أصلحتها، ولا عانة أثب بها إلا حسنها، ولا أكرومة في إلا أتممها، اللهم صل على محمد وآل محمد، وأمدني من بعضة أهل الشأن المحبة، ومن حسنة أهل البغي المودة، ومن عنة أهل الصلاح البصرة، ومن حب الدارين بصحيح الحق، ومن

(١) ورد هذا المقطع من دعاء الإمام السجاد (عليه السلام) المعروف بدعاء مكارم الأخلاق، بالصحة السليمة.

ردّ الملايين. كرم العشرة، ومن مراودة خوف الظالمين. حلالة الأمل^(١)

وقوله في مقطع آخر من هذا الدعاء .

اللهم صلّ على محمد وآله، وسددني لأن أعمار من عطسي بالنصح، وأجري من هجري بالبر، وأثيب من حرمي بالعدل، وأكافئ من قطعني بالصلة، وأخالف من اغتابني إلى حسن الذكر، وأن أشكر الحسنة، وأغضي من السيئة^(٢)

أما المستنكف^(٣) حتى لو كان مسلماً منقاداً على أوامر ربه سبحانه وتعالى، فإن لا فرار له من حرجم القلق، بل إن ألم المكابرة يزداد شدة وحدة وبخاصة عندما يكون كافراً جموداً، لأنه بعناد الصلف يرفض التوجه إلى الجهة التي يعتفر إليها، ومع ذلك يعاند ويتكبر ويتأفف من المنحرف إلى الله الأعلى طلباً للطمع والحماية وإشباع الحاجة، ومن هنا يعيش الحيرة، والقلق في نفسه، إنه لا بدري إلى أين يتوجه، ولا يعلم الجهة التي تمتص هذا الإحساس المؤلم، فالمستكف تمرق نغم رغبة التوجه إلى مصدر يحميه كنما شمر بالضعف، لكنه مع ذلك يأبى عياداً أن يسلم بأن الله عز وجل هو - وحده - المقصد، وطريق الخلاص، ظناً منه أنه ممنوع عن سواه

ركلما راد صعد ألم المكابرة بين جنييه باعد هذا الإحساس النفسي

(١) لمبة دعاء مكارم الأخلاق

(٢) دعاء مكارم الأخلاق

(٣) المستكف هو كل من يرضى طلب التوجه إلى الله تعالى عياداً ومكابرة وتكبراً، ويهمل الشعور بالمعبر أمام قدرته غير المتناهية تعالى

به وبين الحكمة القليلة، فهو - كأي إنسان يواجه الضغوط - يود أن يوح همومه، ويشت شكواه لأحد ليريح نفسه من عنائها، لكنه يحشى المصيبة من أولئك المدين أفضى لهم سره، فيخشى أن تتحول تلك الإباحة، وتلك المصارحة إلى قلق مدور لعهه، لأنه لم يستعز هموم النفس وأحرامها المعصية لدى جهة ستر العيوب، وهذا باعث قلق يضغط عليه وربما شد، ومع ذلك يحس الفرد بأن عملية البوح بالأسرار ربما هي النفس من هموم منعبة له أكثر منها مريحة، فيقع في وسط صراع نفسي بين فوتين متعارضين. بين الرغبة في التفريغ لهمومه، وبين إحساسه بالتحوف من أبعاد والفصحة.

ولو اضطر المستكشف إلى ترك مكابرتة، والتوجه إلى أحد يطلب عونه واستشارته، لوجد أن سوء الظن بالآخرين حرمة من هدوء البال، واستقرار لقلب، ولذلك يفي المستكشف أسيراً لهواجسه، وصراعاته الداخلية.

وليس للمستكشف سبيل مخرج لتفريغ همومه ويشت شكواه والبوح بأسراره وبآلامه وآماله - دون متاعب التوجس من الآخرين ولخوف من الانفضاح منهم - سوى الالتجاء الكامل إلى الله سبحانه وتعالى إذا كان يحشى أن تتحول عملية إنشاء الأسرار إلى الناس إلى انفضاح أمره، وقد منح المصلح التربوي المسلم للمستكشف - أو غيره - باب الالتجاء إلى الله بلا قيود أو شروط، والانفضاح على ربه تعالى في علاقة قائمة على حرمة التحاطب والتجاذب، وذلك لتطهير ما في داخل القلب من متاعب وعقد ومعادة وجدانية.

ويرشح الإمام السبط الحسن بن علي عليه السلام دور الدعاء وتعالينته، بمنته الملائحة في حصص: وضم الذات المسلمة أو تعديل سلوكها سر،

ذلك لي نفعائي من أمراض سيكولوجية وأخلاقية أو التي مررت حملياً بسببها
من عائلة ما قد يندفعها وساوس الشيطان

يعود الإمام الحسن من علي عليه السلام في أحد النصوص لتكريمه
المسوية إليه

«يا بن آدم من مثلك؟ وقد خلّك الله بين يديك، متى شئت أن تدخل
إليه، ترحلت وقمت بين يديه، ولم يجعل بينك وبينه حجاباً ولا بواباً،
تشكو إليه همومك ومآلتك، وتطلب منه حوائجك، وتستعينه على
أمرك»^(١).

الفصل الثامن

منهج الأضداد
وتكوين العادات الحسنة

نقوم بحقيقة العادة - وكل أنماط السلوك الإنساني - على أساس قابلية الكائن الأدبي لإمكانية التعلم والعران والاكساب المستمر، فهي المادة التي يتشكل بها سلوكه، ويشم بها اكتساب المهارات، والقدرات، والمعلومات تدريجياً حتى تستقر عند حد معين من الرسوخ والثبات، ثم يتم أداء السلوك بعد ذلك بسهولة وإتقان، سواء صدر هذا السلوك بالتميزات كاملة من العنق أو بانفعال رشيد من القلب أو لم يكن.

ولهذا فإن نشاطنا حياً أو شراً، صحيحاً أو خاطئاً يقوم على العادة السلوكية، فجميع أنماط سلوكنا من أكل وشرب، ولبس، ومشى، وحديث، وكذلك انمعالنا من غضب، وحر، وصحك، عادات سلوكية ابتدأت أولاً من إثارة وجدانية محفزة ثم تكررت في أنماط من السلوك، فثبتت بشكرار عند حد معين، ثم أصبحت سلوكاً تلقائياً سهل الأداء.

والواقع أن ما يفعله من أقوال وحركات وأصوات ومعبرات إيمانية هو عادات سلوكية تصدر عنا في مجالات مختلفة من حياتنا تؤدي في مجموعها إلى يمر شخصية الإنسان وتكاملها، وهذه العادات ممارستها بسهولة وعمومة وتلقائية سواء كانت ذات هدف مقدر أو صار.

ومن المؤكد أن العادات سمخلف أنماطها تحقق للإنسان إشباعاً

لحاجاته المختلفة، فطرائق الأكل عادة حركية لإشباع حاجة فيسيولوجية، والعشي الوقور والتعامل الجيد مع الآخرين والتعاون والطعام عادات اجتماعية، وممارسة تسمية مهارات التفكير كالملاحظة والعقد بمحتد أشكال والاستدلال والتحليل والتقويم وغيرها عادات عقلية بحقق للفرد إشباعاً لحاجاته المعرفية

والإنسانية والصحك والحنن والدهشة ونأنيب الصمير عادات نحقق للفرد إشباعاً لنجباب الوجداني من كيان النحبة الإنسانية، وهكذا فإن كل من يقوم به هو في حقيقته عادات سلوكية وتشكل جزءاً من كيانا النفسي. وبطراً لأهمية تكوين وبناء عادات السلوك السوي المقبول بمعايير المشرع التربوي الإسلامي، فقد كثرت مصوصه في القرآن والسنة وأقوال أئمة أهل البيت عليهم السلام، وذلك بعرض نرجيه حركة الذات المسلمة ومساعدتها على تكوين العادات المرغوبة التي نحقق في نظر المشرع الإسلامي الأهداف المعادية في حياة الإنسان المسلم.

والملاحظ أن المصوص التربوية الإسلامية في هذا الشأن لا تتحدث عن تكوين العادات المعادية بطريق مباشر دائماً، فقد تدعو هذه المصوص المسلم إلى بناء مكونات الشخصية بالألفاظ وعبارات ومفردات لغوية لا تذكر أبداً لفظ «العادة» والألفاظ القرينية منها.

ونكتفي هذه المصوص في صياغها المعنوية بالتركيز على بحث الفرد المسلم وشححه على تكوين عادات لغوية وحركية وعقلية واجتماعية وروحية يريد المشرع سيادتها في حياة الإنسان العردية والاجتماعية، صياغ العاط المصوص التربوية والمعرفية الإسلامية تتضمن تطبيع النفس وتربيتها بالمفصائل والفهم وأنماط السلوك السوي التي تمثل جوهر العادات وقيمها الإنسانية في النظرية التربوية الإسلامية.

بيد أن بعض النصوص التربوية الإسلامية تتوجه مباشرة إلى تكوين العادات العبادية السوية المطلوبة مألَفاً وعبارة واضحة ومحددة، وتشير إلى نمط «العادة» وما يتصل بها من ألفاظ مباشرة، مثل (الحبر عادة نشر عاده - حسن عاده - علية العادة - العادات قاهرات - العادة عدو نمحك - صرامة عاداتها - ترك العادات - عيروا العادات - من أطاع العادات - عود نفسك السماح أو عود نفسك لبن الكلام أو بدن السلام - عود أدنك - حسن الاستماع - لسانك يستدعيك ما عودته، وهكذا تنوع في ثابا النصوص التربوية الإسلامية ألفاظ تدل بوضوح على رغبة المشرع الإسلامي في تكوين العادات السوية بالمعايير العبادية، وسوف نجد هذه الألفاظ متداولة بصورة مباشرة أو غير مباشرة وموضحة في خطاب المشرع التربوي الإسلامي كما سوف نعرضها في نصوص لاحقة.

ربما لا شك فيه أنه يظل للعادة بعد ذلك تأثير كبير على النفس، وسلطان على حركتها وسكونها، فإن كانت حبراً أسهمت في تكامس الشخصية وباء قدراتها المختلفة ونحقت توازنها الداخلي والاجتماعي، وإن كانت سيئة ألحقت - بالإنسان - ضرراً بالغاً وحالت دون النمو الطبيعي لقدراته، وبطافاته، وفصمت أوصال العلاقة مع الآخر.

ولما كانت العادة حركية كانت أو عقلية أو نفسية، هي مادة السلوك الإنساني، فإن المصهح التربوي الإسلامي، حقد رؤية واضحة متكاملة لباء العادة الحسنة ومغيير العادة السيئة من حياة الإنسان، ومما لا ريب فيه أن هذه الرؤية هي راد المعالج النفسي المسلم وسلاحه في تغيير أفكار واتجاهات المريض وعادته السيئة.

كما أنها الوسيلة التربوية الموجهة، لباء العلاقات، ومهارات التفكير،

وسائر القدرات التي تصوع الذات المسلمة من حديد، ومحاولة من شاء الله
 عز وجل تحديد ما مراد وجهة نظر إسلامية من العادة وأنواعها، وأندائها
 وكيفية تكوينا، وعناصرها، وأهميتها في نمو الذات المسلمة المسمية.

مفهوم العادة:

وضع بعض علماء النفس المحدثين تعريفاً لمفهوم العادة كالأندمين،
 فالعادة عند بعضهم هي سطر من السلوك الذي تستبره مواقف معينة بأسلوب
 آلي ميكانيكي، فكلما وضع الكائن الحي في ذلك الموقف كلما جاءت هذه
 الاستجابات الآلية المعروفة باسم «العادة»^(١).

يتضح من مصادر التراث التربوي الإسلامي في موضوع لسلوك، أن
 بعض العلماء المسلمين - بخاصة علماء السلوك والأخلاق أمثال ابن سينا
 وابن مسكويه والإمام الغزالي - كانوا أسبق من المحدثين في محاولة
 تحديد مفهوم العادة^(٢)، ومصادر نشأتها، وقد كانوا على وعي بأهميتها في
 تكوين لسلوك الإسلامي، ولذلك كثرت بين علماء السلوك الأندمين
 والمحدثين محاولات تحديد مفهوم العادة، ويلاحظ أن هذه المحاولات
 اشتركت تفرساً في الوصول إلى معنى واحد، وإن تفاوتت ألساط اللفظ
 بحسب التطور التاريخي للبشر.

(١) العادة موجه عام هي سطر ثابت من الأفعال والحركات
 والاستجابات الممكنة التي ظلت تتكرر زمناً طويلاً نسبياً، سواء تم من
 غير روية أو صدرت عن موقف عقلي وجداني موجه.

(١) د. سيد محمد خير، علم النفس التربوي، ص ١٦٣.

(٢) انظر بعض مراجعات علماء الأخلاق والفكر والتربية المسلمين في كتاب «التراثات الصبة» عدد
 المسمية، الموقفة د. محمد الفتاح، ص ٢٠٧ وما بعدها.

ويعتقد شخصياً أن هذا التعريف للعادة يخطئ النظرة القاصرة التي ترى في العادة سلوكاً يتم بسهولة، وعموية، وآلية رتيبة جامدة يحتمل فيها عصر الوجبة والعصاة، فليست العادة في نظري سلوكاً آلياً يصدر دائماً عن عموية بعدة عن الاختيار العقلي المرشد للإنسان

وسرى فيما بعد أن العادة الإسلامية تتكون بسبب موقف نفسي يختاره المسلم عن وعي مقصود، ويصاحب نشأة العادة الإسلامية مجاهدة روحية صعبة يختارها المسلم عن قصد، وطوعية ذاتية، مستهدفاً من ذلك نيل شرف لمقام صدق الله عز وجل، ويتم ذلك سواء في تعبير هدية سبحة أو تدعيم عادة حسنة

فالعادة الإسلامية سلوك خبير تلقائي، لكنها تصدر عن وعي تام بما تفعله الذات الإنسانية لأن سلامة النية والهدف والمنهج في بناء العادة يحتملها عملاً عبادياً، وليست الفضائل والأعمال الصالحة التي تصدر عن المسلم سوى كتلة متكاملة من العادات الإسلامية التي مشأت في حياتنا، وباختيارنا، من أجل تحقيق الوظيفة المادية للمكلمين

ويشتمل المفهوم البسيط على عناصر العادة الإسلامية من تكرار للسلوك، وطريقة تعلمه واكتسابه، وتقارب الوقت في الاستجابة السلوكية كلما تكررت المثيرات الخاصة بها، وأهم هذه العناصر هو قصد الذي يجعل صدور السلوك بسهولة، ويميل قلبي، والتفات هادئ مقصود من النفس، وتوجه حركتها نحو هدف معين، فلا ينبغي للمسلم أن يسحب بطرقه آفة لعشرات معينة دون وعي، وإذا حدث ذلك اخضع للمجاهدة، وعامت قدرة العقل عن المواجهة للعادات العدمية، واحتجى بذلك أنبر عنصر يجعل من السلوك عادة إسلامية خالصة من الشوب

وقد صرحت النصوص الإسلامية بأهمية عنصر القصد والإخلاص في
المجاهدة النفسية وبناء السلوك في شخصية المسلم حيث قال تعالى

﴿وَأَمَّا مَنْ حَالَفَ مَعْلَمَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْفَوَاحِشِ ۖ إِنَّ إِلَهَ يَوْمَئِذٍ لَّالْبَاسِ ۝﴾ (١)

وقال عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهَبْنَهُمْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ

وقال الإمام علي عليه السلام: "تحرير نفسك من كل خلق أحسنه، فإن
الخير عادة، وتجنب من كل خلق أسوأه، وجاهد نفسك على نجسه، فإن
الشر لهاجة" (٢).

فالنصوص السابقة حددت عناصر العادة، لكنها أكدت على الاختيار
العقلي، والمجاهدة كأمر هذه العناصر، وبدونها تفقد العادة طابعها العبادي
وإن بدت للناس سلوكاً خيراً، فالعادة هي مفهومها الذي أقره علم النفس
الأرضي لا تتطلب سوى التكرار، والاكتساب، وتقارب الزمن، وتشابه
الاستجابة مع سابقاتها، وهذا يصح على مختلف أنماط السلوك، عبر أن
المشروع الإسلامي حين يؤكد على عنصر القصد العبادي والمجاهدة
والإخلاص لله يريد أن يتحول السلوك كأداة لأداء الوظيفة العبادية، ويتم
ذلك بترويض النفس على إتيان الطاعة، وتجنب المعصية . لأنه يريد أن
تتحول العادة إلى إرادة توجه النفس إلى ممارسة العادة.

قال الإمام علي عليه السلام في هذا الصدد: "قللوا أنفُسكم بترك العادات،
وقودوها بئس أفضل الطاعات، وحملوها أعباء المغارم، وحسوها بعمل
المكازم، وصوموها عن دنس الحائث" (٣).

(١) سورة النازعات، ٤٠.

(٢) سورة النكبات، ٦٩.

(٣) ميراث الحكمه ج ٧ ص ١٢٢.

(٤) المصدر السابق، ص ١٢٢.

وقوله أيضاً: «غالبوا أنفسكم على ترك العادات، وجاهدوا أهواءكم تملكوها»^(١)

رسقتصبي النصوص الإسلامية السابعة، فإن الاختيار العقلي لبعده لا يكفي شكور سلوكاً إسلامياً، فلا بد أن يكون هذا الاختيار عملاً قائماً على إرادة عبديته، وربة فقة موصولة بطاعة الله سبحانه وتعالى، قال الإمام علي عليه السلام:

«عود يملك حسن النية، وجميل القصد تدرك في مساهيك السجح»^(٢). أي تحقيق الأهداف المحددة بنجاح تام.

مصادر العادة ومراحل نشأتها:

أولاً. مصادرهما:

حدّاه علماء السلوك المسلمين مصدرين أساسيين لتكوين العادة هما:

- الفطرة.

- التدریب والمران.

١ - الفطرة:

كل عادة سلوكية لها أساس أو استعداد داخلي في النفس، فكل نشاط يصدر عما له رصدي فطرنا وتكوينا الداخلي، ويمضي أن أي شعور أو سلوك أو فكرة لا يمكن أن تدور في حياتنا ما لم يكن هناك استعداد فطري في معرّساء فلا يمكن أن تقوم بتشاط معين في حياتنا كالسديس أو الممارسات التعبدية أو الانفعالات مثلاً إذا لم تكن نفوسنا مجبولة على

(١) المصدر السابق، ص ١٢٢.

(٢) المصدر السابق، ص ١٢٢.

الاستجابة لها فطرياً، فالقرد يعصب، ويحزن، ويعرج، ويتعشش، وسائر،
ويحاف لأن النفس تحوي بين جيبها استعدادات فطرية للسلوك الانفعالي
٥٥

فالمفطرة الإنسانية محزون لقدراتنا ودوافعنا واستعداداتنا، وتظل هذه
الفوى لفطرية دينة حتى يتوفر لها عامل مشط من البيئة، فيؤدي دور
الإبرار وتوجيه والتنشئة لا الخلق والإنشاء من فراغ، وبهذا فإن جميع
لعددت قبل أن تكون سلوكاً واضحاً في حركة الذاب اجتماعياً، وحركياً،
وإنفعالياً، وعقلياً، كانت في أساسها الفطري قابليات مكررة في أعماق
النفس، ولولا تدخل المجتمع وتساند عوامله المؤثرة لقيت هذه القابليات
كامنة منكدة - على حالها - تنظر من يربها كحافات طبيعية في دخل
ونقلها في صورة طاقات متحركة إلى الحياة الاجتماعية.

صحيح أن بعض هذه الاستعدادات تظهر مباشرة في سلوك فطري
كالرفض عند الوليد، لكن المربي يتدخل كثيراً في توجيه الاستعداد
الفطري بما يتفق مع المبادئ العامة للأمة، وفلسفتها المعنوية، غير أن
المجتمع لا يقدر على مع فاعلية قواها الفطرية، وهكذا فإن جزءاً كبيراً من
لأساس ادي تقوم عليه المبادئ السلوكية مستمد من الفطرة، ولها قابلية
(دخيلة) في توكيئنا الآدمية.

وهي مقابل ذلك، نجد بعض أنماط السلوك عن الإنسان تنفي محدد
استعدادات فطرية حية وكماته في النفوس، قد لا تسمح لها البيئة، الخارجية
بالمر والتعش الطبيعي كإعاقة بعض يناب الكهر لرجه الإنسان في التدبير،
ومن المؤكد أن تجاهل المربي - أتأ كان - لهذه الاستعدادات الفطرية لا
يعينها، ولا يتأصلها، لأن لها رصيد فطري مركز في أعماق النفس،

وجدر مناسل بقوة في جبلتها، وقد ألفت الآلة القرآنية البالية على قاسية الإنسان للتفاعل الفطري مع عناصر الحير والشر، ومع نظام المنحصر مؤتمس في تكوين العادات العبادية السليمة.

قال تعالى ﴿وَحِينَ وَنَا سَوَّهَا ۖ قَلَمَهَا لُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۗ﴾^(١).

ثم أصدرت آيات أخرى إلى دور العربي والموجه بعوله من رجل

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَزَقَهَا ۖ وَقَدْ حَانَ مَنْ دَسَّنَهَا ۗ﴾^(٢).

ففي هذه الآيات الأربع الكريمة تحديد واضح للأساس الفطري والمكتسب للعادة، ولكل منهما الأساسي في تكوينها.

٢ - التطويب والتمران

ينفي السلوك كما قلنا مجرد استعدادات فطرية كامنة في النفس قبل أن تنحون إلى سلوك في شكل عادات، ومهارات حركية وعقلية راجعية وغيرها، وهذا ينطبق على العادات الحسنة والسنة على حد سواء، فالكره والحب، والمصالحة والمعدوان، وتكرير النفس وتواضعها، وكرمها ودهانها، والجزع وصبرها، والحياء والفتنة، وحلمها وعيبتها وغيرها مجرد خطوط فطرية متقابلة في موصاف سوف تمتد إليها وسائل التربية الاجتماعية، فتعمل على تجنبها عن قصد وإرادة واعية.

إن الواحد منا لا يولد خائفاً أو متكسراً أو حاقداً، رغم أن لمس فطري يبرأ أصلها وصيد فطري لمثل هذه الحالات السلبية في شكل استعدادات فطرية كامنة فقط تنتظر التوجيه الحاطي أو السليم من العربي

(١) سورة النجم، ٧ - ٨.

(٢) سورة النجم، ٩ - ١٠.

لظهور، وتأخذ مكانها في سلوك الفرد، ويمكن للمربي أن ينفذ هذه الحالات دسمة عن طريق إثناء العناصر الطقة في النفس الملمة، ونحكم هذه العناصر في عملية مجاهدتها للحالات الفاسدة التي يمكن أن يستثيرها لمجتمع بين لحظة وأخرى.

وتبدأ العادات بحركات صعبة وثقيلة في المرحلة الأولى من مراحل تكوينها، ثم يعاود الإنسان تدريب نفسه عليها حتى يصير - بالممارسة والتمرين - ملكة واسعة أو حلقاً على درجة كبيرة من الرسخ والثبات، فأداب الحديث، والريادة، وتبادل التحية والسلام، والكرم، والشجاعة، ضبط النفس وقت العبث، وكنمان السر، وأسلوبنا في ارتداء الملابس، وطريقة تناول الطعام، كلها عادات استقرت وثبتت من خلال مواقف تدريب مستمرة حتى تحولت بالعصر والمجاهدة، والإدراك، إلى سلوك حسن متقن يصدر عن الفرد والجماعات ب تلقائية وسهولة ويسر

ولكن كما قلنا من قبل، لا تشتمل العادة الإسلامية في نظر المشرع الإسلامي ب تلقائية لا وهي فيها، ولا الثمينة مقصودة من القلب، فمثل هذه العادات العاوية من كل روح ثمينة تفقد كثيراً من ثروتها، وحبوبتها.

قال الرسول الأكرم ﷺ: «ليست الصلاة قياسك وفردك، إنما الصلاة إصلاحك، وأن تريد بها وجه الله»^(١)

وقال الإمام علي عليه السلام في نصيحة لصاحبه كميل من زياد الحميري

«بسر الشأن أن تصلي وتصوم، وتتصدق... الشأن أن تكون الصلاة معلية نفي وعمل عند الله فترضي وحشوع سوي، وانظر فيما تصلي وعلام تصلي، بل لم يكن من وجهه وحله فلا قبول»^(٢)

(١) ميراث الحكم ج ٢ ص ٦١.

(٢) تحف العقول ص ١٢١

وقال الإمام الصادق عليه السلام: «الحلق حلقان أحدهما نية، والآخر
سجدة»

قل: «فأيهما أفضل؟»

قال عليه السلام: «النية، لأن صاحب السجدة مجبول على أمر لا يستطيع
غيره». ويقصد السلوك كعادة صدورها عن عفوية وتلقائية. وصاحب النية
يتنصر على الطاعة نصبراً فهذا أفضل^(١) أي جعل العادة إرادة عبادية
ناجماً عن اختيار عقلي مدرك ورشيد، وعن مجاهدة النفس وعن تحسسها
لملقة للمعادة مع الشهوات، لهذا جاء في أحد النصوص التربوية قوله: «لا
تجعلوا قلوبكم مأوى للشهوات»^(٢)

فكل سلوك يصبح عادة بعد أن كان في أصله المفري مجرد استعداد،
وبعد تدريب استجابتنا عليه، وعلى وتيرة واحدة لمسط معين من السلوك،
وهذا يعني أننا قمنا بعملية اكتساب وتعلم، ثم بقينا نكرره مرات وفي
مواقف متعددة لمدة زمنية، وموعي، وحلال هذه الممارسة يثبت السلوك،
ويتحسن الأداء، وتزول المواقف، ويقوى الشدحيم، ويصل إنقاذ لتعلم
للعادة السلوكية إلى مداه الأقصى.

ثانياً نشأتها.

نحدث بعض علماء السلوك المسلمين وعلماء النفس بالمحدثين عن
دورين أو مرحلتين أساسيتين تنشأ خلالهما العادة السلوكية عند انكائين
الآدمي سواء كانت عادة إسلامية أو عادة غير إسلامية وهما:

١ - الدور الأول:

وسميه بعض العلماء بمرحلة تكلف الأفعال، حيث يتدنى التكلف

(١) المصدر السابق، ص ٢٧٧

(٢) مجمع المفرد، ص ٢٨٩

بتكوين عادة جليظة، ويصاحب تكوين العادة معاناة شديدة تعرف من شخص لآخر، حسب قدره المكلف على مواجهته رواسته، وتحمل قدرته لكافة الصعوبات الأخرى الناجمة عن المجاهدة النفسية.

وبربر النفس المسلمة باستمرار إلى سائر ما اعتادت عليه من سلوك. وهي في الوقت نفسه تسعى إلى مغالبة هذه الموروثات بحثاً عن تعلم جديد لعادة إسلامية فاضلة، ولهذا السبب كان نقل العادات من أصعب السياسات كما جاء في الحديث الشريف^(١)، فعملية النقل تحتاج إلى برنامج رشيد منظم للمجاهدة، واحتمال شدائدتها ومتاعبها، قال الإمام علي

«أيها الناس، تولوا من أنفسكم تأديبها، وأعدوا بها عن صراوة عاداتها»^(٢)

ولا ينم هذا التعبير إلا باحتمال أعباء الصعوبات الضاغطة على نفوس من حين يعمل على تغيير عاداتنا

وفي هذه المرحلة ننصف الأعمال التي يقوم بها المكلف بالتحسين المستمر كلما تكررت مواقف التدريب على العادة حتى تصبح تلقائية يؤديها المرء عن تفكير واع، وقصد نبيل، فإذا حدث تقدم ملحوظ في أداء المرء بالفعل لتكليفه زادت قدرته على المجاهدة، مثلاً تتكرر مواقف العدل والعطاء والإنفاق، ويصعب المكلف بماله شيئاً فشيئاً فتفوق قدرته على معاملة بخله أصل، وقد شددت نصوص المشرع الإسلامي على هذا المعنى مثل

«العصيلة بملية العادة»^(٣)

(١) كتاب حب. علوم الدين. لجنة الإسلام لمي خالد الزواي ج ٢، ص ٥٧ - ٥٨

(٢) مراقي الحكمة ج ٧، ص ١٢٢

(٣) المصدر السابق، ص ١٢٥

«أفضل العادة على العادة»^(١).

«بلغة العادات الوصول إلى شرف المقامات»^(٢).

«غير»^١ العادات تسهل عليكم الطاعات»^(٣).

٢ - الدور الثاني:

وهو ثبات العادة ورسوخها، حيث يفرض سلطانها تدريجياً على النفس، لكن الثبات في العادة الإسلامية ليس معناه - خلافاً لمفهوم علم النفس الوضعي - أن السلوك يتوقف عن التقدم أو التحسن، فالسماح لحر الذي يورثه المصهح التربوي الإسلامي للعادة السليمة لا يجعلها تتوقف عند حد معين، فإذا غفل الفرد في هذه المرحلة عن تقوية عاداته وبالذات تحبيص النفس من الشوائب، أثر ذلك على نفع شخصيته، وسموه الروحي، فمثلاً لو كانت عاداته متمثلة في السخاء، وأصبحت معه تعاضى لسوء بسهولة وتلقائية، فإن ذلك لا يكفي في نظر المشرع الإسلامي، فما المانع أن تغفل - النفس - عن دواعي البخل؟

وبلغة أوضح، إن البذل ربما يكون عادة في سلوك الإنسان المسلم، لكن المهم أن يصدر البذل عن الية السليمة المحالصة لله، نية لا رياء فيها ولا رغبة في كسب سمعة أو تقدير آخر غير رضا الله تعالى، وهي حالات مرصنة تفتحهم النفس وتشوّه بواعث حركتها، وهذا بكل تأكيد لا تلتمس إليه عدم النفس الوضعي، فهدف المعالج النفسي الوضعي هو تعبير عدة ما دون انصباب إلى بواعث تصفية للعمل لله عز وجل والتقرب إليه.

(١) المصدر السابق، ص ١٢٢.

(٢) المصدر السابق، ص ١٢٢.

(٣) المصدر السابق، ص ١٢٢.

إن التلقائية والآلية وسهولة الأداء، والإتقان في نهاية التعلم في أمور العبادات في مفهوم المعالج العربي، يسما التعلم الحقيقي للعامة للإسلامية لا سوفف عند هذا الحد، وإنما كذلك بتطبيقها المستمر عن شوائب الدنيا، «فرايا العباد» ولا شك أن حرص المعالج المسلم على مقاومة سرب لشوائب إلى النفس المسلمة خلال صدور أفعالها، يعني استمرار لتقدم حتى آخر العمر، ويعني دويان للذات في علاقتها مع الله عز وجل

وما يعنيه المعالج العربي من ثبات العادة هو إقرار ضمني بعجز الذات بعد هذه المرحلة عن إحرار تقدم في مجال نمو العادات وتقويتها، ويمكن أن تكون هذه النظرة جائرة إلى حد ما في العادات الحركية مثلاً، وهو ما يهتم به علم النفس الغربي كثيراً، لكن هذه النظرة حاططة دونما شك مع العادات الروحية والأخلاقية كالكرم مثلاً، فقد تخطو الذات المسلمة إلى مستوى أكثر تقدماً وأحسن حالاً، فمن الممكن أن نبالغ الذات في عطائها، فننتقل إلى مرحلة الإيثار وإنكار الذات

وخلاصة الأمر أنه لا ألية جامدة عند المشرع الإسلامي للعادة الإسلامية، فيمكن للفرد أن يبلغ بها أبعد مدى ولو من خلال عمل بسيط يحسبه الناس لا قيمة له، فقد يتكرم الفرد بقليل من ماله، وهو ليس بحاجة له، لكن الإيثار - عطاء الآخرين وفي نفسه حصاصة أو حاجة - ليقول عالم الأخلاق المسلم لمن مسكويه -

«الكرم إنفاق المال الكثير بسهولة من النفس في الأمور الجليلة القدر، انكسرة البع كما ينبغي، وأما الإيثار فهو فصلة للنفس بها يكف الإنسان عن بعض حاجاته التي تحصى حتى يئله لمن يستحق»^(١).

(١) مهديب الأخلاق ونظير الأحرار، لأبي مسكويه، ص ٤٢.

أهمية العادة:

أجمع علماء السلوك على أهمية العادة للسوية في نمو الشخصية، وقد أقر هؤلاء العلماء بعض الآثار التي تدل على هذه الأهمية، وحصر البعض آثار العادة في النقاط التالية.

١ - دور العادة السليمة في بناء الشخصية:

إن لعادة وسيلة تساعد على البقاء المتكامل للشخصية، فعن طريق اجتماع عدد كبير من العادات يتم البقاء الأساسي للشخصية وتحديد نمطها العام المميز، وإذا كانت العادات المكونة للشخصية تمثل سمات حسنة لأنها دون شك تساهم بشكل كبير في إبراز جوانب الإبداع عند الفرد، ليزداد عطاؤه، وانتاجه، وتكون علاقاته بالله، والناس مؤسسة على المعاصر الطيبة في شخصيته. فليست الفضيلة في نظر المشرع الإسلامي إلا بغية العادة.

٢ - سهولة العمل الممestad وسرعته ودقته:

تشأ العادة السليمة في بدايتها من ميل إيجابي في وجدان الإنسان أو استشارة في قلبه، ثم يتحول هذا الميل بعد ذلك إلى إتيان متكرر وممارسة للفعل حتى يرسخ ويثبت، وإذا بلغ هذه المرحلة أصبح أداء الفرد - للسلوك - سهلاً، رصيناً، وتلقائياً، وعلى درجة كبيرة من الإنقاذ، فالتفكير الكسول عن الاستجابة للمشورات الخيرة يشتهضها مهبج الله هر وجل إشارة وجدانية حبة أو من خلال وضعها في موقف انعمالي شديد، ومن ثم تظل النفس رواظب على أداء الحير فترة من الزمن حتى يعتاد على إتيانه، وحينئذ ترفع من داحمها استغفالتها لعمل الحير، وتجه تدريجياً إلى حبه، فالعصاة معلقة العادة والمعان عليها، وقد أكد المشرع التربوي الإسلامي في أكثر من بض على هذا المعنى مثل النصوص التالية:

«بحير لملك من كل خلق أحسنه فإن الخير عادة»^(١)

«غيروا العادات سهل عليكم الطاعات»^(٢)

«كفى بفعل الخير حسن عادة»^(٣).

والنصدق بالمثال عند بعض الأفراد لا يأنس إليه بموسمهم، ونعمر من
عنه، والإتيان به لأول مرة يكون تعيلاً، غير أن هذا الاستئصال يذوب في
النفس بمرور الوقت كما يلوب الثلج تحت وهج الشمس، بدءاً من مقاومة
المكلف لميله إلى إمساك المال، ومروراً بتكرار فعل الشح، وانتهاءً
بسهولة إتيان العمل، وإقبال النفس عليه طواعية وإيناراً

ولمصلحة - كذلك - يستصعب صلته بادئ الأمر، لكنه بتكرار أداء
لصلاة يقوي وعيه بحقيقة الصلاة ويتدفق تدريجياً الجرعات الروحية لهذه
العبادة، فيشعر بحلاوتها، حتى تروى في نهاية الأمر أسوار الاستئصال، ومما
لا شك فيه أنه يصاحب تلك المجاهدة نحس مستمر في إثقان حركات
لصلاة ودور الحركات الحافظة، وهكذا يسهل بالمادة أداء الفعل العبادي.

٣ - المعادة وتوفير الوقت والجهد

تسهل المعادة في توفير الوقت، والجهد البشري في أداء السلوك، فمثلاً
لا يحتاج الفقيه في معرفة الأحكام الشرعية إلى نفس الجهد الذي يبذل عامة
الناس في فهم هذه المسألة الشرعية أو بيان الحكم الشرعي لمسألة أخرى،
والسبب في ذلك أنه اعتاد استعمال العقائيس الشرعية والظرائق لانسباط
الأحكام الشرعية، وكذلك ينطق الكلام على الطبيب والمهندس والعامل
والموظف الإداري وهكذا

(١) ميراث الحكماء، ج ٧، ص ١٢٢

(٢) ميراث الحكماء، ج ٧، ص ١٢٣

(٣) ميراث الحكماء، ج ٧، ص ١٢٣

ولهذا فإن وقت العافية في تحديد الرأي الشرعي يكون أقصر بكثير مما يسمرقه الآخرون، لأنه قصي عمره بين مصوص الكتاب والسنة بحثاً وتنقيحاً واستبطاناً، وافتاد على التعامل المستمر معها عشرات السنين، فإعادة الدراسة لا تساعد على سهولة العمل وإتقانه فحسب، بل توفّر لوقت والجهد معاً، وهي بكل تأكيد عوامل مساعدة على إضاح جروب الإبداع في شخصية المكلّف، وتجعل عطاءه عباً حصياً في مجالات أوسع وتمحه قدرة أكبر على التكيف، وكذلك علماء التخصصات العلمية الأخرى

تحكم العادة في النفس:

يقدّر المشرع التربوي الإسلامي حقيقة العادة من حيث قوتها، ودرجة تحكمها في النفوس، وعلى أساس ذلك يجده يحدّر من قوة تحكم العادة السيئة، ويدعو إلى تميرها بأصداقها من عادات السلوك العبادي ومجسدة نسلطها على نفوسنا كما يدعو أبعاً إلى تدعيم العادات الحسنة، ويؤكد بقوة على بقاء ستكافة النفس للعادة الإسلامية، فالمنهج الإسلامي يدرّك أثر كل مهما، ويحدّد لذلك نمط التعامل مع كليهما، وسوف نقف في مكان آخر على موقفه التربوي من هذه المسألة

إن سعادة سلطان كبير يملك على النفس حركتها وسكونها، فيمنعها من إثبات عمل مضاد لما ألفتته، وقد أكثرت مصوص تربية إسلامية على مدى قوه تحكم العادة في النفس، وهو هنا في هذه النصوص يشير إلى أثر بعده الحسنة والسنة، قال الإمام علي عليه السلام:

«العادة على كل إنسان سلطان»^(١).

وقوله أيضاً: «العادات قاهرات»^(١).

وقوله رحمه الله: «لا سرع إلى العصب، وتسلط عليك بالعادة»^(٢).

وقوله: «آفة الرياضة - ويصد النية - علة العادة»^(٣).

وقوله: «العادة على تملك»^(٤).

لهذا يرى المشرع الإسلامي من فعل - عمل ما - دون التفاته واعية من القلب، ومن هنا تبدو أهمية المجاهدة وإخلاص النية في ضبط النفس وإخراجها من ظلمة الأمراض النفسية الناتجة عن حصول النفس حضوراً أعمى للعادة السيئة، والمرد المسلم لا يسعه بأمر من الله أن يكون هبداً لعدائه، يستجيب لها كلما استثارت مواقف معينة بأسلوب آلي، لأن المنهج الإسلامي يشترط دائماً على العبد المسلم تذكيره بالله عز وجل، فلا يفعل سلوكاً لإثارة عيبه، ولا يفعل إحسانه باستشارة مريضة، ولا بد أن يربط عادته بذكر الله، والعادة التي تحكم النفس بعيداً عن منهج الحق تبارك وتعالى، تعتبر عائقاً يلحق الأذى بشخصية المسلم.

إن العادات قاهرات كما أكد على ذلك الصديق الشريفة، فمن ألف شيئاً من الانفعالات السلبية كالحنق، والكبت، والغضب وممارسة العادة السيئة في خلواته فضحه هذا الشيء في علانيته، وظهر جلياً في سلوكه الخارجي، وهذا يعني أن بعض الناس يتظاهر بسلوك حسن أمام غيره، لكن عيادهم سرّاً على سلوك مشين أو إخفاء نزعه مرضية يعاليمهم في لحظة ضعف، فيدور في السلوك الخارجي الذي يصدر عنهم ويفصحهم عناية أمام الملاحظ.

(١) المصدر السابق، ص ١٢٢.

(٢) المصدر السابق، ص ١٢٢.

(٣) المصدر السابق، ص ١٢٢.

(٤) المصدر السابق، ص ١٢٢.

وإن تبد هذه الظاهرة بقوة المادة وميلاتها، وبحكمها في النفس سبب
علة الوعي أيضاً، قال الإمام الحسن الطوسي (عليه السلام):

«للعادات قاهرات ومن اعتاد شيئاً في سره وحلوته، فضحه الله في
العلانية وهذا للملاءة»^(١).

يرلاحظ أحياناً أن الصنم العتيق للعادة يبدو أيضاً في هموات الكلام
وقسمات وجهه وتعبيراته الخارجية، قالت النصوص

«ما أضمر أحد شيئاً إلا ظهر في فلتات لسانه، وصفحات وجهه»^(٢).
وفي نص آخر: «ما أضمر أحد شيئاً (إلا أظهره) في فلتات لسانه
وصفحات وجهه»

ويذكر الإمام علي أيضاً: «اللهم اغفر رموزات اللحاظ، وسقطات
الألفاظ، وشهوات الجنان، وغفوات اللسان»^(٣).

«تكلّموا تعرفوا»، فإن المرء محبوه نحت لسانه»

«السانك يستدعيك ما هودنه، وتفمك تفضيك ما ألقته»^(٤).

فهذه النصوص تكشف عن أثر ما نعتاده سرّاً وتجليه واضحاً في حياتنا
العقلية مع الآخرين بوهي وبغير ووهي، فقد يحفل عقل الإنسان ويعت
المحبوس في النفس ويفتضح ما اعتاد عليه الفرد في خلواته وبخاصة أن
العائس عن مراقبة أنفسهم لم يدربوها على المعاملة النفسية وبركوا

١، المصدر السابق، ص ١٢٢.

(٢) نهج البلاغة / ج ٤، ص ٤٠.

(٣) شرح المائدة كلمة لأبي المفضل علي بن أبي طالب (عليه السلام)، لفيلسوف البحرين الكبير الشيخ مير
البحراني، ص ٢١٢. وكذلك شرح عبد الوهاب للمائة كلمة فيها، ص ٦٥.

(٤) ميراث الحكمة، ج ٧، ص ١٢٢.

لأنفسهم الماء بلا رقيب، مما يجعل الباطن يعبر عن نفسه كلما ضعف الوعي الطاهر عن المراقبة.

ويؤخذ بعض المصومين الإسلاميه على بعض الدلالات التربوية، فالعص التي تسير مثل بلا حدود في اعتياد ما لم تعلمه هي في حقيقتها مسرفة في شهواتها، لا تطبق احتمال الصبر عن قلوبها، ولا تكتفي بقدر الحاجة من الإشباع، فمن الممكن أن تتجاوز النفس في عملة من صاحبها حدود اللذة المحلال إلى الشهوة المحرمة، لهذا منع الإمام علي عليه السلام نفسه من تعويدها على إشباع بعض اللذات المحلال، فقد عرصت عليه بعض لأطعمة المحلال، لكنه أبى أن يعطي نفسه سؤلها، خشية أن يعتاد، لذلك يطالب كل مؤمن بضرورة ضبط النفس وحجبها عن بعض ما أحلّه الله، خوفاً من أن تداوم النفس على كل طلب، وأنه ينبغي على المؤمن أن يبحث عن إشباع متوازن بقدر الحاجة

إلى الله عليه السلام ينبه الناس إلى ضرورة كف النفس عن بعض شهواتها المحلال، حتى لا تطمع فيما بعد، فتألف في الإفراط على الملذات لتتسدد، وهو كذلك يعود النفس على استشعار الجوع الذي اكتنفت به بطون الفقراء والمحرومين، فالإمام علي عليه السلام في موقفه السابق لا يستهدف من ذلك منع المحصور من الإشباع المحلال وإنما يريد أن يؤسس في شخصية المؤمن رهداً في الحياة ويربي فيها الإرادة الحيرة القادرة على مواجهته لمادة، ويتحكم فيها متى شاء، واختيار الاستجابة المحلال قال:

«غير مدرك اللذات من أطاع العادات»^(١).

تذكر بعض الروايات أنه أتى أمير المؤمنين عليه السلام بالزوج فوضع فداها،

فقال

«إنك طيب المريح، حسن اللون، طيب الطعم، ولكن أكره أن أعوذ
نفسى ما لم تعتد»^(١).

ونظر أيضاً إلى حبة البري، وصفاته حسنة، فوجأ بإصبعه لب حتى
بلغ أسفله ثم سلها، ولم يأخذ منه شيئاً، وتلمظ إصبعه وقال

«إن الحلال طيب وما هو بحرام، ولكن أكره أن أعوذ نفسى ما لم
أعوذها، أرفعوه عني فرفعوه»^(٢)

رأيت له بخصيص يأبى أن يأكله فقالوا له: أتحرمه؟ قال: لا، ولكنى
أحشى أن تترق نفسى فأطلبه، ثم تلا هذه الآية.

﴿الَّذِينَ يُبَيِّتُونَ عَلَىٰ سُلُوكِ الشُّرَاطِ وَيُقْسِمُونَ﴾^(٣)

انطوت هذه النصوص في داخلها على دروس تربوية عملية يحاول فيها
الإمام عليه السلام ضبط النفس عما تشتهي، ويحاول فيها تربية إرادة المسلم
لينحكم في سلوكه وتنظيم الإشباع الحلال، وليس في هذا الحديث تمطع
عن الدين، لأن ما فعله الإمام ليس تحريماً لحلال، وإنما هو تنار عن
حق، وعن إشباع مؤقت للذة، وتدريب الذات على مواجهة صعاب الحياة،
ومعديهم «ممدوح حسن» يفقدي به الآخرون.

وبلاحظ هنا أن نموذج التربة لم يؤخذ من نص معروف عن الممارسة
العملية، وإنما عن فتوة ومثل أعلى، رغم أن الإمام عليه السلام لم نعرف

(١) المصدر السابق، ص ١٢٩ - ١٢٧.

(٢) المصدر السابق، ص ١٢٩ - ١٢٧.

(٣) سورة الأحقاف، ٧٠.

نحسبه قط خطأ في تولدتها فما يعوله دائماً ليس مأخوذاً عن حرة لأحد
 مرأها من كتاب أو تعلمها من مصلح اجتماعي آخر سوى النبي ﷺ ، وإن
 يعر عن معاناة معية خرها نفسه ، واستمد روحها من كتاب الله وسنة
 رسوله ﷺ ، فكان النص بذلك علماً وعملاً ، فها وإرادة

وعلى كل حال فإن العادة السيئة ليست وحدها التي نملك رمام النفس
 وليست وحدها التي نسط معوذها على حركة الذات في الحياة ، ولسلوك
 الذي تميل إليه بعض النفوس يتحول بالتركيز الهادف والتدعيم الموجّه إلى
 عادات طيبة تصدر عن وعي ، وبقبلها عقل وقلب ، فأفضل العادة عليه
 العادة كما جاء في القول للشريف ، لذا تعمل الطيبات في نفوس الأخير كما
 تفعل الرذائل في نفوس الأشرار ، وقد نصت على ذلك^(١) :

«تخير لنفسك من كل خلق أحسنه ، فإن الخير عادة» .

«كفى بفعل الخير حسن عادة» .

«الفضيلة عليه العادة» .

إن العادة الحسنة كذلك ، إذا تمكنت من الماد المبيح في النفس ، فإن
 قدرتنا في أداء السلوك الخير تكون سهلة ، طيبة ، تسارع إلى سابق
 الحيراث ، وليس معنى ذلك أنها لا تحتاج إلى مجاهدة دائمة ، فهذا العصر
 هو القوة التي تحمل العvisلة منسيدة في النفس .

ومهد لا يكون أداء السلوك الحسن عند النفوس الفاضلة كأداء السلوك
 السيئ عن الضالين ، والقلب عند الفصلاء أكثر وعياً بما تصدر عنه من
 سلوك حسن ، وأكثر إدراكاً بقيمة العضائل ، وإذا صدر السلوك السوي من

(١) حديثاً صحيحاً عنه النصوص في أماكن سابقة من الدراسة

والأشهر، فيحمل أن يكون الرياء والمعاصرة، وشوائب الدنيا موانع هذا السلوك، فطبع تتسده وتجرده من القصد العبادي

والعس المظلمة توجع السلوك مستوشدة بمنهج الله، وتنهى بلعقل محاللات واسعة للتكثير السليم والإبداع، والتنظيم وتحقيق الانتصار لحاسم مكمل على الشهوات، وتحاول بإسناد النفس اللوامة لها بتعميل إيجابي لدور لوجيدان الأخلاقي دائماً، وفي أجواء هذا التوجيه تتحرك الذات المؤمنة تجاه الفضائل باطمئنان وثقة، وتتوق بالصبر والمجاهدة، وتوفق الله وعونه على كل عناصر الصاد المتروكة

العادة في إطار منهج الأعداد:

يركز منهج المعالجة النفسية بطريقة الأعداد في مؤلف من لعدة لمكتسبة على خطوتين يصحح بهما الوضع النفسي والعقلي للذات المسلمة، وسوف نحاول في الصفحات القادمة، التعرف على الموقف انظري لهذا المنهج وحطواته العملية لتكوين المادة الإسلامية التي تعتبر مادة السلوك في الشخصية المبادئة المؤمنة.

والخطورتان الأساسيتان اللتان يشترك بهما المنهج الإسلامي - الأعداد - لصياغة هذه الشخصية هما:

الأولى: تغيير المادات السيئة (الذائل أو أمراض السلوك)

الثانية: بناء المادات الحسنة (الفضائل أو أنماط السلوك العادي)

أولاً: تغيير العادة السيئة.

يسمى منهج المعالجة بالأعداد إلى تغيير العادات المدعومة لتأخذ مكانها العادات العبادية الإسلامية المضادة لها، وقد ربط هذا المنهج بين

مسألتني التعبير وتنمية الطاعات في شخصية المسلم، فلا يسهل إقباله على فعل الطاعات قبل أن يحرر محتواه الداخلي من موانع المعصية، ودرس الدين، قال الإمام علي عليه السلام:

«غيروا العادات تسهل عليكم الطاعات»^(١).

وفي هذا النص تأكيد على العلاقة بين تغيير العادات المستفحصة، وإحلال العادات المستحسنة.

وقد نصت النصوص الشريفة بصيغة «فعل أمر» على وجوب التنبيه كما وجدنا في النص السابق، كما جاء في النصوص التالية:

«عالوا أنفسكم على ترك العادات»^(٢)

«دللوا أنفسكم بترك العادات»^(٣)

وتوله «أيها الناس، تولوا من أنفسكم نأذبيها، واعدلوا بها عن ضرارة عاداتها»^(٤).

لالتنبيه وترك العادات المذمومة وتديل النفس وتطويعها للسلوك الصادي، فكلمات «غيروا - عالوا - ذللوا - اعدلوا» نصر عن دعوة مباشرة من المشرع الإسلامي لتعديل السلوك وتركه.

وإستعمال صيغة «الأمر» يبين ضرورة البدء بالتعديل فوراً، وصحاح حصاة ثمرة التعديل في مستقبل الأيام، لأن عملية التعديل تأخذ متسماً من الوقت، فالنصوص تتحدث عن الواقع والمستقبل، فإذا كعب النفس عن

(١) ميزان الحكمة ج ٧، ص ١٢٣.

(٢) المصدر السابق، ص ١٢٣.

(٣) المصدر السابق، ص ١٢٣.

(٤) المصدر السابق، ص ١٢٥.

لاستجابة لعاداتها السلبيه القديمه، واستجابات للسلوك المطلوب بعمره بالمعاسر العاديه، فحيث يَسأل المسلم فيه ماذا سأفعل؟ ولماذا سأفعل؟

ويروحه الفرد المسلم مريضاً كان أو معالِجاً، صعوبه في معاهه سعديين السلوك وتركيبه الاستجابات، فالمريض مشدود لتركته من الرواسب السابقه والامعاليح يجهد فيه في وضع برنامج لمعاونه مرضاهه على مقومه هذه الشركه من العادات المفروضه إسلامياً، فكلاهما يتفاوت بين المربي وتلميذه بهحاولان الوصول إلى الهدف.

ولكن للصعوبه في إحداث تعديل عيادي للسلوك أمر متوقع، ولايد من توطيئ النفس وترويضها على تحمل تلك الصعوبه، ولهذا أشار المشرع التربوي الإسلامي لها في أحد مصوره وهو «رباعه الجاهل ورد انعتاد عن عدته كالمعجز»^(١١).

لكن ذلك لا يعني استحالة^(١٢) التثيير بل يعني فقط مشقته وصعوبته.

وبعد أن أشرنا مسبقاً للشروط، والمحطوات، والعناصر المساعده على

(١١) تحف العقول، ص ٣٦٣

(١٢) رغم صعوبه العمل التربوي للسلوك الإنساني التي ألفت عليها عصر من المشرع الإسلامي والتي واجهت بالغايات التي وصحات خلال عصر الدعوة الأولى، وكذا ما واجهه المربي المسيس خلال فترات ما بعد عصر الرسالة، غير أنه المشرع التربوي الإسلامي رفض ولي فريده الذي أروع تلاميذه باستحالة تعبير عادات الإنسان المكتسبه في سى الطفوله، فلا يتعناشي من تعبير ما وراثه من سلوك في مرحله ما، إلا تحت حقائق الحياة أنه يفتقر للعلم أنه يغير ذاته باستمرار إذا وفر الشروط «المعجبه اللازمه، والشرم مسطرات الإسلام في التثيير السلوكي، واعتقد أن ما تؤكده شواهد الحياه أخرى وأثبت من ري مريده وروايته، وسخط تجارب التثيير والمحاولات العلاجيه التي قام بها الأبناء والمصنوعون شامدا على فائيه النفس للتثيير الجدي، ولولا هذه القبله لكنت دعوات الأبناء لا مسرع له، ولا معنى لها، ولكان التصريح التربوي الإسلامه للعديه للتثيير سطفاً لا فيه له

ما علماء النفس وساحبه الممالجين السلوكيين قد أكدوا على أهمية تخطيط السلوك، بل إن اعتادات مريده بعد التثيير والأيان والموعظه الاجتماعي من أنماط السلوك كالجنس والذكوله والكنبه والالتعور وما أراد به بالثاثير تعبير استجابات النفس وانكارهم وسلوكهم وفق غريزته، وهذا يد على رعي مريده الميئنه والمعمله معاً في علاج السلوك الإنساني كما يره

عملية «المعالجة النفسية» بمفهومها الإسلامي، تحاول هنا معرفة عناصر هدم العادة السيئة، فأثر ذلك في إعادة تشكيل الشخصية الملممة

عناصر هدم العادة السيئة:

هناك بعض العناصر التي يمكن للمعالج النفسي المسلم أن يستثمرها في عملية هدم العادة السيئة وتحطيم قديستها، ونسب أسوار وجودها من داخل الذات، ومن هذه العناصر:

أ - تغيير القلب من العادة العقيمة:

إن المعالج يحاول أولاً إحداث تغيير داخلي وتكوين استجابة مضادة للسلوك المرضي، فإذا كان المريد ملغاة للصوفة عضواً أو ظلوماً أو حسوداً أو حقوداً، فإن دور المعالج المسلم هو إثارة روح الكراهية عند مرضاه ضد هذه الحالات المرضية وتغييرهم، فبدأ في ذكر سلبيات هذه الحصان وأثرها في عدم تكيف الشخص، ثم يذكر المرضي بمبادئ الترهيب والترهيب لهذه الحصان وما يضافها من السلوك، والتي أكد عليها القرآن والسنة، وما لا شك فيه أن الثقافة العلاجية للمربي مستمدة من هذين المصدرين، وهما قادران على أن يحدثا تعديلاً واضحاً في ميل القلب عن الرذائل واسفور منها كما حدث للنبأضي بن حياض^(١).

(١) عنه عن الرجل مثلاً لاغير الذي يحمله النص القرآني في القات البشعة، جد كلاب سيئه مردجا للنفس والافتدال والمقوي على الآخرين، إذ لموس الفرصة والاعتدال على ممتلكات الناس، ودان يوم هم ماركاب جوية، حيث رأى ملك جميلة وحملتته منه بالحرام وبعها إلى الست الذي اتجهب إليه، وعندما هم بسلى البيت خاطبه قائلاً: نزل عليه كالمصاغة، وكان هذا الهاتف مداه من دخل معه في حبه نذكر موي النص قرآني هو ﴿لَقَدْ كُنَّا أَنْ نَخْتَلِعَ لَهُمْ كَيْفَ نَكْتَلِي﴾ الله وما رلى بن الخيرة فقال في نفسه حين سمع النص القرآني بعد دعة لأنه بالمصاغة يلى يا رث - قد أنه، وكررها ثلاث، ثم منبر المعاصي والسيئات بعد هذا الموقف وتحول لهجة للزهد والصورة تكثيراً عن غنائه السابقة

وأهمية هذه العناصر تأتي من كونها إحدى قنوات المعالجة ومعانيها في إرادة السلوك الخطأ، فإن تأخر جهد الحربي أو تعثرت خطره بمير الميل النفسي ضد العناصر الفاسدة لدى شخصيه العمد انعكس ذلك على سائر المحطوفات العلاجية الأخرى، وإن سرى في القلب ميل داخلي مصاد للأحلاق المدمومة، وتهيشة القلب لاستقبال العادات الحميدة الإسلامية والتدريب عليها يقول **عنه**:

«من المداومة على الخير كراهية الشر»^(١).

ب - تحديد العادة السيئة

حيث يسمى المريد أو المريض بتحديد للعادة المدمومة التي ينبغي تغييرها، ونعتقد أن من المرضى من يتبع نظام ذاتية العلاج الذي يمكنهم في بعض الأحيان من معرفة أمراضهم السلوكية بأنفسهم، لكن لا يعني أنهم ليسوا بحاجة إلى ناصح أو مرشد إذا تشابكت في نفوسهم مجموعة من أمراض السلوك، خاصة إذا كان هؤلاء المرضى يقتفدون إلى دعي بمبادئ الثقافة العلاجية الإسلامية، ومن هنا يصبح تحديد العادة السيئة المرغوب في تعديلها أو إزالتها كلباً أمراً ضرورياً لباء وإعداد خطة العلاج النفسي، وننوه أولاً للوقت والجهد.

وعسى المريض أن يتقبل بشجاعة ما يحدده المعالج المسلم من سليات في دانه، ويتأمل بدقة مدى إصابة شخصيه بهذا المرض أو ذلك، فإذا انعم المريض والمعالج على خطة مشتركة، سارع كل منهما إلى العمل بها معقضى الدور الذي حدته الخطة أو البرنامج العلاجي.

ج - إيقاف تكرار السلوك الخاطئ:

لو شُحِدَ المرء المسلم همته وعقد الحرم على إيقاف ممارسته عادات خاطئة لديه، وترك الاستجابة لها بصورة سلبية - ولو مرّة واحدة، فإنه سيُجِدُ نفسه بالمواظبة ميالاً إلى تركها عدة مرات، وإذا استطاع أن يقوم بمهله لها في المرة الأولى، فتكون قدرته على مقاومتها في المرات اللاحقة أقوى وأصلب، حتى تستقيم نفسه على السلوك الخوهم الذي يتسبب مع الحق والقيم والمعايير للعبادة، ومن هنا نفهم الدعوة إلى مغالبة أهواء النفس ومجاهدة ميولها المصحفة وترك العادات الخاطئة المصاحبة مع نظرية التشريع الإسلامي ومنهجه التربوي في جانبيه الوقائي والعلاجي.

يقول الإمام علي عليه السلام:

«عالبوا أنفسكم على ترك العادات، وجاهدوا أهواءكم تملكوها»^(١).

فالعادة السيئة نشأ دون شك بالتكرار والممارسة، لكنها تفسد بتركها وإهمالها وعدم ممارستها، فلو ترك الفرد كله مرّة واحدة عن أداء صلاة الفجر، وصوم يوم عي، وعاهد الله عز وجل على أن يعاود ترك كسله غداً، وبعد غد، فسوف يهلي بعد ذلك في وقت الفريضة المناسب، وسوف يكون تحكمه في ترك عادته السيئة بتأخير صلاة الصبح أقوى، ولو عاهد ربه على أن يتحكم في نفسه عندما يشار من أحد، فإنه سيكرر ترك العادة المدمومة (العصب المزائد عن الحد)، وسيعود على الحلم وضبط سلوكه في مواقف الإثارة، قال الإمام علي:

«إن لم تكن حليماً .. فتعلم»^(٢).

(١) ميزان الحكمة ج ٧ ص ١٢٢

(٢) معجزة البلاحة ج ٤، ص ٤٧.

والتحلم. - إذا جهل عليك^(١).

وهذا ما يتفق مع منطق المصالح السلوكي في معالجة أمراض لسوك، حيث يرى المصلحون السلوكيون أن الأمراض مجرد عادات خاطئة معدمة من وسط البيئة، ويحتاج الفرد إلى تعلم جديد من بيئة سوية وصحة لتكوين عادات سليمة كالندرب على التحلم ومواجهة مشاعر الخوف مثلاً.

إن ترك العادات السيئة مجاهدة يخالف الفرد فيها نوازع نفسه، ويكرهه على مقاومة ضغوط الميل لهذه العادات، ولعل هذا ما أشرت إليه نصيحة الإمام علي لأبيه الحسين عليه السلام «في خلاف النفس وشدها»^(٢).

فالتصميم يجعلك تركز على نقطة الضعف، ويجعلك تستجمع لديث لقوة في المواجهة التي تعبك على إيقاف تكرارك لعادة سيدها، وعبدى الإمام الصادق عليه السلام عندما قال

«ما ضعف بدن عما فروث عليه بية»^(٣)

و - تخلية النفس:

لا نغصد من عملية إيقاف تكرار العادة سوى تخلية النفس من رواسيها السلبية وآثارها الضارة، حتى لا يحتلط في سلوك الذات عادات الخير بعدات الشر، وإذا أخلى المصالح النفسي المسلم ما بهن مريضه من ميل للعدة لسيته وأفكار خاطئة ضمن بيئة أكر فرصة نجاح برنامجه العلاجي

(١) مصنف العقول ص ٢١٣

(٢) المصدر السابق، ص ٦٦

(٣) مبراهن الحكمة ج ١٠ ص ٢٧٠

وتنهأت سكونولوجية المريض لتغيير اتجاهاته الحافظة، وقد سبق أن أشرنا إلى أهمية هذا العنصر في ضمان نجاح العلاج باعتباره شرطاً هاماً للمعالجة النفسية بالأصداد^(١).

وبدا نجح المعالج النفسي المسلم في تنمية إرادة مرضاه على مقاومة ميلهم إلى عاداتهم السيئة المألوفة في حياتهم من قبل، واجتهد في تدريب هؤلاء الأفراد على فعل الطاعات ومقاومة كل المتاعب النفسية الناجمة عن ممارسة الأفعال للمعبادة الصالحة والسوية، فإنه سوف تتحول هذه الطاعات بالممارسة إلى عادات طيبة بمعايير المشرع التربوي الإسلامي، ومن هنا نفع عند مضمون هذا النص الشريف.

اذلوا أنفسكم بترك العادات، وقودوها إلى أفضل الطاعات، وحملوها أعباء المعاصي، وحلواها بفعل المكارم، وصونها عن دنس السائم^(٢).

هـ - إيقاف التدعيم:

حينما يصور الفرد على تكرار عادة سيئة في سلوكه، فإنه بالتأكيد يشعر بلذة ومثبة نفسية، لكنها لا تخلو من إحساس مرضي، وهذا يعني أن تكرار الاستجابة الحافظة يصحح لذة وإشباع مريض بصرف النظر عن قربها أو بعده من معايير السواء، فإذا حصل - بصورة خاطئة - على المال أو بعض الأغراض المادية أو الامتيازات الأخرى كانت هذه الأمور تدعياً لاستجابته المرصية.

ومن المؤكد أن استمرار التدعيم المنحرف يقوي ممارسة عاداته

(١) انظر الشرط الخامس من شروط المعالجة النفسية بالأصداد للحصن بالتغذية والجملة، والذي ناقشناه في فصل سابق من البحث والدراسة التي يبرر ذلك.

(٢) ميراث الحكمة، ج ٧ ص ١٢٢.

سببته، فلي يترك الفرد المتحرف ثقافته ما دام يحصل على معزز يأس به، كالحصول على منصب أو جاه ممن يشجعونه على ارتكاب وممارسة هذه الممارسة المخاطئة المرضية

وسيقى الحائز والكذاب والكسول والقتوط على عاداتهم، وصدايقهم، مادام بعض كل استجابة حادثة أو كادية أثر مريح - نوعاً ما - من الماء أو السلطة أو تحقيق أية مصلحة خاصة، وقد أدرك قادة جماعات الاستحراف بمختلف أشكاله أثر الإثابة الصالحة في استمرار السلوك الضال عند مرضى الملوك، لهذا يسارعون دائماً إلى توظيف هذه الإثابة، وتسهيل الاعترافات لمن أراد تنفيذ المآرب، والخطط التي تستهدف تدمير حياة الآخرين وإهدلهم.

وهناك عادات سيئة كالجمل مثلاً - تبدو هي ظاهرها - غير معروضة بتدعيم ما أو غير مرتبطة بإشباع معين حتى لو كان مرضياً، وهذا خطأ فالجمل عندما يتمسك بما يملك، يمر في حقيقة الأمر عن تلذذه بمرصه، رغم أن هذه اللذة نفسها تحرمه من الالتذذ بممتلكاته، فيأمن بلدة حبس الناس عن الآخرين، وتعمره فرحة خاصة لا يعرفها سوى أمثاله من لبلاء، ومن ثم يجد في استجداء الآخرين له لفة نفسية تربيته، ويجد في داخله صدى لهذه اللذة المرضية

وقد بشر بلده السن والتفضل وهو يعطي غيره قليلاً من المال الزائل، والتدعيم لمحرف ليس بالضرورة مادياً، بل يكون أحياناً معنوياً، و يعتقد أن هذا النمط من التدعيم يصعب صطه، وملاحظته من قبل الأفراد المعديين

وعلى المعالج النفسي المسلم أن يبدأ فوراً بإيقاف التدعيم المحرف وعزل مآثره الذي يجعل صاحب العادة السيئة يصير على تكرارها على نحو مرضي، ولكن كيف يوقف التدعيم خاصة إذا كان جارحاً عن ذاته؟

إذا كنت ألتدعم المحرّف للعادة السيئة عند المريض بتمسك من إجراءات المحرّرين، وليس في مقدوره إيقاف تأثير انحراف هؤلاء فعليه أن يعرّض من إعانات المريض نحوهم، ونحو مصدر التدعيم للضلال، وهو هنا يحاول سنبر المريض من عمل المسيئين أو يشجعه على قطع الصلة بالمحرّرين، وعندما يصبح في إيقاف العادة السلبية نفسها ويتركها. للمريض يجب أن يتنه المعالج النفسي المعمل إلى أنه قد لا يتوقف التدعيم في يادي الأمر من المحرّرين رغبة منهم في إعادة المريض إلى عادته السابقة.

ولكن سيتوقف التدعيم للسلوك الضال نهائياً إذا حلّى محله تدعيم إيجابي وإذا استمر المريض بتوجيه من المعالج أو المرشد بمتابعة تعديل سلوكه بزيادة صلّة وترك عادته الخاطئة، وسوف تبدأ العلاقة بين المريض والمحرّرين في التباعد والضعف.

ويمكن للمعالج النفسي المسلم أن يوظّف الكثير من النصوص التربوية الإسلامية الشريفة الفادرة على تمييز وجهة نظر مرهضه إزاء كل عادة سيئة يرفضها المنهج الإسلامي، وذلك عن طريق لفت انتباه المريض إلى النتائج السلبية لهذه العادات لا على مشغل ذاته بالدنيا فقط، بل على مصيره بعدم الآخرة عالمه الحثيثي... ويسمى إلى إقناعه بأن تكون عادته العبادة السليمة هي واده الذي يعمر آخرته، وبمارة أوضح يستطيع المعالج المسلم أن يعرّض مريضه على ترك عادته السيئة يتذكّره باليوم الآخر الذي يربي في أمس الحثيثي من الله تعالى

ومعقد أن صدأ القلب من بعض الأفكار والعادات السيئة، يمكن برأيه متذكّر المرء باليوم الآخر الذي لا ينفع فيه مال أو بنون، ولا يحدي فيه سوى العمل للحاصل لله عز وجل، فالتفكير بهذا اليوم يحدث انعكاساً

ويجباً شديداً في النفس قد يعبر العادة السيئة من مرة واحدة أو يكون
للبداية الأولى لمعير المعط العام للتحصية، فكما جاء في كلام الإمام
عليه السلام

«من حاف العقاب.. أي من عموية الله تعالى في اليوم لأحر
أعرف عن السيئات»^(١).

وقوله كذلك «غير مدرك الدرجات من أطاع العادات»^(٢)

ويقصد بالنفس الأخير التأكيد على من استجاب لعادات السلوك
الحسنة التي يرفضها المشرع الإسلامي
ثانياً. بناء العادة الحسنة:

يتقرر لمعالج النفس المسلم بعد ذلك إلى خطوة البناء، وهي خطوة
التي تسهم بقدر كبير في إعادة صياغة الذات على أسس إسلامية، وبعد أن
تجدوز النفس مرحلة التهينة وإحياء قابليتها للتعلم السلوكي الجديد، يبادر
المعالج المسلم إلى تدريب مرضاه تدريجياً عملاً ما مؤسساً على عادات
السلوك لعبادي الإسلامي كي يستكمل بناء الذات، ولا حدود من التهينة
النفسي لاستقبال العادات الحسنة بدون مواظبة النفس على فعل الطاعات
وتحذيتها بمكارم الأخلاق.

فإذا كان أحد مقاصد قوله تعالى ﴿لَا يَتَّبِعْ مَا يَفْقِرُ حَتَّى يَفْقِرَ﴾^(٣)
هو الإحساس بضرورة التغيير والإيمان بتعلم الجديد من
لأفكار والعادات، وتفرغ النفس من محتوياتها الفاضلي السابق والإحساس

(١) ٢٠٠٠ كنية، ص ٨٢.

(٢) ميراث الحكم، ج ٧، ص ١٢٢.

(٣) سورة حود، ١١.

مصرورة التعبير والإيمان بأهمية تعلم جليل وصحيح للأفكار والعادات والممارسات، فإن المقصود من قوله تعالى: ﴿لَقَدْ هَدَا الْقُرْآنَ نَبِيَّ إِلَىٰ هِمَّتِهِ أَدْرَمَ وَيُشْرُ الْقُرْآنَ الَّذِينَ يَمْلِكُونَ الصَّلَاةَ لَقَدْ هَمَّ لَبْرًا كَبِيرًا﴾^(١)، هو ملء النفس بالمعادات الحسنة، فالآية الأولى تدعو (لتحلية النفس) وتزبد لأية الشابه نوجيه المؤمن نحو مسار الخير بحلية الذات بالفهم والمصائل، العبادية

وجاء في بعض المرويات^(٢) التالية

«عود نفسك فعل المكارم، وتحمل أعباء الممارم، تشرف بنفسك، وتعمر آخرتك، ويكثر حامدوك».

«عود نفسك للتصبر على المكروه»، ونعم الحلق التصبر في الحق».

وقد أفاضت النصوص النبوية الإسلامية بتحديد العادات العبادية الحسنة التي ينبغي أن يعود عليها المسلم مثل:

«عود نفسك السباح».

«عود نفسك العلم».

«عود نفسك لبس الكلام، وبدل السلام».

«عود أذنك حسن الاستماع»

«مئة الكرام الوفاء بالمهد»

«حبركم من أطاب الكلام، وأطعم الطعام، وصلى بالليل والناس

سبح

(١) سورة الإسراء، ١٠.

(٢) يمكن مراجعة هذه النصوص النبوية الروائية في كتاب ميراث الحكمة، ج ٧، ص ١٢٤ - ١٢٦.

ما جاء في النصوص الترموية السابقة مجرد إشارات لأنماط السلوك العبادي المرعوب فيه والذي يراد من المسلم إتياه والتعود عليه

وساء العادة الحسنة ليس أمراً هيناً، لكنه مسؤولية عادية كسره يحارل من خلالها المرمون المسلمون صوغ الشخصية المسلمة، وتكوين المجتمع المؤس، فإذا كلف كل منا هذه مسؤولية تربية العادات الإسلامية في كيانه النفسي والعقلي، اجتمع الجهد كله في إصلاح الأمة وتعبير حياتها، وأبعثها، وقيمها.

فبناء العادة الطيبة في دواتنا كأفراد مسلمين هو المقدمة لأولى لباء المجتمع على روح العادات الإسلامية، وحيتد نمتج في سلوك المسلم مسؤوليتان إحداهما تكمن في مسؤوليته عن تكوين العادة الحسنة في ذاته لعددية، والأخرى مسؤوليته في صوغ الشخصية الأساسية للأمة على أساس وجهة النظر الإسلامية للذات الاجتماعية.

عناصر بناء العادة الإسلامية:

كما أن هناك عناصر تهدم العادة السيئة من حياة الفرد، كذلك هناك عناصر لباء العادة الحسنة في شخصيته، ويجب على المعالج النفسي للمسلم أن يستفيد من الفعالية الإيجابية لهذه العناصر في تكوين العادة الإسلامية، ورعم أن هذه العناصر تدو في ظاهرها مافصة لعناصر الهدم السابقة عبر أنها مكحلة لها، فقد أشرنا من قبل إلى أن نجاح المعالج في هدم السيئات، لا يعني ضمان نجاحه في عملية البناء، وهذا يدرك ضرورة ترمع العناصر الإسلامية لباء العادات الفاصلة في الفرد معاً، ويمكن إيجار هذه العناصر على النحو التالي:

١ - الوعي والاختيار والمجاهدة:

لما كانت وظيفة المعالج المسلم تغيير القلب من عادة ما، أو من مجموعته عادات سيئة، فإنه كذلك يجهد نفسه لإيجاد ميل قلبي إيجابي نحو عده حبة صادها أو نحو مجموعة من العادات الإسلامية التي تكون بديلاً حسناً للسينات، فإذا فرغ المعالج من ترغيب النفس في سلوك ما، أغميه حث لها على العمل المرغوب، وهذا يتطلب بكل تأكيد فهم المعالج ومرضه بعملية إقناع واختيار من كل خلق أحسنه، ونطيع النفس عيه، ولا يحسر هذا من جهد ومشقة، لكنه أفضل وأضمن.

فالانتقاء ببساطة يعني اختيار الفرد عن روية وتأمّل وعدم السووك المرغوب، رغم أنه قادر على اختيار آخر يضاده، ولذلك لا بد أن يصاحب الاختيار وعي تام بالذات والمضائل معاً، ووعي بالمنهج الذي يقول لفصل هي أعداد السلوك، وهنا يتلزم الوعي، الإرادة، والمجاهدة في اتجاه واحد، يصب في بناء العادة الإسلامية.

إن العادة الإسلامية يتوفر فيها السهل، والاكتساب، والتكرار، لكنها تمتاز عن العادة غير الإسلامية بصلوبها من إرادة واعية وتعكير واضح يجعل من العادة الإسلامية أداة عبادة لتحقيق رضا الله سبحانه وتعالى، وقد جمع أحد المتخصصين هذه الخصائص في مفهوم العادة الإسلامية:

«تجبر نفسك من كل خلق أحسنه، فإن الخير عادة، وتجنب من كل خلق أسوأه، وجاهد نفسك على تجنبه، فإن الشر لعادة»^(١)

ونعتقد أنه لولا تميز العادة الإسلامية بهذه الخصائص لما أصبحت العادة فعلاً تكليفاً يؤجر العبد عليها، فالانتقاء والإرادة، والمجاهدة في اختيار الخلق الحسن، وتجنب أسوأه هو روح التكليف الذي أسطت به

شخصية الإنسان المسلم، وبقينا فإن الانتفاء لا يؤكد قيمة الذات وحسب معيار الناس في ديارهم، بل تجعله يعيش عن التعديل الإلهي، غير أن هذا التقدير لا سأل إلا من خلال تعبير الطاقات المحبوسة في نفوسنا

وردا لم يقم الفرد بعملية انتقاء جيد لأحسن الخلق الذي يناسب العطرة، وإذا لم يترك للإرادة حرية الاختيار، فإنه في الواقع أمات تعكيره وإرادته، وأصبحنا من الطاقات المعطلة التي تعوق النفس عن تكوين عادات إسلامية، وبذلك كله فإن الانتفاء المصحوب بمجاهدة واعية يهي في النفس عادات الصديق، والإيثار والثبات الانفعالي، واحترام الآخرين، ويسمح لسلالات سمات وطاقات الشخصية أن تنمو، وأن تتفأ خلالها يسبح الله الرشيد

يقول الإمام علي عليه السلام: «ذلّلوا أنفسكم بترك العادات، وقودوها إلى أفضل الطاعات وحملوها أعباء المفارم، وحلّوها بعمل المكارم، وصوبوها عن دس المآثم»

والانتقاء، والمجاهدة الروحية مستمران خلال فترة العلاج وبعده، بل يستمران العمر كله، وبدونهما لا يتم إحراز تقدم ملموس في تكوين العادة الإسلامية، واضعاء البعد المبادي عليها، فاختيار الحلق الحسن لا يسمع فيما بعد من إحراف التوايما، فيتحول الكرم مثلاً إلى مراهة وليس خلقاً تعسفاً هذه انتفرت لله، ولهذا لا بد من مداومة الفرد على مجاهدته نفسه لسع أي نحول خاطئ في القصد والإخلاص، فيظل العمل.

در الإمام علي عليه السلام: «املكوا أنفسكم بعلوم جهادها»^(١)

ردال أبصاً: «جاهدوا أهواءكم تملكوها»^(٢).

(١) ميران الحكمة، ج ٧، ص ١٢٢

(٢) المصدر السابق، ص ١٢٢

٢ - تحلية النفس بالحنان.

بعد أن يحب المعالج النفسي المسلم العادات الحسنة إلى قلوب مرضاه ويهيئ نفوسهم وعقولهم للتلقي والاحذ، يبادر إلى تدريب النفس على تحسن الخلق عدة مرات حتى تصح الاستجابة عادية، سهلة الأداء. والتدريب العملي للشخصية على فعل الطاعات يسميه علماء الأخلاق المسلمون بعملية تحلية النفس بمكارم (الأخلاق) وفرائض الطاعات

وبلاحظ هنا أن التحلية كعملية سلوكية تشتمل على ثلاثة جوانب هي:

أولاً: الجانب الوجداني ممثلاً في ترغيب قلب الإنسان المسلم إلى حب لعادة الحسنة الموافقة للشروط الإسلامية والمعايير الإيمانية.

وثانياً: الجانب العقلي ممثلاً في المعرفة، وانتقاء السلوك العبدى من وعي ومعرفة صحيحة، وإدراك قيمة الفضائل والقيم الدينية والأخلاقية لأنه لا يقبل عمل إلا بمعرفة سليمة كما جاء في المصروح السابقة

وثالثاً: الجانب الروحي والتنميطي حيث تنزع النفس إلى الممارسة لعملية الإنكار والاتجاهات الصحيحة ونشأتها في سلوك واقعي بالحياة.

ولتحلية النفس مكان كبير من الأهلية، إذ يجتهد المعالج المسلم في تنمية النفس بتعجير كافة طاقاتها سواء كانت حركية أو عقلية أو وجدانية أو اجتماعية وغيرها، بإدخال تعديلات أخلاقية يسمه تحسن وأصح في كافة سمات الشخصية، فكثير من مشكلاتنا العقلية والاجتماعية والحسية - أحياناً - يعود إلى تدهور السلوك الأخلاقي عند الفرد

ولا يعني هذا أننا نؤمن بنظرية العامل الواحد في تشكيل السلوك الإنساني، فالشخصية وحدة متكاملة مترابطة الجوانب، وكل تغير في جانب من الشخصية يتبعه بالتأكيد تغير في سائر الجوانب، لذلك يسمى المعالج

الشمسي للمسلم إلى محلبة النفس، وهو لا يقصد الحائق الأخلاقي المصحح من لداب محصه، بل يقصد أن هذا الجانب هو جانب هام متأثر به جواب آخرى لشي تؤثر بدورها في حركة النفس، فالعادة الحركية مثلاً يطمعها المصحح الإسلامي بصبة أخلاقية، فقد ورد في الحديث الشريف أن «سرعة المشي نذهب بيهاء المؤمن»^(١).

إن الإنسان المؤمن لا يد أن يصفي على منه طابعاً أخلاقياً كالشمسي الوفور والمثاني مثلاً ليصفي على ذاته هبة وقوة، وعليه في الوقت نفسه أن يختار لها أحسن المحلق بما فيها العادات الحركية التي يرى بعض أنها بعيدة عن اصطاح «الأخلاقي»، وإذا لاحظنا النص الأخير الذي ذكرناه قبل قليل نجد أنه يربط بين «سرعة المشي» كعادة حركية وبين «بهاء شخصية المؤمن» كصفة نفسية وأخلاقية لأدركنا أن المشرع التربوي الإسلامي يهضر إلى لشخصية الإنسانية ككيان متكامل يؤثر بعضه في بعض، فالشمسي السريع غير المتزن سلوكه حركي يؤثر على هبة الإنسان ووقاره الاجتماعي، وهذا يعني رحدود ترابط بين مقومات الشخصية في المفهوم التربوي الإسلامي، ويقدم المشرع الإسلامي هنا مجرد مثال على هذا الترابط سلباً وإيجاباً بين مقومات الدات المسلمة.

كما أن العرد بحاجة لسمات أخرى نعتبر حراً من السميع العام لشخصية مثل ليس الكلام، وحسن الكلام، وحسن الاستماع لنفس، ولد، سلام، وأسلوب الأكل وهكذا، لأنها تمثل عادات طيبة وإيجابية تصمي على الشخصية محة إيمانية وعادية، ويأمل يسط يرى أن العادات لسابقة لذكر هي عادات متعددة. . عادات حركية مثل المشي، وعادات حركية

فلسجية كطريقة الأكل.. وعادات لعوية مثل لبس الكلام، وبذل السلام وعادات اجتماعية مثل بذل السلام للآخرين، وحسن الاستماع لهم وهكذا لا تفصل العادات كسلوك في حياة الإنسان عن بعضها، وهذا ما يقره المشرع التربوي الإسلامي في نصوصه التربوية.

نقول بعض الروايات في هذا الشأن:

«عود نفسك لبس الكلام، وبذل السلام، بكثرة محبوك، ويفضل ميفضوك»^(١).

و«عود لسانك حسن الكلام تأمن الملام»^(٢).

و«عود أذنك حسن الاستماع»^(٣)

والنصوص التي تؤكد على تحلية النفس وتطعيمها بالطاعات كثيرة تأخذ مساحة كبيرة في التشريع التربوي الإسلامي، ونصب في مجرى واحد لتحليل الأهداف العبادية، وقد أشربنا من قبل إلى عدد من الآيات والأحاديث التي توجب على المسلم تحلية نفسه بالحصال الحميدة، فهي المادة التي تشكل السط العام للشخصية العبادية، ويلاحظ أن هذه النصوص تضع انقواعد السلوكية العامة للمسلم، وأحياناً تقوم النصوص بتفصيل أساط السلوك الإسلامي المندرج لتوضيح هذه القواعد.

٣ - فكلور السلوك الإسلامي:

هذا العنصر من أبرز عناصر بناء العادة السلوكية إسلامية أو غير إسلامية، عبر أن المنهج الإسلامي يحرص على مواظبة العبد على عباد

(١) ميراث الحكماء، ص ١٧٤

(٢) المصدر السابق، ص ١٧٤

(٣) المصدر السابق، ص ١٧٤

السلوك الحسن المتفق مع المقاييس العادية، وإذا كان السلوك يكون أحياناً من موقع «معالي شديدة» فإنه كذلك يتكون بفعل تكراره ومثلاً «معتاداً» لإعادة الإسلاميه لا تخرج عن نطاق هذين الأسلوبين في كونه بشروياً، لكن التكرار في بناء العادة الإسلامية لا يجعل منها سلوكاً آلياً يتم تلقائياً وسهولته لا علاقة لها بالقصد وسلامة نية الفعل بالمعايير العبادية

والمسلمون في كل بقاع الأرض يواظبون على صوم رمضان، لكن المشيخ لا يرتضي أن يكون ذلك سلوكاً آلياً يتم بحبر رعي، ومقتضياً من الوظيفة العبادية للفرد، فالمشيخ يوجب تعيين نية الصوم للشهر كله، بل إن بعض الفقهاء يؤكد على ضرورة تجديد النية في كل يوم، وسواء كانت النية معقودة للشهر بأكمله أو متجددة يومياً، فإن القلب حاضر في ممارسة ما يعتاده من صيام، ولا يقل عمل لا يلتفت فيه القلب إلى الرضا الإلهي.

وهكذا فإن حضور القلب عنصر أساسي في بناء العادة سواء كانت صلاة، صياماً، معاشرة، تعلماً، تفكيراً، زيارة، صبراً على مشكلة أو غيرها، فكل الماديات الحسنة قد تبدو في ظاهرها إسلامية، لكنها ليست كذلك ما لم يكن القصد منها طاعة الله وتذكيراً حياً للقلب به عز وجل

ب أهمية التكرار في بناء العادة الحسنة أنه يؤصل السلوك الطيب للعمر، فيجعلها ميالة إليه لا بالتمرد، بل بالاعتادة واعية من القلب، ولما احرص بهم المسلم في العصور المتأخرة عن فهم العلاقة بين عمداً تكرار والتفكير والإحلاص، بدأت عاداته الحسنة تنفصل شيئاً فشيئاً عن المفهوم الإسلامي الصحيح.

ويمكن للمعالج المسلم أن موظف هذا المبدأ في تكوين سلوك إسلامي عند عامة الناس، وبخاصة مرضاه، فأنحاط السلوك الإسلامي

يؤسس من خلال مواقف الإنلاء الانفعالية الهادفة أو من خلال مبدأ التكرار المعروف بتذكر الله، فالمعادن الإسلامية الطيبة تسمد قوتها من خلال هذا المبدأ، فكما يعتاد الفاسق تكوين موبقاته تدريجياً، عن طريق التكرار، كذلك سبي المعاليج المسلم أنماط السلوك الطيب في نفوس مرضيه عن طريق المراقبة وتكرار أذاته، حتى الإتيان به استجابة واعية مقصودة تصدر عن النفس المزمنة، بسهولة، وتلقائية، وتوجه عبادي لله عز وجل، حيث يريد الله كما ذكرنا أن يكون الخير فيها عادة وإرادة وعبادة

٤ - تدعيم السلوك:

أشار علماء السلوك إلى أهمية عنصر تدعيم السلوك بأثر حسن وإثابة مجزية، وهو من أقوى العناصر اللازمة لبقاء العادة، فلا يمكن تكرار السلوك من قبل الأفراد لتكوين العادة الحسنة إذا لم ينبع كل استجابة سلوكية صادرة عنهم تدعيم إيجابي، فكما أن السلوك تضعف قوته حينما يرتبط بحالة سلبية، كذلك تقوى استجابته إن تبعه تدعيم إيجابي، فالمكافأة تؤدي في نظر العلماء إلى تعلم جديد، وإلى تكوين السلوك المرغوب فيه، لهذا كان بعضهم يعتقد أن السلوك المصحوب بإثابة أقوى من تكرار سلوك عدة مرات لا تمزجه إثابة.

أما مفهوم الإناءة الإسلامي - وإن كان يلتقي أحياناً مع بعض الأسس التي يقوم عليها قانون الأثر أو التدعيم أو بعض مبادئ التعزيز في علم النفس الوضعي - فإنه في التشريع التربوي الإسلامي أبعد نظراً وأشمل، وإثابة الإسلاميه التي تعين الفرد على تعلم السلوك الجليل ليست ديو به تؤدي إلى إشباع سريع، وعاجل للحاجات، بل تمتد إلى العالم الآخر، فمعد الداب المسلمة بشحات ضخمة من الإثابات المتظرة التي لا يدرك

ضعفها غير المؤمن بالله تعالى، تلك الإثباتات المتصلة بمبادئ السماء ورمائها

ومن هنا فإن روح الإثابة الإسلامية ليست قائمة دائماً على الإنسان الديوي العاجل للحاجات، كالبحث عن التقدير الاجتماعي مثلاً أو السجاح أو نقد المخاصم، وإنما هي أيضاً ذات بعد أهم، وأبعد هو الإثابة الأخروية، وقد وضع هذا البعد تاريخاً حديثاً يعبر بين مفهوم الإثابة الوضعي والإسلامي، وترتب عن ذلك اختلاف واضح في أنماط الاستجابة وبواعثها عند المسلم وغير المسلم، وهذه المفارقات جعلت السلوك محتملاً بين الشخصية الأرضية الساقطة عن تقدير المجتمع، وبين الشخصية العبادية الباقية عن تقدير الله لأفعالها

إن علم النفس يربط عادة بين تكرار السلوك وتدهيمه بإثابة سارة، غالباً ما تكون هذه الإثابة ذات أثر مادي عاجل، يحصل عليه الكائن الحي مباشرة بعد أداء السلوك بإتقان، غير أن المشرع الإسلامي لا يلمح تماماً «تدهيم الديوي، ويستغني بإعطاء الأجير حقه قبل أن يجف عرقه، وهذه إثابة دينية دورية ومنظمة، ولكن المتكلة في إعطاء حق الأجير، ورفع الحيف عنه لا تنوقف عند حدود الإثابة الدنيوية... وإنما تمتد إلى تقدير لأجير بإثابة أخروية.

وبما كانت الإثابة بمفهومها الوضعي عاجلة، وماديه محسنة معروفة عن مادي السماء فإن الشخصية الأرضية تكف عن تكرار السلوك الذي لا تنفعه ثمة مباشرة، ويفتر حماسها عندما تمتنع المكافأة، وما دامت هذه الشخصية لا تنظر لغير الأثر المادي والعوري، فإنها تواجه الإحسان في الإنساع، وتعرض للصراع النفسي، والتوتر والقلق، فالمحور المادي

العجلة هي دوافع السلوك عند الشخصية الأرضية، وحسبنا نختمني تصعب
دعوة المتعلم عند الفرد ونقل حماسه عن متابعة السلوك ويصعب أدائه في
أي مجال

يلاحظ هنا أن الإثابة في نظرة علم العصر تمثل خبرة سارة، فالإنسان
بعد سلوكه مرات ما دامت مهابة ذلك التكرار الحصول على إنباع مريح
لحاجاته، ويوقف الفرد استجابته بإيقاف المكافأة، وهذا يدرك تميز الإثابة
الإسلامية في جعل السلوك مستمراً سواء حدثت الاستجابة مباشرة أو لم
تأجيبها، وسواء صاحب الاستجابة ألم ومشقة أو لم يصاحبها

والسبب في ذلك يعود إلى اتساع مدلول الإثابة الإسلامية، وامتدادها
من دنيانا انقصيرة العاجلة إلى الآخرة الأجلة أو من زمن معين إلى زمن
أبعد في حياتنا الدنيا، ولهذا قال السيوطي رحمه الله «طوبى لمن أجل لحظة
حاضرة لم يعود لم ير»

وبهذا يستمر المؤمن في تكوين عاداته المرغوبة ويواظب باجتهاد
مخلص على اكتسابها سواء صاحب ذلك ثواب عاجل أو انطوى جهده على
ألم ومشقة، فعنه لا نتحرك من خلال الثواب الديني وحده، فما ينظره
من عظيم الأجر من الله لا يضاهيه إشباع عاجل مؤقت، ومن هنا الرهبة
لده في الحصول على هذه الإثابة الأخروية أقوى عنده من مشقة تكرار عمل
لم يحصل منه على إشباع فنة عاجلة أو تلبية حاجة آتية، كالحصول على
هدية رائلة أو مجازاته بمدح لا سمن ولا يغني من جوع

والإثابة في نظر المسلم كما قلنا دائماً ليست حصولاً على إنباع
ديني، ومحدود ورائل، بل هي اكتساب لحسنات تنفعه في يوم لا يجمع فيه
مال ولا نون، ويجدر أن نتذكر بما تنطوي عليه فكرة الحسنات في مدأ

الإثانة الإسلامي من تمييز لا مثل له في كافة مناهج الفكر الوصفي، فالمشروع الإسلامي يسجل لمن هم يفعل الخير وأراده في سريره ودينه، ولم يعمل، حسنة واحدة، تشجيعاً للعود وتدعيماً لولازع الحير في دانه، «بعشر عشر حسنات أو أكثر لمن صدق عنه السلوك الطيب فعليه» جاء في الحديث الشريف:

«من هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، وإن هم بها وعملها كتبها الله عنده عشر حسنات إلى سبع مائة ضعف، إن أصناف كثيرة، ومن هم بسيئة ولم يعملها لم تكتب عليه»^(١) وإذا عملها كتبت عليه سيئة واحدة.

لهذا نجد المؤمن يعود نفسه الصبر على المكروه، ويتحمل شدة الندم الذي يصحب أداء السلوك الإسلامي أحياناً سواء نجح في تكوين عادة الحسنة أم لم يتمكن بعد، فإن المعاناة وحدها لها إثابة مجزية عند الله تعالى إن أحلص النية له حر وجل، فبئس المؤمن خير من عمله كما جاء في الحديث، قال الإمام علي عليه السلام:

«عود نفسك الصبر على المكروه، ونعم الحلق الصبر في الحق»^(٢).

وينبغي للمعالج النفسي المسلم أن يستفيد من قوة الإثانة الإسلامية في ساء الحالة المرهقة، ونعتقد أن قدرة المريض على استعادة السموك المعرّوب فيه سوف يتمّ تتيته ما دامت الإثابة الدنوية والأخروية داعمة في نفس على هذا النحو، من المؤكد أن دعيته في الحلات ستجعله يتحمل ألم المجاهدة، وهو يدرك أن اللجنة حفت بالمكافأة والشهوات، ولا ربح

(١) محمد حواء مكية، ثقافة الأخلاق في الإسلام، ص ١٢٥

(٢) ميرزا الحكمة ج ٧، ص ١٢٤

معها هاتين الآيتين مرج بين الخوف والرجاء، خوف من عذاب الله، ورجاء رحمته، ويستهدف هذا المزج إلى إثارة الدوافع الإيجابية عند المسلمين لتعلم أساليب جديدة في التفكير والسلوك مصادرة للمألوف سابقاً، وبمعبران بهذا المزج المتداخل عن قدرة صريح الأعداد على توجع أساليب التربية بحر تكرير الفعل العبادي المرغوب.

ثانياً: شكر الله:

أما عصر الشكر فيؤثر على ذهنية المسلم تأثيراً واضحاً، حيث يستمر المسلم على أدائه للسلوك الحسن وتكراره لا من أجل المثوبة والخوف من لعذاب، بل لمجرد الثناء على نعم الله والاعتراف بها والشكر لما أسبغ عليه من نعم، ومن المؤكد أن اتصال هذه العناصر بمفهوم الإنابة الإسلامية يؤدي إلى إمداد المسلم خاصة المريض بشحنة كبيرة من الوعي وهمة لمرئمة لتقرب إلى الله عن طريق تكوين السلوك الذي يرضاه عز وجل، فيحاول التعبير بهذه العادات الطيبة عن اعترافه لله بجليل فضله، فتمثل المسلم للسلوك الشرعي تجسيد لمفهوم الشكر، وقد سنل النبي ﷺ ذات يوم هذا السؤال:

«ألم يخفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فأجاب ﷺ بقوله: «أبلى أكون عبداً شكوراً».

وهي بعض آخر «ما عبدتك خوفاً من نارك ولا طمعاً من حسنك، ولكن وحدثك أهلاً للعبادة فعبدتك».

فلذا امتزجت هذه العناصر الثلاثة . الرجاء والخوف والشكر يستمر السلوك وتحمل المسلم ألمه ومشقته، وتعالى عن الإشباع العاجل، وسمت نفسه عن دماء للشهوة، وكف عن تلبية طلبها بطريقة محرمة.

وصححت بإشاعات الدنيا الرائلة وحطامها الزائل، وأدى ذلك إلى حمص الفلق عند المسلم، وزيادة طمأنينة نفسه وإن اقترنت بآلم المشقة، لهذا طاب بعض علماء النفس المسلمين بإعادة النظر في مفهوم الشواب والعقاب، حتى يصح قانون الأثر أكثر تمشياً مع الواقع، فيكون الثواب إدر هو كل ما يؤدي إلى حمص التوتر والقلق عند المرء، وحتى وإن اقترن بالآلم، ويكون العقاب هو كل ما يؤدي إلى زيادة التوتر حتى وإن كان غير مؤلم^(١)

لقد كان موقف القرآن الكريم واضحاً من مسألة النظر بجديده إلى الإثابة الأخروية، وقد حشد الكتاب المجيد آيات متفرقة، وأخرى متصلة تجمع بين الترهيب والترغيب، وقد سبق أن أوردنا آيتين جمعتا بين ترهيب القرآن للكافرين من عذاب الله عز وجل، وترغيبه للمؤمنين بالجنة وحسن الحساب، قال تعالى:

﴿لَأَنَّا مَن طَلَقَ ۖ يَنَازِعُنِي أَنِّي أَلْمَأُتَىٰ ۖ إِنَّ لِقَامِي إِلَى النَّارِ ۖ وَأَنَا مَن حَالَ مَقَامَ رَبِّي، وَهِيَ النَّفْسُ فِي النَّارِ ۖ إِنَّ لِقَامِي إِلَى النَّارِ ۖ﴾^(٢).

وقوله عز وجل ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ فِي مَقَالٍ أَمِينٍ﴾^(٣).

و﴿رَأَيْتُمُ اللَّيْلَ إِذَا تَوَلَّىٰ سَوَاحِلَ الْفُلِ ۖ فَتِلْكَ أَعْيُنُ الْمَلَائِكَةِ أُولَٰئِكَ يَقْرَءُ الْقُرْآنَ لِلْعَلَمِ ۖ﴾^(٤)

وبموضوع كثرة من الكتاب والسنة مروت على العمل المسلم خلال البحث تؤكد هذا المبدأ (التربوي) الذي له قيمة علاجية فعالة

(١) د. أحمد عزت والبيج، أصول علم النفس، ص ٢٢٧.

(٢) سورة النازعات، ٢٧ - ٤٦.

(٣) سورة الحديد، ٥١.

(٤) سورة الكهف، ٤٦.

ومع ذلك، فإن المشرع التربوي الإسلامي لم يقط - كلياً - الإنابة
تفريه لمباشرة العاجلة، ففهمها الديني مؤكداً عليه في المصوم
لأهمته في تحقيق السورن في شخصية المسلم، وفي حدود رنساطاتها
بالإنابة الكبرى، إذ يرمط الله عز وجل من المعصية وسوء أحوال لبس،
وسب انطاعة وحسن أحوالهم، لأن الله عز وجل يعلم اختلاف مسسوبات
الأفراد في فهم أنماط الإنابة، فكثير من العباد يرهذ الإنابة المباشرة وتفريه
لتطمن نفسه، ومنهم من يسمو بنفسه، فلا يهتم كثيراً بهذا النمط من الإنابة
«قصيرة»، ويتطلع إلى الإنابة الإلهية في العالم الآخر، بل إن بعض الإنابات
تفرية والمعالجة ضرورية للحياة الإنسانية مثل قوله صلى الله عليه وآله
وصحه وسلم:

«عطوا الأجير حقه قبل أن يجف عرقه»^(١) وفي رواية أخرى أن
يجف رنحه.

وعلى كل حال فإن تأكيد نمط الإنابة الدبوبة في الصنهج التربوي
الإسلامي ليس بديلاً عن الإنابة الأخروية، كما أن الإنابة الأخروية ليست
إلعاء للإنابة الدبوبة، وكلاهما يدل على واقعية الإنابة على إنباد «معص
الدبي لدى المشرع التربوي الإسلامي

ب الإنابة الدبوبة تمزير للسلوك الإيماني بفتيانا، لأن السمس تتأثر
بالشورن، ولا بد لسامد للتعلم للسلوكي في الإسلام أن مراعي هذا المبل

ود مصت تعليمات المشرع الإسلامي على دور الإنابة الدبوبة كرمط
س الإيمان الروحي، ووعرة الإنتاج والبركة في الرورق، وركاء لعمل

(١) عابنا في كتابنا النظم والتعليم في النظرية التربوية الإسلامية، الفصل السابع من نظرية المشرع
إسلامي في سالة الإنابة والشورن. وسكن القارى الكريم الرجوع إلى هذا الكتاب للاستزاده

ورفاهه، وسواء المال، وتبادل الهدايا ومعديهما لمستحقيهما، وتأكيد قيمة الذات بما تحسه من عمل، والمجد والثناء، والمطاء المادي بهذه جميعاً أنماط مختلفة لإثابة دنيوية، بعضها مادي والآخر معنوي، لكنها تنم في حياتنا الدنيوية جراء لنا على أفعالنا الحلال، وتدعيماً للطاعات، وهي من جهة أخرى موصولة بإثابة العالم الآخر لأن الإثابة في المفهوم الإسلامي لا تنحصر.

ومن المصوح القرآنية التي أكدت على صدأ الإثابة الدنيوية وأثره في تعزيز السلوك الإسلامي بأنفسنا قوله تعالى:

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ يَكُونُوا فَرَقًا لَّغَنَّا عَنْ أَكْثَرِ الْعِمَّةِ وَالْأَنْفِ﴾^(١).

ففي هذه الآية يربط القرآن الكريم بين الإيمان وبركة الأرض والسماء، ونماء المال الذي نحتاج له الأمة أو أية جماعة بشرية، وأكد على العلاقة بين الطاعة، والتقوى، ووفرة الإنتاج في المجتمع المسلم، وجاء في بعض الروايات تأكيد على هذه المسألة مثل:

«البركة في مال من أتى الزكاة، وواسى المؤمنين، وروى عن الأقرين»^(٢).

ويقول معنى آخر:

«صلوة الأرحام توكي الأعمال وتنمي الأموال»^(٣)، «صلة الرحم، ومواساة المؤمنين، يعزهما الله في شحبه المؤمنين، بإثانات مادية دنيوية مثل مركة البرق وزكاته، ووفرة الإنتاج المادي

(١) سورة الأعراف، ١٩٥

(٢) صحت المصولة، ص ١٢٠

(٣) صحت المصولة، ص ١٢٨.

كما أن نمط الإثابة الإسلامية اللذيذة يتجسد في صنف أخرى، كالهدايا وتبادلها بين أفراد المجتمع، فتؤدي إلى تنمية العلاقات السليمة بينهم. صاحب الأنس عن تبادل الهدايا تعزيز لوحدة المجتمع المسلم

بعد ورد عن النبي ﷺ (قوله): «تهادوا تحابوا»

وقوله ﷺ «الهدية على ثلاثة وجوه:

١ - هدية مكافأة.

٢ - هدية مصانعة.

٣ - هدية لله^(١)

فالهدايا بمقتضى هذا النص ثلاثة أقسام، بعضها يهدي أحباء المؤمنين هدية حباً لله وامتناناً لأمره في توطيد عرى الروابط بين المؤمنين، وهدية أخرى تصانع بها الآخرين وبجاملهم، فحسباً لمشاكلهم، وانقاء لسوء سلوكهم، وصنف ثالث يرد به جميل من كافئنا، وأعاننا في محنة الحياة، أو تقديم هدية لغيرنا ممن يستحقها تقديراً لدوره في إنجاز عمل ما يساهم في إنباء الحضاري للأمة، فالهدية مكافأة يؤكد عليها المشنخ، لندعيم لسوك لمرعوب أو تقدير عمل وتشجيع صاحبه، أو ثناء لله وشكراً لنعمه. ولشراً هذه المحاوردة بين النبي محمد ﷺ وأعرابي في مقابلة مباشرة هادئة

بعد رأى النبي أعرابياً يدعو في صلاته، ويترلف إلى الله تعالى معذرات عميقة، ومضامين عالية، لقد أثرب كلماته العويه وعاراه المنيرة في مصية النبي عليه الصلاة والسلام، وكشعت عن درجة الإيمان والكمال

(١) تحف المقل من ٢١

التي بملكها، فعين النبي شخصاً لانتظار الأعرايين حتى يفرج من صلاه،
فأني إليه. وما أن فرج الأعرايين حتى مثل بين يديه، فأهداه النبي ﷺ
قطعة من الذهب ثم سأله من أين أنت؟

قال: من بني عامر بن صعصعة

فأله النبي. هل عرفت لماذا أعطيتك الذهب؟

قال: لما بيننا من القرابة والمرحم

فقال له النبي (صلوات الله عليه وآله وصحبه) إن للمرحم حقاً، ولكن
رمت لك لحى ثاقل على الله عز وجل^(١).

وفي وصية الإمام الكاظم عليه السلام لصاحبه (هشام بن الحكم) فسر قوله
تعالى: ﴿قَدْ جَزَاءُ الْحَسَنَىٰ إِلَّا الْإِحْسَنَ﴾^(٢) بالمكافأة حيث قال الإمام:
جرت في المزمى والكافر، والبر والفاجر، من صنع إليه معروف، فعليه أن
يكافئ به^(٣)، بل إن الإمام لم يكن يبرد المكافأة وتبادلها بين المؤمنين
كنعزير بلسوك المستقيم، بل دعا إلى المماثلة في تبادل المكافأة
فقال عليه السلام:

«وليست المكافأة أن تصنع كما صنع، حتى ترى فسادك، فإذا صنعت
كما صنع، فله الفضل بالابتداء»^(٤).

وهذا يعني موضحاً تام أنه إذا صدر عن الإنسان سلوك حسن كرمي
عليه. ويسمي أن تكون المكافأة أفضل من الحفعة أو المعروف الذي فعله،

(١) محمد تقي عسلي، الطفل بين الرقابة والتربية، ج ٢، ص ٢٩٨

(٢) سورة الرحمن، ٦٠

(٣) سعد الغفوك ج ٢، ص ٢٩٢

(٤) المصدر السابق، ص ٢٩٢.

إلى قدم خدمة جليلة، كإيقاد أحد من محنة مالية مثلاً، كفاه الآخرون بأفصر مما فعل، وإن ردوا عليه محروقه بمكافأة مساوية لمعروفه، كن قصه عليهم في ابتلائه بعمل الخير قلوبهم، ومعنى ذلك أن سلوكه يجتمع به مغطان من المكافأة، إثابة دنيوية برد الناس له معروفه، وحس صبيحه بعمل مثله، وإثابة آخرويه من عند الله عز وجل.

وقد تكون الإثابة على مغط آخر مثل طمأنية النفس، رتوفها في الحصول على الرشاد والهدوء والرضا النفسي.

قال تعالى: ﴿أَلَا يَتَذَكَّرُ أَلَّا قُلُوبُهُمْ﴾^(١).

وقوله: ﴿لَهُنَّ الْخَيْرَاتُ كُلُّهَا رَحِمَهُنَّ مَنْ لَمْ يَشْكُرُوا مَالَهُنَّ زُلَّ حَنُّهُنَّ﴾^(٢).

إن الإثابة الدنيوية التي تقوي السلوك الإيماني ليست على نمط واحد، بل متنوعة الأشكال وإن لكل استجابة سلوكية سوية إثابة دنيوية مناسبة، ورغم ذلك فأساط الإثابة الدنيوية الباحثة عن إشباع بعيد عن الرغبة في التقدير الإلهي يحبط المنوبة الآخروية لأن عمل المرد حينئذ لم ينخلص من الرباء، فالإثابة الدنيوية ليست هدفاً للمؤمن وليست بدلاً عن الإثابة الإلهية بالآخرة، وإثابة الدنيوية حق ولكن لا ينبغي للمؤمن أن يجردها من القصد العبادي.

يستطيع المسالج المسلم التقدير أن يجمع بين أنماط الإثابة الدنيوية والآخروية فتتحقق الشفاء النفسي في كان المسلم، ويستثمر دمايتهما، ليحرر مرصده من الأمراض النفسية، ويرعهم للعود بالحن، ومن هنا تدر أهمية الترعيب في فصل الذات وعلاج آفاتنا باستمرار.

(١) سورة الرعد: ٢٨

(٢) سورة الأحقاف: ١٢

ويعتمد أن المسلم قد يحضر مستعبده باليوم الآخر، ويحول درس تقدم ملموس في ذاته دنيوياً إذا أعمل مدأ التدعيم، والحث عن التقدير الإلهي، وبمقدور المعالج النفسي المسلم الذي له دراية بالنفس أن يحرك قابلية التغمي لدى مرضاه، ويحذوهم من كل النفس وتور همتها، فالمؤمن تأمن في ثواب الله ملا عمل، وتحاف عقابه ولا تكف عن شهراتها

يقول الإمام علي عليه السلام

«المعجب ممن يخاف العقاب فلا يكف، ويرجو الثواب ولا يشوب»^(١).

والفرد يرجو دفع عمل ما لم يعمل، ويأس عقاب جرم قد عمله»^(٢).

وخلاصة الأمر أن التدعيم الديني الأخرى من أخرى عناصر المعالجة النفسية وأهمها تكويناً للعادة الإسلامية، فلا يمكن لفرد المسم أن يواظب على تكرار العمل المبادي ويعاني ألم تكراره لولا أن وراء كل طاعة مكافأة أو شكراً لله، أو حنية منه عز وجل، لهذا يقبل المريض كفرد مسلم على أداء السلوك الإيماني الرشيد عن طواعية وقناعة داعية تحت داعم الشكر لله أو الحنية منه عز وجل.

فإذا أراد المعالج النفسي المسلم أن يميز في شخصية المسلم سلوكاً مرضياً وحاطناً كالتكبر، ليؤسس محله أو بديلاً عنه عادة التواضع، فإنه يفرم بالعناصر التي سبق الإشارة إليها، فيبدأ بتدريب الذات على التواضع في مواقف عملية، وتتميز - في الوقت نفسه - من صفة التكبر، وهكذا في تأصيل سلوك ما مرغوب فيه واستئصال سلوك آخر مبيد.

(١) جمع القول، ص ٣٦٢.

(٢) تحفة العمول، ص ٦١٠.

وقد ناقشنا شيء من التفصيل والتوسع إلى حد ما نظريته الإنسانية والعقوبة في مصوص التشريع التربوي الإسلامي، وذلك في الفصل السابع من كتابنا «لتعلم والتعليم في النظرية التربوية الإسلامية»^(١)

{ هذا الكتاب الذي ما يزال حتى الآن دراسة غير منشورة، ونأمل أنه يبعث النور ليعيد من الفناء الكريم لي التعرف على معالم النظرية التربوية والتعليمية لدى المشرع الإسلامي

الفصل التاسع

سمات

المعالج النفسي المسلم

وقفنا في الصعوبات السابقة من دراستنا التي بين يديك - عربي القارئ - عند موقف سهج المعالجة النفسية بالأهداد من قضية علاج المريض وتعديل سلوكه الخاطئ بمعايير النظام العبادي وفيه استعرية والتربية والأخلاقية، وحذونا دوره في تقديم المعالجة، كما أشرنا به وهناك - على امتداد البحث - إلى الوظيفة التربوية المعالجة التي يقوم بها المعالج النفسي المسلم، كما أشرنا إلى نشاطك دور كل من المعالج والمريض وتفاعلهما وتداخل المسؤوليات بينهما في علاقة يريد المشرع التربوي الإسلامي أن تكون إيجابية وإنسانية

ونظراً للدور الأساسي للمعالج فإنه من الضروري أن يتعرف القارئ على نهضة المعالج المسلم، وأهم السمات التي يجب أن يتسنع بها ليؤدي مهمته على أكمل وجه، ولنتأكد على أهمية دوره في تربية نموس سرعه الاعنفادة، والإيمانية، والأخلاقية، والوجدانية، والواقع أن تحديد سمات سمعاع يعني نعبن بعض جوانب العلاقة بين المريض والمعالج سمعي المسلم

ومما لا شك فيه أن المشرع التربوي الإسلامي يؤكد في نصوصه المتبرعة على أهمية تكامل سمات شخصية المعالج النفسي المسلم، لما لها من أثر كبير في تحقيق الشفاء النفسي لمرصاه ومساعدتهم على سمعه

بكمهم ودورهم في الحياة، ويلاحظ أنه يقدر ما تسمح شخصية امعالج من سمات متكاملة أو أقرب إلى التكامل يكون مقدراً نجاح المعالجة النفسية، فإد توفرت في المعالج السمات الأساسية التي تؤكد عليها نظام المعالج الإسلامي، كانت صناديق العلاج النفسي وتنتج أكثر نجاحاً، وأكثر دى

وهذا خلاف رؤية بعض الاتجاهات العلاجية الحديثة التي ركزت على انكسار العدمية للمعالج ومؤهلاته التخصصية، وبعض السمات الإنسانية الأساسية مثل قدرة المعالج على معايشة مرضاه واحترام ذواتهم، وكذلك دور المريض واستجابته، ولا يعنيهم بعد ذلك الاستقامة الدينية أو الأخلاقية أو الشخصية.

وليس إهمال الاتجاهات الحديثة للسمات الإيمانية والروحية والأخلاقية سوى نقطة ضعف واضحة في تعامل الشخصية الأرضية - خاصة شخصية المعالج النفسي العربي - مع القيم الأخلاقية والروحية، ولا يمكن فهم سبب واضح لفشل المعالجات العربية للمرضى المعانين سوى لإهمال المتعمد من قبل أطباء النفس العربيين لدور القيم الأخلاقية والإيمانية في تحقيق الشفاء النفسي^(١) وهم ما يمتلكه من تقنيات غنية ومهنية مؤسسة على نظرة علمية.

ومن المنعذر أن تحقق مساهم العلاج النفسي الحديث تقدماً ملموساً بالتركيز فقط على التركيبة المادية للكائن الأدبي مع إهمال تركيبة المعنوية، وبخاصة ما يتعلق بالجوانب الروحية، والعتائد الإيمانية، والقيم الأخلاقية،

(١) هناك - كما ذكرنا سابقاً في الفصل الأول - اتجاه علاجي جديد ظهر في الغرب المسيحي يحاول الأخذ بالقيم المعنوية والأخلاقية وضميلها في نظام المعالجة السيكولوجية وحل المشكلات النفسية، ويقود هذا الاتجاه أرم هام ملستر يوج ولبار وفكتور ستيلكل والعالم البريطاني سيرل بيرت، ويصل هؤلاء جميعاً كافر المدرسة الإنسانية في علم النفس

بمنش هذا التحليل في فهم المعادلة للتركيب البشرية يؤثر على حركة العلاج النفسي للمرضى، ويحول دون تكامل شخصية المعالج النفسي أيضاً، ولعل هذا أحد أسباب ثورة علم النفس الإنساني على يد مجموعة من العربيين أمثال ماسلو ويونغ أدركوا من تحاربهم الطويلة في ميدان العلاج النفسي مدى الخطأ الذي وقعت فيه حركة العلاج النفسي لدى العربيين والذي تم فيه استبعاد القيم والأفكار الروحية والذمية والأخلاقية في عملية العلاج النفسي لأن هذه الأفكار والمفاهيم جزء فطري من تركيبة الكيان الإنساني

من هو المعالج؟

قد يلاحظ - القارئ الكريم - أننا استخدمنا في البحث مصطلح «المعالج النفسي المسلم»، فلماذا استخدمنا هذا المصطلح دون استخدام مصطلح «الطبيب النفسي»؟

لا يشترط علماء النفس الرضحي أن يكون المعالج النفسي طبيباً، بل أي شخص لديه معرفة أولية بعلوم التربية، والخدمة الاجتماعية، وعلم النفس الإرشادي، خاصة علم النفس المرضي، وفي العلاج النفسي التخصصي، ولكن لا يمنع أبداً أن يكون المعالج النفسي طبيباً تتوفر عنده إلمامات نظرية وتطبيقية بالعلوم المذكورة تؤهله لممارسة العلاج النفسي.

بالتخصيص في الطب النفسي يتطلب أولاً دراسة الطب، غير أنه لا يشترط أن يكون المعالج النفسي قد درس الطب، وعلى أساس ذلك فإن «المعالج النفسي» لا يمكنه الفحص الطبي للمرضى لأن ممارسته للتطبيق النفسي تستدعي قيامه باستخدام العلاجات الطبية كالعقاقير واستخدام الأدوية الكيميائية والصناعات الكهربائية.

يبد أن الطبيب يمكنه القيام بدور المعالج النفسي إذا تلقى تدريباً مناسباً

في نوع معين من العلاج النفسي، وهذا لا يعني أن المعالجات النفسية أقل كفاءة من الطبيب النفسي، لأن ذلك يتعلق بمهارة كل منهما في ميدان العلاج النفسي، والسمات الشخصية لكل منهما وقدرتهما في التأثير ابعاد الجانب الإنساني

ولأطباء النفسانيون بالمعنى السابق ليسوا كثرة، بل هم قلّة، وينظرون عليهم المعنى الواسع للعلاج النفسي، لذلك احتسبوا استخدام مصطلح لمعالج نفسي بدلاً من مصطلح الطبيب النفسي، كما أن المؤهلات التي اقترحها علم النفس الوضعي للمعالج يمكن أن تتوفر في فئات أخرى كالطبيب، أو العالم، المربي الأخلاقي، أو المرشد النفسي أو الأخصائي الاجتماعي أو الحكيم الناصح، أو المعلم، باستثناء توفر الكفاءة التخصصية في العلاج النفسي (أي الخبرة الطبية التخصصية بالطبيب النفسي)

ويمكن أن تكون بعض هذه الفئات مؤهلة تخصصياً لممارسة العلاج إذا توفرت تدريباً تطبيقياً في هذا المجال، فمن الممكن أن يكون المرشد لأخلاقي - مثلاً - مؤهلاً للقيام بالمعالجة النفسية الفاعلة لشعر سماته الشخصية المطلوبة في هذا العمل، ولتقواه بالنفس ومعرفة أحوالها وامتناعه أساليب علاجية، كجزء من تخصصه الفني

وسطراً لاتساع مدلوله المعالجات وضيق مفهوم الطبيب أثرها استعمال المصطلح الأول على الأخير، ورغم أنه لا مانع أن يكون الطبيب معانجاً، فلفظ (المعالج) تشمل فئات أخرى مما فيها الأطباء، لكن مصطلح (الطبيب) لا يطبق إلا على فئة واحدة ومؤهله علمياً وقادرة على استخدام الأجهزة ومعالجات الطبية، وهي فئة (الأطباء)، لهذا كان استعمال لفظ (المعالج) أوسع وأشمل لعدد كبير من المرشدين النفسيين، والمصلحين، والحكماء،

وفقهاء الشرع، وكافة العربيين، والأخصائيين والعاملين بالخدمات، لاجتماعية والإرشادية والأخلاقية.

وسمعة بعض النصوص التربوية الإسلامية نجد أنها تستخدم تعبيرات مترادفة، فمرة نستخدم معالج نفسي، ونصوص أخرى نستخدم كلمات (طبيب أو معلم أو مؤدب أو ماصح)، وكلها تعني في واقع الأمر معالجة الإنسان نفسه ذاتياً أو تحت إشراف مرشد حكيم.

ولم نلاحظ هذه النصوص ضرورة انتماء الحكيم إلى فئة الأطباء، ولم تؤكد كذلك على أهمية انتماء الفقهاء، والعربيين، وعلماء الأخلاق وغيرهم من العاملين في هذا الميدان إلى فئة الأطباء بمعناها المتداول، ولكنها أكدت هذه النصوص على التوجه العقائدي الإيماني لشخصية هذا المرشد، فالمرشد أو المعالج مسلم قبل كل شيء، في عقائده الدينية الإيمانية، غير أن ذلك لا يعني حلو شخصيته من المهارات العلمية، والمؤهلات العلمية المتخصصة التي تؤهله للمعالجة النفسية، مثل خبرته بالنفس، وتربيته لنفسه، وكفاءته المتخصصة في العلاج، ودرايته بأساليبها التطبيقية ويطرائقها المختلفة.

وليس التالي يؤكد هذا المعنى، قال الإمام الصادق عليه السلام:

«إنك قد جعلت طبيب نفسك، وبين لك الدواء، وهرمت آية الصحة، ودلت على الدواء، فانظر كيف قيامك على نفسك»^(١)

ويعتقضي هذا النص الشريف يمكن أن يكون المعالج طبيباً، أو فقيهاً أو عالماً أخلاقياً، أو مربيّاً حكماً، أو مرشداً نفسياً أو معلماً أو ماصحاً أو

إنساناً آخر تتوفر فيه شروط القيام بأداء هذه المهمة العلاجية، باعتبار أن المشرع الإسلامي لا يطلب بترسة النفس ومعالجة أفاقها لغة دون أخرى، ولا بطلب أن يكون المعالج النفسي فقيهاً أو طبيباً دون غيرهما، فمقاعدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلّا قاعده سلوكية إسلامية عامة شمله لمعالجته أمراض النفس ومشكلات المجتمع، وتنظيم السلوك، ومدرسة التصح، والنقد الاجتماعي، والسياسي، والأخلاقي، فالمؤمنون والمؤمنات أولياء بعضهم، يتواصون بالحق، والمعروف والنهي، والناسح والإحلاص في التشاور بينهم

ويجب للمؤمن على المؤمن النصيحة له في المشهد والمخيب^(١) كما جاء عن الإمام الصادق عليه السلام .

ونمط المعالجة النفسية التي يتبعها الفرد المسلم، تكون إما بتعلم ديني كما هو صرح النص السابق للذكر الوارد عن الإمام الصادق عليه السلام، أو بملازمة مرشد نفسي أو معالج، أو أخصائي اجتماعي مسلم أو فقيه مجتهد أو عالم أخلاقي سواء تم ذلك في شكل استشارة أو مصيعة أو جلسات علاجية منظمة فردية كانت أو حوارية جماعية أو مصيعة أخرى من صيغ العلاج النفسي، المألوفة القادرة على تحقيق نتائج فعالة تثبت تحسناً ملحوظاً في حالة المريض

أنواع العلاج السلوكي^(٢)

ويمكن في ضوء ذلك الحديث عن نوعين من العلاج النفسي لتعديل سلوك الإنسان المؤمن وتوجيه اتجاهاته في مسارات عادية صحيحة مستفاه

(١) ميراث الحكمة ج ١، ص ٥٥

(٢) سوف يبحث هذا التضييعات الطبية المتفاوتة في فواصل علمه العلاج النفسي، وسيركز على قسم عام يعرف به ديباً وعلمياً، ويصح بغير أنواع من العلاجات السيكولوجية عنه.

من أفكار ومبادئ وقيم وأهداف القرآن والسنة النبوية الشريفة، وهذا الملاحظ مما -

١ - علاج يقوم به الفرد بنفسه، معتمداً على إمكانياته وطاقاته الذاتية، وحرارة انشغاله في تعديل سلوكه الخاطئ

٢ - ومطأ آخر من العلاج النفسي يتطلب ملازمة معالج أو مرشد نفسي كفء يملك مؤهلات وفتيات علاجية تخصصية

الأول: العلاج النفسي الذاتي:

تقوم فكرة العلاج الذاتي في المنهج التربوي الإسلامي على أساس إمكانية وقدرته الفرد على مساعدة نفسه في تعديل سلوكه ومحو عاداته الخاطئة وتغيير أفكاره ومشاعره الذاتية المصاحبة عن نفسه دون الحاجة إلى وجود معالج نفسي متخصص يلجأ إليه لمساعدته في جلسات منظمة، حيث يمارس الفرد المسلم عملية معالجة نفسه بنفسه استجابة لرأي المشرع التربوي الإسلامي، ويسعى إلى تعديل نظراته وسلوكه وتغيير أساليبه غير التوافقية مع مثيرات الحياة، ويستبدل اتجاهاته الخاطئة بأنماط من المعايير والأراء والقيم والمضائل والاستجابة التوافقية الإسلامية المرنطة بأهداف عبادة سرية، وذلك بجهد ذاتي محض، وقد ينطلق الأمر أحياناً لاستعادة المؤقت شخص آخر من خلال طلب مساعدة من شخصية ذات خبرة علمية أو استشارية خبرته باستشارته في مسألة ما.

ومن هنا لا يقصد من ذاتة المعالجة أن الفرد المسلم لا يعلم العادات الحسنة من غيره، ولا يعمل على تعديل سلوكه معزول عن جهد لأحرس، فما دام هذا الفرد يعيش في وسط محيط يتم فيه ظاهرة التأثير المتبادل بينه وبين أفراد المحيط، فإن أثر انتقال هذا التعلم أمر لا مخصص

عنه ، لا بد منه ، لكن دانية العلاج محي أن لا يلازم المريض في كل الأحوال والحالات معالجا أو طبيياً نفسياً أو مرساً أخلاقياً على وجه خاص كما يحدث الآن في العيادات النفسية ، إذ يضطر بعض المرضى إلى الانتظام والتعب بأسظمة العلاج النفسي تحت إشراف طبيب أو ملازمة مجموعة من الأخصائيين في هذا المجال وضمن جلسات منظمة ومألوفة في هذه العيادات ، وتستغرق فترة طويلة وتكلف أموالاً باهظة فترهن المريض

وليس فكرة العلاج الذاتي الإسلامي تعارض الالتجاء إلى معالجات نفسي آخر لتغيير أنماط السلوك غير التوافقية ، وكل ما في الأمر أن العلاج الذاتي لا يرى - دائماً - حاجة الفرد للالتجاء المستمر للمعالج الأجنبي حالات مادرة تتطلب جهداً خاصاً يقوم به أخصائي نفسي أو مرشد مسلم له دراية بفن العلاج النفسي ، كالذي يحدث - عادة - عندما يواجه الفرد المسلم حالات نفسية صعبة ومعقدة مثل الاكتئاب وحالات القويما الشديدة

فالعلاج الذاتي المستمر هو الأسلوب العام للشخصية المسلمة في حركتها العلاجية اليومية ، بل إن المشرع الشرعي الإسلامي كان يطالب دائماً بتوسيع دائرة هذا النمط لمعالجة الحالات ، خاصة الجمعية القائمة للتعبين ، وهي مشكلات تواجه الإنسان المسلم يومياً ، وهذا النوع من العلاج يستخدم في أوساط عائلية الناس وبالذات بين أفراد الجماعة المؤمنة .

إن العلاج الذاتي المستمر محاولة لتطوير الذات وصيغتها من خلال جهد فكري خاص يملكه المريض دون حاجة إلى الانصياف المعظم والعصور إلى للعيادات النفسية أو ملازمة معالجات نفسي في أوقات علاحة محددة ، وتطلب هذا النوع من المعالجة السلوكية الإسلامية تمييزاً في نمط لملاقة بين المريض والمعالج خلافاً لمنهج التحليل النفسي الذي يعطي المريض دوراً سلبياً ، ويركز على الجهد الإيجابي في سلوك المعالجات

عبر أن الإسلام يستهدف من خلال تعمم هذا النوع من المعالجة إعطاء للمريض دوراً إيجابياً أكبر في نفسه، باعتباره أنه مكلف مسؤول عن أعماله، يمكنه أداء هذا الدور من خلال عملية المجاهدة النفسية التي توضحصوص الترميز الإسلامي أهميتها في الوقاية والعلاج في آن واحد.

فالمريض على أساس هذه النظرة يقوم بأكثر من دور في عملية العلاج، إنه الذي يعدّ أمراضه في حدود خبرته به، وهو الذي يحاول أن يفسر بواحد سلوكه، ويتعرف على الحاطط منها، ثم يوجه فيما بعد نفسه نحو السلوك المبادي الإسلامي، ولا شك أن الصوص التربوية الإسلامية تقدم له فهماً إرشادياً يعينه على إنجاز هذه المهمة، وهذه الصوص ممتدة في أحشاء المسيح ومصادره المعرفية والتطبيقية (القرآن والسنة) واجتهادات علماء النفس الأخلاقي المسلمين، ومقدار وعي الفرد بهذه الصوص تكون نتائج عملية العلاج بأسلوب التعلم الذاتي

إن المنهج الترميزي الإسلامي يحرص من خلال هذا الأسلوب على التأكيد على قدرة الفرد المسلم في عملية توجيه نفسه به، فله الدور الأساسي في عملية المعالجة النفسية، وتغيير أنماط السلوك الحاطط لديه، وهذا يشبه إلى حد كبير ما يسميه بعض علماء النفس الترميزي والمرصفي نظرية (التعلم الذاتي) عند الملوكتين

إن أسلوب العلاج الذاتي بمعناه الإسلامي النقي يركز على فكرة جوهرية هي فهم النفس البشرية، ومعرفة خصائص القلب وأسرارها وحداياها، ولا مانع لدى الفرد المسلم أن يحشد كافة الوسائل لعهم دة، ثم المبادرة السريعة لتغييرها، وسواء كانت هذه الوسائل علمية مادية مستعملة

من جهد علماء النفس الإنساني أو إسلامية بقية، فإن العهم، ولتفسير، والوجه، والتعديل الذي يقوم به المرمض إنما يعبر عن تعلم ذاتي مستمر، وهو يؤكد على توظيف قدرات الفرد في إعادة صوغ ظروف التكيف الجديدة التي تنشئ مع وجهة النظر الإسلامية، ويعني هذا أن الملاح لذاتي يس كياً، وليس مستجابة عمياء يعبر بها الإنسان المسلم عن طريقة تفاعله مع لتعبيرات البيئة بشكل آلي، وإنما هو تعبير عن القاعبة الواهية لتي يملكها المسلم، وهو كذلك تعبير عن حركة إرادة حتى لو كان - هذا لغرد - يعني من بعض الأمراض الروحية، وهي كذلك تجسد لعالية وعي وإرادته معاً مع الأحداث المستجلة.

ومع أن سط المعالجة المدائية ليست عملاً سلوكياً آلياً، فإنها من وجهة النظر التربوية الإسلامية تعبر عن مهم الإنسان للشروط الضرورية لتغيير شخصيته، فإذا سعى الإنسان لتعلم ذاتي جديد، فإن هذا التعلم لا يتم بدون علم صحيح بقوانين تكرين السلوك السوي ونحوه، ودون فهم للشروط لتعلم السوي

إن أسلوب الملاح الذاتي يؤكد على أهمية معرفة الشروط الملائمة ولقوانين التي تساعد على تغيير السلوك، فإذا عرف المرمض المسم المتغيرات، والشروط التي تحكم أفعاله، ووضع نفسه فيها، أعطته تلك القدرة على تعديل أنماط السلوك السيئة بأنماط من السلوك المعادي الحسن ومن هنا فإن فهم الذات، وملاحظتها، ومراقبتها، وضبطها، ومعرفة اصدد لسلوك فيها تمثل جزءاً من هذه الشروط، ولذلك حرص المهج لإسلامي على معرفة المشكلة السلوكية أولاً، ثم تقدير ماعلمتها في العصر ثامة وأثارها في السلوك الإنساني، ثم وضع الذات في المواقف العملية التي تحرره من العلق العصائبي المباحم عن المشكلة وتحفیف حساسيتها الروحانية والأخلاقية، فإذا كان المرمض مثلاً يعاني من خوف، فمعرفة الحرف

لدي يعني منه هو أول الطريق، حيث يقوم الفرد بتشخيص مرضه نفسه، ثم المواجهة الفعلية المباشرة مع المرض بملوك مصاد والموقع في مواقف تدريبية تعينه على تجاوز مخاوفه، إنهما شرطان لصحان نجاح هذه الحالة المرضية

يقول الإمام علي عليه السلام «إذا هبت أمراً وقع فيه، فإن شدة توقيه أعظم من الوقوع فيه»^(١).

ويقول في نصين متتاليين

«إذا صعبت عليك نفسك فاصعب لها نذل لك»^(٢)

«إذا خفت صعوبة أمر، فاصعب له - أي كن قوياً عليه - بلن لك»^(٣).

يعني ذلك أن يكون الموقف الصعب سهلاً بين يدي الفرد وقادراً عليه، ويريد الإمام علي عليه السلام في نصوصه التربوية السابقة أن يقوى الإنسان من داخله نفسياً ودعنياً وأخلاقياً وجسدياً، ويشد على كل صعوبة - أي يقوى الفرد على مشكلته فيجعل من الموقف الصعب الذي يواجهه سهلاً، ونحت تصرفه، وسبباً في بناء إرادة قوية

وهذا معناه أن المصوص المتقدمة استهدفت صناعة القوة النفسية والعقلية لدى الفرد المؤمن، وتربية الإرادة في ذاته ضد مواجهة لمواقف الصعته سواء كانت مواقف شخصية أو اجتماعية، لأن المؤمن القوي خبر عهد لله من المؤمن الضعيف كما جاء في الحديث النبوي الشريف، وهو أيضاً حر من المؤمن الضعيف عد الناس أيضاً.

(١) معج البلاغة ج ٤، ص ٤٢.

(٢) غرر الحكم ودرر الكلم، ج ١، ص ٢٨٢.

(٣) غرر الحكم ودرر الكلم، ج ١، ص ٢٨٢ - ٢٨٣.

ومع أن التفتين التربويين السابقين (الثاني والثالث) لم يتحدثا عن نوع القوة التي يمكن الفرد من مواجهة الموقف الصعب والتغلب عليه إلا أنه نزل للعقد المؤمن - احتار بناء نوع القوة المطلوبة والماسية واستحداثها لمواجهة الصعوبة أو التحديات، فالإنسان لحظة المواجهة أدرى بطبيعة الموقف وسوع القوة المناسبة للتغلب عليه وتطويره، هل هي عسكرية أو عقلية أو روحية أو اجتماعية أو قوة أخرى . المهم أن يجعل الإنسان المؤمن من الموقف أو التحدي الصعب موقعاً إيجابياً، فالعلاقة بين إرادة الإنسان والموقف الصعب قد تبدو متعاكسة في بادئ الأمر، لكن العقل البشري إذ استخدم طريقة الأصداد في معالجة المشكلات وحلها، تمكن من جعل الشدائد والمواقف الصعاب عنصر انسجام بين الإرادة والحياء.

وإذا كان علم النفس الوضعي يقترح مثلاً ملاحظة الذات بتسجيل الفرد في كراسة خاصة لمختلف الاستجابات المصاحبة أو أنماط السلوك المرضي، كأن يعرف مثلاً عدد المرات التي يرغب فيها بابتدخين، أو تقليد أظافره، أو ممارسة الاعتداء على الآخرين، فإن المعالجة السلوكية الإسلامية لا ترفض ملاحظة الذات وإحصاء عيوبها في الأدب، والأخلاق، والممارسات، ولوساس والظنون.

ولقرأ النصوص التالية:

قال الإمام علي عليه السلام: «واعلى العاقل أن يحصي على نفسه عيوبها في لدب، ولتراي والأخلاق، والأدب، فيجمع ذلك في صدره أو في كتاب، ويعمل على إزالتها»^(١).

(١) العمل بين الورثة وطريقه ج ٢ - ص ١٢٤. وكذلك كتاب غرر الحكم ودور الكلام، ج ٢، ص ٢٩.

وقال أيضاً في نص آخر: «من حاسب نفسه، وقف على عيوبه، واحاط بدبره، واستقال الذنوب وأصلح الميوز»^(١).

وقال في آخر: «إنك قد جعلت طبيب نفسك، ومس لك الدواء، وعرفت اية الصحة، ودلت على الدواء، فانظر كيف قيامك على نفسك»^(٢).

وفي نص نقله ابن شعبة الحراني في كتابه (تحف العقول عن آل الرسول) يقول فيه الإمام الحسين عليه السلام: «من دلل العالم انتفاذه لحديثه وعلمه بفنون حقائق النظر»^(٣).

وفي نص آخر: «كبروا نقاد الكلام»^(٤).

وجاء في الحديث الشريف: «رحم الله امرأً أهدي إلي عيوبه»^(٥).

وأيضاً قوله عليه السلام: «أحب أخواني من أهدي إلي عيوبه»^(٦).

بلا حظ أن النصوص السابقة أوضحت الحقائق التالية.

أ - جعلت عملية الإحصاء أسلوباً للتركيز على عيوب وأخطاء السلوك في الدين والتفكير والأخلاق والأدب الشخصي أو السلوك الاجتماعي، أي موجهة لفضايا حساسة في الحياة، فالنصوص المذكورة تطالب بتحديد دقيق للأخطاء، وكأنها تأمر الفرد المسلم بتعيين وتحديد مشكلته لتكون نقطة البدء في عملية العلاج النفسي الذاتي

(١) المصدر السابق، ص ٤٣٤.

(٢) المصدر السابق، ص ٤٣٤.

(٣) تحف العقول، ص ١٧٨.

(٤) مرآة الحكماء، ج ٦، ص ١٨٥.

(٥) مصنف العقول، ص ٢٧٠.

(٦) مصنف العقول، ص ٤١.

كما أن عملية الإحصاء ذاتها نوع من الملاحظة المقصودة بسلوك لحاطي، وبالتالي أتاح النص الشريف للمرد المسلم مواجهة المشكلة بطريقة صحيحة تعتمد الرصد والتصنيف وتحديد الأولويات، والبدء بعمله لمعالجة أو تعديل السلوك بناء على ملاحظة دقيقة للمشكلة ورصدها في الواقع بلا مسالمة أو تهوين . وهذه خطوة منهجية عامة يدعو المشرع الإسلامي إلى استخدامها في علاج المشكلات سواء كانت في ميدان العلاج النفسي أو ميدان آخر

ب - إن من يقوم بعملية الإحصاء كما يصوره أحد المصرّصين السابقة هو شخص يمتلك القدرة الفعالة على التفكير السليم، ويملك إرادة هادئة لإصلاح لميوب أو استقالة الذنوب وإزالتها، وهي إرادة موصولة بهدف تعبري كبير لا يستهدف إصلاح الذات والمجتمع فحسب، وإنما إرضاء الله تعالى، وبالتالي تكون عملية الملاحظة والرصد والمتابعة مزدوجة تستهدف البعدين الأسامي من عملية العلاج النفسي . البعد الأفقي الذي يتم فيه تحقيق قدر من التوافق النفسي واستعادة التوازن النفسي والاجتماعي معاً لدى الذات، والبعد الآخر هو البعد الرأسي أو العمودي الذي يحقق للفرد بحسب علاقة مباشرة مع الله عز وجل فيؤدي ذلك إلى تكوين إحساس لديه بالرب الإلهي، والافتراق من معايير المبادئ المنصوص عليها في دينه الصرر على الصاد

ج - إن الأداة التي تستخدم في عملية الإحصاء للميوب التي يعوم بها المرء المسلم عن نفسه أداة تمتاز بالمرونة، فممكن للإنسان المسلم تسجيل ملاحظاته في عقله أو ذاكرته أو حافظته إذا كانت قوية يثق بها في الاحتفاظ بها إحصاء من عيوب أو أخطاء، ويمكنه كذلك أن يسجل هذه الأخطاء في كتاب (كراسة مثلاً أو مفكرة أو ملف أو سجل معلومات أو أداة أخرى

نحفظ له الأخطاء المسجلة كتدوينها في ملف خاص محفوظ بجهاز لحاسب الآلي المموه اليوم في أغلب بيوتنا).

وتسج هذه الأداة للفرد المسلم في عملية أشبه بعملية التعديب الراحمة حذف عيوب أخصاها المسلم عن نفسه في المرة الأولى، وإضافة عيوب أخرى لم يتمكن من إحصائها من قبل، ومعرفة ما أصلح منها وما لم يصلح بعد.

فيقوم بعد ذلك - في خطوة تالية - يقوم بعملية تصيب لهذه الأخطاء والعيوب، ثم يبدأ - في خطوة ثالثة - بإزالة كل عيب أو خطأ بحسب قوته أو ضعفه، ويهتم في الوقت نفسه بمتابعة العيوب أولاً بأول حتى لا تقوى ثم ترسخ وتثبت في حركة الذات، فيصعب - فيما بعد - إزالتها، واستبدالها.

د - أن لا تكون حركة الذات في عملية الإحصاء عشوائية عبر مضبطة بمنهج قويم يمكن الفرد من التمييز بين الصحيح والفاقد في الرأي والسلوك والمشاعر، ولهذا قال أحد النصوص المسافة الذكر بما معناه أن الله عز وجل قد جعل الإنسان طبيباً لنفسه وبين له الدلائل وعمره بأية الصحة ودله على الدواء، ثم طلب الله منه أن يكون قائماً على نفسه بالإصلاح والمتابعة والتفكير. وهذا جوهر المسؤولية الشخصية في التشريع الربوي الإسلامي، وفي عملية المعالجة النفسية سواء كانت ذاتية أو مسترشدة بمجهد معالج نفسي وتوجيهاته وأساليبه.

ثم إن المشرع الربوي الإسلامي ترك للإنسان المسلم بعد ذلك حرية الصغر يشعر بلذة العمل وحلاوته، فتحسن بعد نجاحه لذة التفوق وتحقيق لذات ويدوي طعم الطمأنينة، وفي الوقت نفسه يحيطه بالمسؤولية، وأمانه

التكاليف الشرعي حين يواجه صعوبات الحياة، فشبب المطبخ وبعاف
المسيء وفي هذا كله نحقق المرد لذاته، واستخدام صحيح لغويين
صط السلوك وتوجيهه.

د - بعد استجلاء الحقائق الأربع التي تصممها النصوص الشريعة
السابقة، يمكن توضيح حقيقة خامسة كما يلي.

لقد بطوت النصوص الإسلامية المذكورة على مكونات ثلاث نعتبر
في نظر العلماء مكونات أساسية للمعلم سوله كاد علماً طبيعياً أو إنسانياً
وهي

- الموضوع.

- المنهج.

- الهدف.

أولاً. موضوع المعلم:

حددت النصوص المذكورة موضوعاً للبحث هو (عيوب الذات) في
مجالات أربعة شملت أخطاء الإنسان ومشكلاته في المعرفة الاجتماعية
والمعرفة الحية الطبيعية وهي:

أ - عيوب الذات في دائرة السلوك الديني وما يتصل به من عقائد
إيمانية ومسائل إلهية وسلوك أخلاقي

ب - عيوب الذات المتوقعة في مجال الرأي (كأخطاء التفكير)، وهذا
سطق على المعرفة الاجتماعية والمعرفة الطبيعية القائمة على البحث
التحريبي

ج - عيوب الذات الإنسانية في مجال السلوك الأخلاقي كالعبية
والعجمة والمعلم والرياء والتكبر وغيرها.

د - أخطاء الذوات وعيوبها ومساوئها في مجال الأدب وسره المعامل
الاجتماعي مع الآخرين كسوء التكيف مع الأولاد والتلاميذ والأصدقاء،
والمعروف، وصعوبات تكوين علاقات سوية مع الغير سواء كانت شخصية أو
في مواقع العمل أو موقع آخر
ثانياً المنهج أو طريقة العمل :

المكون الثاني للمعلم الذي حددته النصوص السابقة هو منهج العمل أو
طريقة تجميع عيوب الذات وتصحيحها، وقد اختارت النصوص هنا الطريقة
الإحصائية كأداة لجمع مساوئ الذات وجمعها في الذاكرة الإنسانية إذ كانت
قوية أو في كتاب، وهو إشارة إلى استخدام سجل أو ملف أو أية أداة يمكن
للفرد المسجم الاحتفاظ بمعلوماته عن عيوب ذاته والرجوع إليها حين الحاجة .

كما أن النصوص الإسلامية المذكورة دعت إلى إزالة العيوب . وهذا
لها حد ذاته يحتاج إلى طريقة عمل محددة لإزالته، بيد أن النصوص
التربوية السابقة تركت للفرد حرية اختيار طريقة تعبير العادات السيئة وإزالة
العيوب

ثالثاً : الهدف .

كما يلاحظ القارئ الكريم فإن النصوص الإسلامية عيشت للإنسان
العائل - خاصة للمسلم - هدفاً رئيسياً واضحاً ينبغي أن يركز عليه الجهد من
قبل المسلم سواء كان معالماً أو مريضاً وهو إزالة « عيوب الذات » وتعديل
سلوكها في المجالات الأربع السابقة



ومما لا ريب فيه أن فكرة محاسبة النفس، وممارسة النقد الذاتي هما
من مظاهر ما سميها علم النفس الوصفي بملاحظة الذات، وهما على كل

حال حفظ من أنماط عملية التعلم المستمر، وأسلوبان من أساليب العلاج النفسي الديني، وقد أوصى المشرع التربوي الإسلامي في تعامله الإرشادية بعملية التعلم الذاتي القائم من خلال مراجعة النفس وفقد سلوكها، ونشاطها، بالأدعية، والحوار الجمعي ويقظة الضمير والوجدان والأخلاق، وسعيها، والاستعداد، وقبول نصائح الآخرين المؤسسين للثقافة، وكل الأساليب المبادية التي تحقق تعديلًا سويًا في سلوك الشخصية الإنسانية، لتحقيق بذلك أهداف المشرع العبادية والتربوية.

ومن مرامي عملية التعلم العلاجي المستمر احتفاظ الفرد المسلم بكثير من المعلومات السرية، خاصة ما يمس منها جانب المعافاة، والشر، فلا أحد من الناس يمكنه معرفتها والإطلاع عليها، وحتى مع اعتراض حاجة المسلم إلى استشارة غيره من إخوانه المؤمنين النفاذ في بحث مشكلة تخصه، فإنه قادر على عرضها، ومناقشتها دون ضرورة ذكر أسماء الأشخاص الذين تصيهم المعاناة، أو الذين نرد أسماءهم هي أثناء عملية العلاج.

ومن هنا يدرك أهمية عملية التعلم الذاتي في المنهج العلاجي الإسلامي خاصة محاسبة الذات في الحلوة مع الله سبحانه وتعالى، حيث تعتبر طريقة ملاحظة الذات خلال خلوتها هامة لحمايتها من دس السائم وقلق الدنوب التي يوسوس بها الشيطان في قلوب العباد، بل إن النص الترموي الإسلامي يجعل النقد الذاتي كأحد مظاهر التعلم الذاتي في برامج علاج سلوكية أو برامج معرفية، يقول الإمام علي عليه السلام: «اتقوا معاصي الله في خلوتكم فإن الشاهد هو الحاكم»^(١).

ثانياً: ملازمة المعالج النفسي المسلم:

إن العلاج الذاتي للمشخص المسلم تجربة تربوية دافعة لمن يملك قدرات طبيعية سواء كانت قدرات متوسطة أو عالية كالذكاء مثلاً، والمرونة، والتكيف، والصبر والاحتمال، حيث يستطيع الفرد المسلم في بيئته الأمر أن يحقق مصححاً وتوازناً داخلياً بين عناصر شخصيته، لكن البعض من الأفراد ليس من الصنف الذي يقدر على خوض عملية المعالجة بذاته، معتمداً على نفسه في كثير من جوانب المواجهة والمجاهدة، فإذ تعرضت شخصيته لبعض المعالجات أو مشكلات نفسية تؤرقه، لجأ إلى المعالجين، وإلى أطباء لهم دراية وحقق سراديب النفس، ومن هنا يركز منهج المعالجة النفسية بالأضداد على أهمية توعف هذا المعالج، وضرورة ملازمة الفرد المسلم لمعالج كفاء وثقة يعبه في التغلب على مشكلاته.

والنصوص الدالة على ضرورة توفر معالج مسلم ثقة كثيرة جداً، نذكر عدداً قليلاً منها، لأن ما بهننا هو التأكيد على إسلامية الفكرة لا كثرة النص، قال الله تعالى على لسان الأنبياء

﴿أهدكم رسالات ربي وأنصح لكم﴾^(١).

وعن الإمام علي عليه السلام يقول: «ليكن أحب الناس إليك المشفق له صبحاً»^(٢).

وقوله أيضاً «لا خير في قوم ليسوا بأصحاء، ولا يحسنوا بالصالحين»^(٣).

(١) سورة الأعراف، ٦٦، ٦٨.

(٢) سيرت النكبة ج ١ ص ٦٠.

(٣) المصدر السابق، ص ٦٦.

وقول الإمام السجاد عليه السلام: «هالك من ليس له حكيم يرشده»^(١)

وعن أبي عبد الله الإمام الصادق عليه السلام: «يجب للمؤمن على المؤمن النصيحة له في المشهد والمغيب»^(٢).

أما الإمام الهادي عليه السلام فقال: «من جمع لك وده ورأبه فاجمع له طاعتك»^(٣).

وسهج المعالجة النفسية بالأصدقاء لا ينهاون أبداً في أن يكون المعالج مسلماً موثقاً في فكره وسلوكه الشخصي ويتخذ الساس خاصة مرضاه كقدوة حسنة، وهنا تأتي في هذا المقام مفارقة أساسية بين منهج الأصدقاء الإسلامي وبين بعض مباحث العلاج النفسي الحديث كمنهج التحليل النفسي مثلاً، فالأخير لا يشترط أن يكون المعالج مريباً يتمتع بالفضيلة الأخلاقية، فقد قلل الفرويديون من قيمة الأخلاق ودفعوها في راية السيان، وإن لم تعرف مدرسة العلاج النفسي الواقعي بقيادة جلاسر المسألة لأخلاقية فسجلت لهذه المدرسة واقعيتهما في فهم السلوك البشري والتعامل الصحيح مع السلوك المرضي بالذات.

ولهذا كان سهج التحليل يشترط توفر الثقافة الواسعة، والكفاءة المهنية المتخصصة في فن المعالجة، ودراية المعالج بأسرار الأمراض النفسية ودراهمها وحمايلها وطرق معالجتها، ومن خلال وجهة نظر مادية تنظر للإنسان من خلال حيوانيه، أما سهج المعالجة بالأصدقاء فلا يسلم مرضاه لمعالج لا يستطيع أن يعلم هؤلاء المرضى سلوكه الأخلاقي الربيع،

(١) الشريعة الإسلامية ص ٩-١٠

(٢) ميراث الحكمة ج ١ ص ٥٥.

(٣) سعد المعزني ص ٣٥٨.

والتفكير، والثقة، والمقدرة العلمية، والكفاءة التخصصية، والسمات الشخصية التي يؤكد عليها منهج المشرع التربوي الإسلامي هي صفات أساسية تامة تلامس شخصية المعالج المسلم، ولذلك لم نتحج في كثير من الحالات بمرامح المعالجة والثقة النفسي كما يؤكد ذلك علماء النفس الغربيون أنفسهم مثل عالم النفس السويسري أيزنك^(١) وآخرون أدركوا صحة العلاج النفسي ومازقه في بلادهم.

والمعالج الثقة الذي يؤكد عليه المنهج التربوي والعلاجي الإسلامي أقدر على التعبير اتجاهات مرضاه دون الوقوع في محرمات دينية لا يورع عنها بعض رجال منهج التحليل النفسي الغربيين، بطريقة التفرغ الانفعالي التي يتبعها رجال التحليل النفسي الفرويدي قد تضطر بعض المرضى إلى الدخول في سلبات محرمة أو ردائل أخلاقية ينهي عنها منهج الله عز وجل، لهذه الطريقة تسمح للمريض باستخراج خبراته اللاشعورية المكبوتة دون قيود، وتتاح له فرصة استعادة وتذكر كل شيء حتى لو كان مسخياً ودليلاً دون النظر لأية اعتبارات دينية أو أخلاقية.

ومن الممكن هنا أن يتعدى المريض على أسرار الآخرين وإنشاء ما يتكتمون عليه، فمصح الترميم الانفعالي للشحنات المكبوتة عند فرويد لا يشترط مراعاة المرضى لمقدمات الآخرين وأعراضهم ولا يحرص على حفظ حقوق الناس، بل العكس من ذلك يحدث التحليل النفسي مرض، على قول كس ما يضطر بالبال حتى لو كان تافهاً أو خاصاً بأسرار الناس، فاعتبات انعير، واستهان عليهم أحياناً، والإساءة لهم أمر لا عار عليه إذا قصت مصلحة المريض ذلك، لأن المعالج النفسي الفرويدي لا يعبر لقيم الأخلاقية ورتاً أو اعتباراً.

(١) انظر كتاب علم النفس بين الحقيقة والرمز، الفصل الأول

ولهذا قد يمكن من تخليص مرضاه من بعض الحالات السيكولوجية المرضية تحليصاً مؤقتاً لكنه في الوقت ذاته يصيب لهم عيوباً أخرى يسمح لفنوف مرضاه أن تنهياً لحالات مرضيه أخرى تكون بحاجة أيضاً إلى معالجه أخرى، فالمحطل النفسي الغربي يتعلم منه مرضاه تجاورات أخلاقية يرفضها المعاليج النفسي المسلم

ومع ذلك فإن بعض مناهج العلاج النفسي الغربي بدأت تنتج نحو الإفادة من القيم والفصائل الأخلاقية كما ملحظ ذلك من جهود علماء النفس الإنساني خاصة دعاة المذهب النفسي الديني أمثال بونج وفراكل وغيرهما، وهم يفعلون ذلك لا كمتدينين وإنما كعلماء يرسدون واقعاً إنسانياً لا يرون من الحكمة تجاوزه لأن الدين والقيم في نظرهم ذات فعالية - كما تؤكد تجاربهم المهمة - في عمليات العلاج من جهة، والاستعادة شرط ضروري لنجاح المحاولات العلاجية وتحقيق درجة معقولة من الشفاء من جهة أخرى

ومن المبادئ العامة للصحة النفسية في النصوص الأرضية، البوح بالأسرار الشخصية للمريض، ولا شك أن المعاليج النفسية المسلم لا يعترض على هذا المبدأ لأن البوح بالسر يمكن أن يكون تبرجاً لما في السر، لكن ذلك محكوم بضوابط واعتبارات شرعية، منها أن يكون البوح بالسر عبارة عن استشارة للماقل المؤمن الذي يعلو على كتمان أسرار غيره، وأن يكون السرح بالسر في وقت مناسب، وألا يكون كشف الأسرار هكأ لأعراض أشخاص آخرين، وقد يتطلب الأمر لدى المعاليج النفسي المسلم إد افقت مصلحة العلاج استئذان الأفراد الذين قد يضطر لاعتناهم أو قد اعتناهم الفرضي فعلياً، بل إن المعاليج النفسي المسلم يتقيد برأي لمنشع السروي الإسلامي في عملية الاستئذان من حيث الجواز أو الحرمة، بحيث

يعرف ذلك من المعنى المجتهد العارف برماته وأحكام دينه ليحدد له رأي المشرع الإسلامي في هذه المسألة أو يبحث عن الحكم الشرعي بأية وسيلة

وقد يكون أحد المرصين واثقاً من حرص المحلل النفسي على الاحتفاظ بأسواره الخصوصية، لكن غيره قد لا يشعر بالراحة، ولا تطمئن نفسه مهم بدل المعالج من الجهد كي يكون موثقاً، وإذا كان الوجدان الأخلاقي لبعض المرصين شيئاً ضعيفاً، لا يصعب ذلك عن ممارسة بعض التجاوزات الأخلاقية ضد الآخرين، بل حتى ضد أنفسهم.

كذلك فإن المريض المسلم لا يكون دائماً على هذه السحوة، للاعتبارات الأخلاقية التي انتبشت من المشرع الإسلامي، مما يؤثر تجاوبه وتعاونه مع المعالج النفسي، وليس أمام المعالج حينئذ سوى البحث عن طريقة أخرى للتغلب على مشكلته، أما المعالج المسلم فلا يرفض تماماً طريقة التعرّيج لاستخراج الخبرات اللاشعورية المكبونة لمساعدة المريض على التخلص من أمراضه النفسية المثبوتة في داخله، لكنه مع ذلك لا يعتمد هذه الطريقة دون محاذير... بل يحاول ما أمكنه التقيد بضوابط المشرع الأخلاقية واحترام من ترد أسماؤهم في محاصر العلاج النفسي وجلساته.

إن لمشرع الإسلام أشار إلى أثر ودور الخبرات اللاشعورية المؤثرة حصة في سلوك الإنسان مثل قوله تعالى عن نفاق المنافقين ﴿وَلَتَنَرِيَهُمْ فِي لَحَرٍ أُنْفُسِهِمْ﴾^(١).

وعن ثلث مريضة من الناس تفسد في الأرض لكنها لا تشعر كما في قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ قِيلَ لَهُمْ لَا تَتَّبِعُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا عَنُوعُ نَحْنُ مُسْلِمُونَ ﴿١٧﴾ أَلَا إِنَّهُمْ لَهُمُ مُنْجِدُونَ وَكَذَلِكَ لَا تَتَّقُونَ ﴿١٨﴾﴾^(١).

وقد تكررت الإشارة القرآنية الكريمة إلى هذا المعنى في آيات كثيرة، مثل: ﴿يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا فِي الْأَرْضِ مَنَاجِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا فَهُمْ يَنفِرُونَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾ من سورة الأنعام وآية (٤٨) من سورة النمل.

وقد جاء عن الإمام علي عليه السلام قوله المشهور:

«ما أغمر أحد شيئاً إلا ظهر على مصحات وجهه؛ وطلت لسانه»^(٢)

«وتكلموا تعرفوا فإن المرء مغبور تحت لسانه»^(٣)

«وقلب الأحقق في صممه»^(٤)، وفي رواية: «قلب الأحقق وراء لسانه»^(٥).

وقوله عليه السلام: «عند نصحيح الفضائل يبدو غل المرارة»^(٦).

وماك نص آخر في كتاب الشيخ مبين البحراني رحمه الله عز وجل يشير إلى أهمية اللاشعور وفعاليتها في السلوك الإنساني، يروي الشيخ البحراني عن لسان الإمام علي عليه السلام:

«الدهم أغمر ومرت اللحاظ، وسقطت الألفاظ، وشهوات الجبان، وهفوات اللسان»^(٧).

(١) سورة البقرة، ١١.

(٢) معجم البلاغة، ج ٤، ص ٤.

(٣) المصدر السابق، ص ٩٢.

(٤) مصنف معجم البلاغة، لب جيسر، ص ٤٤٦.

(٥) معجم البلاغة، ج ٤، ص ١١ - ١٢.

(٦) غرر الحكم ونور الكلم، ج ٢، ص ٢٠١.

(٧) الملة كلمة لأمر المؤمن، شرح الشيخ مبين البحراني، ص ٢١٢ - ٢١٤، وكذلك شرح عبد الوهاب بن عطاء كلمة ذاتها، ص ٦٥.

لكن نصوص المشرع الترموي الإسلامي لا تسلم بالدور المطلق لبحرات اللاشعورية، ولهذا يعتقد المشرع بأنها ليست هي المصدر الوحيد بتعبير السلوك، فاستحصر الخبرة الوجدانية اللاشعورية وإخراجها من دائرة لكتب إلى دائره الوعي ممكن أن يكون تحقيقاً مؤقتاً للمشكلة لتي يعني بها الفرد، لكن النجاح يعتمد على وهي المريض وإدراك الأنا للمشكلة، ولا يتم ذلك دون استبصار واسترشاد بجذورها وطبيعتها وآثارها التدميرية، ومعنى ذلك أنه يمكن أن ينجح المعالج النفسي الفرويدي في حل المشكلة مؤقتاً عن طريق استحصار الخبرة اللاشعورية فقط، لكنها ليست طريقة ناجحة في كل الحالات.

بهذا نشأت اتجاهات علاجية أخرى كالعلاج السلوكي الذي لا يركز على بحث ماضي الفرد وتاريخه الطفولي، فالمرض النفسي كما يراه السلوكيون ناجم عن تعلم خاطئ ولا يتم تعديله أو إزالته نهائياً إلا بتعلم جديد، ولهذا يحاول المعالج السلوكي علاج المشكلة مباشرة دون اللجوء إلى استحصار الخبرة الوجدانية اللاشعورية المخفية ودون اللجوء إلى تعريض طويل عن أسباب المشكلة، فإذا كان الشخص مريضاً بمقدرة خوف شديدة، فإن المعالج السلوكي يوجه جهوده منذ البداية على الحس والعلاج، يبدأ بتحرير المريض من خوفه بتدريبه المباشر على مجابهة هذا الشعور وتعرضه لمواقفه تدريجاً مضافة، ليتعلم الثقة والأمن وانطوائية، فكما تعلم المريض شعوره المرضي بالخوف من شيء ما فيمكنك كذلك تعلم استحقاقه مضادة لهذه الخبرة الوجدانية، فالمرض والسلوك السوي كلاهما عادات متعلمة.

وهذا ما أشار إليه - في موضع اتفاق جزئي على الأقل - المشرع الترموي الإسلامي في معالجة حالين عصائيتين هما الخوف، وعدم التحم

أو عدم القدرة على السيطرة الانفعالية في حالة العصب أو احترام الحق
والشر يقول الإمام علي عليه السلام:

«إذا هبت أمراً تقع فيه، فإن شدة تروحه أعظم من الودع فيه»

وإن لم تكن حليماً... فتعلم»

«حصد الشر من صدر غيرك يقلعه من صدرك»^(١)

فالطريقة السلوكية في معالجة المرضى تركز على تدخل البيئة مباشرة
في دراسة المشكلة وحلها دون التفتيش عن أسبابها، باعتبار أن الأمراض
النفسية في نظر المعالجين السلوكيين عبارة عن تعلم خاطيء، ويمكن أن
يرون نتعلم إيجابي جديد ومضاد.

وهو ندرك أهمية القيمة الأخلاقية لمهج المعالجة النفسية الإسلامي
الذي يقوم على إزالة سلوك مرضي غير مرغوب فيه وإحلال سلوك مرغوب
فيه أو بديل يرتضيه المجتمع كإزالة التلذذ بإيذاء الناس - كسلوك عصامي -
بفصيلة حب الناس وخدمتهم وإيثارهم، يقول الإمام علي عليه السلام:

«احصد الشر من صدر غيرك يقلعه من صدرك»

يقول الأستاذ طه حسين عديني عن سبط العلاقة السليمة بين المعالج
والمرضى من وجهة نظر إسلامية

«ليس من الحكمة أن تتعدى المعالج النفسي تحت أي عذر دوره الذي
حدّته طريقة العلاج الواقعي إلى كشف خصوصيات المريض أو تعرية سره،
وهذا ما يهدد الإسلام ستراً مستوراً بين العبد وربه، ويمارء واضحة فإن
البدى محاك في النفس من أحداث، وما يرد على القلب من سبب

الأحاسيس بحسب ألا تكون محل جهد، ولا موضع مناقشة، قال أحد علماء المسلمين «ومعلوم أنه لم يعط الإنسان أمانة الخواطر، ولا القوة على قطعها، فإنها بهجم عليه هيجوم النفس، إلا أن قوة الإيمان والعقل تعينه على قول أحسن ورضاء به، ومساكته له، كما قد تعينه على رفع أنفسته وكراهته له، وتفترقه عنه»^(١).

إن لإسلام يلزم المسلم رجلاً كان أو امرأة باحترام خصوصيات وأسرار الآخرين، مثلما يجب أن يحترم خصوصياته، ومن ذلك مثلاً ما يكون بين الرجل وروجه، وينبغي على المعالج المسلم في ضوء ذلك ألا يقول على خصوصيات المريض، وألا يسمي وراءها^(٢).

والمشروع الإسلامي في معالجته للعوس يخضع هذه الممارسة لمبادئ لعلال ولعرام حفاظاً على حرمة الأفراد، وتأكيداً على وحدة ونظامه وسمو العلاقات بين أفراد المجتمع المسلم، ونعود مرة أخرى لنشير سراً لا يتصل بمسألة التجاوزات الأخلاقية الناجمة عن أسلوب التفريط الانفعالي، وهو هل يجوز للمعالج النفسي المسلم أن يسمع إلى عية المريض للآخرين؟ ومن لمؤكد أن حل هذه المسألة يحتاج لمعرفة رأي المشروع الإسلامي، واستئذان من وقع الاختيار ضدهم، ومع ذلك فإن رضي هؤلاء الذين كانوا ضحايا عية المرضى وتجاوزاتهم الأخلاقية يشطب كذلك أن يكون عية المرضى لهم في حدود معقولة لا تنتهك حاجب المرض، وأسوار المعاف الذي يبابه كل غيور على نفسه.

ورداً كانت الاتجاهات العلاجية الحديثة ترى ضرورة توفر المعانج في أي

(١) د. عبد صديقي، نظريته بمرآة الإسلام والملاج النفسي الوقفي، المنشور مجلة السهم المعاصر العدد ٢٩، ص (٧٩ - ٨٠).

(٢) الفصل الأخير، ص ٧٩ - ٨٠.

برنامج تعديل السلوك، فإن العلاج الإسلامي يؤكد في الدرجة الأولى على توفر لعدد العقائدي والأخلاقي عند العربي والمعالج المسلم، وليس من الممكن أن يحظى بشقة مرضاه ما لم يجمع بين العلم، والورع، والتفوى والمصير الأخلاقي في شخصيه، وحيتث يمكنه إقامة علاقه حميمة به وبين مريض، «دعى جمع لك وده ورأيه فاجمع له طاعتك» كما جاء في الرواية

ومي هذا المقام - كما يقول الأستاذ طياء صديقي - يرى من لأهمية يمكن مناقشة العلاقة بين المريض والمعالج من وجهة نظر العلاج الوافقي ثم نعرضه على وجهة النظر الإسلامية، فالعلاقة التي ينطلبها العلاج الوافقي بين المريض والمعالج، إنما تأتي على السحر المطلوب إذا كان لأشخاص من نفس الجنس، وقد تنعكس النتائج إلى السفيض، إذا كان المريض من جنس، والمعالج من جنس آخر، وهنا الجانب يتفق تماماً مع الفكر الإسلامي، وليكن الأمر بجلاء أكثر، وإنما نعلم أن العلاقة التي ينطلبها العلاج الوافقي بين المعالج والمريض، لا بد أن تكون علاقة حميمة، وحيتث نأمله يتحتم أن يكون المعالج من نفس جنس المريض بالنسبة للمسلمين، نظراً إلى قيم المصاف الكامل التي يحرصها الإسلام، وفي ضوء ما عمده عن طبيعة العلاقة بين المريض والمعالج النفسي، فهل يكون في مقدور معالج غير مسلم القيام بعلاج مريض مسلم؟

وإذا لم يتوفر المعالج المسلم، هل يمكنه كحل أخير أن يباشر هذا المريض مشاكله مع معالج غير مسلم؟ هل تفيده مناقشة أمور مع معالج يجد صغره بالغة في فهم إطاره الإسلامي، وقد يحمل وجهة نظر تتماص تماماً مع عقيدة الوحداية الإسلامية؟ وماذا لو أعطاه مثل هذا المعالج مشورة لا تتناسب معه كمسلم^(١)؟

هذه المسؤوليات نلت النظر إلى ضرورة توفر عنصر الثقة بين المريض والمعالج، ولا يقوى هذا العنصر على التأثير الفعال بدون توفر الحرية الإكسكية عند المعالج، ومرونة، وحصافة، ومعاشرة مرضاه بالحس، وستر أسرارهم انصافاً عن الآخرين، والتعاطف معهم بحرية وتوطيد العلاقة بينهما.

ومما لا شك فيه أن المعالج المسلم يبدأ دائماً إلى ترفيق هذه الصفات كلها في عملية معالجة النفس بأصنافها من قيم الإسلام وفضائه وآدابه الإنسانية

فطريقة التمريض لا يشترط - أبهاً - أن يكون المعالج والمريض من جنسيتين مختلفتين، لكن لا يهم رجال التحليل النفسي أن يكون المعالج رجلاً، والمريض أنثى، وهذه المشكلة التي لفت النظر إليه العالم لسوكي الأمريكي وبهم جلاسر ليست بحسب مشكلة التفرغ الانفعالي في مدرسة التحليل النفسي، بل هي مشكلة العلاج النفسي كله في الغرب والشرق، ومن هنا دعا وليام جلاسر إلى مراعاة هذه المسألة تفادياً لمشكلات انصاف، فالمعالج النفسي المسلم يحصل أن يعالج مريضاً من نفس جنسه، ولا يجير المشرع الإسلامي تكوين علاقة بين المريض والمعالج من جنسين مختلفين بقصد المعالجة إلا في ظروف استثنائية، فالمريض الأثني يكتف كثيراً من معلوماته، وحبراته منحصراً عن المعالج الرجل لا عنارات ترتبط بالعمة والشراف والحساسية الأخلاقية، وهما مفهومان لهما قوة تأثير بالغة في النفس المسلمة، وليس بإمكان مريض مسلم التصالح الكامل مع معالج من جنس آخر

وعلى كل حال يمكن للمعالج المسلم أن يوضح للمريض بأنه مرضه النفسي لا يسوغ له التجاوزات الأخلاقية، ولا يسقط المسؤولية لغيبوبة والشرعية والأخلاقية، فما دام المريض النفسي يحملك قدراً من الوعي ولرشد فإنه مسؤول عن أفعاله وأقواله ومشاعره، وينبغي أن يلتفت المريض

إلى هذه الحقيقة، فلا يندر له المرضى إنشاء أسرار الآخرين، أو تعدي لسانه على أعراضهم، أو إطلاق العنان لنفسه، ويصرف بالعاطلة دون صواب أو ملا جود.

غير أن إدراك مثل هذه المعامسات الخاطئة يحتاج من المعالج النفسي المسم به حذافة وإيمان كامل بعبادى السماء وتعاليمها وقيمها الأساسية، فإذا كان المعالج الملم غير مؤدب لنفسه وليس مريباً لها بالقيم العبادية، فإنه لن يستطيع إسداء النصح والمشورة لغيره الذى تنم مع وجهة نظر المشرع الإسلامى، ولا يمكنه أن يفرس التقوى في أخلاقية مرضه لأنه لا يتمتع بالورع من المعاصم. وفاقد الشيء لا يعطيه، فالمعالج المسلم قدوة لمرضاه.

ولتكوين علاقة حميمة بين المعالج والمريض على أسس سليمة حدد المشرع الشروى الإسلامى حقوقاً متبادلة للناصح والمستنصح، قال الإمام السجدة عليه السلام:

«أما حق للمستنصح، فإن حقه أن تؤدى إليه الصبغة في الحق الذي ترى له أنه يحمل ويخرج له المخرج الذي يلي على مسامحه، وتكلمه من الكلام بما يطيقه عقله، فإن لكل عقل طبقة من الكلام يعرفه ويحتمله، وليكن مذهبك الرخصة، ولا قوة إلا بالله.

وأما حق الناصح فإن تلبس له جانبك ثم تشرب له قلك^(١)، وتمتج له سمعك حتى معهم عه نصيحة، ثم تنظر فيها، فإن كان وفق فيها للمصواب

(١) «أمرأت قلبه للنهي» يقال هذا الإنسان عنه ليظهر فكذلك اشرب قلبه للنهي. حظ إليه بركير وعامة واداء. والمراد من المقطع اللغوي الواردة في سياق النص المذكور أعلاه أنه يذكر طائفة الصبغة قلبه أو عنه رغب إلى نشاط وحبه، فيبقى من نصيحة الناصح بعد أن تتج قلبه بحبه واستوعب منه سروره عنه، وحسنها مائة إرشادية صالحة مجدية في سلوكه، وتغير حياته نحو الأفضل.

حمدت الله على ذلك، وقبلت منه وعرفت له نصيحته، وإن لم يكن وفق لها به رحمة، ولم تنهم، وعلمت أنه لم يالك نصيحاً إلا أنه أحمأ، إلا أن يكون عندك مسيحاً للهمة، فلا تعأ شيء من أمره على كل حال^(١)

وفي نص آخر بقول الإمام علي عليه السلام:

«صاححك مشفق عليك، محسن إليك، ناظر في عواقبك، مستدرك دررطك، فني طامع وشادك، وفي مخالفتك صادق»^(٢).

ولتجنب تدهور العلاقة بين المريض والمعالج يجب أن يكون الأخير معتدلاً في نصحه، ولوشاده، وتوجيهه لأن «كثرة اللطم تدعو إلى التهمة»^(٣) وإساءة الظن به من قبل المستصح، وسوف يلاحظ فيما بعد أن السمات الأخلاقية والإيمانية والعلمية التي يجب أن تتوفر في شخصية المعالج المسلم، هي أساس صحيح لتكوين علاقة حميمة بينهما.

وهكذا فإن نظام المعالجة النفسية الإسلامية بمقتضى مختلف النصوص الشريفة التي وردت آنفاً. نجعله يجمع بين «ثانية العلاج»، وضرورة توفر معالج مسلم ثقة بماور مرضاه على حل مشكلاتهم السلوكية، فإذا أن يقوم الفرد بتوجيه عمليات العلاج الذاتي بنفسه ولعنه، ويقود حركة المواجهة مع قننها، وأمراضها، ويبحث عن أساليب وطرق معالجتها، أو يحد نفسه بحاجته شديدة للمعالج نفسي مسلم يرشده إلى الطرق والأساليب العلاجية التي يصور لها وضعاً جديداً لتكيفه مع نفسه، وعلى أسس إيمانية وأخلاقية وعلمية في آن معاً.

(١) بحسب القول من ١٩٢.

(٢) جزاء الحكمة ج ١ ص ٥٧.

(٣) المعتمد السابق، ص ٥٨.

سمات المعالج النفسي المسلم:

إد، كان المهج الإسلامي يؤكد بقوة على ضرورة توفر معالج نفسي وأخلاقي مسلم، لديه مهارة علاج النفس وأمراضها، فإن هذا المهج يحدد مجموعة من السمات الإيمانية، والقيمية، والوجدانية، والعلمية التي يجب أن تكون متوفرة في شخصية المعالج، لأن تحلف هذه السمات عنه يؤدي حتماً إلى عرقلة المعالجة، وربما إلى فشلها، وسوف نرى من خلال البحث أن مهج المعالجة الإسلامي لا يوافق على بعض الآراء السائدة في الطب النفسي العربي عن شخصية المعالج، ولعل هذه المفارقة الكبيرة هي التي جعلت محاولات المعالج النفسي الغربي تتمتع كثيراً في التغلب على بعض الأمراض، والأمراض التي تواجه مرضى النفوس وبخاصة إذا كان من مختلفين مع المعالج في إطارهم المعرفي والقيمي والمعتقداتي والأخلاقي.

إن هذه السمات المتمدة تمثل في حقيقة الأمر كتلة واحدة متصلة، يجمعها المعالج المسلم في ذاته، ويستخدمها كقوة فاعلة في تدليل الصعاب التي تواجه مرضاه، وهذا لا يعني أن هذه السمات تأتي الانصواء تحت تصنيفات محددة، كالقدرات العقلية أو السمات الانفعالية والوجدانية وغيرها، فمن الممكن أن يبحث الباحث المسلم سمات المصاح تحت تصنيفات معينة، ويظن أنها تحت تصنيفات معينة نهياً للدراسة أولاً، وتعبيراً بسمات نفسها في الشخصية الإنسانية ثانياً.

غير أن اجتماع هذه السمات المتعددة في شخصية المعالج المسلم يجعله أكثر من غيره على إدارة سير المعالجة النفسية بطريقة الأصداد أو طريقة أخرى، ونتيج له إمكانية فرصة نجاح برنامجه العلاجي للمدات لمرضى أو المستشارة بإرشاداته، فهذه السمات تمكنه من أداء مسؤولياته الفاديه والإنسانية

ولقد منح المصنع التربوي الإسلامي كتنجوية حبة في إعداد امر كبير من الأخلاقيين وعلماء السلوك ولطفت للنفس المسلمين رغم أن عصرهم لا يعرف الشخص بعمقه المتداول اليوم، إذ كانت سيطر آتدك فكرة الموسوعة الثقافية على العقل المسلم متأثراً بالتجربة الإغريقية وبمفهومها الواسع عن التعلم والمكر والثقافة، ومما لا شك فيه أن هؤلاء العلماء لدين رباهم المصنع الإسلامي تركوا أثراً واضحاً في حلّ معضلات السلوك ومشكلاته في المجتمع المسلم وخارجه

ونامس أن يجد القارئ الكريم تحديداً مقيولاً لسمات عامة رئيسية في شخصية المعالج النفسي المسلم، ولا نضمن بالتأكيد خلو هذه المقالة من النقص، فالباحث مهما بلغ فهمه ودرايته بالمصنوع الشرعية لا يستطيع بمفرده أن يكون ملماً بكافة سمات المعالج النفسي المسلم، لأن السمات التي يرغب المشرع الإسلامي في تثبيتها بشخصية المسلم مستمدة من القرآن الكريم والسنة المطهرة، ولكن لكثرتها يصعب حصرها بدقة على باحث مفرد، لهذا يلجأ الباحث عادة إلى تحديد أهم هذه السمات التي تبدو في نظره رئيسية لشخصية المعالج النفسي المسلم، وينترك للمباحثين الآخرين فرصة لإضافة سمات أخرى للمعالج المسلم عملنا عن ذكرها أو لم نلفت النظر إليها، ولم مأخذها بعين الاعتبار

و لواقع أن بعض السمات التي ينبغي أن تتوفر في شخصية المعالج المسلم، إنما هي سمات عامة يحرص المشرع للتربوي الإسلامي على ضرورة تمتينها في كل شخصية مسلمة وليست في شخصية المعالج وحده، ذلك - وإن تميز المعالج بتخصصه العلمي والمهني والعبادي - إلا أنه ينبغي للمجتمع المسلم الذي سعى المنهج التربوي الإسلامي إلى تربته بمختلف

واللطف، والتفاؤل، والقدرة على كتمان الأسرار، وتجنب التحدي على حقوق الآخرين تحت أي عذر، وسلامة التفكير من أخطاء الدهس السارة، والتصح والصبر، والتواصي بهما، فمثل هذه الصفات ليست ضرورية فقط في شخصية الممثل المسلم وحده، بل هي سمات أساسية يجب أن يتشكل منها لإصدار العام والفريسي للشخصية المسلمة في كل عصر، وفي كل بقاع الأرض.

غير أن اجتماع بعض هذه السمات في شخصية المسلم لا تجعله معالجاً مريباً، لأن هناك سمات أخرى لابد من توفرها كي يكون الإنسان المسلم مريباً ومعالجاً للنفس في آن واحد، ونشاط به مسؤولية معالجة أمراض النفس وعبوبها السلوكية، وسوف تكون مهمة هذا البحث تحديد سمات لمعالج النفسي المسلم، والتي يمكن أن يكون بعضها سمات مشتركة بينه وبين سائر أفراد المجتمع، وبعضها الآخر تمتاز به شخصيته كمعالج نفسي ومرشد أخلاقي.

ويمكن لكل فرد ما أن يعرف بعض هذه السمات من خلال النصوص التي وردت في مصادر التشريع الشرعي الإسلامي، كما أن ما خلعه العلماء المسلمون - خاصة تراث الصوفية - من تراث علمي صحيح في دراسة النفس دراسة مستبعدة قد ساعد إلى حد كبير على تمييز هذه السمات، وبوسع المعالج نفسه أن يوفرها من خلال عملية تعلم ذاتي، يتقرب خلالها على لتعاير مع السمات الإسلامية، أو من خلال دراسة تخصصية معه بالبحر والمعرفة الإسلامية في مجال العلاج النفسي، والدراسات الإنسانية كالأخلاق والتربية

وكما اعتمدنا على النصوص في تعريف الممارس بأهمية العلم الذاتي

وملازمة المعالج المسلم، وضرورة توطيد العلاقة بين المريض والمعالج،
فإن كذلك مستند هذه النصوص، وما حلقه التراث النفسي الإسلامي في
اسمرف على أهم صفات المعالج النفسي المسلم.

وقبل أن نحدد أهم صفات المعالج المسلم نشير هنا إلى ملاحظة هامة
هي أن هذه الصفات يشر أن تتوفر كلها - بالتساوي - في شخصية معالج
ما، وهذه السمات تشكل الصورة الكاملة للإسلام، والمعالج كمرد مسلم
يعاود باجتهاده الخاص الاقتراب من هذه الصورة أو النموذج الأعلى اأدي
يلكذ عليه منهج الله سبحانه وتعالى

ويمكننا في ضوء ذلك أن يجتمع في المعالج عدد كبير من سمات
الإسلامية، فتكون شخصيت قريبة من المثل الأعلى لهذا المنهج، ولكن
بقي دائماً هناك مجال واسع للفروق الفردية بين الناس عاأبين وغير
عاأبين، وسيكون الأنبياء والأئمة الراشدون والأوصياء والعلماء وحببة
المجتمع هم في سلم الكمال السبي، وهم في قمة الترتيب الهرمي لهذا
انموذج الأعلى، ثم يكون سائر الناس موزعين ضمن تدرج أقل، حسب
مستويات تولو هذه السمات في معوسهم

ويشمل تصنيفاً لسمات المعالج المسلم على أربعة مستويات هي:

١ - السمات الاعتقادية والإيمانية والأخلاقية.

٢ - السمات الانفعالية والاجتماعية.

٣ - القدرات العقلية والإدراكية

٤ - السمات المهنية.

أولاً السمات الاعتقادية والإيمانية والأخلاقية

نعتبر هذه الصفات هي جزء من البناء الأساسي الذي يقوم عليها بناء كل شخصية مسلمة، وليس شخصية المعالج النفسي المسلم وحده، فإذا دخل الفرد - معالجاً وعالماً أو مريضاً - عن طبيع شخصيته بهذه السمات احتل الإحساس العام للشخصية المسلمة، ومن هنا ينبغي أن تتوفر السمات، الاستفادة والإيمانية في شخصية الفرد، غير أن المعالج كمربي مسلم، وكقوة صالحة ينبغي أن يكون وعيه أكثر دقة، فمن الأمور الثابتة أن تثبيت هذه السمات في شخصية الإنسان استغرقت أكثر من نصف اللفة الزمنية التي فصاها النبي صلوات الله عليه وآله وصحبه في سعيه لبناء مجتمع عقائدي، ولم يكن المجتمع المسلم متميزاً عن غيره إلا باتساعه مع هذه السمات.

ونعتقد بجرم ويقين بأن توفر هذه السمات في شخصية المسلم نجعل معالجاته للمشكلات السلوكية مختلفة كل الاختلاف عن المعالجات لنفسية العربية حتى وإن التفتنا في بعض المسائل المشتركة، لأن التصور العقائدي الذي تركز عليه شخصية المعالج المسلم قائم على أساس الإيمان بالله والوكانر الدينية المرتبطة بهذا الأسس، بينما تحتفي تماماً هذه السعادة العقائدية والروحية من شخصية المعالج النفسي الغربي إلا إذا كان يحمل في دأله حساً دينياً، وساة على ذلك يختلف فهم كل منهما للسلوك وبعثه، وأهدافه، وقد مر عليك أمثلة على الاختلاف بين أسلوب المعالج في الإسلام والغرب، واختلافهما في التفكير والمعاملة.

ومن السمات الاعتقادية والإيمانية للمعالج المسلم.

أ - أن يكون المعالج النفسي مؤمناً بالله إيماناً قوياً، ومؤمناً بما يتصل بهذا الاعتقاد من أصول عقائدية أخرى، ونعتمد من ذلك فهم المعنى

انصحبح للإيمان الروحي والديني، وتمثل السلوك الحسن الذي ارتضاه الله عز وجل للإنسان، حيث يكون المعالج المسلم قدوة عقائدية لمرصاه، وأنة عمل يمساة متحركة ترشد هؤلاء الناس إلى الحق، والاستعانة به وتقويم لسلوك على أساس الإيمان بالله تعالى.

لإيمان المعالج بهذا الأصل العقائدي وما تعرض عنه من عقائدية إيمانية أخرى كالإيمان بالمرسل والبحث يوم القيامة والإيمان بالقضاء والقدر ونزول الكتب السماوية على يد الأنبياء، يحدد له فقه المصيح والعصر نظرة مختلفة عن نظرة الملاح النفسي الرصعي، فالمعالج المسلم يمكنه تفسير اتجاهات ومرمض الحاطنة عن نفسه، وعن الآخرين، وعن كافة المشكلات التي ترحه من خلال المبادئ الدينية، والأساليب النواقبة التي أخذ عليها لنهج الإيمان، وقد سبق أن رأينا في فصول سابقة كيف استطاعت هذه المفاهيم حل مشكلة الصراع النفسي^(١) في شخصية الإنسان، وتكوين عادات لسلوك العبادي الحسن لوجه الله وطاعته.

وقد نشأت مؤخرأ في أوروبا حركة علاجية حديثة مؤسسة على المعدلة بالإيمان بالله، وبالفهم الروحية بعد أنه شعر بعض المعدلجيس بقصر الاتجاهات العلاجية الحديثة عن تحقيق الملاح النفسي الكامل للشخصية، وهذا يدل على إيمانهم الكبير بفاعلية العقيدة الدينية ومدايمها في العصر وتعديل السلوك الإنساني، وإدراكهم في مقابل ذلك صحر اسمامع العلاجية التي معرل الأديان والقيم الأخلاقية على تحقيق حد أدنى معمر من الشفاء النفسي.

(١) ناهنا شفي، في التصيل مشكلة الصراع النفسي، في الفصل السابع. وذلك في إطار المعالجة النفسية الإسلامية لهذه المشكلة بطريقة الأعطال التي تستهدف تثير السلوك الحاطنة واستعالة بملود سوي من وسها، النظر العلمية للإسلامة

ولمسح العلاجي المؤسس على الإيمان بالله يمكن المعالج من فهم سراديب نفسى بوجهة نظر واقعية ويرشده إلى أساليب المعالجة وخطواتها، ويحدد بدقة المشكلات المطلوب تعديلها والتخلص منها، والإجراءات اللازمة لتغيير أفكار واتجاهات المرضى، فيأخذهم بيدهم تدريجياً نحو استعادة انتوارن والطمأنينة الداخلية للذات، ويمدّه بالطاقة المعرفية والروحية التي تحتاجها عمليات التغيير والمجاهدة النفسية.

إن المعالج النفسي المؤسس قادر كطبيب نفس على هرّ وجدان المريض، وتحريك أو إيقاف إدراكه، وتبصيره بمشكلته كجزء من المعالجة، ومن المؤكد أن تمتعه بهذه الخاصية لم يأت من فراغ، فمقدرته على التأثير انباع في النفوس إنما صنعه القرآن مدعوته الكاملة إلى توحيد الله تعالى، وبمصابمته المصادقة من التقوى والثكل والشعور بالأمن والانتماء لله تعالى، وإزالة مخاوفه من كل شيء كقطع الرزق أو تهديد حصوله على إشباع معقول لحاجاته، قال سبحانه وتعالى:

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾^(١).

ولإيمان الروحي بالله تعالى يمدّ المعالج النفسي المسلم بطاقات روحية، ويهيئ له ميل الكفاءة الملحية الشخصية التي نجبه على تعديل سلوك المرضى وإعادة تربيتهم وتعليمهم على عادات سليمة في صوره مسيح يهدى ولحق والاستقامة الدينية والأخلاقية، ويحورهم كذلك من القلق المداحم عن مشاعر الاستاء التي تتولد عادة من مقارفة المعاصي والدنوب،

(١) سورة الفرقان، ٢٨، فاطر كذلك سورة فصلت، ٣٠، ٣١، ٤١ وسورة الشعراء، ٩، وسورة يوسف، ٥٧، والأصم، ٨٢، وسورة الشعراء، ٢٦، الضحى، ١١، الفرقان، ١١٢، الأحقاف، ١٣، الدورات، ٢٢، ٥٨، سرور، ٦٠، آل عمران، ١٥٦، الزمر، ١١، ٥٣، طه، ١١، الحديد ٢٢، ٢٣، الباء، ١٠، طه، ٨٢، النمل، ٩٧، سورة المائدة، ٢.

وعند أن المعالج الورع التقى ينقل تجربته الجهادية الطويلة مع نفسه إلى عبوس مرضاه بروح محلصة وكفاءة فاعلة، بحيث تتأثر نفوسهم بروحانيه وعبه قدرته في التحكم في نفسه على التأثير في مرضاه، فالمعالج النفسي المسلم يجتهد في تعديل السلوك عن طريق التقوية الحسنة، ويحقق الصح للمرضى باعتباره نموذجاً للإيمان بالله تعالى.

دس - كما يستطيع القول بأن تمتع المعالج بعقيدة التوحيد - علماً وإيماناً وعملاً - تمكنه من تأسيس علاقاته مع مرضاه على الحب، والموادعة، والصدق، وهو في ذلك لا يبتغي كسباً مادياً، أو تحقيقاً لشهرة أو سلطان، مما يجعل المرضى أكثر قابلية للتعاون، وأكثر استعداداً للمعالجة، فعلى أساس الإيمان بالله تنظم علاقات المعالج بمرضاه وتوثق الأواصر بينهم

ب - أن يكون المعالج النفسي المسلم عالماً وأخلاقياً نقياً، ومربياً فاضلاً لنفسه، مطهراً لقلبه من دس السائم، فالمعالج القدوة يربي النفوس بإهداءات القدوة المصالحة، ولا يمكن أن يبلغ هذه المرحلة إلا بعد اجتياز تجربة جهادية ناجحة تمكنه من تخليص نفسه من ألقائها، فإذا أورد المعالج النفسي للمسلم أن ينتزع مرضى التكبر من شخصية ماء، فلا بد أن يكون المعالج نفسه شخصاً متواضعاً حرر ذاته من دس المرض، ولا عجز حتى عن مجرد اكتشاف نوعة التكبر في مرضاه، عوضاً عن مساعدة مريضه عن انتحاص من مرضه النفسي، (فتعاقب الشيء لا يعطيه) كما يقول المثل السندول

والحال كذلك في كل أمراض السلوك، كالمحل، والعصية، والوسوسة، والحد، والمناق، فإذا كانت شخصية المعالج علية بهذه لآت أو بعضها، فإنه - بالتأكيد - أعجز عن معارضة الآخرين على تعلب

على آفات عمومهم، فالمصهج الترمذي الإسلامي يؤكد أن للمميدان الأول للمسلم هو نفسه، ولنتذكر قول الإمام علي عليه السلام يقول
«أبداً لكم الأول أنفسكم»، فإن قدوتهم عليها كتتم على غيرها أفتر،
وان عحترم عنها كتتم عن غيرها أعجز».

وفي نص آخر يقول الإمام علي عليه السلام

«من نصب نفسه للناس إماماً، فليبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره،
وليكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه، ومعلم نفسه ومؤدبها أحق بالإجلال
من معلم الناس ومؤدبهم»^(١).

واوكيف يصلح غيره من لا يصلح نفسه^(٢)

و«من نصح نفسه كان جديراً بنصح غيره»^(٣)

و«أكبر العيب أن تعيب ما فيك مثله»^(٤)

لهذا يرى الإسلام ضرورة توفر القدوة الحسنة في شخصية المرشد
والمعالج، قال تعالى ﴿لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ
وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾^(٥)

فكما قلنا فإن طهارة السلوك لدى المعالج قد تفتح المرضي بضرورة
التمسك على التلمذ الحاطي، ويشجع هؤلاء المعلولين على الانفعال الحي
بسلوك المعالج، فتحطو نفوسهم خطوات سريعة نحو تحقيق التقدير

(١) نصيب بهج البلاغة، ليب يقول ص ٢٠٠

(٢) المصدر السابق، ج ٤، حكمة ٧٣.

(٣) ميراث الحكمة ج ١، ص ٥٨، ١٤٦.

(٤) بهج البلاغة ج ٤، ص ٨٦.

(٥) سورة الأحزاب، ٢١.

المنظم من الصحة النفسية متأثرين بالسلوك النقي المستقيم الذي يظهر عليه المعالج كقدوة حسنة أمام مرضاه.

تقول الآية القرآنية الكريمة ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا مِنْ أَمْرِهِ يُتْرَكُ﴾^(١)

وقوله عز وجل: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الَّذِينَ كَفَرُوا أَتَوَى اللَّهُ وَيُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَيَقُولُوا قَوْلًا سَيِّئًا ۖ يَمُنُّ لَكُمْ عَمَلُكُمْ وَلَئِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُوا أَمْرَهُ فَقَدْ مَرَّ زَوْجًا مِثْلًا ۖ﴾^(٢)

ومن هنا فإن نظرة المعالج النفسي المسلم على خلاف مع نظرة بعض علماء العلاج النفسي في أمريكا الذين يؤكدون اقتصار مهمة المعالج النفسي على وظيفة الملاحظة ووصف المريض لسلوكه أو مرضه بمفرده دون أن يشاركه المعالج مشاركة فعالة، فيكتفي في نظر روجر صاحب نظرية العلاج المتمركز حول الذات «المميل» أن «يقصر الطبيب النفسي مهمة لمعالجة على الملاحظة، فيترك للمريض الحرية في معالجة نفسه بنفسه، ثم يكتب تقريراً عن سير العلاج وتطوره»^(٣)

ولقد أوضحنا من قبل رأي المشرع الإسلامي من مسألة التعلم الذاتي وتأبيده التام لها، وأشارنا إلى أن الموضوع التربوي الإسلامية تعتمد أسلوب لملاحظة في متابعة السلوك الإنساني ورصده واستخدامه في عملية العلاج الذاتي، لكن ذلك لا يعني ترك المريض يتحبط وحده دون محاولة فاعلة من معالج مدونة تعمل به نفسية المريض وتأثر تقدراته العلمية والمهنية

ومع ذلك فإن استخدام أساليب التعلم الذاتي الحر يمكن أن نحقق الأهداف العلاجية إذا كانت لمواجهة حالات حقة وغير معقدة وسيلة

(١) سورة الطلاق، ٤.

(٢) سورة الأحزاب، ٧٠ - ٧١.

(٣) روبرت هانز، كتاب التحليل النفسي والعلاج النفسي، ص ١٢٧.

لتعديل دون استعانة المرمض بمعالج، والأفضل للمرد استشارة أحد أو طلب المساعدة النعمة من ناصح أو طبيب أو مربٍ أخلاقي، وذلك لتعديل السلوك بصورة أسرع، وهكذا لا يلجأ للمعالج الذاتي الاستعادة العلمية أو طلب المشورة من أهل الخبرة والاختصاص بصورة ما دون حضور جلسات علاجية منظمة كما يحدث في العيادات النفسية

أما الحالات النفسية المعقدة فلا بد من ملازمة معالج يكون هو النقطة المحسنة ويمكن علمياً ومهياً، ويتطلب ذلك حضور المرمض - بأمر من المعالج النفسي وبإشرافه - جلسات علاجية خاصة لمساعد مرضاه على تحطّي مشاكلهم، ومن هنا فإنه لا يكفي في نظر الإسلام حيازة المعالج بفن لمعالجة وأساليبها، ومشكلاتها، وإنما لا بد من تجربة عملية جهادية انتصر فيها لمعالج نفسه على كافة الشهوات التي واحبته في دنياه، فالتجربة الروحية والذهنية الجهادية له تمتع على نقل خبراته كمعالج سوي لمرضاه، فيتأثرون بها، وبذلك يساعدون على تحييز صورتهم أمام الآخرين وذا لم يكن المعالج مريباً لنفسه، فإنه من الصعب أن يتقبل الآخرون - وبخاصة مرضاه - نصائحه العلاجية، ومن هنا ندرك أهمية النص التالي.

«لَا تَطْلُبْ طَاعَةَ عَمْرٍكَ، وَطَاعَةَ نَفْسِكَ حَلِيكَ مَشْتَمَةٌ»^(١).

وفروه عز وجل: ﴿فَلْيَتْلُوْنَ آتَاىَ يٰٓأَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوْا لَعَلَّكُمْ تَتَّقُوْنَ﴾^(٢)

ح - يجب كذلك أن ينحلي المعالج التسمي المصمم بحاسة الاحتياط بأسرار مرضاه، وأن لا يسمح كذلك لهم بكشف أسرار العير له في ذلك من تحاورات أخلاقية تلمس أحياناً أعراض الساس، وتقال من ميم لعنف

(١) مروه الحكمة ج ١ ص ١٤٦

(٢) سورة المروة، ١٤٤

لديهم، فالسرية ليست في الواقع سمة أخلاقية يتطلبها العمل العلاجي وحده، بل هي كذلك سمة عبادية أساسية يؤكد عليها المشرع الشرعي الإسلامي من أجل تكوين علاقة وطيدة بين أفراد المجتمع بأسره، وليست بين المعالجين والمرضى فقط.

إن على المعالج أن يستعمل بدقة متناهية سرية المعلومات، وأن يفرض على الأسرار الشخصية للمرضى سيجاً شديداً من الكتمان ضماناً لنجاح المعالجة، ومن هنا أكد الإمام الجواد عليه السلام أن: «إظهار الشيء قبل أن يستحكم معسدة»^(١)، بمعنى أن إنشاء أسرار المرضى بمراحل خطوات العمل العلاجي ويؤدي إلى تدخل عوامل مفاجئة تفسد وصول خطة العمل إلى بر الأمان... وإلى انتهاك المطلوب.

كما أن زيادة أسرار الآخرين عمل غير أخلاقي، وربما يؤدي ذلك إلى غضب هؤلاء المستهزئين بإذاعة عيوبهم، باعتبار أن العيب يثير دوماً حفيظة الناس، وهذا يجعل الغاصبين أحياناً يدفعون أسرار من أفشى سرهم، لقرود الشحنة، وتضطرب العوس لأن في المعلومات المكشوفة ما يضاهي أصحابها، ولذلك مهي المشرع الشرعي الإسلامي عن إذاعة العيب بين الناس.

يقول الله تعالى في محكم كتابه العزيز:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْتَفُونَ فِي النَّفْسِ الْفِتْنَةَ فِي الَّذِينَ كَانُوا لَهُمْ عِلْقٌ وَإِلَى الَّذِينَ يَتْلَوْنَ وَآلَهُمْ بَاطِلٌ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٢).

جاء في أحد الأحاديث النبوية الشريفة «من أذاع ما حنة كان

(١) بحث المعرف، ص ٢٢٧.

(٢) سورة النور، ١٩.

كمدنيها^(١) حيث يتساوى - في نظر المشرع الترموي الإسلامي - من أذاع
لما حثه الناس بالشخص الذي ارتكبها، لذلك أمر النبي ﷺ المصلح
وغيره من ثقات المجتمع المسلم بكتمان الأسرار والمحافظة عليها

وقال الإمام علي عليه السلام أيضاً:

«در الغيوب يحبون إشاعة معائب الناس لينتفع لهم العذر في
معاليهم»^(٢)

وقد أمر الرسول الأكرم صلوات الله عليه وآله المؤمنين بالكتمان وهدم
نشر لأسرار الخاصة على الآخرين سواء في ميدان الدعوة أو العلاج أو
العمل المنظم أو الخدمات الاجتماعية التطوعية في مختلف جوانب
الملاقات الشخصية كالمصافاة، وقد قال الرسول صلى الله عليه وآله
وصحبه:

«استمعوا على أموركم بالكتمان»^(٣)

«رأى أنجح الأمور ما أحاط به الكتمان»^(٤)

وقال الإمام محمد بن علي الجواد عليه السلام كما ذكرنا من قبل:

«إظهار الشيء قبل أن يستحكم مفسدة له»^(٥).

ولمريض الذي يلازم معالجة نفسياً أو مريضاً أخلاقياً أو ماصحاً أو رجلاً
من أهل الرأي والحجة تقطره تلك المصاحبة إلى السوح بأسراره لأن في

(١) صحيف الغفران، ص ٣٩

(٢) سيران الحكمة، ج ٧، ص ٣٣٦

(٣) صحيف الغفران، ص ٤٠

(٤) مرآة الحكمة، ج ١، ص ٤٢٧

(٥) صحيف الغفران، ص ٣٢٧

ذلك - أولاً - تعريضاً عما في نفسه، ولأن في استشارة المؤمن العاقل حركة هادئة لتدريس المشكلة مع أخ مؤمن ثقة، مخلص الصبغة، يستمع المستشير، ويكون للاستشارة أثر فعال في شخصيته، وتسمية العلاقة بينهما

يقول الإمام الصادق عليه السلام: «فإذا كان عادلاً - يعني المشير - امتنعت بمشورته، وإن كان حراً متديناً أجهد نفسه في النصيحة لك»^(١)

وفي مصنف ثان قال أيضاً:

«شارر في حديثك الذين يخافون الله»^(٢)

وفي مصنف ثالث «استشر العاقل من الرجال الورع، فإنه لا يأسر إلا بحيرا»^(٣)

ومن استبد برأيه هلك، ومن شارر الرجال شاركها في عقولها»^(٤)

وتحديد هذه النصوص لثلاثة عناصر هي الخوف من الله، ونصح عقل المستشار، وإخلاصه في المشورة، إنما يدل على ضرورة توفر شروط معينة في شخصية من تستشيره كالفطرة على كتمان أسرار الآخرين، باعتبار أن تمنع المعالج النفسي المسلم بهذه القدرة يمثل استقامة إسلامية في شخصيته، ويمثل كذلك نضجاً في دانه.

فالنصوص السابقة تطالب بأن يكون المعالج المسلم ثقة وعائلاً، بهادراً، السمتان يمكن أن توفرهما الشخصية الأرضية، خاصة فيما يتعلق بطبيعة علاقاته مع مرضاه، لكن المشرق التربوي الإسلامي يحمل من (حرف

(١) الوسائل، باب ٢٢ حديث ٨.

(٢) المصدر السابق، باب ٢٢ حديث ٤.

(٣) المصدر السابق، باب ٢٢ حديث ٥.

(٤) مصنف، نهج العلاقة، ليب بصورته، ص ٤٥٣.

الله) القاعدة الكبرى التي تنظم عليها حركة الذات المسلمة بما فيها شخصية المصلح المسلم، فما دام ورعاً، خائفاً، راحياً لله، فإن احتماظه بأسرار الآخرين ببس أمراً تتطلبه طبيعة العمل العلاجي فحسبه، بل هو سلوك أساسي في شخصية المصلح النفسي المسلم كمكلف، وسمة تحدد لها الوظيفة المبادية المطالب بإنجازها في الحياة. محووف الله، والورع عن محرمه، بصقلان شخصية المصلح النفسي، ويقويان قدرته على كتمان أسرار إخوانه المؤمنين، وبخاصة من استوثقوه أسرارهم الخاصة، لهذا يجب أن يكون كنزاً لأسرار نفسه، بل لأسرار غيره، فالحديث الشريف يقول:

«من ضعف عن حفظ سره لم يقل سر غيره»

فتمنع للمعالج النفسي المسلم بالسرية وكتمان أسرار مرضاه مظهر لهذا الورع وزاغة الشخصية، ونطبق عملي للملوك العبادي الصادق التي تقتضي مصلحة العلاقة بينه وبين مرضاه، ونقديره لهم من خلال مبدأ مراقبة الله عز وجل له سرّاً وعلائياً

ثانياً: السمات الوجدانية والاجتماعية -

أ - التفانول والنفقة بالله:

تقوم عقيدة المسلم على أساس أن الله سبحانه وتعالى هو مصدر المعاء الحزبل في كل شيء، فكل جهد يبذله الإنسان لمصالح نفسه يؤيده الله بمطيم أجره، وجزبل بركته، فالإنسان عادة يهين أسباب العمل، ويحجد، والله عز وجل يكافئه بخلى النتائج الإيجابية لأعماله، ومن ها فإن المؤمن ها دائماً في تعاؤل نتائج عمله، وفي ثقة كامله سأييد الله وتوفيقه له. فالربيع «أساس الجاح»^(١) كما يقول أحد المصوحن الإسلامية

(١) ميرز القمكة، ج ١٠، ص ٥٩٠

وما كلمة (توفيق الله) التي يقولها المسلم في كل حين إلا سجداً لفكرة ربه هي أن الله دائماً مصدر النجاح وسبيل المطالب للعباد، وتوفيق في الحصول عليها، فهذه الكلمة العريضة التي يلجأ بها لئلا يفرد المسلم بين بهار، تعبير عن التفاؤل الحي المستمر في نموسنا، ولهذا التفاؤل دلالة تربوية فعالة في التوازن النفسي للمسلم معالجاً كان أو مريضاً أو غيرهما، بحيث يحس كل منهم بجمعية تحقيق الهدف غفب كل شاط يبدله، ومن المؤكد أن التفاؤل بصيغته هذه يباعد بين الإنسان لمسلم ومشاعر الإحباط، لأنه بال دائماً ثمرة جهده إما بدياه أو آخرته.

وما ينطبق على كل مسلم، ينطبق كذلك على إيمان المعالج المسلم، فهو دائماً متفائل بنجاح جهده، ويتوفيق الله له في كل أعماله، ولولا هذا لتفادى لما أوصفت أم طفلهما، ولا غرس زارع شجرة، فعند يصوغ المعالج انمسي المسلم برنامجاً للعلاجي ويرسم خطواته، يكون دائماً حسن البلى بالله، ومطمئناً إلى توفيقه عز وجل، لهذا لا يتوانى أبداً عن بذل المزيد من الجهد لتحقيق أهدافه، ويصير نفسه على مكاره المعالجة ومشاق جهادها، قال الإمام الجواد عليه السلام.

«المؤمن يحتاج إلى توفيق من الله، وواعظ من نفسه، وقبول من ينصحه»^(١).

وجاء في الدعاء أيضاً:

«اللهم ارددنا توفيق الطاعة وبعد المعصية وصدق التوبة وعرفنا الحرمة»^(٢).

(١) تحت العنوان، ص ٢٣٧.

(٢) كلمة لإمام الهادي، ص ٣٠٩.

ب - الثبات العاطفي

يسمى الثبات العاطفي في مصوص المشرع الإسلامي بالصبر، ويرى من الضروري أن تمتاز شخصية المعالج المسلم بهذه السمة، وأن يكون صبوراً يتحمل مشاق علاج الملوك ومتاعبه، وقد أكدنا من قبل بأن المريض قد يكون في بعض فترات العلاج ملولاً، وقليل الصبر والتحمل، ولذلك يكون أيضاً عرضة للتوتر بسبب مشقة الجهد الذي يبذله في مقاومة رواسب نفسه، أو في قيلمه بجهد يحاول فيه تكوين سلوك إسلامي مقبول، وحينئذ - بسبب هذه المعاناة - ترغب نفسه في اجترار سلوكه الماضي والعودة إلى عاداته المدمرة، وربما تتكرر هذه الحالة مرات عديدة، وتتناقل نفسه عن لمجاهدة، وهذا في حد ذاته خطر حقيقي يهدد المعالجة، وينذر بسفها.

وإزاء هذه الحالة التنسية الحسنية ينبغي دور المعالج المسلم باعتبارها شخصاً صقلت التجارب الجهادية شخصيته ودربت نفسه على الثبات العاطفي في مواجهة الشدائد وتحمل الصعاب، فالمعالج الصبور جدير بنصح غيره، وجدير بثباته على مساعدة الآخرين، عظاماً قدر على نفسه واكتسب مرناً، وهوماً من المواجهات مع رواسب النفس ونوازعها الشريرة، فكذلك يكون قادراً بإذن الله تعالى على إصلاح نفوس غيره مستعملاً مختلف طرائق المعالج النفسي وأساليبه.

ولا بد أن تكون فاعلية الصبر عند المعالج النفسي شديدة الوضوح في سعية مرصده، إنهم يتحلون تدريجياً عن الجرع والصحر والشعور بعدم لأمان، ويستلثون سلوك الصبر مرور الأيام حتى تألف نفوسهم بحمل الشدائد وتحقق توافراً، فالمعالج النفسي المسلم يؤثر بالفقد أكثر من تأثيره بإحسان الفقه، والتوجيه الكلامي، والنصائح اللفظية، وأن يدرج على فهم

واستماع الدلالة التربوية للصبر والثبات العاطفي وتحمل المسؤولية، وامن لم ينج الصبر أملاكه الجرع^(١) كما قال الإمام علي عليه السلام.

ح - الإخلاص وصدق النصيحة:

كما يطلب من المستصح - عادة - صدق التجاوب، وحسن الاستماع للمشورة، فكذلك من واجب المعالج النفسي المسلم أن يؤدي للمريض النصيحة بصدق وإخلاص، وأن يجهد نفسه في المشورة، لكن الصدق يتطلب كما سبق في النصوص التي أوردناها أمور:

١ - أن يكون الناصح عاقلاً وثقة وخبيراً بالنفوس وبمعالجاتها وعلماً بأحكام الدين وأحاط بكثير من ظروف الحياة، بحيث يقدم الاستشارة بعد طول تفكير أو من خلال ممارسة شخصية حرة، «فطول الفكر - كما يقول لعل الشريف - يحمي العواقب ويمنعك من فساد الأمور»^(٢)

٢ - أما الأمر الثاني أن يكون الناصح مؤمناً، تقياً، ورعاً عن محارم الله عز وجل ويخشاه، ويكليهما لا ينحرف إلا خيراً.

وبالرغم من توفر هذين الصبرين أحياناً، فإن الخطأ في المشورة أمر ممكن ولا ماضي منه، لأن الناصح على كل حال بشر يولد مثل كل البشر بطبيعة بافظة، إنه يحاول فيخطئ، غير أن المشرع التربوي الإسلامي يأمر دائماً بأن يشكر الناس بمصهم في أي جهد عبادي، ولتجنب الاتهامات بينهم أيضاً.

والنصيحة المخلصة تشجى عمة المستصح يحب معالجه له، وترعه في الإقبال على المعالجة للنفس بروحية أفضل، وتوثق العلاقة منه وبين

(١) نهج البلاغة ج ٤، ص ٤٢

(٢) السيرة النبوية ص ١٥

مرضا، ويحلم من خلال تجربة التشاور تبادل الحب منه وبين الآخرين - لا سيما معالجه - فتتآزر جهودهما معاً في مقاومة السلوك المريض غير المرغوب منه، ويعزز ذلك تفاؤل بغمر قلبيهما بأن الله عز وجل سيفقههم - لا محالة - في إنجاز الهدف المحدد، وستجح كلاهما في تعديل السلوك وفق طريقة الأمداد الإسلامية

د - حب للمعالج لمرضا:

إن المريض أو المستصح بحاجة كبيرة لحب هادئ وصادق، وحنان متدفق يخلعه المعالج على نفسه مريضه، مما دامت مسؤولية العلاج التي يقوم بها العربي المسلم تمتد حرمات من الوظيفة العبادية، فإذ إنجاز هذه البرطفة يكون تاماً حيث يؤثر المعالج لمرضا حياً، وعطفاً عليهم، فالحب - كقيمة عاطفية وأخلاقية وإنسانية - له عظيم الأثر في سيكولوجية المستصحين والمرضى.

وهذا الحب قاعدة وجدانية كبرى يتحرك من خلالها المعالج ليتعرف على لأجواء الداخلية في شخصية المريض وهو الطريق الصحيح لتأسيس لعلاقات الطيبة الوطيدة بينهما لا حير في قوم ليسوا بأصحاء، ولا يحبون الأصحاء^(١)، فالحب عاطفة استودعها الله عز وجل في طبائعنا وتكويننا الداخلي

ومن لطيفي أن يدرك المعالج المسلم فاعلية الحب في علاج العوس، غير أن المعالج النفسي الغربي يركز على أنواع أخرى من الحب كحب الناس، والحب الجنسي، أما المعالج المسلم فيصوغ هذه الأبعاد

كلها في إطار الحب الكبير وهو حب الله، وحب الدين، وحب المثل العليا وحب الآخرين، وحب الأشياء في منظر الشريعة الإسلامي موصولة بالحب الكبير

إن المعالج يستخدم مفهوم الحب في معالجة عدوانية المريض أحياناً، ويعود، بحيث يطلب من المريض التناهي بنزعاته العدوانية كما يفعل في حالة انفعاله، ويتجاوؤها إلى رغبة حب الآخرين، والصفح عنهم، والتعاطي تماماً عن رعبه في الانتقام منهم، فالمعالج المسلم يربي مرضاه على مبادلة هدوئيه بالحب، ويعلمه أن «أقبح المجرم قلة الصفح»^(١) في شخصية المسلم وأخلاقاته، وأن على المسلم أن يخلق حبه على الآخرين، باعتبار أن حبه لهم يمثل طريقاً للبحث عن الحب الإلهي.

هـ - التوفيق بالموضى وحسن معاشرتهم:

الرفق والمواودة، والمعاشرة بالحسنى أبرز مظاهر الحب النبوي الذي يجب أن يكتنه المعالج المسلم لمرضاه، وهي تعبير عن تقدير شخصي من المعالج نحو من كلفه الله سبحانه وتعالى بمصروفهم ومساعدتهم، وتقديم المشورة لهم، ولقد أكدت النصوص الثربوية الإسلامية بكثرة عسى أن قلب الإنسان المسلم عطوف، تمت الخلق وتمتع بحسن المعاشرة، ويدري مشاهير الناس بالحسنى، ويصاحب صديقه وأخاه بالحسنى ما وجد إلى ذلك سبيلاً.

ومما لا شك فيه أن توفر هذه السمات الإنسانية والإسلامية يوطد العلاقة بين المريض والمعالج، فكلاهما يحرم شخصيه الآخر، ويشعران بأنهما فريق واحد يتحرك في اتجاه واحد، مقصد تحقيق هدف مشترك

و للمعاملة الحسنة التي تست المودة بين المعاليج ومريضه فاعلية كبيرة في استعاده الأخير لتوازمه النفسي، إذ يقلب المريض إحساسه بالمعور من كل شيء إلى شعور بالألفة، والانتماء، والإقبال على الحياة، لأن ندى المعامدة الماصلة تمص بالتدريج المشاعر المظلمة وتساعد على إزالة الحساسية، لانتمالية حتى تطمئن نفسية المريض فعلياً إلى صدق واحترام المعاليج لشخصيته.

والمعاليج كشخصية مؤمنة تألف الآخرين من خلال سلوكها الإسلامي السقي، فهي ترعب فعلاً في حلق حياء عليهم، وتقدم دائماً الخدمات التي تثبت رغبتها في الصبحة لهم، كما أن الشخصية المؤمنة تؤلف من قبل الغير بواسطة صحتها المستمر، وتنازلها أحياناً عن بعض حقوقها من أجل أن تسع حياء الآخرين

قال الله تعالى مشيراً إلى المعاملة بالحسنى في تعبير المواقف العسية
عند الناس:

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْقَوِيلِ الْحَسَنِ رَحِيلُهُم بِالَّذِي هِيَ أَحْسَنُ﴾^(١).

وقوله تعالى ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْقَوِيلِ الْحَسَنِ﴾^(٢)

وصت آية نالفة على هذا الأسلوب: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْقَوِيلِ الْحَسَنِ فَإِذَا أَلَيْكَ يَتَكَ رَبُّكَ حَذَرًا فَكُنْ حَيًّا﴾^(٣).

ومطلق هذه الآيات القرآنية الكريمة مثال جيد على دعوة واستخدام

(١) سورة النحل، ١٢٥

(٢) سورة المزمل، ٩٦.

(٣) سورة صافات، ٢٤

لمشروع والمعالج لطريقة الأصدقاء، وفعاليتها التربوية والعلاجية في الواقع الإنساني، وكان لها فعل السحر في النفوس خاصة في أثناء قيام النبي ﷺ بعممة الدعوة، إذ آمن بهذه الطريقة الحواريّة الهادئة عدد كبير من الناس، بل كانت عمالة مع أصحاب القلوب الغليظة التي احتاجت لفترة أطول للاستجابة، لكن بعضها أذعن للدعوة الجديدة في نهاية الأمر، واحتاج البعض إلى منطق القوة وهم قلة كما يشهد تاريخ الدعوة الإسلامية وقد حسنت حركة فتح مكة هذا النوع من التعامل مع صناديد قريش وأتباعهم المماتدين.

وقوله ﷺ: «خياركم أحسكم أخلاقاً، فالدين بالعرفان يؤلفون»^(١). وقرب الإمام الهادي ﷺ: «من جمع لك وده ورأيه، فاجمع له طاعتك»^(٢).

وقوله ﷺ: «مدادنا الناس نصف الإيمان، والرفق بهم نصف الميأس»^(٣).

وفي رواية أخرى: «التودد إلى الناس نصف العقل»^(٤).

السمات والصفات العقلية:

١ - الذكاء والعروة.

لا مقصد من ذكاء المعالج المسلم، قدرته العقلية الفطرية التي يتمتع بها منذ الولادة، فهذه صفة يزود الله عز وجل بها جميع الناس وإن شئت حكمته انتعاشت في مستوياتها بين الأفراد، ولا نقصد من ذكائه كذلك

(١) تكملة المفرد، ص ٢٨.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٥٨.

(٣) المصدر السابق، ص ٢٥.

(٤) التسمية الرسالية، ص ٢٠، وصف المفرد، ص ٣٥، ٤٥.

المسوى العالى من تلك القدرة، فهذا أيضاً يرجع لقوانين الوراثة لتي شاء الله أن تكون طريقاً لنقل الوراثة من الآباء إلى الأبناء، ولو كان الأمر على هذا النحو لكان عدد معالجي النفس أقل بكثير مما هو عليه عددهم الآن

وإنما نقصد من ذكاء المعالج المسلم مهارته في توظيف تلك القدرة العقلية المتوفرة لديه، ومرونة هذا التوظيف في القيام بمسؤولية العلاج النفسي لمرضاه أو لمستصحيه، فدرور هذه القدرة يتمثل في فهم أمراض النفس وتشخيص اضطرابات سلوكها، وتعيين أساليب مداوانها، ومعرفة العناصر الأساسية المكونة للعلاقة بينه وبين مرضاه، ومتابعة العلاج حتى آخر مراحله، وتحديد سبل التعلم الذاتي للمريض حتى لا يقطع العلاج، وفي صوره ذلك فإن المعالج المسلم لا يشترط أن يكون مستوى ذكائه عابياً، وإنما المهم أن يستثمر هذه القدرة في القيام بالمسؤولية الكاملة للعلاج على النحو الذي أوردناه في تضاعيف هذه الدراسة.

ب - التخصص في الطب النفسي الإسلامي:

قد يبدو غريباً أن يطالب المعالج النفسي المسلم بالتخصص في مجال تخصصي مهم كالطب النفسي الإسلامي، لأن الإسلام في نظر البعض مجرد تعاليم أخلاقية وتوجيهات اجتماعية لا صلة له بالعلم، وليس مشروعاً حصارياً متكاملًا للحياة ولأنه ليس هناك جامعة إسلامية أو غير إسلامية تهتم بتدريس هذه المادة أكاديمياً، بل ليس هناك هيئة علمية عالمية أو إسلامية تنسب الانتماء الإسلامي في ميدان العلاج النفسي^(١)، وبالرغم من هذه

(١) ظهر اتجاه حديث في أوساط علماء النفس المسلمين المعاصرين لتأسيس عيادات مدنية وعالمية للصحة العية الإسلامية وسها الجمعية العالمية للإسلامة للصحة النفسية التي تصدر عنها مجلة النفس المعينه، وقد تزايد هذا الاتجاه مظهر عدد من الأبحاث الطبية تحاول عبر الفرك بوجهه نظر إسلاميه وتأسيس علم نفس إسلامي وحركة علاج نفسي سترشد بالقيم الدينيه والأخلاقيه التي يؤكد عليها الإسلام، ويدعو إلى الاستفادة من جهود علماء النفس والمعالجين النفسيين المعاصرين

الدعوى فإن مادة الطب النفسي الإسلامي خاصة طامعها للمعربي و لأخلاقي مدعوة في باطن التصوص القرآنية والسوية، وهي ستمد وجودها من هذه المعلم و دلوجيات، بالإضافة إلى التعتيات العلاجية الحديثة.

وبالرغم أيضا من عدم وجود مؤسسة علمية تأخذ على عاتقها تدريس هذه المادة، فإن المعالج النفسي المسلم لا يعوره مصدر لتلقي ثقافته عن أصول الطب النفسي الإسلامي ومبادئه وقيمه، فيمكنه عن طريق التعلم الذاتي أو بملازمة مجموعة من المثقفين والعلماء المسلمين المهتمين بهذا الموضوع، أو بمتابعة سائر التخصصات في المعرفة الإسلامية، كاللغويات، وأستاذة الجامعات، وعلماء التربية والأخلاق، أن يزود نفسه بمعلومات هذا التخصص الفرعي من المعرفة الإسلامية

واعتقد حازماً بأن كتب التربية والأخلاق، والسلوك، والتفسير، والحديث الشريف مصادر هامة لتزويد المعالج النفسي المسلم بالثقافة العلاجية التربوية الإسلامية، فهذه الكتب أسهبت كثيراً، وعلى مدى قرون متتالية، في تشخيص الحالات المرضية تشخيصاً دقيقاً، وحللت بموضوعية أنماط السلوك المعاصي والعوامل المؤثرة فيه، كما وصفت في دقة مختلف أنماط السلوك الإسلامي المضاد لهذه الحالات المرضية.

كما أن أهمية هذه المصادر تكوّن في أنها تستقي مادتها المعرفية من حقائق معتقدهم، المصير بحقائق النفس وبحالاتها الظاهرة والباطنة، وأنها كذلك دوماً بأيدي خيرة السلوك الإسلامي علماء وطبياً، وتمثلت في حياتهم بالأخلاق الربانية العملية، فالعلماء المسلمون لم يكونوا مادة الطب النفسي الإسلامي من خلال معلم نظري محض كما يفعل لكثير من المعاصرين، بل من محاولاتهم المستمرة لتطبيق مبادئ هذه المادة على

أنفسهم أولاً بأول والملاءمة بين أحكام المصهج الروائي ومتطلبات الذات السمائية والعلاجية، فهؤلاء العلماء استمروا مبادئ وأصول هذه المادة من القرآن والسنة، ومن خلال تعلم ذاتي مستمر أو بتأثير عدد من العلماء الذين تعلموا على أيديهم، ويمكن للمعالج المسلم أن ينهج المسلك ذاته، ويضع نفس الطريق.

وتأكيداً على أهمية دراسة المعالج المسلم بالطب النفسي القرآني لا يعني بعده عن التخصص العلمي الحديث الذي توفره الآن مناهج العلاج النفسي المعاصرة، وهذه المناهج وإن كانت ذات تصور معابر للإسلام أحياناً، إلا أنها تلتقي مع الإسلام في بعض الأسس، وتضيف لثقافة المعالج المسلم علماً جديداً، وخبرات جديدة بالاهتمام خاصة في مجال استخدام الأجهزة العلمية وأساليب وتقنيات علاجية جديدة تحقق الغايات، إذ لا يغفل أن يلهمي المعالج المسلم كل تطور جديد في هذا المجال، فالمعرفة تراكمية تضيف خبرة لاحقة على خبرة سابقة.

ويقتضي هذا التخصص توفر عنصر الكفاءة العلمية، وكذلك الدراسة الواسعة الواعية بالأحكام الشرعية في مسائل تخص العلاج النفسي كما هو حال الطبيب المعصومي، ولا ينبغي له أن يعرف نفسه من هذه الأحكام كي لا يكرر أخطاء المعالج العربي، والمعالج المسلم المقلد لأساليب العلاج النفسي العربي بكل حذيقه، فتكون معالجاته مختلفة في توجهاتها العلاجية عن المنهج العربي حتى في العاصر التي يلتقي فيها مع المحلل العربي، فمن عمل بعير علم بعد أكثر مما يصلح.

ج - سمو ميوله واتجاهاته العقلية:

ما دام المعالج النفسي المسلم يتصل دائماً بمعرضه فإنه في حاجة إلى

أ. تنويع هي شخصيته سمات ومهارات عقلية مهمة كالموضوعية، والبعد عن أشكال التعصب، والقدرة على الاستدلال، ودقة الوصف والملاحظة في تشخيص الأمراض النفسية، وتعيين طرق المعالجة وأساليب متابعتها.

هذه القدرات ليست لتكوين علاقة بين المصالح والمريض فحسب، وإنما لبدء جسر الثقة بينهما وضمان نجاح جهدهما العلاجي القائم على فهم واقعي لعيوب الذات، فالموضوعية مثلاً تنزهه عن الأهواء، وتبعده عن السوازع الذاتية، فتجعله يبحث عن مختلف الطرق والأساليب العلاجية لتفسيح أسباط السلوك دون ميل إلى ترعة شخصية، وسهول يسه وبين التعاطف مع السلوك العصابي إلى حد بعيد يفقد في المصالح القدرة على استدلال السلوك الحاطي أو يفقد القدرة على الاستعلاء على السلوك المرضي.

والمعالج النفسي غير المتعصب يستطيع التعامل مع كل إنسان بسهولة وتلقائية نابعة من عواطفه الإنسانية والإسلامية، ويستطيع في الوقت ذاته أن يعبر عن الأساليب والأدكار التي تثبت التجارب أنها غير مناسبة لحالة ما، أو أنها تناسب حالة أخرى، فقد يستعمل فكرة أو طريقة لتغيير سلوك خاطئ عند المريض، لكنه يكتشف بعد ذلك أن هناك طرائق أخرى أجدى وأنفع، وأكثر مناسبة للحالة المرضية التي بين يديه، لهذا لا يتمتع برأيه رغبة تحقيق غرض غير نزيه.

أما دقة الملاحظة فتدور شديده الأهمية بالنسبة للمصالح النفسي المسلم في صدق التشخيص وتحديد نوع المرض وانتقاء أساليب علاجه، وسمع في مسامحة مراحل المعالجة، كما أن للقدرة على الاستدلال قيمتها العلمية في معرفته النتائج المتمخضة عن العلاج في مختلف مراحله، ومسير تطوره،

وهكذا فإن سمو قدراته العقلية تمكنه من السير بالمعالجة سيراً طبيعياً، يحقق للمعالج والمريض هدفهما المشترك المرجو، من هنا أكد الإمام الحسين عليه السلام في مص تروى له قيمة الالتزام بمواعيد المسح العلمي وصوابه في التشخيص والتحليل والتفسير وعلم فون النظر

ول الإمام الحسين بن علي عليه السلام

من دلائل العالم انتقاده لحديثه، وعلمه بحقائق فون النظر^(١).

د - الإصغاء الجيد للمريض:

يحتاج للمعالج النفسي المسلم كذلك لميزة المحاوراة الجيدة الهادئة مع مريضه، فلا يرفع صوته غاصباً عليهم، ولا يقاطعهم في أحاديثهم المسترسلة إلا مضطراً، وتوجيه الحديث في الاتجاه الذي ينفعه، فالمعالج يتكلم بمقدار ما يحتاجه، ولك يصغي جيداً، ويكون صوته خلال المحادثة هادئاً، يشعر المريض خلالها بشيء من الراحة النفسية وسكينة البال.

إن مسألة الإصغاء الجيد عند المعالج ضرورية للتعرف على هموم المريض تلقائياً، تناسب منه الأفكار السالبة المطلوب استحصارها حتى يذون مداومة من نفس المريض، وعقله أحياناً، بسبب عدم تفهيد الحديث إلا بضوابط شرعية يسمح بها المعالج المسلم.

وقد أشارت النصوص الشرعية إلى أهمية (الكلام) في معرفة خفايا النفس واستجلاء بواطنها، وأشارت كذلك إلى دور (الإصغاء) في كشف هذه الخفايا بقوله تعالى:

﴿وَلَنَسْتَبَيِّنَ لَهُ لَنَاقِي الْقَوْلِ﴾^(٢).

(١) تحف المفرد، ص ١٧٨.

﴿لَقَدْ بَدَأَ الْبَحْمَةَ مِنْ قُلُوبِهِمْ وَمَا تُخْفِي سُودُكُمْ أَكْثَرُ﴾^(١).

وهناك آيات كثيرة تكشف عن نفسية المنافقين وما تكنه قلوبهم
«تكلموا تعرفوا فإن المرء محبوب تحت لسانه».

«عند تصحيح الصماخر يبدو عل السرائر».

«ما أصغر أحد نبأً ألا وظهر في فلتات لسانه وصمحات وجهه،

«اللهم اغفر رمات اللحاظ، وسقطات الألفاظ، وهفوات اللسان،
وشبهوات الجنان»

«وإن تسر هلي فاضحات السرائر».

وهناك أيضاً نصوص أخرى في هذا الصدد تؤيد دور الكلام وضبطه
في ضبط العلاقة بين المعالج والمريض، ونجاح عملية العلاج النفسي
قال عليه السلام: «نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن نكلم الناس على قدر
عقولهم»^(٢)

وفي رسالة الحقوق^(٣) للإمام السجاد عليه السلام نجد أكثر من نص مثل:

«وأما حق المجلس فإن ثلث له كتمك (أي جانبك وظلك)، وتطيب له
جانبك وتنصفه في مجاورة اللفظ، ولا تمرق في نزع اللحظ إذا لحظت،
وتنصف في إدهامه إذا لفظت».

(١) سورة آل عمران: ١١٨

(٢) نص العقول: ص ٢٤.

(٣) تم تحليل هذه النص الإسلامي كوثيقة تربوية المأخوذ والمقتطع من رسالة الحقوق المسوية للإمام زين
العابدین - بصورتي موسعة في الفصل الثاني من كتابنا «بناء الشخصية في خطاب الإمام المهدي»، وقد
استنبط من بعض المبادئ الإرشادية القليلة التي تسهم في توجيه الطلاب الإرشادية من وجهة نظر إسلامية
خاصة لايسرور الموعظة والمشورة وإسداء النصائح، ويمكن للقارئ الكريم قراءة الكتاب المذكور،
ص ٦٠ - ٦٩

وعن حقوق المستشير يقول:

«وأما حق المستشير فإن حصرك له وجه رأي جهلت له هي الصيحة،
وأشرت عليه بما نعلم أنك لو كنت مكانه عملت به، وذلك لكنك منك في
رحمة وليس، فإن اللين يؤمن الوحشة، وإن العلط يوحش موضع لأنس،
وإن لن يحصرك له رأي وعرفت له من تنق برأيه وترعى به لنفسك ذلك
عليه وأرشدته إليه، فكنت لم تأله خيراً، ولم تدخره نصحاً، ولا حياءً ولا
قوة إلا بالله»

ثم أخذ يذكر حقوق المشير والمستصح والناصح والمصاحب فقال:

«وأما حق المشير عليك فلا تهمه فيما يوافقك عليه من رأيه إذ أشار
عليك، وإنما هي الآراء وتصرف الناس فيها واختلافهم، فكفى عليه في رأيه
بالخيار إذا اتهمته رأيه، فأما تهمة فلا تجوز إذا كان عندك ممن يستحق
المشورة، ولا تدع شكره على ما بدا لك من إشعاع رأيه وحسن وجه
مشورته، فإذا وافقك حمدت الله وقبلت ذلك من أخيك بالشكر والارصاد
بالمكافأة في مثلها إن فرغ إليك، ولا قوة إلا بالله»

«وأما حق المستصح فإن حقه أن تؤدي إليه النصيحة على الحق الذي
ترى له أنه يحمل ويخرج المخرج الذي يلين على مسامحه، وتكنبه من
الكلام بما يطيقه عقله، فإن لكل عقل طبقة من الكلام يعرفه ويحتميه،
وليكن مذهبك الرحمة، ولا قوة إلا بالله».

«وأما حق الناصح فإن تلين له جانبك ثم تشرب له فلك (أي سعيد
من نصحه)، وتفتح له سمعك حتى تهم عنه نصيحته، ثم تنظر فيها، فإن
كان ومن فيها للصواب حمدت الله على ذلك وقبلت منه وعرفت به
نصيحته، وإن لم يكن وفق لها فيها رحمته، ولم تهتمه، وعلمت أنه لم

يألت بصحاً ألا أنه أخطأ، إلا أن يكون عندك مستحقاً للثمة فلا تماً شيء من أمره على كل حال، ولا قوة إلا بالله»

وأما حق صاحب، فإن تصحبه بالفضل ما وجدت إلى دست إليه سبلاً، ولا علا أقل من الإنصاف، وأن تكرمه كما يكرمك وتحفظه كما يحفظك، ولا يسيئك فيما بينك وبينه إلى مكرمة، فإن سيقك كاداته، ولا تفصر به عما يستحق من المودة، تلزم نفسك نصيحتة وحباطته ومعدناته على طاعة ربه ومعونه على نفسه فيما لا بهم به على محبة ربه، ثم تكون عليه رحمة، ولا تكون عليه عذاباً، ولا قوة إلا بالله^(١).

ففي هذه المصوص عدد من التعليمات المنظمة لقواعد المكالمة، والمحادثة لا يس المعالج والمريض فحسب بل بين كل إنسان وآخر ومها

من واجب الناصح أو المرشد أو المعالج المسلم أن يكلم مريضه أو مستنصحه بمقدار ما يطيقه عقل المستنصح، لأن لكل عقل مستوى معيأ، وهذا ما عاه بأن لكل عقل طبقة، وتكشف هذه العبارة عن تشبيه الإمام لسجاد عليه السلام بوجود فروق فردية بين عقل وآخر، ويسفي للمعالج تقدير ذلك، فلا يكون حوار مع مريض معين بنفس الطريقة لحوارية المتبعة مع مريض آخر

إن الكلام للذي يطيقه العقل يجعل المستنصح يحم من الكلام شيئاً معقولاً، ويجنب كلاماً آخر لا يفهمه

أن يكون كلام المعالج لمستنصحيه معتدلاً في اللفظ، معصداً في المعنى والإيضاح، وأن لا يتقل على مريضه، فلعل المعالج يملك ثروة

كبيرة من المفردات اللغوية، وعلمه أن يتواضع في محادثة مستصحبه باللمط، فلا يظهر أنه أفدر منه لقوياً، مما يؤثر على صفو العلاقة بينهما

وأد لا يفرق الناصح أو المعالج النفسي في نزع اللحظ عن وجه مريضه أو من يطلب منه النصيحة (أي أن تظل عين المعالج تلتحظ وجه المريض أو المسترشد وتتابعه عندما يقوم المعالج بعملية المصح أو الحديث معه، وذلك ليبقى التعامل قوياً وقملاً . بمعنى أن لا يصرف المعالج أو الناصح وجهه عن كثيراً)، ويطلب منه أن يصفي جيداً لكلامه، ولا ينتفت هه وهناك؛ وربما يؤدي ذلك إلى إحساس المريض بعدم الاهتمام، وعدم تقدير شخصيته من قبل المعالج النفسي.

ولهذا انعكاسات سلبية خطيرة على سير المعالجة السلوكية ونتائجها الواقعية، لأن المريض - وهو طرف رئيسي في برنامج المعالجة - أحس بمرارة الإحباط ومتاعبه النفسية، وتهيأت نفسه بالتالي إلى عدم التعاون مع المعالج، مما يتوجب عنه تعطل المعالجة السلوكية بأسرها، أو ببطء سيرها على الأقل

مراجع البحث ومصادره

أولاً: المصادر العلمية:

١ - إبراهيم، د عبد الستار / العلاج النفسي الحديث قوة للإنسان، الكويت، سلسلة عالم المعرفة الكويتية، رقم العدد (٢٧) شهر مارس ١٩٨٠م.

٢ - إبراهيم، د عبد الستار وآخرون / العلاج السلوكي للأطفال. أساليبه ونماذج من حالاته، دولة الكويت، سلسلة عالم المعرفة الكويتية، رقم العدد (١٨٠)، شهر ديسمبر ١٩٩٣م.

٣ - عزت راجح، د أحمد / أصول علم النفس، دار المعارف، الطبعة الحادية عشرة، القاهرة، سنة الطبع ١٩٧٧م.

٤ - فروم، أريك / الإنسان بين الجوهر والمظهر، الكويت، سلسلة عالم المعرفة الكويتية، رقم العدد (١٤٠) الكويت، ذو الحجة سنة ١٤٠٩هـ - أغسطس ١٩٨٩م.

٥ - فروم، أريك / الدين والتحليل النفسي، ترجمة فؤاد كامل، القاهرة، مكتة عريب، سنة الطبع ١٩٧٧م.

- ٦ - كارلس، د ألكسيس / الإنسان ذلك المجهول، تعريف شعبي، أسعد فريد، مؤسسه المعارف، بيروت
- ٧ - كارليل، ألكسيس / الدعاء
- ٨ - الشرفاوي، د. أنور / التعلم . نظريات وتطبيقات، مكتبة الاسجلو انصربية، القاهرة، الطبعة الرابعة، سنة الطبع ١٩٩١م.
- ٩ - آبريث / علم النفس بين الحقيقة والوهم، ترجمة د. رؤوف نظمي، والأستاذ قنري حنفي، القاهرة
- ١٠ - أغروس، روبرت وجورج ستانيسبر / العلم في منظوره الجديد، الكويت، سلسلة عالم المعرفة الكويتية، العدد (١٣٤)، شهر فبراير ١٩٨٩م.
- ١١ - بيرت، سيريل / علم النفس الديني، ترجمة سمير عبده، منشورات دار الأمان الجديدة، بيروت، الطبعة الأولى، سنة الطبع ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.
- ١٢ - سيجموند فرويد / مستقبل وهم، ترجمة جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الأولى، سنة الطبع ١٩٧٤م
- ١٣ - سيجموند، فرويد / فلق هي العضارة، ترجمة جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الأولى، سنة الطبع ١٩٧٧م
- ١٤ - سيجموند فرويد / موسى والتوحيد، ترجمة جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الأولى، سنة الطبع ١٩٨٦م
- ١٥ - جيري، د سيد محمد واحرون / علم النفس التربوي، مطبوعات جامعة الرياض، الرياض، الطبعة الأولى، سنة الطبع ١٩٧٥م - ١٣٩٤هـ

١٦ - عبد القادر، د حامد / العلاج النفسي قديماً وحديثاً، منشورات دار حياء المكتب العربي، القاهرة، للطبعة الأولى، سنة الطبع ١٣٦٦هـ - ١٩٤٧م.

١٧ - روبرت هاربر / التحليل النفسي والعلاج النفسي، ترجمة د سعد حلال، منشورات الهيئة المصرية العامة للمكتبات، القاهرة، الطبعة الأولى، سنة الطبع ١٩٧٤م.

١٨ - يونغ، كارل غوستاف / التنقيب في أعوار النفس، ترجمة نهاد خباطة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى، سنة الطبع ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م

ثانياً: المصادر الإسلامية:

١ - القرآن الكريم.

٢ - إبراهيم حسن، د. حسن / تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ج ١، دار الجيل، بيروت، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، الطبعة الثالثة عشرة، سنة ١٤١١هـ - ١٩٩١م

٣ - الأمدي التميمي، الشيخ عبد الواحد / غرر الحكم ودرر الكلم، (ج ١ - ٢)، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، الطبعة الأولى، سنة الطبع ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م

٤ - الإمام زين العابدين، علي بن الحسين بن علي من أنبي طالع(ع)/ الصعيقة السجادية، شرح عمر الدين الجزائري، ملوك تحدد دار الطبع، بيروت، الطبعة الأولى سنة ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.

٥ - اس أبي طالب، الإمام علي / نهج البلاغة بأجزائه الأربعة، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، شرح الأستاذ الإمام محمد عابد، بيروت

٦ - الأندلسي، اس حرم / مداواة العوس، تحقيق عادل أبو المعاطي، دار المشرق العربي، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م

٧ - ابن مسكويه، أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب الرازي / تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، الطبعة الثانية، سنة الطبع ١٣٩٨هـ

٨ - بوضون، لبیب / تصنيف نهج البلاغة، منشورات مكتبة دار كرم (دمشق) وتوزيع دار الفلم، بيروت، الطبعة الأولى، سنة الطبع ١٩٧٨م

٩ - الشسخيري، محمد علي / التولون في الإسلام، الدار الإسلامية، بيروت، الطبعة الأولى، سنة الطبع ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م

١٠ - المجلسي، محمد باقر / بحار الأنوار، مجلد (٤٩) المكتبة الإسلامية، طهران، بدون تاريخ.

١١ - الحراشي، الحسن بن شعبة / تحف المصنف عن آل الرسول، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، الطبعة الخامسة ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م.

١٢ - ري شهري، محمدي / ميزان الحكمة، بمختلف أجزائه العشرة، بيروت، الدار الإسلامية، ومؤسسة الإعلام الإسلامي، سنة ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م

- ١٣ - السافعي، محمد بن إدريس / ديوان الشافعي.
- ١٤ - الشرقاوي، د حسن / نحو علم نفس إسلامي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية، الطبعة الأولى، سنة ١٩٧٦ هـ - ١٣٩٦ م.
- ١٥ - «شرقاوي، د حسن / الطب النفسي النبوي، دار المطبوعات الجديدة، الإسكندرية، الطبعة الأولى، سنة الطبع ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٢ م.
- ١٦ - الشيرازي، السيد حسن / كلمة الإمام الحسن، دار الصادق، بيروت، الطبعة الثالثة، سنة ١٣٨٨ هـ - ١٩٨٨ م.
- ١٧ - الشيرازي، السيد حسن / كلمة الإمام المهدي، مؤسسة الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الثانية، سنة الطبع ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م.
- ١٨ - الفيض الكاشاني، محمد بن مرتضى شاه الشهير بملا محسن لكاشاني / منهاج السجاة، تحقيق غالب حسن، مطبعة الحوادث، بغداد، سنة الطبع ١٩٧٩ م.
- ١٩ - النراقلي، الشيخ محمد مهدي / جامع السماعات، ج ١ - ٢، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، تحقيق د. مجيد كلانتر، الطبعة الخامسة، سنة ١٣٩٨ هـ.
- ٢٠ - معية، الشيخ محمد جواد / فلسفة الأخلاق في الإسلام، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثانية، سنة الطبع ١٩٧٩ م.
- ٢١ - لعثمان، عبد الكريم / الدراسات النفسية عند المسلمين والعراقي بوجه خاص، الناشر مكتبه وهبة، القاهرة، الطبعة الأولى، سنة الطبع ١٣٨٢ هـ - ١٩٦٣ م.

- ٢٢ - العراقي، أنور حامد / إحياء علوم الدين (ج ٣)، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، طبعة ١٣٧٧هـ - ١٩٥٧م
- ٢٣ - العراقي، الشيخ محمد / دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين
- ٢٤ - مسمي، الشيخ محمد تقي، الطفل بين الوراثة والتربية (ج ١ - ٢) دار التربية، بغداد، ومطبعة الآداب بالنجف الأشرف، الطبعة الثانية، سنة الطبع ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م.
- ٢٥ - محمود، د مصطفى، من أسرار القرآن، من منشورات مؤسسة أخبار اليوم القاهرة، العدد (١١٥) سبتمبر ١٩٧٦م.
- ٢٦ - الفحصية الرسالية.
- ٢٧ - كتاب الحياة، ج ٢.
- ٢٨ - محجوب، عباس / مشكلات الشباب والحلول المطروحة والحل الإسلامي، (كتاب مجلة الأمانة القطرية - رقم العدد ١٠)، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م
- ٢٩ - بحر العاملي / وسائل الشريعة، ج ٣
- ٣٠ - مدن، يوسف / بناء الشخصية في خطاب الإمام المهدي، دار ليهدي، بيروت، الطبعة الأولى، سنة الطبع ٢٠٠٠م
- ٣١ - مدن، يوسف / التربية الجنسية للأطفال والمراهقين، دار الثقافة، لبحر، ودور المحجة البيضاء، بيروت، الطبعة الأولى، سنة ١٩٩٥م
- ٣٢ - مدن، يوسف / التعلم والتعليم في النظرية التربوية الإسلامية، (محفوظ) ومحفوظ في الكمبيوتر (الحاسب الآلي).

- ٣٣ - مدن، يوسف / ميكولوجية الانتظار، دار الهادي، بيروت، الطبعة الأولى، سنة الطبع ٢٠٠٢م.
- ٣٤ - منم الحمراني، الشيخ كمال الدين ميشم بن علي / شرح المعاني كمة لأمر المؤمنين علي بن أبي طالب، تحقيق وتصحيح ومشر مير جلال الدين الحسبي الأرموي المحدث، إيران، سنة الطبع ١٣٩٠هـ.
- ٣٥ - لبستاني، د. محمود / دراسات في علم النفس الإسلامي، ج ١ - ٢، دار البلاء للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى، سنة الطبع ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
- ٣٦ - نجاتي، د محمد عثمان / القرآن وعلم النفس، دار الشروق، بيروت، الطبعة الأولى، سنة الطبع ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.
- ٣٧ - الموسوي اللاري، السيد مجتبي / رسالة الأخلاق، إعداد لجنة التعريب والتحقيق في المدار الإسلامية، المدار الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى، سنة ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م.
- ٣٨ - الموسوي اللاري، السيد مجتبي / دلونة في المشاكل النفسية والأخلاقية، تعريب محمد هادي اليوسفي العمري، مطابع مكتب نشر الثقافة الإسلامية، قم، الجمهورية الإسلامية الإيرانية، الطبعة الثالثة، سنة الطبع ١٤٠٥هـ.
- ٣٩ - الهاشمي، السيد كامل / المعصية وأثارها في الحياة الإنسانية، المدار عامية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى، الطبعة لأولى، سنة الطبع ١٤٠٧هـ - ١٩٧٨م.
- ٤٠ - المقدسي، ابن دلانة / مختصر مهاج القاصدين، مكة دار السن، توزيع مؤسسة علوم القرآن للطباعة والنشر، دمشق، بيروت، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.

- ٤١ - الكلسي، محمد بن يعقوب / أصول الكافي، ج ٢.
- ٤٢ - مستدرك الوسائل
- ٤٣ - قطب، سيد / معالم الطريق، دار الشروق.
- ٤٤ - الرري، أبو بكر محمد بن زكريا / رسالة في الطب الروحاني، ضمن رسائل فلسفية، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الرابعة، سنة ١٤٤٠هـ - ١٩٨٠م.
- ٤٥ - العيسوي، د. عبد الرحمن / الإسلام والعلاج النفسي، دار الفكر لجاسمي، الإسكندرية، الطبعة الأولى، سنة الطبع ١٩٨٦م.
- ٤٦ - القرعني، الشيخ محسن / الذنوب أسبابه وعلاجه، مؤسسة النشر الإسلامي، قم المشرفة، إيران، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ.
- ٤٧ - المهدي، د محمد عبد المشاح / العلاج النفسي في ضوء الإسلام، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، المصنوعة، الطبعة الأولى، سنة الطبع ١٤١١هـ - ١٩٩٠م.

ثالثاً: المجلات العربية:

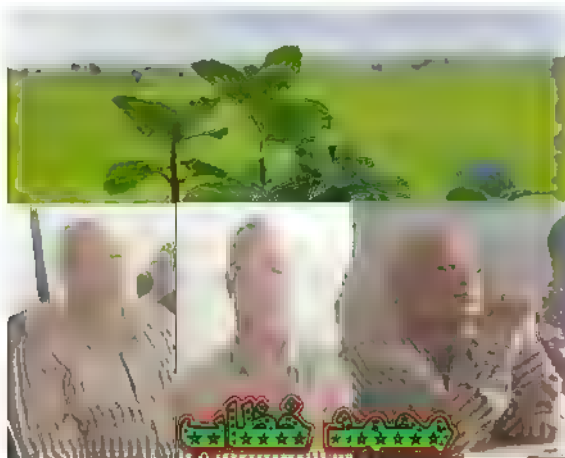
- ١ - مجلة (الثقافة النفسية) السنانية، تصدر عن مركز الدراسات النفسية، دار النهضة العربية، بيروت، المجلد السادس عشر، المجلد الرابع، تشرين الأول، سنة ١٩٩٣.
- ٢ - مجلة (الثقافة العربية) اليلية، العدد العاشر، السنة الثالثة (١٩٧٦م - ١٣٩٦هـ).

٣ - مجلة (المسلم المعاصر)، تصدر عن مؤسسة المسلم المعاصر، المحدثات (٢٤ - ٢٩)، الكويت، والقاهرة.

٤ - مجلة (الرعي الإسلامي) الكويتية، العدد (٣٦٩) أكتوبر، سنة ١٩٩٦م

٥ - مجلة (النفس المطمئنة) تصدر عن الجمعية العالمية الإسلامية للصحة النفسية، مصر، العدد (١٩)، السنة الخامسة، سنة ١٩٨٩م، وأعداد أخرى.

٦ - مجلة (رسالة القرآن الكريم)، العدد السابع، تصدر عن دار القرآن الكريم، قم المقدسة، الجمهورية الإسلامية الإيرانية



صدر للمؤلف

- التربية الجنسية للأطفال والبالغين (صدر حتى الآن في طبعين ١٩٩٥، ٢٠٠٤م)
- بناء الشخصية في خطاب الإمام المهدي (طبعة ٢٠٠٠م).
- سيكولوجية الانتظار (طبعة ٢٠٠٢م).
- نشر مجموعة من الدراسات التربوية الأكاديمية المعاصرة، وفي أدبيات التربية الإسلامية جمعها في كتاب أسماء (دراسات تربوية).
- لديه بعض الأبحاث والكتب الجاهزة للطبع مثل كتاب (الشعوم والتعليم في النظرية التربوية الإسلامية)

الفهرس

| | |
|----|---|
| ٥ | الإهداء |
| ٧ | مقدمة الكتاب |
| ٣١ | مفاتيح السيطرة على الذات |
| ٢٣ | الفصل الأول: مدخل الفهم منهج المعالجة النفسية بالأضداد |
| ٢٨ | الجانب الوقائي والجانب العلاجي |
| ٣٣ | الحاجة إلى نظرية إسلامية في العلوم الإنسانية |
| ٥٥ | نظرة علاجية واقعية |
| ٦٥ | القيم الإسلامية وعملية العلاج النفسي |
| ٧٥ | الخصل الثاني: منهج المعالجة النفسية بالأضداد (مفهومه أهدافه، فلسفه) |
| ٧٨ | أولاً مفهوم المعالجة النفسية بالأضداد |
| ٨١ | ثانياً أهداف نظام المعالجة بالأضداد |
| ٨٥ | ثالثاً الأسس المرجعية لنظام المعالجة النفسية بالأضداد |
| ٨٦ | ١ - الإيمان الروحي بالله |
| ٨٦ | ٢ - قيمة الإنسان وتقديره كمستخلف في الأرض |

- ٣ دور الخبرة الإسلامية ٨٦
- ٤ - مهم ومقدّر واتحي لإمكانات الغالب الإنسانية ٨٧
- رابعاً خصائص العلاج النفسي بالأصداد ٨٧
- جامعياً الأساليب العلاجية للمساندة لطريقة الأصداد ٩٢
- أ - السواء وفعاليتها في مساندة أهداف العلاج النفسي ٩٦
- ب - الموارد وتعديل السلوك ١٠٢
- ج - العبادة وتكوين استجابة سلوكية مضادة (سوية) ١٠٤
- سادساً منهج الأصداد في تراث المفكرين المسلمين ١١١
- سابعاً المعالجة بالأصداد بين اللذة والصحة في المفهوم العبادي ١١٥
- || مناً السمات المتقابلة بين الحديثة والوسطية ١١٨
- أولاً السمات المتقابلة الحديثة ١١٩
- ثانياً السمات المتقابلة الوسطية ١٢٢
- الفصل الثالث: مسوغات استخدام منهج المعالجة النفسية بالأصداد ١٢٥
- أولاً قابلية النفس البشرية للتغيير العبادي الإيجابي ١٢٨
- ثانياً دعوة المشرع الإسلامي للعمل بمنهج الأصداد ١٣٣
- ثالثاً انحرافات الكبار الفكرية والسلوكية وأثرها على الصغار ١٣٥
- ١ - تأثير الانحرافات الأخلاقية للمربين على الطفل ١٣٨
- ٢ - سهولة قبول الأطفال للتغيير العبادي الجديد (للأخلاق المضادة) ١٤٢
- ٣ - أهمية تغيير سلوك وتفكير الكبار وأثره على تربية الصغار ١٤٣
- ٤ - مسؤولية الوالدين ١٤٦
- رابعاً حجة للمؤمن لمنهج المعالجة بالأصداد ١٤٨

١٦٦ - خامساً: قدرة للعلاج النفسي بالأضداد على بناء شخصية متزنة متكاملة . . .

١٧٥ - سادساً: تجدد المعالجة النفسية بطريقة الأضداد في الفكر المعاصر . . .

١٨٤ - ١ - التشخيص

١٨٥ - ٢ - التخصيص

١٨٥ - ٢ - التنظيم التدريجي

١٨٩ - الفصل الرابع: انماط المعالجة النفسية بالأضداد وأنواعها

١٩١ - انماط المعالجة بالأضداد

١٩١ - أولاً: من حيث طريقة المعالجة

١٩٤ - أ - المعالجة الكلية

١٩٩ - ب - المعالجة الخاصة أو المجهزية

٢٠٣ - ثانياً: من حيث مستوى المعالجة

٢٠٤ - أ - المستوى النظري للمعالجة

٢٠٦ - ب - المستوى العملي للمعالجة

٢٠٩ - ثالثاً: من حيث طبيعة المعالجة

٢٠٩ - أ - المعالجة الحاطة

٢٢٠ - ب - المعالجة للسلبية

٢٢٢ - رابعاً: خطوات العلاج بالأضداد

٢٢٦ - أ - خطوة الإحساس بالعمية العلاج

٢٢٢ - ب - تشخيص المرض وتحديد الدواء

٢٢٥ - ج - تنفيذ برنامج المعالجة

٢٢٧ - د - المتابعة العلاجية

٢٣٣ الفصل الخامس: شروط العلاج النفسي بالامتثال

٢٣٥ أولاً: النية والقصد

٢٣٨ ثانياً: اختيار المذهب العلاجي الإسلامي

٢٤١ ثالثاً: الاستمرارية

٢٤٥ رابعاً: الصبر والاحتفال

٢٤٧ خامساً: المعالجة بالامتثال ليست تغييراً في الطباع الفطرية

٢٥٠ سادساً: الاعتدال في قوى الذات

٢٥٤ سابغاً: ابتداء قبل الهدم

٢٥٨ ثامناً: ضرورة معرفة الامتنان

٢٦٣ تاسعاً: تناسب الامتنان وتجانسها

٢٦٦ عاشرًا: التخلي والتحملي

٢٧١ الفصل السادس: معوقات العلاج النفسي بطريقة الامتنان

٢٧١ أولاً: معوقات النفس والمعوقات الدلالية

٢٧٥ ١ - انقناع قوى النفس

٢٧٧ ٢ - العجب والمجهول

٢٧٨ ٣ - الرواسب النفسية

٢٩٣ ٤ - مقابلة الناصح بمقاتله

٢٩٦ ٥ - الإسراف في اوم الذات

٢٩٩ ٦ - استصغار ذنوب الذات

٣٠٢ ثانياً: صفوط المجتمع

٣٠٢ ١ - ضغط الآباء والأجداد

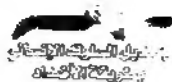
- ٢٠٥ - معالجة الصالحين
- ٢٠٨ ٣ - تصرف في خطة المعالجة
- ٢١٣ الفصل السابع: منهج الأضداد وحل مشكلة الصراع النفسي
- ٢١٥ الأضداد والصراع النفسي
- ٢٢١ الإحباط والصراع النفسي
- ٢٢٤ ولكن ماذا نسمي بالصراع النفسي؟
- ٢٢٥ كيف تواجه منهج الأضداد مشكلة الصراع النفسي؟
- ٢٢٧ أولاً: العفة والتهتك
- ٢٤١ ثانياً: الصبر والجرح
- ٢٤٢ ثالثاً: الإخلاص والشوب
- ٢٤٧ رابعاً: الرضا والسخط
- ٢٥٠ خامساً: التوكل والعرض
- ٢٥٤ سادساً: الفرع والروضة
- ٢٥٨ سابعاً: الصفح والانتقام
- ٢٦١ ثامناً: الجهاد وضده النكول
- ٢٦٥ تاسعاً: المساء والبخل
- ٢٦٨ عاشراً: الدعاء والاستتكاف
- ٢٧٢ الفصل الثامن: منهج الأضداد وتكوين العادات الحسنة
- ٢٧٨ مفهوم العادة
- ٢٨١ مصادر العادة ومراحل نشأتها
- ٢٨٦ أولاً: مصادرها

- ٢٨١ - الفقرة ٢٨١
- ٢٨٢ - التدريب والعمران ٢٨٢
- ٢٨٥ ثانياً: فاشلتها ٢٨٥
- ٢٨٥ ١ - الدور الأول ٢٨٥
- ٢٨٧ ٢ - الدور الثاني ٢٨٧
- ٢٨٩ أهمية العادة ٢٨٩
- ٣٨٩ ١ - دور العادة السليمة في بناء الشخصية ٣٨٩
- ٣٨٩ ٢ - سهولة العمل المعتاد وسرعة وبقته ٣٨٩
- ٣٩٠ ٣ - العادة وتوفير الوقت والجهد ٣٩٠
- ٣٩١ تحكم العادة في النفس ٣٩١
- ٣٩٧ العادة في إطار منهج الأصدقاء ٣٩٧
- ٣٩٧ أولاً: تغيير العادة السيئة ٣٩٧
- ٤٠٠ عناصر هدم العادة السيئة ٤٠٠
- ٤٠٠ أ - تغيير القلب من العادة المزمومة ٤٠٠
- ٤٠١ ب - تحديد العادة السيئة ٤٠١
- ٤٠٢ ج - إيقاف تكرار السلوك الخاطئ ٤٠٢
- ٤٠٣ د - شغلية النفس ٤٠٣
- ٤٠٤ هـ - إيقاف التعديم ٤٠٤
- ٤٠٧ ثانياً: بناء العادة الحسنة ٤٠٧
- ٤٠٩ عناصر بناء العادة الإسلامية ٤٠٩
- ٤١٠ ١ - للنوعي والاختيار والمجاهدة ٤١٠

- ٤١٢ - تحليل النفس بالحسنات
- ٤١٤ - تكرار السلوك الإسلامي
- ٤١٦ - تدعيم السلوك
- ٤٢١ الفصل التاسع: سمات المعالج النفسي المسلم
- ٤٣٥ من هو المعالج؟
- ٤٣٨ انواع العلاج السلوكي
- ٤٣٩ الأول: العلاج النفسي الذاتي
- ٤٤٨ أولاً: موضوع العلم
- ٤٤٩ ثانياً: المنهج أو طريقة العمل
- ٤٤٩ ثالثاً: الهدف
- ٤٥١ ثانياً: ملازمة المعالج النفسي المسلم
- ٤٦٤ سمات المعالج النفسي المسلم
- ٤٦٨ أولاً: السمات الاعتقادية والإيمانية والأخلاقية
- ٤٧٨ ثانياً: السمات الوجدانية والاجتماعية
- ٤٧٨ أ - التفاؤل والثقة بالله
- ٤٨٠ ب - الثبات العاطفي
- ٤٨١ ج - الإخلاص وسدق النصيحة
- ٤٨٢ د - حب المعالج لمرضاه
- ٤٨٣ هـ - الرفق بالمرضى وحسن معاشرتهم
- ٤٨٥ السمات والتقدير العقلية
- ٤٨٥ أ - الذكاء والمرونة

- ١٨٦ ب - التخصص في الطب النفسي الإسلامي
- ١٨٨ ج - صغر ميوله واتجاهاته العقلية
- ٤٩٠ د - الإصغاء الجيد للعروض
- ٤٩٥ مراجع البحث ومصادره
- ٥٠٥ الفهرس





تعريف بهذا الكتاب

حاول مؤلف هذا الكتاب ان يقدم للقارئ الكريم مشروعا مفصلا الى حد ما لبرنامج علّامي يستهدف تعديل السلوك الانساني وتحسينه في ضوء نسق متكامل من القيم العبادية لدى الشّرع التّربوي الاسلامي . ومن قبله شكّل في مجموعتها - كما سيأتي الظّاهر - نموذجاً لبرنامج تربويّ وعلّامي قائم على استبدال عادات السلوك لمير السوي بعادات سلوكية سوية من النّظور العبادي للمشروع الاسلامي . ويسمى المؤلف بطريقته ببرنامجه الطّائفة السيكلوجية بالاشدّد .

ويُعرف الكتاب - بالذّكر - في بدء - بان مشروعه في هذا الكتاب هو مجرد جهد بشري استثمر مجموعة من النسق القيمي العبادي في سبّاعة برنامج لتعديل سلوك الذات ومساعدتها على التخلص من عيوبها بطريقة الاشدّد . وقد تمكّن الباحث من تنظيم هذه المجموعة القيمة ونسبقتها وتحريرها فيما يراه مصادرا صحيحا ، وذلك بفرض مساعدته القاري الكريم . ويقدّر وعده الخاص - على التفاعل الجوي مع هذا النسق القيمي العبادي ، ومع ان فكرة هذا الكتاب متجنّزة في الكتابة المربوطة والاخلاقية عند علماء التربية والاخلاق المسلمين في عصور متقدمة على عسرا الا ان المؤلف وجد المنظومة المرفية والقيمة لهذه الطريقة مبعثرة ومسانرة - هنا وهناك - في مصادر عديدة فحاول تبسيطها للقارئ المسلم المعاصر حاسة الناشئة تطبيقية جوانب من طريقة المصاحبة بالاشدّد ودرستها على نحو مفصل مترابط . وسبّاعة نسقها المعرفي ليكون الكتاب باكملها خدمة اساسية تسهم في حل اشكاليه الانسان في زمن صعب وباعمال الكتاب ان يكون بحثه تأسيسا لرشد من الكتابات التربوية والسيكلوجية المعاصرة عند الباحثين من ابناء هذه الامة المبكوة . وان يساعد دراسته على تكوين الوعي بعبر في وقتي يحمل الذات المسلمة المعاصرة على تجاوز محنتها ويهمل من ازمته في هذا العصر المتسوم بالتشور والازم والاضطهاد الاستكباري الذي يطال المستضعفين في الارض . ويسمى لهم محنتهم الروحية والاخلاقية ويعمق سطوة الامراض السلوكية والنفسية في ذاتهم .

كتاب التأسيس

مطبعة: 1397-1398

مطبعة: 1397-1398
F.M. 02-1397-1398
www.daralashraf.com